



عناصر الموضوع

المجلد الخامس والثلاثون

مفهوم الوحي

أولًا: المعنى اللغوي:

ورد في كتب اللغة أن الواو والحاء والياء: أصل يدل على إلقاء علم من طرف لآخر في خفاء[1]، فالإشارة، والكتابة، والإيماء، والرسالة، والإلهام، والكلام الخفي، وكل ما ألقيته إلى غيرك من علم[2].

ويأتي الوحي بمعنى السريع، ويأتي بمعنى الصوت، وحاة الرعد: هو صوته الممدود الخفي، واستوحيناهم: استصرخناهم. والوحى: السرعة، يمد ويقصر. ويقال: الوحى الوحى: يعني البدار البدار، وتوح يا هذا: أسرع، ووحاه توحيةً: عجله. والوحي على فعيل: السريع[3].

وقد ذكر الشيخ مناع القطان في تعريفه لغة أنه: «الإعلام الخفي السريع الخاص بمن يوجه إليه بحيث يخفى على غيره»[4].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

وذكر السمين الحلبي تعريفًا آخر له: «إلقاء معنى الكلام إلى من يريد إعلامه، والوحي يكون بالرمز والإشارة»[5].

وقال الشيخ مناع القطان: «ووحي الله إلى أنبيائه قد عرَّفوه شرعًا بأنه: كلام الله تعالى المُنَزَّلُ على نبي من أنبيائه. وهو تعريف له بمعنى اسم المفعول أي الموحى.

والوحي بالمعنى المصدري اصطلاحًا: هو إعلام الله تعالى مَن يصطفيه من عباده ما أراد من هداية بطريقة خفية سريعة»[6].

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٦/ ٩٣.
(٢) انظر: الصحاح، الجوهري، ٦/ ٢٥١٩، لسان العرب، ابن منظور، ١٥/ ٣٧٩، الكليات، الكفوي، ص٩١٨.
(٣) انظر: الصحاح، الجوهري، ٦/ ٢٥٢٠، المصباح المنير، الفيومي، ٢/ ٦٥٢، لسان العرب، ابن منظور، ١٥/ ٣٨٢.
(٤) مباحث في علوم القرآن، ص٢٨.
(٥) الدر المصون ٣/ ١٧٣.
(٦) مباحث في علوم القرآن، ص٢٩.

الوحي في الاستعمال القرآني

وردت مادة (وحي) في القرآن الكريم (٧٨) مرة[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٤٤	﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠﴾ [النجم:١٠]
الفعل المضارع	٢٨	﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٤٣﴾ [النحل:٤٣]
المصدر	٦	﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ۝٤٥﴾ [الأنبياء:٤٥]

وجاء الوحي في القرآن على خمسة أوجه[٢]:

الأول: الإرسال: ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء:١٦٣]. يعني: أرسلنا.

الثاني: الإشارة: ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُواْ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۝١١﴾ [مريم:١١]. يعني: أشار إليهم.

الثالث: الإلهام: ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [النحل: ٦٨]. يعني: ألهمها.

الرابع: الأمر: ومنه قوله تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ٥]. يعني: أمرها أي: الأرض.

الخامس: الوسوسة: ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ﴾ [الأنعام: ١٢١]. يعني: يوسوسون لهم.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٧٤٦-٧٤٧.
(٢) انظر: نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص ٦٢١-٦٢٢.

الألفاظ ذات الصلة

١ السنة:

السنة لغةً:

الطريقة، والسيرة المعتادة للإنسان، سواء كانت حسنة أو قبيحة[(١)].

السنة اصطلاحًا:

كل ما أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم من قول، أو فعل، أو تقرير، أو صفة خلقية أو خلقية، أو سيرة[(٢)]، قبل البعثة أو بعدها.

الصلة بين السنة والوحي:

الوحي أعم وأوسع من السنة، فالسنة هي الفرع الثاني للوحي، حيث إن الوحي فرعان: الأول كلام الله المنزل على رسله، والثاني السنة وهو ما لم يكن من كلام الله، بل من كلام النبي صلى الله عليه وسلم، ومعناه من عند الله، ومن السنة ما لا يكون وحيًا، باعتبار ما كان صفة خلقية، أو ما كان قبل البعثة.

٢ الرسالة:

الرسالة لغةً:

العبارات المؤلفة والمعاني المدونة المبعوثة من شخص لآخر بواسطة ناقل[(٣)].

الرسالة اصطلاحًا:

هي ما يبعث الله به من شاء من عباده من أحكام تكليفية وأخبار يلزمهم تصديقها.

الصلة بين الوحي والرسالة:

الوحي هو المصدر الذي تستمد منه الأحكام والأخبار، موجه للنبي أو الرسول، ويكون في الوحي أيضًا ما ليس تشريعًا، بينما الرسالة فهي شريعة موجهة للناس بواسطة الرسول.

---

(١) انظر: المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده، ٨/ ٤١٧، تاج العروس، الزبيدي، ٣٥/ ٢٣٠، لسان العرب، ابن منظور، ١٣/ ٢٢٥.

(٢) انظر: السنة قبل التدوين، محمد عجاج ص١٦.

(٣) انظر: الكليات، الكفوي، ص ٤٧٦.



الموحى به في القرآن

خلق الله عباده عالمًا بما طبعهم عليه من صفات، وما ركبه فيهم من غرائز، وما توعدهم به عدوهم الألد إبليس من الإضلال والإغواء، وتزيين الانحراف عن الحق، وما يترتب على ذلك من تضاؤل شعورهم بالحقائق التي جعل علمها والعمل بمقتضاها واجبًا عليهم، وهي الحقائق التي جعلها سببًا للثواب والعقاب، إنها الحقائق التي ما خلقهم إلا لأجلها، ولعلاج هذا التضاؤل والوقاية مما يترتب عليه من الإعراض عن المقصد الذي خلقوا من أجله وتركه تكفل الله لهم بأن يبعث لهم من يذكرهم بهذه الحقائق، وما يسعى فيه عدوهم من الكيد لهم، وقد كانت وسيلة ذلك هي الوحي الذي أنزله الله على رسله وأنبيائه[1].

وقد نزل القرآن منبهًا على هذه الحقائق، وهي العقائد، والتشريع، وأخبار الأنبياء، والسنن الربانية، وبيانها فيما يلي:

أولًا: العقائد:

لما كانت العقيدة هي المحور الأساس، والمحرك الأقوى للتأثير في السلوك والاتباع، ولما كان المعول في النجاة على استقامتها، والمودي إلى الهلاك فسادها وانحرافها، جعل الله عز وجل لها الحظ الأوفر من القرآن الكريم، وبين أن هذه سنته في الرسالات كلها، يقول الله جل جلاله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَالَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣].

والدين الذي شرعه الله لنا وكان وصيته لنوح ولإبراهيم وموسى وعيسى هو عبادة الله وحده، وفيه قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وعبادة الله مبناها الإيمان بكل ما جاء به الرسل من أخبار وعقائد، وهي دين الإسلام الذي ارتضاه تعالى لعباده، قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩].

ولايصح إسلام العبد إلا أن يؤمن بأصول الدين والإيمان، وهي كما أخبر عنها النبي صلى الله عليه وسلم في إجابته على سؤال جبريل: **(أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره)**[2]، فهذا هو الدين الذي أمر

(١) انظر: تفسير المراغي ٢٥/ ٢٤، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧١٧.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الإيمان والإسلام والإحسان، ١/ ٢٩، رقم ١.

الله رسله وأنبياءه، وأمرنا أن نقيمه، ونهانا عن التفرق فيه[1]، لا يتم لنا إقامة الدين إلا بالإيمان بهذه الأصول على النحو الآتي:

١. أن الله واحد لا شريك له[2].

وذلك في:

- ألوهيته: قال تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣].
- ربوبيته: قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].
- أسمائه وصفاته: قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ① اللَّهُ الصَّمَدُ ② لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ③ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١ - ٤].

وقد جمع هذه الأمور الثلاثة في قوله تعالى: ﴿رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

٢. الإيمان بالملائكة.

وقد أمر الله عز وجل بالإيمان بهم في غير موضع من كتابه.

يقول تعالى: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

والإيمان بهم يستدعي الإيمان بأنهم عباد لله تعالى، وأن لهم وظائفهم التي كلفهم الله بها، كما بين ذلك في مواضع كثيرة من كتابه، وأنهم لا يعصونه في أمر مهما كان، وأنه خلقهم على هيئات تليق بما كلفوا به من وظائف، فالرسل منهم ليسوا كصاحبي القبر، والذين يتوفون المؤمنين ليسوا كمن يتوفون الكافرين، وخزنة الجنة ليسوا كخزنة النار، وغير ذلك مما جاء في بيان أوصافهم في الكتاب والسنة[3].

٣. الإيمان بالكتب المنزلة من عند الله.

وأنها كلامه الذي أوحى به لرسله لهداية عباده وإخراجهم من الظلمات إلى النور.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

٤. الإيمان بالأنبياء والرسل.

يقول الله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ

(١) انظر: الهداية الى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب، ٢/ ٩٧٦.
(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي، ٣/ ١٧.
(٣) انظر: مراح لبيد، محمد بن عمر الجاوي، ٢/ ٢٧٥.

وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

ولايجوز التفريق بينهم فيما جاءوا للدعوة إليه من توحيد الله جل جلاله[١]، وإن كان الله تعالى قد جعل لكل واحد منهم شريعته الخاصة به وبأمته.

يقول تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًاۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [المائدة: ٤٨].

والإيمان بأن الله أرسلهم ليطاعوا فيما جاءوا به.

يقول تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤][٢].

٥. الإيمان بالله واليوم الآخر.

وكثيرًا ما قرن الله بين الإيمان به والإيمان باليوم الآخر في كتابه.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢].

وأن الله جامع الناس في ذلك اليوم؛ لتجزى كل نفس ما كسبت[٣].

يقول تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧].

٦. الإيمان بقضاء الله وقدره.

وذلك بأن يؤمن أن الله تعالى[٤]:

- علم الأشياء قبل حدوثها، قال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].
- وأنه كتب ذلك في اللوح المحفوظ، قال تعالى: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢]
- وأنه أراد إيجاد مخلوقاته من العدم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].
- وأنه هو الخالق البارئ لكل شيء، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢].

(١) انظر: التفسير الوسيط، سيد طنطاوي، ١/ ٦٥٩.
(٢) انظر: تفسير المراغي، ٢٥/ ٢٤.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٦/ ٦.
(٤) انظر: شرح العقيدة الواسطية، سعيد القحطاني، ص ٤٧.

ثانيًا: التشريع:

والتشريع هو البناء الذي أقيم على أصول الإيمان، من العبادات، والمعاملات، والأقضية، والحدود، والسياسات، والأخلاق، والأحوال الشخصية، والحقوق وفق ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله بفهم الصحابة رضي الله عنهم.

والقرآن هو المصدر الأول في التشريع، والسنة هي المصدر الثاني للتشريع، ولم تستقل السنة بتقرير التشريع بمعزل عن القرآن؛ وذلك أن الأمر بطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم هو مما أوحي به إلينا في القرآن.

يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢٠].

كما أن القرآن لم يستقل عن السنة ببيان التشريع.

يقول الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

وقال أيضًا: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٢١].

وحتى لا تشتط الأهواء بالناس؛ جعل الله جل جلاله لفهم ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم من القرآن والسنة من تشرعات منضبطة بفهم الصحابة رضي الله عنهم، ومن سار على نهجهم وأصولهم وقواعدهم المستقرأة في تطبيقاتهم للدين في عهد النبي وبعد وفاته[(١)].

يقول جل جلاله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

والتشريع بذلك ينظم علاقة الإنسان مع غيره من خلال الآتي:

١ . العبادات.

وهي عبارة عن علاقة الإنسان بربه، كالصلاة والزكاة والصوم والحج[(٢)].

عن ابن عمر، رضي الله عنهما قال: قال رسول الله: صلى الله عليه وسلم **(بني الإسلام على خمسٍ: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان)**[(٣)].

وقد جاء القرآن آمرًا بهذه الأركان.

٢ . المعاملات.

التي اشتملت التعاقدات على جميع صور التعاقدات بين الناس، وبينت أحكامها، وأجازت ما كان قائمًا على العدل،

(١) انظر: السنة ومكانتها، السباعي، ١/ ٣٧٩.
(٢) انظر: زاد المسير ابن الجوزي، ٢/ ١١٢.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: بني الإسلام على خمسٍ، ١/ ١١، رقم ٨.

ومنعت وجرمت ما يفضي إلى الخصومات والشقاق.

قال تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَوٰا﴾ [البقرة: ٢٧٥].

٣. الأخلاق النفسية.

بتنظيم سلوكه في الأطعمة والأشربة واللباس والزينة ونحوها(١).

قال الله جل جلاله: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٦].

٤. الأحوال الشخصية.

ببيان الحقوق على كل فرد تجاه أفراد أسرته، من خلال الأمر بقوامة الآباء، ورعايتهم للزوجة والأبناء، والأم من حيث بيان حق الزوج، وبيان دورها في رعاية الأبناء، والأبناء بالأمر بالبر بالوالدين، والأرحام من جهة وجوب صلتهم(٢).

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوٓا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

٥. الأخلاق الاجتماعية.

باحترام حقوق الآخرين، والحث على التراحم والتعاون، ودفع الأذى، والإحسان(٣).

قال الله عز وجل: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَٰنِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢].

٦. القضاء.

من خلال فض النزاعات والخصومات التي تحدث بين المواطنين، سواء أكانوا مسلمين أو غير مسلمين، على حد سواء في إعطاء كل ذي حق حقه، أو دفع العدوان، أو رفع الظلم(٤).

قال الله جل جلاله: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٢]

٧. السياسات.

ببيان وجوب السمع والطاعة للحاكم، والنصح والإعانة له على الخير، وعدم الخروج عليه، والأمر للحاكم بالعدل والرأفة، وعلاقة المسلمين بغير المسلمين، سواء أكانوا داخل حدود دولة المسلمين، كالمعاهد والمستأمن والمستجير، أو خارجها، سواء أكانوا مسالمين أو محاربين(٥).

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ

(١) انظر: زاد المسير ٢/ ١١٢.
(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي، ٣/ ٢٣.
(٣) انظر: المصدر السابق، ٣/ ٣٠.
(٤) انظر: المصدر السابق، ٣/ ٣٢.
(٥) انظر: المصدر السابق، ٣/ ٤٢.

﴿بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

ثالثًا: أخبار الأنبياء والأمم السابقة:

لم يكن رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم بدعًا من الرسل، وكذلك لم تكن أمتنا أيضًا بدعًا من الأمم، بل سبقه رسل وأنبياء كثر، وكذلك سبقت هذه الأمة سابقات من الأمم، ولم تكن سيرة هذه الأمة مع نبيها صلى الله عليه وسلم بمنأى عن سير الأمم السالفة مع أنبيائها؛ لذلك كان في قصصهم عبر، وفي أخبارهم خطر، لا يستغني عن معرفته ذوو البصائر والنظر، لذلك أورد الله تعالى من أخبارهم في كتابه ما فيه مواعظ ونذر، وقد كان منهج القرآن في إيراد القصص منهجًا ربانيًّا، ليس الغرض فيه من إيرادها التفكه بالحديث أو التلذذ والمسامرة[1]، بل كان مراده من عرضها:

- التثبيت لقلب النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، يقول الله جل جلاله: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠].
- إيقاظ وتنبيه من الغفلة، يقول الله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [يوسف: ٣].
- إنذار بما حدث لمن لم يستجيبوا لرسلهم أن يصيب هذه الأمة ما أصابهم، يقول الله عز وجل: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣].
- الاعتبار بأحوال من سبقها من الأمم، يقول تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

كما لم يكن أسلوب القرآن في إيراد قصص الأنبياء مع أممهم أسلوبًا سرديًا تفصيليًا يحوى التفاصيل الدقيقة للأحداث؛ مما يجعله مملًا، ومفضيًا إلى ضياع المعاني، كما في الكتب المحرفة، وإنما كان عرضه لها بذكر مواطن التفكر والاعتبار والانتفاع، وذلك على سبيل الإجمال- وهذا ما يغلب عليه- لا على سبيل التفصيل، إلا فيما دعت الحاجة إلى التفصيل فيه، ويحصل بدونه فوات معرفة أو ذهاب منفعة بالذكرى والعبرة.

(١) انظر: منهجيات التغيير والإصلاح في سور يس، الصافات، إياد أبو سعدة، ص٢٤٦.

رابعًا: السنن الربانية:

ربط الله جل جلاله بين سننه القدرية واستجابة العباد لأوامره الشرعية، يقول الله تعالى فيمن أنزل الله عليهم التوراة الإنجيل: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٦].

يقول الله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

وقد ذكر الله عز وجل من هذه السنن في كتابه على وفق هذا الناموس الرباني مع سابق الأمم ما كان فيه النذير والتذكير، يقول الله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧].

وهذا ما تمت الإشارة إليه في السابق، ومن أمثلة ذلك:

- ما كان من شأن قوم نوح عليه السلام، يقول الله عز وجل: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ۝٩ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ۝١٠ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ۝١١ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۝١٢ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ۝١٣ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر: ٩ - ١٤].
- ما حدث لقوم عاد وثمود، يقول الله تعالى في نبئهم: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ۝٤ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٤ - ٦].
- حديث قوم لوط عليه السلام، يقول الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ۝٣٣ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ﴾ [القمر: ٣٣- ٣٤].
- ما كان من فرعون، يقول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ۝٤١ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٤١- ٤٢].
- ما ذكره الله من شأن بني إسرائيل مطلع سورة الإسراء، يقول الله جل جلاله: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ۝٥ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤ - ٧].

وعلى العكس من ذلك، نجد أن الله تعالى يؤيد رسله وأتباعهم، ويغير لهم نواميس الكون، يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١].

ومن أمثلة ذلك:

- نوح عليه السلام، يقول الله عز وجل: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٤].
- إبراهيم عليه السلام، يقول الله جل جلاله: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨ - ٧٠].

والقرآن مليء بمثل هذا، من بيان السنن الربانية القدرية المعلقة على استجابة العباد الشرعية وعدمها.

مقامات الوحي

عز الله سبحانه أن يراه أحد في الدنيا، وهذا ما قضاه تعالى، وكان لابد لعباده من معرفته ومعرفة ما يريده منهم، وما من طريقة تصلح لوصول مراده إليهم إلا منه، فقدر أن يكون ذلك بالوحي، وهذا الوحي له صور متعددة، بحسب الحكمة الإلهية، وقد كانت كما أخبر ربنا بواحدة من ثلاث حالات، بينها الله في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى: ٥١].

ولها مقامات، فتكليم الله لعبده هو مقام أشرف من الوحي بواسطة، وبيان ذلك فيما يأتي:

أولًا: التكليم من وراء حجاب:

إن تكليم الله جل جلاله أحدًا من عباده لهو مقام شريف، ومنزلة عظيمة، يختص الله بها بعض رسله، يقول المولى عز وجل: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وهي صفة لله على الحقيقة من غير تعرض لكيفيتها، أثبتها لنفسه مؤكدًا لذلك بالمصدر؛ حتى يدمغ قول من قال: إن الكلام هنا مجازي وليس على الحقيقة[١]،

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي، ١/ ١٥٤.



فقال جل جلاله: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤].

وفي إتيان الوحي بهذه الصورة ما يزيد من يقينهم، ويقوي من عزمهم، ويرفع من معنوياتهم، لذلك نجد أن ممن اختصهم الله تعالى بهذه المنزلة من كانت له مواقف شاقة ومتعبة مع أقوامهم، وذلك على سبيل المثال لا الحصر، كما كان الحال مع موسى عليه السلام، فإن بني إسرائيل قد خالفوه كثيرًا، واختلفوا على ما جاءهم به، وتعنتوا معه في كثير من المسائل، من أمثلة ذلك قصة البقرة، واتخاذهم العجل من بعده، وملالهم من المن والسلوى، وطلب جعل الآلهة، وغير ذلك كثير.

وقد أكرم الله عز وجل نبينا محمدًا بهذه المنزلة في مواطن نذكر منها حينما عرج به إلى السماء وفرض الله تعالى عليه عبادة الصلاة، وهذا فيما يكون في الحياة الدنيا قبل الموت، أما بعد الموت، فإن المؤمنين يتنعمون بتكليم الله لهم ورؤيتهم له، كما حدث مع الصحابي الشهيد عبد الله بن حرام رضي الله عنه.

فقد روى جابر بن عبد الله رضي الله عنه، قال: (لقيني رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال لي: (يا جابر، ما لي أراك منكسرًا؟) قلت: يا رسول الله، استشهد أبي وترك عيالًا ودينًا. قال: (أفلا أبشرك بما لقي الله به أباك؟) قال: بلى يا رسول الله. قال: (ما كلم الله أحدًا قط إلا من وراء حجاب، وأحيا أباك فكلمه كفاحًا. فقال: يا عبدي، تمن علي أعطك. قال: يا رب، تحييني فأقتل فيك ثانيةً. قال الرب عز وجل: إنه قد سبق مني أنهم إليها لا يرجعون) قال: وأنزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا﴾ [آل عمران: ١٦٩][١].

ثانيًا: إرسال الرسول الملكي إلى الرسول البشري:

والغالب من أحوال الوحي أن يأتي الرسول الملكي وهو جبريل إلى النبي، وهذا الذي ذكره الله جل جلاله في قوله: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ [الشورى: ٥١].

وفي قوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم: ٣ - ٥].

والدليل على أنه أكثر الوحي هو إخبار النبي صلى الله عليه وسلم بذلك، حينما سئل عن الوحي كيف يأتيه، فقال صلى الله عليه وسلم: (أحيانًا يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده علي، فيفصم عني وقد

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة آل عمرن، ٥/ ٢٣٠، رقم ٣٠١٠.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٤٩٠٥.

وعيت عنه ما قال، وأحيانًا يتمثل لي الملك رجلًا فيكلمني فأعي ما يقول)[1].

فإجابة النبي صلى الله عليه وسلم على السؤال بهاتين الصورتين هو من باب التغليب لا من باب الحصر[2].

وهو بهذا يصف الطريقة التي يأتيه جبريل عليه السلام بها في الغالب، وإلا فإنه قد رآه على صورته الحقيقية، وأحيانًا كان يأتيه الوحي منامًا، وغيرها من الصور التي لم يذكرها النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث.

ثالثًا: القذف في روع الرسول:

والمقام الثالث من مقامات الوحي الذي كان يأتي الوحي فيه للنبي صلى الله عليه وسلم هو ما جاء ذكره في قول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ [الشورى: ٥١].

وهو إما أن يكون إلهامًا أو منامًا أو قذفًا في القلب[3].

وقد جاء عن أبي أمامة أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن روح القدس نفث في روعي: أن نفسًا لن تموت حتى تستكمل أجلها وتستوعب رزقها فأجملوا في الطلب، ولا يحملن أحدكم استبطاء الرزق أن يطلبه بمعصيةٍ فإن الله لا ينال ما عنده إلا بطاعته)[4].

والشاهد هو قول النبي صلى الله عليه وسلم: (إن روح القدس نفث في روعي)، وهو مقام قد يشارك فيه بعض الناس الأنبياء، ولايصح التعبير عنه بالوحي، ولا يجب العمل أو التشريع بمقتضاه إلا إن كان لنبي، أما إن كان لغير نبي؛ فإنه يستأنس به ولايستدل به.

فمثاله من الرؤيا المنامية للأنبياء رؤيا إبراهيم عليه السلام في قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢].

فعبر عنها ولده إسماعيل عليه السلام بأنها أمر إلهي، ومثاله من رؤيا غيرهم من الناس رؤيا صاحبي يوسف عليه السلام في السجن في قول الله تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٣٦].

ومنها أيضًا ما يراه الناس، ويبحثون

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي، ١/ ٦، رقم ٢.

(٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر، ١/ ٢٠.

(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية، ٥/ ٤٣.

(٤) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء، ١٠/ ٢٧. وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٤١٩، رقم ٢٠٨٥.

عمن يعبره لهم، ولا يصح أن يتخذ من رؤيا الصالحين أو الشيوخ دليلًا على أمر شرعي أو حدث غيبي، كما يفعله كثير من الصوفية، ويزعمون أنه من جنس الكرامات.

الموحى إليهم في القرآن

تبين فيما سبق أن الوحي يتفاضل بين ثلاث مقامات، وهذا باعتبار الوحي إلى الأنبياء، أما إذا تغاير الوحي باعتبار الموحى إليهم؛ فإن جنسه يختلف باختلافهم، فلا يصح أن يذكر فيه تفاضل، فوحي الله إلى الأنبياء والرسل يختلف عن وحيه للملائكة، كما يختلف عن وحيه لأهل الإيمان، أيضًا يختلف عن وحيه لغير الأحياء، فكل وحي يختلف في حقيقته عن الآخر، وإن كان ثمة تداخل بين بعضها من حيث المراد. وبيان ذلك في النقاط الآتية:

أولًا: الرسل والأنبياء:

الوحي إلى الأنبياء والرسل هو الوحي الذي قال الله جل جلاله فيه: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى: ٥١].

وهو المتضمن لبيان العقائد، والتشريع، وأخبار الغيب، والسنن الربانية.

كما أن له مقامات ثلاث متفاضلة باعتبار تفاضل الرسل والأنبياء الذين أوحي إليهم به، أو الأحوال والتشريعات، وقد كان فيه الرسل والأنبياء واسطة في البيان والتبليغ بين الله وعباده بهذا الوحي، ومنه ما يكون قاصرًا علمه على الأنبياء فقط، فلم يكلفوا

بتبليغه للناس، كالوحي المنزل على الخضر عليه السلام، وبعض ما لا تطيقه عقول الناس مما أوحي به إلى الرسل والأنبياء، فلقد أرى الله أنبياءه ورسله من الآيات ما يجعل اليقين عندهم كافيًا لأن يؤمنوا بما لا يستطيعه غيرهم، وهم بينهم في ذلك اختلاف، كالذي كان بين موسى عليه السلام والخضر عليه السلام، ومن التفاوت في قوة اليقين، فمنهم أولو العزم ومنهم من ليس كذلك، وإنما كان لهم هذا العزم بما قد خصهم الله به من العلم والإطلاع على الآيات ما لم يطلع عليه غيرهم.

يقول الله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

ثانيًا: الملائكة:

وهو وحي ليس على سبيل التشريع والإخبار، وإنما على سبيل التكليف، فالملائكة مسخرون لطاعة أوامر الله تعالى، وليس لديهم خيار بين الاستجابة والرفض، فقد سخرهم الله جل جلاله لتلقي ما أمرهم بالقبول والانقياد من غير تردد، فمنه أمر الله لهم بالسجود لآدم، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤].

فذكر الله تعالى بعد عدم استجابة إبليس للأمر الإلهي أنه من الجن؛ ليكون كالتعليل لعدم استجابته لما أمر به، وأنه ليس كالملائكة في ذلك، حيث إن الله عز وجل وصف الملائكة بأنهم لا يعصونه في أمر.

يقول تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

وهو لا يأمرهم إلا بالوحي أو من وراء حجاب، على سبيل التكليف لا على سبيل التشريع.

أما ما جاء من عرض الله عليهم إرادته لخلق آدم وما كان منهم من استفهام، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

فلم يكن هذا الاستفهام على سبيل الاعتراض[1]، وإنما كان من باب عدم رغبتهم في وجود من يعصي الله في الوجود، وقد ظهر هذا في قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾.

فهو من باب غيرتهم على مقام وحدانية الله تبارك وتعالى، ولذلك لم يوبخهم الله تعالى على ذلك، بل عرض آدم عليهم؛ ليبين لهم الحكمة من خلقه، لذلك لما تبين لهم

(١) انظر: التفسير الوسيط، سيد طنطاوي، ١/ ٩٣.

هذا الأمر؛ اعترفوا لله بجهلهم، ومجدوه بالعلم والحكمة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣١-٣٢].

فأكد لهم ما ظهر لهم من علمه وحكمته، وبين لهم أن هناك من العلم والحكمة أيضًا ما لم يظهر لهم، فقال: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣٣].

ومما أوحى الله به إلى الملائكة أمرهم بنصر المؤمنين وتثبيتهم، فقال جل جلاله: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢].

ومنه الأمر بحفظ بني آدم، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ [الأنعام:٦١].

ومنه الأمر بقبض الأرواح، قال جل جلاله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١].

ولهم الكثير من الوظائف التي أوحى الله لهم بها، ليس المقام هنا مقام الوقوف عليها وحصرها، إنما هذه أمثلة عليها.

ثالثًا: أهل الإيمان:

إن الله تعالى كريم رحيم رؤوف بعباده لطيف بهم، ومن كمال لطفه جل جلاله أن يعلمهم بأمور قد يكون لها وقع خطير في حياتهم، ولكن كيف يكون هذا والواسطة بين الله وعباده منقطعة؟!

إنه وحي من الله لهم ولكن من نوع آخر غير وحي النبوة، ومن هذا ما أشار إليه النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه أبو هريرة بقوله: **(لم يبق من النبوة إلا المبشرات) قالوا: وما المبشرات؟ قال: (الرؤيا الصالحة)**[(١)].

وليس معنى هذا أن الوحي قد انقطع بجميع صوره التي ورد ذكرها في القرآن، وإنما خص الرؤيا بالذكر؛ لأنها تكون لآحاد المسلمين بكثرة، وإلا فإن الإلهام يرد عليه، ويكون بعد النبوة، لكنه بحسبه منه ما يكون لخواص المسلمين[(٢)].

وهو كالذي روى أبو هريرة رضي الله عنه فيه حديثًا عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: **(لقد كان فيما قبلكم من الأمم محدثون، فإن يك في أمتي أحدٌ فإنه**

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التعبير، باب المبشرات، ٩/ ٣١، رقم ٦٩٩٠.
(٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر، ١٢/ ٣٧٦.

عمر)[١].

فكان عمر رضي الله عنه ممن اختصهم الله تعالى بذلك، ومنه ما يكون عامًّا للمسلمين جميعًا، وذلك بإلهام الله لهم الإيمان برسله وأنبيائه وما جاؤوا به من الأخبار الغيبية والتكاليف الشرعية.

وكان الإلهام الذي ذكر في الحديث فيما كان قبلنا من الأمم، ومنهم من ورد ذكره في القرآن، وهم ثلاثة:

١. أم موسى عليه السلام: أوحى الله إليها بوحي من قبيل الإلهام، يقول الله عز وجل: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧]. يقول السمعاني: والوحي: هو الإعلام في خفية، فأكثر المفسرين على أن معنى قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ هو إلهامها[٢]، وكان ذلك وحيًا جاءها من الله؛ فقذف في قلبها، وليس بوحي نبوة[٣].

٢. مريم رضي الله عنها: فقد اصطفاها الله لأمر عظيم، واختصها به، وهو أن تحمل وتلد من غير بعل، معجزة منه تعالى لعبده ورسوله عيسى عليه السلام، وهذا أمر يصاحبه من الابتلاء بوقوع التهمة والفرية ما يترتب عليه هم وغم عظيمان، فأعلم الله جل جلاله مريم رضي الله عنها به وحيًا من غير نبوة، بأن أرسل لها جبريل عليه السلام، الذي ينزله الله عز وجل بالشرائع على الرسل والأنبياء؛ ليبلغوها للناس، وقد جاءها؛ ليخبرها هذا الخبر فحسب، ولينفذ المهمة التي كلف بها من نفخ الروح في درعها؛ لتدخل في جوفها وتستقر في رحمها؛ ويخلق الله جل جلاله منها عيسى عليه السلام [٤]، وليس على سبيل التكليف بالنبوة والرسالة، يقول الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٦ - ١٩].

٣. الحواريين رضي الله عنهم: إنهم الذين كانوا مع نبي الله عيسى عليه السلام، فقد كانوا في شدة وبلاء

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب مناقب عمر ابن الخطاب، ٥/ ١٢، رقم ٣٦٨٩.
(٢) انظر: تفسير القرآن، السمعاني، ٤/ ١٢٢.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٩/ ٥١٩.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٨/ ١٦٥، إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٥/ ٢٦١.

وكرب من بني إسرائيل، كما هو حال أتباع الأنبياء، فقد كان بنو إسرائيل يفتنونهم فتنًا تزلزل الجبال الرواسي، كيف لا وهم أعداء الأنبياء وقتلتهم؟! يقول الله جل جلاله في سياق عد مننه ونعمه وآلائه على عبده عيسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١١]. يقول السعدي: «واذكر نعمتي عليك إذ يسرت لك أتباعا وأعوانًا، فأوحيت إلى الحواريين، أي: ألهمتهم، وأوزعت قلوبهم الإيمان بي وبرسولي»[1]، وهذا هو الراجح من أقوال أهل العلم، فقد قال بعضهم: إن المراد هنا أن الله عز وجل أوحى إليهم على لسان عيسى عليه السلام، أي: «أمرتهم بالوحي الذي جاءك من عند الله، فأجابوا لذلك وانقادوا»[2]، فالوحي من هذا القبيل على ألسنة الأنبياء والرسل إنما هو لعموم الناس، وليس للمتبعين فقط، ثم إن المنة بذلك تكون ضعيفة حين يتبعه اثنا عشر رجلًا وتخالفه الأمة بأسرها، لكن المنة تكمن في أن الأمة كلها مخالفة له، فألهم الله جل جلاله الحواريين أن يؤمنوا به؛ ففعلوا وانقادوا، فقرت بهم عين نبيه عليه السلام واستكانت لذلك نفسه.

رابعًا: السموات والأرض:

يوحي الله تعالى إلى مخلوقاته من ألوان الوحي بحسب ما يليق به من حيث: الطاقة، أو الكيفية، أو الوظيفة المناطة به، والمهام التي كلف بها، فوحيه للرسل يختلف عن وحيه للملائكة، وعن وحيه للمؤمنين، ومن باب أولى أن يختلف عن ذلك وحيه لغيرها من الكائنات غير الحية، كوحيه إلى السماوات، فإنه وحي يتناسب مع هذه المخلوقات.

فوحيه للرسل يتضمن رسالة محتواها الأخبار الغيبية والتكاليف الشرعية التي لا صلاح للبشر إلا بها، وكان وحيه للملائكة متضمنًا أخبارًا وأوامر، لا يستقيم لهم أن يقوموا بما خلقوا له من التكاليف إلا به، حيث إنهم كما قالوا عن أنفسهم فيما ذكره الله عز وجل عنهم: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢]، وكيف يتسنى لهم أن يعرفوا أوامر الله لهم من غير وحي يوحي الله جل جلاله لهم به؟!

وكذلك الحال مع بني الإنسان، فإن الهداية لم تكن طوع أيديهم، وليس لهم أن

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص٢٤٨.

(٢) معالم التنزيل، البغوي، ٣/١١٦، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٢٤٨.

يتناولوها بعقولهم، أو يكتسبوها بالتأمل؛ إن لم يكن ذلك مؤيدًا بتوفيق الله تبارك وتعالى، كما قال تعالى في كتابه: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧].

وكما قال عز وجل في الحديث القدسي الذي أخرجه مسلم: (يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم)[١].

وكذلك كان وحيه للسماوات يتناسب مع الطبيعة التي طبعت عليها والهيئة التي خلقت بها، فكان وحي الله -تبارك وتعالى- لها بأن تكون مسخرة، وذلك بقوانين ونواميس خاصة لا تصلح الحياة الدنيا إلا بها.

يقول عز وجل: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ١٢].

فإذا أراد الله تعالى لها الخراب أوحى إليها وحيًا تتغير فيه تلك القوانين، وتتبدل النواميس حتى إن الإنسان الذي ألفها على تلك الحال التي كانت مستقيمة بقوانينها ونواميسها ليتساءل عما اعتراها من خلل، فيقول فيما أخبرنا الله عز وجل: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ١ - ٥].

فهي مسخرة لطاعة الله جل جلاله طوعًا، ولو لم يكن كذلك لسخرها كرهًا، يقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

فأطاعته ولانت وخضعت وأذعنت على عظمتها؛ لعلمها بأن الذي أمرها لا يتعاظمه شيء، جل جلاله وعز شأنه، غلب بسلطانه وقهر بجبروته، وأذهل بقدرته تعالى.

خامسًا: النحل:

إن المتأمل في حياة النحل وطريقة معيشتها ورحلاتها وصناعتها ليعلم أن ما تقوم به هذه المخلوقات ليست بالاكتساب ولا بالتعلم، وإنما هي الغريزة التي غرزها الله تعالى فيها، والإلهام الذي جعل من هذا الكائن الصغير ذلك الصانع القدير، فقد هيأ الله عز وجل فيها ولها من الأسباب والقوانين الطبيعية والكيميائية التي صارت صناعتها كالسجية، والمطلع على آليات العمل في خلية النحل ليبهره ما سيراه من نظام، ويسحره ما يشاهده من تعاون، ويأخذ لبه مايراه من التزام كل عامل بعمله الخاص به دون أدنى تدخل أو تطفل.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الآداب، باب تحريم الظلم، ٨/ ١٦، رقم ٦٦٦٤.

ثم هي بعد شعوب وقبائل، فمنها شعوب قد سخرها الله للمعيشة في بيئة الجبال؛ فتتخذ من كهوفها وشقوقها البيوت، ومنها قبائل هيأها الله ليكون بيتها في الشجر، وطائفة أخيرة جعلها الله تأنس بما يصنعه الإنسان لها من بيوت، ويسر لها الأرزاق من كل الثمرات وأزهارها، حلوها ومرها؛ لتصنع بعد ذلك شرابًا شهيًا فيه شفاء للناس[1].

وفي هذا جاء قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل:٦٨- ٦٩].

ليكتمل بذلك للإنسان أنواع الأشربة التي يأخذها الناس، فمنه ما كان أصله المطر، وهو الماء، ومنها ما أصله الشجر وهو العصائر والخمور، ومنها ما أصله بطون الضأن والجمال والبقر، وكان العسل رابعها، الذي يأتي به من الكائنات الصغيرة، التي جعلت مثلًا للرأي الصحيح، في قول الشاعر[2]:

لا تحقر الرأي يأتيك الحقير به
فالنحل وهو ذبابٌ طائر العسل

جعل الله جل جلاله العسل رزقًا لعباده في الدنيا الذي سيشربون منه في الآخرة، وقد جمع بين هذه الأشربة في كتابه في موضعين:

الأول: في سورة النحل على أنها شراب لهم في الدنيا، فقال جل جلاله: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾

[النحل: ٦٥ - ٦٩].

والثاني: في سورة محمد صلى الله عليه وسلم على أنها شراب لهم في الجنة، بقوله عز وجل: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾

[محمد: ١٥].

والأشربة الثلاثة الأولى يستخرجها

(١) انظر: التفسير البياني لما في سورة النحل من دقائق المعاني، سامي القدومي، ص١٣٧.

(٢) انظر: جواهر الأدب، الهاشمي، ٢/ ٤٣٢، من قصيدة لابن أبي بكر المقري المتوفى سنة ١٠٠١ هـ.

الناس، ولهم في ذلك وسائل هيأها الله تعالى، أما الرابع فلا حيلة لهم يستخرجونه بها، إلا بأن يكون ذلك بالوحي الغريزي لهذا المخلوق الصغير الشرس، وهذا ما أوحى الله به للنحل، فكانت مسخرة له بأمره تعالى، وليس هذا المقام مقام التفصيل في التفريق بين هذه الأشربة وطرق استخراجها.

التعامل مع الوحي

إن ذكر الله تعالى لوحيه لهذه المخلوقات في كتابه الكريم جاء لأمر حكيم، ألا وهو بيان كيفية استجابة هذه المخلوقات التي أوحى الله عز وجل، من أنبياء ورسل كرام عليهم الصلاة والسلام، وملائكة عظام عليهم السلام، وسماوات وأراضٍ، وما فيهما من خطير الأجرام، وحتى الصغير الحقير من الهوام، كلها كان شأنها الامتثال لما أمرها الله جل جلاله به في وحيه إليها، شرعيًّا كان الوحي أو كونيًا، كلها خضعت وأذعنت واستجاب ولانت لأمر ربها.

فحري بهذا المخلوق الذي سخر الله له هذه الكائنات أن يكون على سنتها وناموسها، مستجيبًا خاضعًا مذعنًا مستسلمًا منقادًا معظمًا لما جاءه من وحي ربه تبارك وتعالى، متدبرًا متعقلًا متفهمًا لما يتلوه منه، خائفًا مما فيه من تهديد ووعيد، راجيًا لما فيه من وعدٍ بالثواب والمزيد، سائرًا على هديه الرشيد، وذلك ينتظم أمورًا ثلاثة تمت الإشارة لها، وفيما يلي -بإذن الله تعالى- تفصيلها:

أولًا: تلاوة الوحي:

إن تعظيم ما جاء من عند الله جل جلاله آمرًا بتعميمه لهو من تمام عبادة العبد لربه تبارك وتعالى، وإن الله ما أمر بتعظيم شيء

مثل ما أمر بتعظيم كلامه، الذي ما شرف شريف ولا عظم عظيم إلا به، وهو ما أوحى الله به؛ لتستقيم أمورهم، هذا لا يتيسر لهم إذا كانوا يقرءونه طربًا، أويثرونه هذرًا، أو يهذونه شعرًا، بل كان لابد لهم من تلاوته وتدبره وتفهمه وتعقله، ولكي يتسنى لهم ذلك؛ كان لابد من مراعاة أمور قبل قراءته وأثناءها وبعدها، باستحضار ما يأتي:

١. إن الله تعالى هو من تكلم بهذا القرآن، يقول الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٦].

٢. إن القرآن هو خطاب من الله لمن يقرؤه، يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

٣. إن الله جل جلاله أخبرنا فيه بأمور:

- ماضية للاعتبار، يقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].
- معاصرة للاستحضار، يقول الله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].
- مستقبلة للتبشير والإنذار، يقول الله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [إبراهيم: ٤٧ - ٥٢].

٤. إن الله عز وجل أمرنا فيه بأوامر لامتثالها، ونهانا فيه عن نواهٍ لاجتنابها، يقول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾ [الطلاق: ٥].

٥. جمع القلب، واستحضار الذهن، والتدبر لما يقرؤه جيدًا، يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

٦. إن صلاحنا وفلاحنا في الدنيا والآخرة إنما بالقرآن والقيام بحقه، يقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠].

٧. أن نبتغي بقراءته الأجر والثواب من الله تبارك وتعالى، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٢٩ - ٣٠].

٨. توطين النفس والعزم على تصديق أخبار القرآن، والاستجابة لما فيه من الأوامر والنواهي، يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَآ أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ٨٣ - ٨٥].

وقد أفاض كثير من أهل العلم في كتابة ما ينبغي أن يكون عليه قارئ القرآن، مثل: التبيان في الأداب في حملة القرآن للنووي، فضائل القرآن للمقدسي، وغيرها.

ثانيًا: التخويف بالوحي:

النفس البشرية تركيب من مزيج من الشهوات الداعية إلى الجموح والعصيان والطغيان، فهي ترغب في فعل مايحلو لها من غير قيد أو ضابط، حتى وإن كان ذلك القيد أو الضابط ما وضع إلا لمصلحتها، وقالوا قديمًا: من أمن العقوبة أساء الأدب. لذلك كان من مقاصد الوحي الذي أنزله الله تعالى من أجلها التخويف بالوعيد والنذر، يقول الله عز وجل في كتابه عن هذا المقصد: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٥].

وقال أيضًا: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩].

وقد جاء التخويف بالوحي على صور مختلفة، منها:

١. ذكر قصص الأمم التي عصت رسلها، وهذا قد كثر ذكره في القرآن الكريم حتى إن سورًا كاملة جاءت على هذا المنوال، أو كان أغلب السورة عليه، مثل سورة هود، الشعراء، القمر، الفجر، نوح، وغيرها.

٢. بيان أحوال العصاة والكفار في النار، يقول تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ [الزمر: ١٦].

٣. ذكر العقوبات على المعاصي، يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣].

٤. التهديد على المعصية بانتقام الله من فاعلها، يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [آل عمران: ٤].

٥. بيان أن في المعصية تعدِّيًا لحدود الله، يقول تعالى: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ [النساء: ١٤].

٦. بيان أن فاعل المعصية مستحق لغضب الله، يقول تعالى: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [النحل: ١٠٦].

٧. الجمع بين أكثر من عقوبة لفاعل المعصية، يقول تعالى: ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ٩٣].

٨. وصف فعل المعصية أو فاعلها بالخسران، أو الفسق، أو الفجور، أو الكبر، أو الظلم، أو الكفر، وغيرها مما يعاب به العاصي في القرآن، يقول تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٧].

٩. بيان أن فعل المعصية اتباع للشيطان، يقول تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ۝١٦٨ إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٨ - ١٦٩].

١٠. بيان أن فعل المعصية عداوة لله وأولياء الرحمن، يقول تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوّٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٨].

١١. إعلان الحرب على فاعل المعصية من الله، يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝٢٧٨ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٨ - ٢٧٩].

١٢. بيان أن المؤمنين يجتنبون المعاصي ولا يقتربون منها، يقول

تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]. إلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان: ٦٨]. إلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٢-٧٣].

ثالثًا: اتباع الوحي والاستمساك به:

إن موقف الناس من الوحي بين أمرين: إما الاتباع، وإما الإعراض، أما أهل الإعراض فيحتاجون إلى وقفة معهم -وستأتي إن شاء الله عز وجل - ذلك أن أسباب الإعراض وسبله متعددة، وليس هو من باب التعامل المطلوب بيانه والدعوة إليه، بل المطلوب هو بيانه والتحذير منه، وأما الاتباع فهو مندرج تحت عنوان هذا القسم، وإن كان كلٌّ من الأمرين يحتاج إلى إفراده في بحث خاص كامل، فالناس جميعًا بين مستمسك بالوحي، أو معرض عنه، أو متمسك ببعضه ومعرض عن بعضه الآخر، والمستمسك به بين مجتهد في ذلك، وبين مقصر فيه، والذي أراده الله تعالى من عباده تجاه الوحي هو الاتباع والاستمساك به، ويظهر هذا من خلال كثير من الآيات التي دعا الله عز وجل العباد فيها إلى التمسك بما أنزله إليهم، وثناؤه على ما أنزله إليهم، وثناؤه على المستمسكين به، ووصفه لما أنزله عليهم بأفضل ما يوصف به منهج، وبيان فضله عليهم فيه، وبيان أثره في حياتهم وآخرتهم، وتفصيل ذلك كما يأتي:

١. **دعوة الله جل جلاله العباد للتمسك بالوحي.**

ومثال ذلك في الآتي:

- إن أول ما يطالعنا في كتاب الله -تبارك وتعالى- سورة الفاتحة، التي قسمها الله تعالى بينه وبين عبده، فكان القسم الأول هو الثناء على الله بما هو أهله، والقسم الثاني هو الذي قال عز وجل فيه هذا لعبدي، ولعبدي ما سأل، كما ثبت ذلك عن رب العزة في الحديث القدسي الذي رواه أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (قال الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، قال الله تعالى: حمدني عبدي، وإذا قال: ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، قال الله تعالى: أثنى علي عبدي، وإذا قال: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، قال: مجدني عبدي، وقال

مرةً: فوض إلي عبدي، فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل، فإذا قال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل)[1]، فهذا فيه دعوة للتمسك بالوحي، من خلال بيان أن ذلك هو نصيب العبد في أعظم سورة، والتي من أسمائها التوقيفية السبع المثاني، ومن أسمائها الاجتهادية الثناء، حيث إن فيها ثناء على الله جل جلاله بما هو أهله في أولها، بقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٢ - ٤].

- وثناء على العبد المتمسك بكتاب الله في آخرها، بقوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦-٧].
- فكون العبد متمسكًا بصراط الله؛ يجعله من الذين أنعم الله عليهم، ونفى الضلال عنهم، وإخراجهم من طائفة المغضوب عليهم، فهو ثناء عليهم من الله تبارك وتعالى[2].
- يأمر الله عز وجل عبده ونبيه صلى الله عليه وسلم بذلك في قوله: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الزخرف: ٤٣].
- وهذا أمر للنبي صلى الله عليه وسلم ومن اتبعه كذلك، وثناء عليه وعلى من اتبعه بكونهم على صراط مستقيم، ويؤكد ذلك عليهم بتوجيه الخطاب لهم مباشرة بقوله جل جلاله: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣].

٢. ثناء الله تعالى على ما أنزله إليهم.

ومن أمثلة ذلك:

- السورة الثانية بعد سورة الفاتحة جاء مطلعها بالثناء على كتاب الله تبارك وتعالى، يقول الله عز وجل: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].
حيث يثني الله جل جلاله على كتابه بأن فيه الهدى لمن أراد أن يتقي غضب الله وعقابه.
- أثنى الله عز وجل على كتابه ببيان أنه يهدي لأعدل منهج في الحياة وأقوم الطرق في التعامل مع كل شيء، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب، ٢/ ٩، رقم ٨٠٧.

(٢) انظر: تفسير القرآن الكريم، الفاتحة والبقرة، ابن عثيمين، ١/ ١٧.

﴿هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

٣. **بيان فضل الوحي عليهم.**

ومن أمثلة ذلك:

- يمن الله عز وجل على المؤمنين بما أنعم عليهم به من الألفة والمحبة بعد العداوة والشقاق، يقول تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].
- فما هي النعمة التي أصبح بها المؤمنون عباد الله إخوانًا؟ إنها نعمة إنزال القرآن، وإرسال الرسول صلى الله عليه وسلم بهديه النبوي في التعامل مع القرآن.
- يقول الله جل جلاله: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤].
- يقول أهل البلاغة: إن أقوى مصراع من مصاريع الشعر بلاغة هو قول امرئ القيس[1]:

قفا نبك من ذكرى حبيبٍ ومنزل

وهو مصراع[2] قصيدته المعلقة، ذلك أنه مكون من ست كلمات، تضمنت ستة أمور، فقد وقف واستوقف، وبكى واستبكى، وذكر الحبيب، وذكر المنزل، وجاءت هذه الآية -ومثلها كثير- لتثبت تهاوي كلام العرب أمام إعجاز القرآن البياني، فهي أيضًا من ست كلمات لكنها تضمنت أمورًا عديدة تفوقت بها على المصراع المذكور، وقد وقف المفسرون والبلاغيون منها على الآتي[3]:

- المصراع جملة فعلية، والآية جملة اسمية؛ فهي أثبت وأدوم.
- المصراع جملة طلبية، والآية جملة خبرية، فالأولى يحتمل وقوعها وعدمه، أما الآية فهي صادقة متحققة الوقوع؛ حيث إنها تحتمل الصدق والكذب، والثبوت والانتفاء، وهي من كلام الله جل جلاله فهي حتمًا صادقة.
- ليس في المصراع ما يؤكده من الكلام، والآية مؤكدة بتأكيدات عديدة، فهي اسمية، وهو تأكيد لها، مبدوءة بالقسم المضمر، الممهد له بالواو، مؤكدة بإن، ومؤكدة باللام المزحلقة.
- جاء بكلمة ذكر نكرة؛ ليتسع لجميع أنواع الذكر، ذكر القرب من الله، وذكر

---

(١) وشطره الثاني يقول فيه: بسقط اللوى بين الدخول فحومل.

(٢) انظر: المصراع في الشعر هو أحد شقي البيت الذي يكون في أول القصيدة، بحيث يكون الشطر الثاني منه على قافية الشطر الأول فيه، ويكونا متماثلين، كمصراعي الباب الذي له ضلفتان متساويتان.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٥/ ٢٢٠.

العقل بالرشاد، وذكر الشرف بين العباد بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ﴾.

- فصل بين الذكر المتعلق بالنبي صلى الله عليه وسلم وبين الذكر المتعلق بقومه، وذلك أن الذكر له صلى الله عليه وسلم ثابت بهذا القرآن، بينما الذكر لقومه معلق على مدى استجابتهم له بقوله تعالى: ﴿لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾.
- وفيها تعريض بالمعرضين عنه، إذ حين يثني على المستجيب؛ يفهم من ذلك أن المعرض مذموم بعدم استحقاقه لهذا الثناء.
- أشار إلى عاقبتهم على حسب استجابتهم لهذا الذكر، بقوله تعالى: ﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾، فهي إشارة إلى إثبات اليوم الآخر، وبيان أن السؤال كائن للجميع، يسأل الرسول عن استجابة قومه له، ويسأل المرسل إليهم عن مدى استجابتهم له، والعمل به، وهو سؤال تقرير، ويسأل المعرضون سؤال توبيخ وتهديد وتقريع.

٤. بيان أثره في حياتهم وآخرتهم.

وصف الله تعالى ما أوحاه إلى نبيه صلى الله عليه وسلم بالروح.

يقول المولى جل جلاله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى:٥٢].

وهو كذلك لمن اهتدى به، فقد كانوا قبل أن يوحي به الله عز وجل إليهم أموات القلوب، عمي الأبصار، صم الآذان عن الحق الذي خلقوا من أجله؛ فبعث الله به إليهم؛ فأحيا به قلوبًا ميتة، وفتح به أعينًا عميًا، وأسمع به آذانًا صمًا، ثم دعاهم تبارك وتعالى أن يثبتوا على الاستجابة له؛ لأنه به تكمل وتجمل حياتهم الإيمانية[(١)].

فقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وإن في هذه الآية تحذيرًا لهم من عقاب الله لهم إذا لم يستجيبوا، أن يعيد الموت إلى قلوبهم، فهم يعتقدون أنهم بما عرفوه من حقائق الإيمان فقط ودراستهم لها دراسة نظرية أنهم أحياء، ظانين أن العلم فقط، أو التحلي ببعض مظاهر الدين ينفعهم ولا يضرهم معه مخالفة ما دعاهم الله جل جلاله إليه من الاستقامة على الإسلام كله.

يقول تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

---

(١) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري، ٤/ ٦٢٤.

فإنها تبدأ بخطوات ثم تنتهي بالمهلكات الموبقات المبعدات عن رحمة الله عز وجل.

موقف المعرضين من الوحي

إن الإعراض عن وحي الله تبارك وتعالى هو حال أغلب الناس، ذلك لما يغلب عليهم من الأهواء والشهوات ودواعي الإعراض عن الوحي، وقد كانت صور إعراضهم عن الوحي ومظاهره مختلفة، بحسب اختلاف الدواعي لذلك؛ فكانت عاقبة إعراضهم عليهم وخيمة، ونتائجه أليمة، وبيان ذلك فيما يأتي:

أولًا: دواعي الإعراض:

إن دواعي الإعراض عن الوحي متعددة ومتنوعة، فهي ما يأتي الشيطان للعبد من خلالها فيدعوه لأن يعرض عما أنزله الله إليه، وهي صفات شارك إبليس كثير من الناس فيها، فهو إمامهم وقائدهم؛ وهم إضافة إلى ذلك عمي الأبصار، لا يرون أين يصار بهم، ومن هذه حاله فهو لا يرى السلامة إلا في كمال الانقياد والتسليم لمن أمسك بزمام الغل الذي في رقبته.

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ [يس: ٨].

فلا يقاوم خشية الاختناق، ولا يترك؛ فينتهي به مصيره إلى الضياع، وما هي إلا أوهام وخيالات، سببها الاستكبار الذي فيه اغترارهم وحرمانهم، والإعراض الذي أنساهم أنفسهم،

والريبة التي في قلوبهم؛ فكانت سببًا لشقائهم وعنادهم الذي أورثهم الخسران المبين، وحب الرياسة الذي أطغاهم[1]؛ فعادوا بعده في الذل المهين؛ فهل أمثال هؤلاء سيعبؤون بالإنذار؟ فهي الموانع والقواطع التي منعتهم الهداية؛ لأنها أغلال وضعت في أعناقهم، وبيان هذه الدواعي فيما يأتي:

١. الحسد.

فهذا شقيهم أبو جهل، وما جاء من خبره فيما رواه الإمام البيهقي: «أن أبا جهل -عليه لعنة ربه- وأبا سفيان رضي الله عنه والأخنس بن شريق رضي الله عنه خرجوا ليلة؛ ليستمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي بالليل في بيته، وأخذ كل رجل منهم مجلسًا؛ ليستمع فيه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا أصبحوا وطلع الفجر تفرقوا، فجمعتهم الطريق؛ فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم؛ لأوقعتم في نفسه شيئًا.

ثم انصرفوا، حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعتهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة، ثم انصرفوا.

فلما كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه؛ فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعتهم الطريق، فقالوا: لا نبرح حتى نتعاهد لا نعود. فتعاهدوا على ذلك، ثم تفرقوا.

فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد. فقال: يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعت أشياء أعرفها، وأعرف ما يراد بها. فقال الأخنس: وأنا والذي حلفت به. ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل، فدخل عليه بيته فقال: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال: ماذا سمعت؟! تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف؛ أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء. فمتى ندرك هذه؟ والله لا نؤمن به أبدًا ولا نصدقه. فقام عنه الأخنس بن شريق»[2].

فما منع أبا جهل من الاهتداء بهدى النبي صلى الله عليه وسلم وتصديقه بالقول والعمل بعد أن صدقه بالقلب إلا الحسد، فقد شهد بنبوته، لكنه رفض كل الرفض اتباعه، والداعي لذلك التنافس في العلو في

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٧/ ١٦٠، التفسير المنير، الزحيلي، ٢٢/ ٢٩٢.

(٢) دلائل النبوة، البيهقي، جماع أبواب المبعث، باب اعتراف مشركي قريش بما في كتاب الله تعالى من الإعجاز، ٢/ ٢٠٦.

الدنيا، والعصبية العمياء، ووراء ذلك كله الحسد.

٢. اتباع دين الآباء والأجداد.

ومشهد آخر مع من كان مدافعًا عنه صلى الله عليه وسلم، مع عمه أبي طالب لما حضرته الوفاة، جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فوجد عنده أبا جهل بن هشام وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي طالب: (يا عم، قل: لا إله إلا الله، كلمةً أشهد لك بها عند الله). فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب؟! فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه، ويعودان بتلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أما والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك)، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [التوبة:١١٣] الآية[١].

والداعي الذي منع أبا طالب من الاستجابة لما دعاه إليه النبي صلى الله عليه وسلم رغم حبه الشديد لابن أخيه ومبادلة النبي صلى الله عليه وسلم له هذا الحب وهو يعلم اتباع دين الآباء والأجداد وتقديس عوائدهم، والهيبة من ذم الناس يعتبر من الدواعي المعيقة والمغلقة عليه طريق الهداية.

٣. العنصرية.

مثال آخر وهو ما رواه أبو نعيم عن صفية بنت حيي بن أخطب رضي الله عنها أنها قالت: «كنت أحب ولد أبي إليه، وإلى عمي أبي ياسر، لم ألقهما قط مع ولد لهما إلا أخذاني دونه، قالت: فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ونزل فناء بني عمرو بن عوف غدا عليه أبي حيي بن أخطب وعمي أبو ياسر بن أخطب مغلسين، قالت: فلم يرجعا حتى كان مع غروب الشمس، قالت: فأتيا كالين، كسلانين ساقطين يمشيان الهوينا، قالت: فهششت إليهما كما كنت أصنع، فوالله، ما التفت إلي واحد منهما مع ما بهما من الهم، قالت: فسمعت عمي أبا ياسر وهو يقول لأبي -حيي بن أخطب-: أهو هو؟ قال: نعم والله، قال: أتعرفه وتثبته؟ قال: نعم. قال: فما في نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بقيت أبدًا»[٢].

وهذا هو عين ما وصف الله تعالى به اليهود في قوله عز وجل: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب إذا قال المشرك لا إله إلا الله، ٢/ ٩٥، رقم ١٣٦٠.

(٢) دلائل النبوة، أبو نعيم الأصبهاني، ص٧٧.

﴿النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ﴾ [المائدة: ٨٢].

فكانت القومية والعرقية والعنصرية مانعة من الاتباع، فهم يرون أنهم أحق الناس بالنبوة، ولكنها فضل الله يؤتيه من يشاء سبحانه، وخسئوا هم وما منوا به أنفسهم.

٤. حب الرياسة.

حادثة أخرى مع رأس النفاق، من حديث أسامة: ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سعد بن عبادة يعوده من شكوٍ[١] أصابه على حمار عليه ألحاف[٢] فوقه قطيفة، فركبه فخطمه[٣] بحبل من ليف، وأردفني خلفه، فمر بعبد الله بن أبي وحوله رجال من قومه، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم تذمم أن يجاوزه حتى ينزل، فنزل فسلم ثم جلس فتلا القرآن، ودعا إلى الله وذكر به وحذر وبشر وأنذر، وعبد الله زام لا يتكلم، حتى إذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: يا هذا، إنه لا أحسن من حديثك هذا إن كان حقًا، فاجلس في بيتك فمن جاءك فحدثه إياه، ومن لم يأتك فلا تغشه به ولا تأته في مجلسه بما يكره.

قال: وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل على سعد بن عبادة وفي وجهه ما قال عدو الله بن أبي، فقال: والله يا رسول الله، إني لأرى في وجهك شيئًا، لكأنك سمعت شيئًا تكرهه؟ قال: (أجل). ثم أخبره بما قال ابن أبي، فقال سعد: يا رسول الله، أرفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك وإنا لننظم له الخرز لنتوجه، فإنه ليرى أن قد سلبته ملكًا[٤]!!

ومنها يظهر المانع والقاطع الذي حال دون إعلان صدق النبي من عبد الله بن أبي مع استعذابه لكلامه؛ إنه الرياسة وحب المنصب، أغلال بيد إبليس يقود بها أتباعه وأولياءه، ومن زاوية ما أثرت هذه الأغلال، فهي جعلت رقابهم مقمحة؛ ليبرز ما فيهم من الكبر الناتج عن وجود هذه الأغلال في أعناقهم، ومن زاوية حالهم في الآخرة، فهي صورة لحالهم وهم يسحبون بها في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَـٰلُ فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ وَٱلسَّلَـٰسِلُ يُسْحَبُونَ ۝٧١ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر: ٧١- ٧٢].

فتقمح جراء ذلك الأغلال بأعناقهم ورؤوسهم من شدة السحب، فما أعظمه من أسلوب، وما أحكمه من منهاج في التنفير من تكذيب الرسل، لكن الحق أعقب ذكر حالهم في هذه الآيات بقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾

(١) مرض، انظر: العين، الفراهيدي، ٥/ ٣٨٨.
(٢) غطاء، انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٩/ ٣١٤.
(٣) جعل على أنفه خطامًا، وهو حبل يربط على مقدم وجه الدابة وفكيها، ليمنعها من العض. انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ٢٤٥.
(٤) انظر: الاكتفاء، الكلاعي الحميري، ١/ ٣٠٩.

﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس: ١١][1].

ثانيًا: عاقبة الإعراض:

إن الإعراض عن الاهتداء بوحي الله جل جلاله هو أمر في حد ذاته غاية في الخسران وإن لم يترتب عليه العذاب الذي توعد الله عز وجل المعرضين به، فكيف إذا ترتب عليه العذاب الأليم الشديد المهين في الآخرة؟!

ما هو حال المعرضين؟ إجابة هذا السؤال تظهر من خلال آيات ذكرها الله تعالى في كتابه، نستعرض بعضًا منها فيما يأتي:

١. المعيشة الضنك في الحياة الدنيا.

يقول الله جل جلاله: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤].

ما هي المعيشة الضنك؟!

قال الثعلبي: «كل مال أعطيته عبدًا من عبادي قل أو كثر لا يتقيني فيه فلا خير فيه، وهو الضنك في المعيشة، وإن قومًا ضلالًا أعرضوا عن الحق، وكانوا أولي سعة من الدنيا مكثرين؛ فكانت معيشتهم ضنكًا، وذلك أنهم كانوا يرون أن الله ليس بمخلف لهم معائشهم من سوء ظنهم بالله والتكذيب به، فإذا كان العبد يكذب بالله ويسيء الظن به اشتدت عليه معيشته، فذلك الضنك»[2].

٢. حياة اليأس.

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا﴾ [الإسراء: ٨٣].

والمعنى: «إ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ﴾، بأن وصل إلى مطلوبه ﴿أَعْرَضَ﴾ أي: اغتر وصار غافلًا عن طاعة الله، ﴿وَنَأَى بِجَانِبِهِ﴾ أي: تباعد من أهل الحق ولم يقتد بهم؛ تعظمًا لنفسه كديدن المستكبرين، ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ أي: أصابه بلاء؛ ﴿كَانَ يَئُوسًا﴾ أي: قنوطًا من رحمة الله حزينًا، ولم يتفرغ لذكر الله تعالى»[3].

٣. التعرض لانتقام الله عز وجل بسبب ما اقترفوا من الظلم.

يقول الله جل جلاله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢].

جاء الخبر على صورة الاستفهام؛ لتأكيد الكلام، وهكذا أخرج الحق سبحانه الخبر إلى الاستفهام وترك لنا الجواب؛ لنقول نحن: لا أحد أظلم ممن فعل ذلك، والإقرار سيد الأدلة، فالإعراض عن هدي الله تعالى، ليس هناك ما هو أشد ظلمًا منه، أي: ممن ذكره الله بآياته القرآنية ومعجزات

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٢/ ٨٤٣.

(٢) الكشف والبيان، ٦/ ٢٦٥.

(٣) انظر: مراح لبيد، محمد بن عمر الجاوي، ١/ ٦٣٥.

رسله ثم أدبر عنها وهجرها وجحدها، كأنه لا يعرفها، لذا فإن الله سبحانه ينتقم أشد الانتقام من هؤلاء الكفار الذين كفروا بالله واقترفوا المنكرات والموبقات.

إن القرآن الكريم هدى ورحمة، لما فيه من بيان سابق قبل المفاجأة بألوان العقاب أو العذاب في الآخرة، كما أوضحت هذه الآيات[1].

٤. يأتي يوم القيامة أعمى يحمل ثقل ذنب الإعراض.

يقول الله تعالى: ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وِزْرًا﴾ [طه: ١٠٠].

ويقول جل جلاله أيضًا: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤].

وآتيناك من لدنا قرآنا فيه ذكر للرحمن، وذكرى وموعظة للإنسان، ومن أعرض عن القرآن وذكره وما فيه فإنه يحمل يوم القيامة حملا ثقيلا من الآثام والأوزار خالدين في عذابه، وبئس الحمل حملهم يوم القيامة، وهم فوق ذلك عمي الأبصار كما كانوا في الدنيا عمي البصائر[2].

إذن هي ألوان مركبة من الشقاء في الدنيا والآخرة جراء إعراضهم عما أوحى ربهم جل جلاله به إليهم، نعوذ بالله من حالهم، ونسأله أن يحفظ علينا إقبالنا على كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

(١) انظر: تفسير الشعراوي، ١٤/ ٨٩٤٣، التفسير الوسيط، الزحيلي، ٣/ ٢٠٤٨.
(٢) انظر: التفسير الواضح، الحجازي، ٢/ ٥٠٥.

موضوعات ذات صلة

الاتباع، القرآن، محمد صلى الله عليه وسلم، الملائكة، النبوة



عناصر الموضوع

مفهوم الوراثة

أولا: المعنى اللغوي:

الوراثة أصلها: ورث، والواو والراء والثاء: كلمةٌ واحدةٌ، هي الورث، وهو أن يكون الشيء لقومٍ ثم يصير إلى آخرين بنسبٍ أو سببٍ[١].

قال في الصحاح: الميراث أصله موراثٌ، انقلبت الواو ياءً لكسرة ما قبلها[٢].

وقال أبو عبيد: الإرث أصله من (الميراث) إنما هو (ورثٌ) فقلبت الواو ألفا مكسورة لكسرة الواو كما قالوا للوسادة: إسادة وللوكاف: إكاف.

ويقال: ورثت فلانا من فلان: أي جعلت ميراثه له، وأورث الميت وارثه ماله، أي تركه له[٣].

ثانيا: المعنى الاصطلاحي:

الوراثة في الاصطلاح: هو حوز الإنسان ما كان يملكه آخر بعد موت هذا الآخر[٤].

وإذا أطلق في اصطلاح الفقهاء فيراد به: أنه حق قابل للتجزئة، ثبت لمستحقه بعد موت من كان له ذلك، لقرابة بينهما، أو نحوها[٥]. والمعنى بينهما قريب.

بهذا يظهر أن المعنى الاصطلاحي توضيح للمعنى اللغوي وتفصيل له.

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٦/ ١٠٥.
(٢) الصحاح، الجوهري ١/ ٢٩٥.
(٣) تهذيب اللغة، الأزهري ١٥/ ٨٥.
(٤) المعجم الاشتقاقي المؤصل، محمد حسن جبل، ص ٧٥٤.
(٥) القاموس الفقهي ص ٣٧٧.



الوراثة في الاستعمال القرآني

وردت مادة (ورث) في القرآن الكريم (٣٥) مرة[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١٣	﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ﴾ [النساء:١١]
الفعل المضارع	١٢	﴿وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ﴾ [النساء:١٧٦]
اسم الفاعل	٦	﴿أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾﴾ [المؤمنون:١٠]
الاسم	٤	﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد:١٠]

وجاءت الوراثة في الاستعمال القرآني بمعناها اللغوي، وهو أن يكون الشيء لقوم ثم يصير إلى آخرين، والوراثة الحقيقية هي أن يحصل للإنسان شيء لا يكون عليه فيه تبعة، ولا عليه محاسبة[٢].

---

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي ص ٧٤٨.

(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٦/ ١٠٥، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٥/ ١٩٤، ١٩٥، المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٨٦٣-٨٦٤، عمدة الحفاظ، السمين الحلبي ٤/ ٢٩٨-٣٠٠.

الألفاظ ذات الصلة

١ الوصية:

الوصية لغةً:

الإيصال، مأخوذة من وصيت الشيء أصيه إذا وصلته، وسميت الوصية وصية؛ لأن الميت لما أوصى بها وصل ما كان فيه من أمر حياته بما بعده من أمر مماته[1].

الوصية اصطلاحًا:

هي تمليك مضاف إلى ما بعد الموت، وسميت وصية لاتصالها بأمر الميت[2]، والمراد بها ما جاء في مثل قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ١٨٠﴾ [البقرة: ١٨٠].

الصلة بين الوصية والميراث:

أن الوصية قد تكون حقًا واجبًا مثل الدين، وقد تكون تبرعًا بإرادة الموصي، والميراث حق واجب في مال الموروث وبغير إرادته، والوصية عطية من المالك، والميراث عطية من الله تعالى[3].

٢ التركة:

التركة لغةً:

بفتح التاء وكسر الراء، وفي اللغة: هي ما يتركه الشخص ويبقيه[4].

التركة اصطلاحًا:

هو ما يتركه الميت من ممتلكاته بعد موته، وتخفف بكسر التاء وسكون الراء[5].

الصلة بين التركة والميراث:

لما كان الميراث مما يتركه الميت سمي تركة، وقد ورد اللفظ بهذا المعنى في قوله تعالى: ﴿فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ [النساء: ١١].

وفي الآية التي تليها، وفي آخر سورة النساء.

---

(١) انظر: المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٦٦٢، تاج العروس، الزبيدي ٤٠/ ٢٠٧.
(٢) انظر: التعريفات، الجرجاني ص ٢٥٢، تاج العروس، الزبيدي ٤٠/ ٢٠٩.
(٣) انظر: تفسير آيات الأحكام، السايس ص ٦٥، المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة ص ٣٣٢.
(٤) انظر: التعريفات، الجرجاني ص ٥٦.
(٥) انظر: المصباح المنير ١/ ٧٤.



الوراثة في حق الله تعالى

أخبر الباري جل جلاله أنه الوارث، وهو اسم من أسمائه الحسنى جل وعلا.

قال الزجاجي: « الله وراث الخلق أجمعين لأنه الباقي بعدهم وهم الفانون، كما قال عز وجل: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [مريم: ٤٠]»[١].

قال الخطابي: الوارث هو الباقي بعد فناء الخلق، والمسترد أملاكهم وموارثهم بعد موتهم، ولم يزل الله باقيا مالكا لأصول الأشياء[٢].

وقد ورد الاسم في القرآن في مواضع متعددة وصيغ شتى:

فجاء الإخبار عن ذلك بصيغة الجمع فقال جل جلاله: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الحجر: ٢٣].

قال الطبري: « ونحن نرث الأرض ومن عليها بأن نميت جميعهم فلا يبقى حي سوانا إذا جاء ذلك الأجل»[٣].

وقال: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [القصص: ٥٨].

وجاء في دعاء زكريا: ﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الأنبياء: ٨٩].

وجاء بصيغة الفعل في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [مريم: ٤٠].

وجاء التعبير بصيغة المصدر في قوله جل وعلا: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ ﴾ [آل عمران: ١٨٠].

وفي قوله: ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [الحديد: ١٠].

قال الطبري: « فإن قال قائل: فما معنى قوله: ﴿ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ والميراث المعروف هو ما انتقل من ملك مالك إلى وارثه بموته ولله الدنيا قبل فناء خلقه وبعده؟ قيل: إن معنى ذلك ما وصفنا من وصفه نفسه بالبقاء، وإعلام خلقه أنه كتب عليهم الفناء وذلك أن ملك المالك إنما يصير ميراثا بعد وفاته، فإنما قال جل ثناؤه: ﴿ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ إعلاما بذلك منه عباده أن أملاك جميع خلقه منتقلة عنهم بموتهم، وأنه لا أحد إلا وهو فان سواء، فإنه الذي إذا

---

(١) اشتقاق الأسماء ص ١٧٣.
(٢) شأن الدعاء ص٩٦.
(٣) جامع البيان ١٤/ ٤٧.

هلك جميع خلقه فزالت أملاكهم عنهم لم يبق أحد يكون له ما كانوا يملكونه غيره»[1].

والمتأمل في سياق الآيات التي وردت في لفظ الوراثة في حق الله يتلمس ما يورثه هذا الاسم من آثارٍ ومعانٍ تزيد في إيمان العبد، ومن ذلك:

١. الملك الحقيقي لله الواحد القهار.

الذي ما من ملك ملكٍ طال ملكه أم قصر إلا وهو راجع إليه سبحانه، وهذا المعنى يورث في النفس تعظيم الله وتقديره حق قدره، وما أعظم هذا الموقف يوم يرث الله الأرض ومن عليها ويجمع الملوك والمملوكين في موقف واحد ثم ينادي فيهم: (لمن الملك اليوم) كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾ [غافر: ١٦ - ١٧].

ويبين هذا المعنى ما رواه ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يطوي الله عز وجل السماوات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين بشماله، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟)[2].

٢. السعي في الدنيا للتقرب إلى الله تعالى بما يرضيه ويقرب إليه.

فإن كان ملوك الدنيا يملكون ملكًا نسبيًّا في الدنيا، فيوم القيامة ملك الله الذي اختص به لنفسه فقال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾﴾ [الفاتحة: ٤].

وهو سبحانه يورث جنته في ذلك اليوم المتقين من عباده كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾ [مريم: ٦٣].

٣. تهيئة النفس وتربيتها أن تكون من الذين يورثهم الله الأرض فيعملون فيها بتحقيق العبودية.

فما من جيل يقدم إلا وقد أورثه الله ديار وتراث من سبقه، فهل سيعمل فيها بما يرضي الله تبارك وتعالى.

وقد حذر الله عباده من ذلك فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [المائدة: ٥٤].

ولا شك أن هذا الإبدال نوع من أنواع

---

(١) المصدر السابق ٦/ ٢٧٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، باب قول الله تعالى: (لما خلقت بيدي)، رقم ٧٤١٢، ومسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، رقم ٢٧٨٨.

الوراثة التي يورثها الله تعالى لعباده.

ومن التهيئة كذلك التهيئة لخلافة الأرض وعمارتها وسياستها كما يريد الله تعالى، ومن تأمل ما قصه الله تعالى بين موسى وقومه يجد هذا المعنى واضحًا جليا، كما سيأتي بيانه، فالإيمان بأن الله هو الوارث وهو الذي يورث من يشاء من عباده تجعل العبد بل الأمة جمعاء على قدر من التأهيل الإيماني والاستعداد العملي لحمل هذه الأمانة إذا ورثوها.

٤. عدم الاغترار بقوة الباطل وانتفاشه.

فإن الله تعالى له بالمرصاد، وسيأتي الوقت الذي يزهقه الله فيه ويورث عباده المؤمنين ديار الكافرين ويمكنهم فيها.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ۝١٠٥﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

فقد يغلب على الأرض جبارون وظلمة وطغاة، وقد يغلب عليها همج وغزاة، وقد يغلب عليها كفار فجار يحسنون استغلال قوى الأرض وطاقاتها استغلالا ماديا ولكن هذه ليست سوى تجارب الطريق، فلا يغتر العبد بهذه القوة، فالوراثة الأخيرة هي للعباد الصالحين الذين يجمعون بين الإيمان والعمل الصالح. فلا يفترق في كيانهم هذان العنصران ولا في حياتهم[(١)].

ويقول تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ۝١٣٧﴾ [الأعراف: ١٣٧].

٥. عدم الاغترار بالدنيا والحذر من الركون إليها.

لأن مآلها إلى فناء ولا يبقى إلا ما قدمه العبد لنفسه يوم القيامة[(٢)]، وما أشد ارتباط هذا المعنى بقول الحق تبارك وتعالى ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ۝٥٨﴾ [القصص: ٥٨]!

٦. الحث على الإنفاق في سبيل الله.

فقد جاء الإخبار عن وراثة الله للسماوات والأرض في موطنين، الأول: في ذم الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله وحبسه وعدم الإنفاق منه، وبيان مالهم في الآخرة من العقوبة، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝١٨٠﴾ [آل عمران: ١٨٠].

وفي ذلك يقول الراغب: «ونبه بقوله:

---

(١) انظر: في ظلال القرآن ٤/ ٢٤٠٠.

(٢) انظر: ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز الجليل ص١٨٤.

﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ على انتقال ما في أيديهم إليه، كما قال: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ٩٤].

ونبه أن ما خولهم لو أنفقوا على ما يجب وكما يجب لاستحقوا ثوابًا، فلما لم يفعلوا ذلك؛ انتقل عنهم، وصار عقوبة لهم، وكأنه إلى مقتضى معناه أشار من أوصى فقال: اكتبوا: هذا ما خلف فلانٌ، يسوؤه وبنوه، انتقل عنه نفعه، وخفي عليه وزره، وبين أنه عالم ببخلهم، وما يؤول إليه حالهم»[1].

والموطن الثاني: في الحث على الإنفاق والدعوة إليه وأنه المال الذي أورثه الله إياه إن لم يدخره المؤمن لنفسه بالإنفاق، فإنه صائر إليه سبحانه، وذلك في قوله: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ⑦﴾ [الحديد: ٧].

وقوله: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: ١٠].

٧. التوجه إلى الله بسؤال الذرية الصالحة[2].

فكان من دعاء زكريا عليه السلام ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ⑧⑨﴾ [الأنبياء: ٨٩].

فاستجاب الله دعاءه فقال: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ⑨⓪﴾ [الأنبياء: ٩٠].

قال القاسمي: وقوله: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ ثناء مناسب للمسألة[3].

ومن أوجه المناسبة:

- الثناء على الله بما يقتضي المقام، فهو سبحانه خير الباقين، وخير من يخلف بخير، وهو أرحم بعباده من أنفسهم.
- النية الصالحة في طلب الذرية، وأنه كما يسأل الله الذرية فيسأله أن يورثه من يخلفه بخير، ولذا جاء في سورة مريم: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ۖ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ⑥﴾ [مريم: ٦].
- الرضا بالله وبما قسم، وفإنه قال: إن لم ترزقني ولدًا يرثني فأنت خير الوارثين فحسبي أنت.

٨. الإيمان بهذا الاسم فيه الرد على المشركين في إنكارهم البعث والجزاء.

ففي قول الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ④⓪﴾ [مريم: ٤٠].

قال ابن عاشور: «وتأكيد جملة إنا نحن نرث الأرض بحرف التوكيد لدفع الشك؛ لأن المشركين ينكرون الجزاء، فهم ينكرون أن الله يرث الأرض ومن عليها بهذا المعنى»[4].

(١) تفسير الراغب الأصفهاني ٣/ ١٠١٣.
(٢) انظر: النهج الأسمى ٢/ ٢٩١.
(٣) محاسن التأويل ٧/ ٢١٩.
(٤) التحرير والتنوير ١٦/ ١١٠.

أنواع الوراثة

أولًا: الوراثة الدنيوية:

١ . وراثة الدين.

من الحقائق القرآنية المسلمة حقيقة الاصطفاء، فالله تبارك وتعالى يصطفي من خلقه من يشاء ويصطفي لدينه من يشاء، كما قال تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة: ١٣٢].

أي: إن الله اختار لكم هذا الدين الذي عهد إليكم فيه واجتباه لكم، فاتقوا الله ولا تفارقوا الإسلام فتأتيكم مناياكم وأنتم على غير الدين الذي اصطفاه لكم ربكم فتموتوا وربكم ساخط عليكم فتهلكوا[(١)].

ومن الوراثة الدينية التي أخبر عنها القرآن الكريم:

١ . وراثة النبوة.

من المقرر أن الله تبارك وتعالى يختار من صفوة خلقه من يشاء فيجعلهم رسلًا كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [النمل: ٥٩].

وقال: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾﴾ [الحج: ٧٥].

فالله تبارك وتعالى يختار من رسله من أزكى الخلق وأجمع لصفات الخير وأحق بالاصطفاء، فهو تعالى سميع بأقوال عباده بصير بمن هو أحق بالاصطفاء.

وكما اصطفى تعالى من رسله من يشاء فقد فضل الله تعالى بحكمته وفضله بعض النبيين على بعض فقال تعالى: ﴿۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

ومن هذا الاصطفاء أن يصطفى تعالى رسلًا فيجعل في ذريتهم النبوة والكتاب ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [آل عمران: ٣٣].

وإنما خص الله تعالى هؤلاء الأنبياء الكرام بالذكر لأن الأنبياء والرسل من نسلهم[(٢)].

وكما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾﴾ [مريم: ٥٨].

فجعل الله تعالى من ذرية آدم نوحًا

(١) جامع البيان ٢/ ٥٨٤.

(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٢٩.

وإدريس، وجعل من ذرية نوح إبراهيم، و وجعل من ذرية إبراهيم إسماعيل وإسحاق، وجعل من ذرية إسرائيل موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى، وقال تعالى عن نوح وإبراهيم عليهما السلام: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [الحديد: ٢٦].

وقال عن إبراهيم: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

وكون النبوة في ذرية هؤلاء الأنبياء عليهم السلام فهو نوع من أنواع الوراثة في الدين، وليس المراد بالإرث هنا إرث الاستحقاق، وإنا هو إرث خاص بالنبوة يهبه الله تعالى لمن يشاء من عباده من ذريته من اصطفاهم جل وعلا.

ولذا فإن زكريا عليه السلام حين خشي ألا يكون من عصبته من يكون صالحًا لوراثة العلم والنبوة، وكان يرجو أن يكون من ذريته من يخلفه في ذلك دعا ربه فقال: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾ [مريم: ٥ - ٦].

والوراثة التي كان يرجوها عليه السلام هي وراثة النبوة والدين[(١)].

قال البغوي: «والمعنى: أنه خاف تضييع بني عمه دين الله وتغيير أحكامه على ما كان شاهده من بني إسرائيل من تبديل الدين وقتل الأنبياء، فسأل ربه وليا صالحا يأمنه على أمته ويرث نبوته وعلمه لئلا يضيع الدين»[(٢)].

وكما أجاب الله دعاء زكريا عليه السلام فقد أنعم الله على سليمان بأن ورث النبوة من أبيه دون سائر ولده، فقال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ۝١٦﴾ [النمل: ١٦].

مما يبين أن وراثة النبوة فضلٌ يهبه الله لمن يشاء، فقد خصه الله بها دون سائر ولد

---

(١) جماهير المفسرين على أن الوراثة هنا وراثة النبوة والدين، واختلفوا هل يدخل في ذلك وراثة المال كذلك أم لا، وقد لخص ابن الجوزي هذه الأقوال فقال: وفي المراد بهذا الميراث أربعة أقوال: أحدها: يرثني مالي، ويرث من آل يعقوب النبوة، أخرجه عكرمة عن ابن عباس، وبه قال أبو صالح. والثاني: يرثني العلم، ويرث من آل يعقوب الملك، فأجابه الله تعالى إلى وراثة العلم دون الملك، وهذا مروي عن ابن عباس أيضًا. والثالث: يرثني نبوتي وعلمي، ويرث من آل يعقوب النبوة أيضًا، قاله الحسن. والرابع: يرثني النبوة، ويرث من آل يعقوب الأخلاق.
انظر: زاد المسير ٣/ ١١٨.
ويرجح البغوي ٥/ ٢١٩ وابن كثير ٥/ ٢١٢ والشنقيطي أن وراثة المال غير داخلة في مفهوم الآية، وعلى فرض دخولها فلا تنافي بينها وبين حديث: (**لا نورث ما تركناه صدقة**) فيكون ذلك من خصائصه التي أكرمه بها.
انظر: فتح الباري، ابن حجر ١٢/ ٩.

(٢) معالم التنزيل ٥/ ٢١٩.

أبيه، ولذا قال بعدها: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ وقال قبلها: ﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾﴾ [النمل: ١٥].

٢. وراثة الكتاب والعلم.

لما كان الدين قائمًا على الرسل وعلى أتباع الرسل وكانت النبوة فيمن اجتبى الله واختار من عباده، فكانت وراثة الكتاب لأتباع الرسل ومن يخلفهم دون وراثة النبوة.

ولما كانت وراثة النبوة اصطفاء واختيارًا من الله تبارك وتعالى، فقد جعل وراثة العلم والكتاب اختبارًا وابتلاء، ليعلم الله تبارك وتعالى، من يأخذ عن الأنبياء حمل هذا الدين بقوة وحق ومن يفرط فيه ويضيعه، فإن ضيعوه كانوا أبعد الناس عنه، وإن حفظوه وقاموا به كان أحق الناس به وشملهم الاصطفاء الذي جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [آل عمران: ٣٣].

إذ إن «الآل: في ﴿وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ﴾ تشمل من اتبع هؤلاء الأنبياء بإحسان فيكون من ورث الكتاب بحق من المصطفين من أتباع الأنبياء.

والآيات التي جاء الحديث فيها عن وراثة الكتاب تدل على هذا المعنى، فقد قال تعالى عن بني إسرائيل بعد ذكر خبر نبي الله موسى وهارون عليهما السلام: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [الأعراف: ١٦٩].

فيخبر الله تعالى عن قوم خلفوا من قبلهم ورثوا الكتاب، أي: انتقل إليهم انتقال الميراث، من سلفٍ إلى خلف[1].

فعهد الله إليهم بهذا الكتاب عملًا وتطبيقًا، ولكنهم خالفوا ذلك واستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير فكانوا خلف سوء، كما قال قتادة: « والله لخلف سوء، ورثوا الكتاب بعد أنبيائهم ورسلهم، ورثهم الله وعهد إليهم، فتمنوا على الله أماني وغرة يغترون بها، لا يشغلهم شيء عن شيء، ولا ينهاهم شيء عن ذلك، كلما هف لهم شيء من أمر الدنيا أكلوه، ولا يبالون حلالا كان أو حراما»[2].

وهذا هو معنى قوله: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾.

وقال ابن زيد: « ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ قال: الكتاب الذي كتبوه، وإن يأتهم المحق برشوة، فيخرجوا له كتاب الله ثم يحكموا له بالرشوة. وكان الظالم إذا جاءهم

(١) انظر: معالم التنزيل ٣/ ٢٩٦، زاد المسير ٢/ ١٦٥.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٩٨.

برشوة أخرجوا له المثناة، وهو الكتاب الذي كتبوه، فحكموا له بما في المثناة بالرشوة، فهو فيها محق، وهو في التوراة ظالم، فقال الله: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ﴾»[1].

فهذا صنف من الأصناف الذين ورثوا الكتاب فضلوا وحادوا ولم ينفعهم ذلك الميراث شيئًا مع شرفه وفضله، والسياق في هذه الآيات يتحدث عن بني إسرائيل، ولشناعة هذا الأمر وقبحه أمر الله نبيه أن يقص قصة رجل ورث الكتاب وآتاه الله آياته فانسلخ من هذا الميراث عياذا بالله، فقال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ۝١٧٥ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝١٧٦﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٦].

وهذا بلا شك أنموذج في غاية السوء فبعد أن علمه الله الكتاب فصار العالم الكبير والحبر النحرير انسلخ من الاتصاف الحقيقي بالعلم بآيات الله الذي يصير صاحبه متصفا بمكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، فترك كتاب الله وراء ظهره، ونبذ الأخلاق التي يأمر بها الكتاب، وخلعها كما يخلع اللباس.

فلما انسلخ منها أتبعه الشيطان، أي: تسلط عليه حين خرج من الحصن الحصين، وصار إلى أسفل سافلين، فأزه إلى المعاصي أزًا بعد أن كان من الراشدين المرشدين، وهذا لأن الله تعالى خذله ووكله إلى نفسه، ولكنه فعل ما يقتضي الخذلان، فأخلد إلى الأرض، أي: إلى الشهوات السفلية والمقاصد الدنيوية. واتبع هواه بترك طاعة مولاه[2].

والآية وإن كان الحديث فيها عمن جاء من بني إسرائيل ممن أوتوا التوراة إلا أن حكمها عامٌّ فيمن ورث كتاب الله فضيعه.

ولذا حكى ابن الجوزي في قوله: (ورثوا الكتاب) ثلاثة أقوال:

الأول: أنه التوراة.

والثاني: الإنجيل.

والثالث: القرآن[3].

وقال ابن كثير بعد أن ذكر أن المراد بالكتاب أنه التوراة: «وقد يكون اللفظ أعم من ذلك»[4].

ولذا قال الله تعالى عن اليهود والنصارى محذرًا أتباع النبي صلى الله عليه وسلم من

(١) جامع البيان، الطبري ١٠/ ٥٣٩.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن بتصرف ص ٣٠٩.

(٣) زاد المسير ٢/ ١٦٥.

(٤) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٤٩٨.

الوقوع فيما وقعوا فيه: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾﴾ [الشورى: ١٤].

أما الصنف الآخر من الذين يرثون الكتاب فقد جاء في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾ [فاطر: ٣٢].

وهذا الصنف من الذين ورثوا الكتاب فعملوا بما ورثوا وما أوتوا - على تفاوتٍ بينهم - فأخبر الله تعالى أنهم من أهل الاصطفاء.

وفي ذلك يقول السعدي: «فكلهم اصطفاه الله تعالى لوراثة هذا الكتاب، وإن تفاوتت مراتبهم وتميزت أحوالهم، فلكل منهم قسط من وراثته، حتى الظالم لنفسه، فإن ما معه من أصل الإيمان وعلوم الإيمان وأعمال الإيمان من وراثة الكتاب، لأن المراد بوراثة الكتاب وراثة علمه وعمله، ودراسة ألفاظه، واستخراج معانيه»[(١)].

وقد جاءت الوراثة في سياق التكريم بأن نسب الله الإيراث لنفسه جل وعلا، فهو الذي أورث، بخلاف السياق في سورة الأعراف والشورى، وفي هذا تكريم لأمة محمد وبيان للصورة التي ينبغي أن يكونوا عليها، ومع التفاوت الموجود بينهم، شريطة أن لا يرتكسوا في الهاوية ويستبدلوا عرض الدنيا بكتاب الله وينسلخون مما آتاهم الله، وفي ذلك يقول سيد قطب « وهي كلمات جديرة بأن توحي لهذه الأمة بكرامتها على الله كما توحي إليها بضخامة التبعة الناشئة عن هذا الاصطفاء وعن تلك الوراثة. وهي تبعة ضخمة ذات تكاليف، فهل تسمع الأمة المصطفاة وتستجيب؟! »[(٢)].

وقد عد الشنقيطي هذه الآية من أرجى الآيات في القرآن الكريم حيث قال: «ثم إنه تعالى بين أن إيراثهم الكتاب هو الفضل الكبير منه عليهم، ثم وعد الجميع بجنات عدن وهو لا يخلف الميعاد في قوله: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ والواو في ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ شاملة للظالم والمقتصد والسابق على التحقيق، ولذا قال بعض أهل العلم: حق لهذه الواو أن تكتب بماء العينين، فوعده الصادق بجنات عدن لجميع أقسام هذه الأمة، وأولهم الظالم لنفسه، يدل على أن هذه الآية من أرجى آيات القرآن»[(٣)].

وهكذا كل من ورث الكتاب فقام به حق قيام كان له الفضل الكبير والأجر من الله، ولقد أثنى الله على من ورث الكتاب من بني

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٦٨٩.

(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٢٩٤٤.
(٣) أضواء البيان ٥/ ٤٨٩.

إسرائيل فحفظ هذا الميراث فقال: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾ [الأعراف: ١٧٠].

وبهذا يتبين أن وراثة الكتاب لغير الأنبياء إنما هي وراثة اختبار وابتلاء، فمن ضيعها ضيعه الله، ومن حفظها وعمل بما ورث من هذا العلم فهو من المصطفين من عباده.

وفي ختام هذا النوع نلحظ أن الآيات التي جاء الحديث فيها عن وراثة الدين تدعو إلى مايلي:

- أن الله تعالى سمى أخذ الكتاب والعلم ميراثًا، وهذا الاسم يستدعي المحافظة على هذا العلم وعدم التفريط فيه بلا شك.
- اتباع سنن الأنبياء وهديهم الذين اجتباهم الله واصطفاهم لحمل رسالته، ولما ذكر الله في سورة الأنعام الأنبياء وذريتهم ممن أورثهم النبوة والكتاب قال: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾[الأنعام: ٩٠].
- أن العبد كما يحرص أن يترك ورثته أغنياء فليحرص أن يترك ورثته على دين وصلاح فيرثون الخير والصلاح والعبادة وهكذا تكون ذريته أهل دين وصلاح، فهذا نبي الله زكريا يقول: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ۖ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾﴾ [مريم: ٥-٦]، فكان حرصه عليه السلام أن يكون من ورثته ذرية صالحة طيبة. والذي يتأمل آيات القرآن يرى أن الدعاء للذرية حاضر في القرآن، كما جاء من دعاء الأنبياء والصالحين في القرآن الكريم، والملاحظ في هذه الآيات أن الدعاء للذرية شمل الذرية القريبة ومن يأتي بعدهم، وهذا تأكيد على أن العبد يرجو من ربه أن تستمر ذريته في وراثة الصلاح والتقوى وعمارة الأرض بما يحبه الله ويرضاه.
- أن وراثة الدين بعد النبوة ليست تشريفًا محضًا، وإنما هو ابتلاء واختبار، فليست القضية بالتمني، فالدعاوى ما لم يصدقها العمل تغدو هباءً، ولذا قال تعالى مخاطبًا عامة الناس: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء: ١٢٣ - ١٢٥].

- وهذه الآية قاطعة أن المعيار الحقيقي هو اتباع ملة إبراهيم حنيفًا، وهذا هو معنى وراثة الدين على الحقيقة، لا المحاجة في دين إبراهيم وأن يدعي كل فريق أن إبراهيم عليه السلام كان منهم.

ومن الادعاء في وراثة الدين والكتاب دراسة مسائله دراسة ظاهر دون العمل به والتمسك بما فيه، ولذا بين الله أن حقيقة الوراثة هو الاستمساك بالكتاب لا دراسته فقط فقال: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [الأعراف: ١٦٩].

«فهم درسوا هذا الكتاب وعرفوا ما فيه! بلى! ولكن الدراسة لا تجدي ما لم تخالط القلوب. وكم من دارسين للدين وقلوبهم عنه بعيد. إنما يدرسونه ليتأولوا ويحتالوا، ويحرفوا الكلم عن مواضعه، ويجدوا المخارج للفتاوى المغرضة التي تنيلهم عرض الحياة الدنيا، وهل آفة الدين إلا الذين يدرسونه دراسة ولا يأخذونه عقيدة ولا يتقون الله ولا يرهبونه؟!»[(١)].

أما التشريف الحقيقي: أن تكون وراثة الدين وراثة حقيقية بالاستمساك به والعمل، وهذا ظاهر من اللفظ القرآني حيث حذف الفاعل حين جاء الحديث في سياق الذم لمن ورث الكتب ولم يعمل به كما في سورة الأعراف: ﴿وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وفي سورة الشورى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الشورى: ١٤].

ولما جاء الحديث في سياق المدح جاء ذكر الفاعل كما في آية سورة فاطر: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ﴾ [فاطر: ٣٢][(٢)].

تذكر الدار الآخرة من أعظم ما يعين على وراثة الدين، وقد ختم الله جل وعلا الآية السابقة بقوله: ﴿وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [الأعراف: ١٦٩].

وكما ذكر ابن القيم في معرض حديثه على الذي آتاه الله الآيات فانسلخ منها: «إنما كان لشدة لهفه على الدنيا لانقطاع قلبه عن الله والدار الآخرة»[(٣)].

ويقول سيد: «لا شيء يثبت على الغير والأحداث وتقلبات الأحوال في هذا الخضم الهائج وفي هذه المعركة الكبرى إلا اليقين في الآخرة، وإنها خير للذين يتقون، ويعفون، ويترفعون، ويثبتون على الحق والخير في وجه الزعازع والأعاصير والفتن، ويمضون في الطريق لا يتلفتون مطمئنين واثقين، ملء قلوبهم اليقين»[(٤)].

٢. وراثة الأرض.

---

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٣٨٧.

(٢) انظر: التفسير القيم ص ٦٢٠.

(٣) التفسير القيم ص ٢٩٠.

(٤) في ظلال القرآن ٣/ ١٣٨٨.

سبق الحديث عن الوراثة في حقِّ الله تعالى، وأنَّ لله تعالى ميراث السماوات والأرض كما في قوله: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٨٠].

وإذا كان الله جلَّ وعلا هو وارث أملاك الخلائق بعد فنائهم، وكلُّ ما في الأرض صائر إليه، فالله تعالى هو مالكها من حيث الابتداء، وهو يورثها من يشاء من عباده، ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

ومن ثَمَّ يمكن تقسيم وراثة الأرض كما وردت في القرآن إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: تملك الكافرين والظالمين واستخلافهم.

وقد جاءت الإشارة إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [الأعراف: ١٠٠ - ١٠١].

والآية وإن كانت عامة فالسياق يدل على أنهم خلف سوء، ولذا ختمت الآية بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾﴾ وقال السدي: أولم يتبين للذين يرثون الأرض من بعد أهلها هم المشركون[(١)]، وكما قال تعالى في حديثه عن الظالمين: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾﴾ [إبراهيم: ٤٥].

وقد تضمنت الآية معنى الوراثة بلا شك، فدلت الآيات على ما يحصل من تسلط الكافرين والظالمين في هذه الأرض، وقد قصَّ الله تعالى علينا من قصصهم في القرآن ما فيه عبرة وتذكرة للمعتبرين.

ومن الأمثلة التي ضربها الله وقصها وصرفها في القرآن علو فرعون وتكبره، فقد أخبر الله تعالى عن شدة عتوه أن قال: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الزخرف: ٥١].

ولذا قال تعالى مبينا شدة ظلمه: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [القصص: ٤].

لقد بلغ من عتوِّ فرعون وعلوه في الأرض من درجات الإفساد أشدها وأعظمها ومن تلك المفاسد:

أولًا: التكبر والتجبر؛ فإنه مفسدة نفسية عظيمة تتولد منها مفاسد جمة من احتقار الناس والاستخفاف بحقوقهم وسوء

(١) جامع البيان ١٠/ ٣٣٥.

معاشرتهم وبث عداوته فيهم.

ثانيًا: أنه جعل شعبه شيعًا، فقرب بعضهم وأبعد بعضهم، وتولدت بينهم مفاسد عظيمة من الحقد والحسد والوشاية والنميمة.

ثالثًا: أنه جعل طائفة من أهل مملكته في ذلٍّ وصغار واحتقار، عذبهم ونكل بهم ومنعهم من حقوقهم وجعلهم عبيدًا للطائفة المقربة لديه.

رابعًا: اجتهد في قتل أطفال الطائفة المعذبة من الذكور حتى لا يكون لبني إسرائيل قوة من رجال قبيلتهم وحتى يكون النفوذ في الأرض لقومه خاصة.

خامسًا: كان يستحيي النساء، أي: يستبقي على حياة الإناث من الأطفال حتى يصبحن بغايا إذ ليس لهن أزواج، وكان قوم فرعون يحتقرونهن ويأنفون أن يتزوجوا بهن، ولم يبق لهن حظٌّ من رجال القوم إلا قضاء الشهوة، فانقلب استحياء البنات إلى مفسدة عظيمة تصل إلى منزلة تذبيح الأبناء[1].

إن هذا مثال صارخ لنوع من وراثة الأرض، ولكنها وراثة بالظلم والقهر والإفساد في الأرض والقتل والبغي بغير الحق و وبما لا يرضي الله تعالى فكان جزاؤهم كما أخبر الله: ﴿ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [الأعراف: ١٣٦].

ضربة واحدة، فإذا هم هالكون، ومن التعالي والتطاول والاستكبار، إلى الهوي في الأعماق والأغوار، جزاء وفاقًا بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين»[2] وهذا جزاء كل وارث يبدل دين الله، ويظلم الناس ويقتلهم.

القسم الثاني: توريث المستضعفين وتمليكهم.

وهذه من سنن الله في وراثة الأرض كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾ [إبراهيم: ١٣ - ١٤].

فلا يمكن للظلم أن يستمر، ومهما طال الظلم وانتفش، فقد اقتضت سنة الله أن يورث الأرض من بعده من وقع عليهم الظلم وذاقوا ويلاته.

وقد أخبر الله تعالى عن إرادته التي لا راد لها أنه سيورث الأرض من بعد فرعون لبني إسرائيل فقال: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [القصص: ٥ - ٦].

(١) انظر: التحرير والتنوير ٢٠/ ٦٨.

(٢) في ظلال القرآن، بتصرف ٣/ ١٣٦٠.

لقد كان بنو إسرائيل ينتظرون هذه الوراثة ويترقبونها، فمما كانوا يتدارسونه في قول إبراهيم الخليل عليه السلام حين ورد الديار المصرية وجرى له مع جبارها ما جرى حين أخذ سارة ليتخذها جارية فصانها الله منه ومنعه منها بقدرته وسلطانه، فبشر إبراهيم عليه السلام ولده أنه سيولد من صلبه وذريته من يكون هلاك مصر على يديه ومع هذا الوعد الذي كانوا يتناقلونه ومع خروج نبي الله موسى بينهم كان العذاب والاضطهاد والإيذاء الذي يجدونه من فرعون يكاد ينسيهم هذا الوعد، حتى قال لهم موسى عليه السلام مذكرًا ومصبرًا: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝١٢٨﴾ [الأعراف: ١٢٨].

فما كان منهم إلا أن قالوا: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ۝١٢٩﴾ [الأعراف: ١٢٩].

وتأمل قوة يقين موسى عليه السلام وفقهه السنني، فهو لا يحمل هم وراثة الأرض والاستخلاف، فهو وعد الله جل وعلا، إنه يحمل هم العمل بعد وراثة الأرض، إنه يحمل هم التمكين بعد التوريث، ولذا قال لهم: ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ۝١٢٩﴾.

ويستمر الاضطهاد والتعذيب حتى يأتي وعد الله ويتحقق ما أراد الله: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ۝١٣٧﴾ [الأعراف: ١٣٧].

أي: بني إسرائيل الذين كانوا خدمة لآل فرعون، يسومونهم سوء العذاب[(١)]، وكما قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٧ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٥٨ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٥٩﴾ [الشعراء: ٥٧-٥٩].

وقد جاء الحديث عن بعض مظاهر هذه الوراثة في مثل قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۝٨٠ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ۝٨١ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ۝٨٢﴾ [طه: ٨٠-٨٢].

وقوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص ٣٠١.

﴿طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ١٦٠﴾ [الأعراف: ١٦٠].

والذي يظهر من هذه الوراثة أنها وراثة تمليك وتقلب، جزاء صبرهم وما لاقوه من الأذى والاضطهاد، وهي كذلك وراثة تمحيص وابتلاء كما هو ظاهر من تذييل الآيات السابقة، وقد روى الطبري في ذلك: « أن الله جعل أرض الشام لبني إسرائيل مساكن بعد أن أخرجهم من مصر، وإنما ابتلاهم بالتيه بامتناعهم على موسى في حرب الجبابرة إذ قال لهم: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ٢١﴾ [المائدة: ٢١].

إلى قوله: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ٢٤﴾ [المائدة: ٢٤].

فحرم الله جل وعز على قائل ذلك فيما ذكر لنا دخولها حتى هلكوا في التيه وابتلاهم بالتيهان في الأرض أربعين سنة، ثم أهبط ذريتهم الشام، فأسكنهم الأرض المقدسة، وجعل هلاك الجبابرة على أيديهم مع يوشع بن نون بعد وفاة موسى بن عمران. فرأينا الله جل وعز قد أخبر عنهم أنه كتب لهم الأرض المقدسة ولم يخبرنا عنهم أنه ردهم إلى مصر بعد إخراجه إياهم منها»[1].

من خلال ما سبق يتبين أن هذه الوراثة وراثة تمليك وتقلب في البلاد لجيلٍ ذاق الظلم والاضطهاد والاستضعاف، حتى خرج من بوتقة العبودية وظلام الاستعباد إلى رحابة الحرية ونور الاستخلاف، وهذه نعمة وأي نعمة كما قال تعالى: ﴿وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ٤٩﴾ [البقرة: ٤٩].

ولكن هذه الوراثة لا تؤهله بعد لوراثة التمكين، لقد خرج من الاستعباد نعم ولكنه خرج مثقلًا بآثار الاضطهاد والاستضعاف، وليس أفسد للنفس البشرية من الذل والخضوع للطغيان طويلًا، ومن الحياة في ظل الإرهاب والخوف والتخفي والالتواء لتفادي الأخطار والعذاب والحركة في الظلام، مع الذعر الدائم والتوقع الدائم للبلاء!

ولقد عاش بنو إسرائيل في هذا العذاب طويلًا، فأورثهم الله الأرض ليمحصهم ويهذبهم ويستصلح نفوسهم من هذه الآثار حتى يكون فيهم أو منهم جيل الوراثة التي يريدها الله، وهو النوع الثالث من أنواع وراثة الأرض.

(١) جامع البيان ٢/ ٢٣.

القسم الثالث: وراثة التمكين في الأرض.

وهذه الوراثة تفهم من عمومات الآيات التي تحدث عن وراثة الأرض كقوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥﴾ [القصص: ٥].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝١٢٨﴾ [الأعراف: ١٢٨].

فالوراثة عامة تشمل النوع الثاني وهذا النوع.

كما دل على هذا النوع قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ۝١٠٥﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

أي: أرض العدو، يورثها الله المؤمنين في الدنيا[(١)]، كما قال تعالى في مبينا نعمته على النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ومبشرًا لهم بقوله: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ۝٢٧﴾ [الأحزاب: ٢٧].

ومن الآيات الدالة على ذلك كذلك قوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٥٥﴾ [النور: ٥٥].

وحقيقة هذه الوراثة يبينها سيد قطب بقوله: «لقد استخلف الله آدم في الأرض لعمارتها وإصلاحها، واستخدام الكنوز والطاقات المرصودة فيها، والبلوغ بها إلى الكمال المقدر لها في علم الله.

وفي الطريق لبلوغ ذلك التوازن والتناسق تشيل[(٢)] كفة وترجح كفة، وقد يغلب على الأرض جبارون وظلمة وطغاة، وقد يغلب عليها همج ومتبربرون وغزاة، وقد يغلب عليها كفار فجار يحسنون استغلال قوى الأرض وطاقاتها استغلالا ماديا، ولكن هذه ليست سوى تجارب الطريق، والوراثة الأخيرة هي للعباد الصالحين الذين يجمعون بين الإيمان والعمل الصالح، فلا يفترق في كيانهم هذان العنصران ولا في حياتهم.

وحيثما اجتمع إيمان القلب ونشاط العمل في أمة فهي الوارثة للأرض في أية فترة من فترات التاريخ، ولكن حين يفترق هذان العنصران فالميزان يتأرجح، وقد تقع الغلبة للآخذين بالوسائل المادية حين يهمل الأخذ بها من يتظاهرون بالإيمان، وحين تفرغ قلوب المؤمنين من الإيمان الصحيح

(١) انظر: أضواء البيان ٤/ ٢٥٠.
وفي الآية قول آخر تحتمله الآية: أن الوراثة هي وراثة الجنة.

(٢) أي: تخف كفة، تقول العرب: شال الميزان، إذا ارتفعت إحدى كفتيه لخفتها.
انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ١١/ ٢٨٢.

الدافع إلى العمل الصالح، وإلى عمارة الأرض والقيام بتكاليف الخلافة التي وكلها الله إلى هذا الإنسان.

وما على أصحاب الإيمان إلا أن يحققوا مدلول إيمانهم، وهو العمل الصالح، والنهوض بتبعات الخلافة ليتحقق وعد الله، وتجري سنته: ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ ۝١٠٥﴾ فالمؤمنون العاملون هم العباد الصالحون»[(١)].

وقد ضرب الله لنا في القرآن أنموذجًا لهذه الوراثة في قصة ذي القرنين، فقال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ۝٨٣ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ۝٨٤﴾ [الكهف: ٨٣ - ٨٤].

وتأمل قوله: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: بتذليل الطرق وتسهيل السير فيها، وقوله: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ۝٨٤﴾ أي: أعطيناه من كل شيء يحتاج إليه الخلق، وفيهما من الدلالة على قوة التمكين والتسخير بلوغه غاية عظيمة في ذلك حتى قال بعض المفسرين: معالم الأرض ومنازلها وأعلامها وآثارها. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم يعني: تعليم الألسنة كان لا يغزو قوما إلا حدثهم بلغتهم.

وقص الله لنا كيف سخر هذه الإمكانات التي آتاه الله إياها في عمارة الأرض حتى بلغ من الأرض ما انتهى إليه ولا يمكن لأحد أن يتجاوزه، فلما بلغ تلك الجهة ورأى مغرب الشمس، ذكر تعالى أنه حكم في تلك الناحية: ﴿إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ۝٨٦ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ۝٨٧﴾ [الكهف: ٨٦-٨٧].

فيجتمع عليه عذاب الدنيا والآخرة، وبدأ بعذاب الدنيا لأنه أزجر عند الكافر ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ۝٨٨﴾ [الكهف: ٨٨].

فبدأ بالأهم وهو ثواب الآخرة وعطف عليه الإحسان منه إليه وهذا هو العدل والعلم والإيمان، ثم انتقل بعد ذلك راجعًا إلى المشرق فرأى في تلك الجهة قومًا ليس لهم بيوت ولا أكنان يستترون بها من حر الشمس حتى قيل: إنهم كانوا يأوون إذا اشتد عليهم الحر إلى أسراب قد اتخذوها في الأرض شبه القبور.

ولما كان سيره ووراثته للأرض وراثة إعمار وطاعة، كان محفوظًا بحفظ الله وستره وعنايته في مسيره كله، وذلك قول الله: ﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ۝٩١﴾ [الكهف: ٩١].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾، فذكروا له أن يأجوج ومأجوج قد تعدوا عليهم، وأفسدوا

(١) في ظلال القرآن، بتصرف ٤/ ٢٤٠٠.

في بلادهم، وقطعوا السبل عليهم.

وبذلوا له خراجًا على أن يقيم بينهم وبينهم حاجزا يمنعهم من الوصول إليهم، فامتنع من أخذ الخراج اكتفاءً بما أعطاه الله من الأموال الجزيلة ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ [الكهف: ٩٥].

ثم طلب منهم أن يجمعوا له رجالًا وآلات ليبني بينهم وبين يأجوج ومأجوج ردمًا، وهو الحاجز الحصين الموثق بعضه فوق بعض، مع التلاصق المتلاحم الموجب لأن لا يميز بعضه من بعض، وكانوا لا يستطيعون الخروج إليهم إلا من بينهما، وبقية ذلك بحار مغرقة وجبال شاهقة، فبناه كما قال تعالى من الحديد والقطر وهو النحاس المذاب، فجعل بدل اللبن حديدا وبدل الطين نحاسا، ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ۝٩٧﴾ [الكهف: ٩٧].

أي: يعلو عليه بسلالم ولا غيرها وما استطاعوا أن ينقبوه بمعاول ولا فؤوس ولا غيرها.

وبعد هذا قال: ﴿هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ [الكهف: ٩٨].

أي: قدر الله وجوده ليكون رحمة منه بعباده أن يمنع بسببه عدوان هؤلاء القوم على من جاورهم في تلك المحلة[(١)].

ولما وصف الله ورثة هذا النوع بأنهم الصالحون، وضرب الله لنا أنموذجًا واقعيا من هؤلاء الصالحين، فيمكن لنا أن نتلمس أبرز سمات هؤلاء الوارثين:

أولًا: الإيمان بالله واليوم الآخر، وهذا ظاهر في طريقة حكمه، حيث جعل الميزان هو ميزان الحق تبارك وتعالى، وأن حكمه الدنيوي لا يساوي شيئًا أمام حكم ملك الملوك جل وعلا في الإساءة والإحسان على السواء، ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ۝٨٧ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ۝٨٨﴾ [الكهف: ٨٧-٨٨].

وهذا يدل على مدى إيمانه بالله وتذكره الدار الآخرة، ولم ينسه ما هو فيه من الملك والتمكين هذه الحقيقة.

ثانيًا: الجد والاجتهاد والسعي قدر الطاقة، فقد جد ذو القرنين حتى بلغ ما انتهى إليه علمه من جهة المغرب، ثم سار إلى الجهة المقابلة حتى بلغ منتهاها ولا يقدر على مثل ذلك إلا من اجتهد وجد بكل ما آتاه الله من قوة، دون تضييع لها أو تفريط.

ثالثًا: بذل الخدمة وتقديم النصح والمساعدة، وهكذا هم الوارثون يبذلون الخدمة والمساعدة لمن يحتاج، وخصوصًا إذا بلغت الحاجة حد الضعف الذي يجرؤ الأعداء عليهم، وحد الجهل الذي يورثهم

(١) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير ٢/ ١٢٦.

العجز وسوء التدبير، وهذا كان واقع الذين طلبوا من ذي القرنين بناء السد، فقد تسلط عليهم يأجوج ومأجوج ظلمًا وبغيا، ومع ذلك فهم لا يكادون يفقهون قولا.

رابعًا: استغلال الثروات والموارد البشرية: فالوارثون هم من يستثمرون الثروات في تنمية الأوطان وازدهارها، فحين طلب القوم من ذي القرنين بناء السد، لم يكن منه إلا أن أحسن إدارة الثروات والاستفادة منها، فقد كان الحديد والنحاس بين أيديهم، وهم الذين بنوا وشاركوا وعاونوا كما دل على ذلك واو الجماعة في: ﴿فَأَعِينُونِي﴾ ﴿ءَاتُونِي﴾ ﴿ٱنفُخُوا﴾ ﴿قَالَ ءَاتُونِيٓ﴾، فالوارث على الحقيقة هو من يستطيع أن يسخر الناس في خدمة أوطانهم وبلدانهم، وأن يستثمر ثرواتهم في تنميتها، أما الظالم فهو الذي يجعل من الثروات طريقًا للجشع ونهب ثروات البلاد بغير حق، ويستغل جهل الناس وضعفهم في إذلالهم واستعبادهم.

خامسًا: تذكر نعمة الله ونسبة الفضل له، وهذا ظاهر من قول ذي القرنين بعد اكتمال السد: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّي﴾ [الكهف: ٩٨].

وفي ختام هذا المبحث نلحظ أن الآيات التي جاء الحديث فيها عن وراثة الأرض تضمنت ما يلي:

١. أن الظلم والفساد والعمل بمعصية الله في المجتمعات سبب في نزع هذه الوراثة.

وقد قال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَهۡدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ أَهۡلِهَآ أَن لَّوۡ نَشَآءُ أَصَبۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡۚ وَنَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ١٠٠﴾ [الأعراف: ١٠٠].

وهذا الآية عامة، وقد أخبرنا الله بما حصل لبني إسرائيل بسبب ذنوبهم وكيف نزعت منهم الوراثة أبد الآبدين فقال تعالى: ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبۡعَثَنَّ عَلَيۡهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلۡعِقَابِۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٦٧﴾ [الأعراف: ١٦٧].

ومن ذلك ما أخبر الله عنهم في قوله تعالى: ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ٤ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا ٥﴾ [الإسراء: ٤ – ٥].

وذلك أنهم لما بغوا وطغوا سلط الله عليهم عدوهم، فاستباح بيضتهم، وسلك خلال بيوتهم وأذلهم وقهرهم، جزاء وفاقا، وما ربك بظلام للعبيد؛ فإنهم كانوا قد تمردوا وقتلوا خلقا من الأنبياء والعلماء[(١)].

والعموم في الآية الأولى هو تحذير لكل من دخل في هذا العموم، وقد جاء التحذير

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثر ٥/ ٤٨.

باستبدال الوراثة صريحًا في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [التوبة: ٣٨ - ٣٩].

وقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم أمته، بأن ضياع الدين وترك شرائعه سبب في الذب وتسلط الأعداء، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم»[1].

قال سيد قطب: «وليس العذاب الذي يتهددهم هو عذاب الآخرة فقط، بل عذاب الدنيا والآخرة، عذاب الذل الذي يصيب القاعدين عن الجهاد، عذاب الحرمان من الخيرات التي يستفيد منها العدو الكافر ويحرمها أهلها، وهم مع ذلك كله يخسرون من النفوس والأموال أضعاف ما يخسرون في الجهاد، ويقدمون على مذابح الذل أضعاف ما تتطلبه منهم الكرامة لو قدموا لها الفداء، وما من أمة تركت الجهاد إلا ضرب الله عليها الذل فدفعت مرغمة صاغرة أضعاف ما كان يتطلبه منها جهاد الأعداء»[2].

٢. تسليط الظالمين وعلوهم في الأرض بين الله تعالى بعض أسبابه ومقاصده.

منها: الابتلاء، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾﴾ [محمد: ٤].

فإنه تعالى على كل شيء قدير، وقادر على أن لا ينتصر الكفار في موضع واحد أبدا، حتى يبيد المسلمون خضراءهم، ولكن الله سبحانه له الحكمة في إدالة الكفار في بعض الأوقات على المسلمين إدالة غير مستقرة، ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ فيعلم المجاهدين منكم والصابرين فيثيبهم، ويبلوهم بكم، فيعاقب بأيديكم من شاء منهم حتى ينيب إلى الحق[3].

ومنها: الرجوع إلى الله تعالى والتوبة، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾ [آل

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب البيوع، باب في النهي عن العينة، رقم ٣٤٦٢. وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ١٣٦، رقم ٤٢٣.

(٢) في ظلال القرآن ٣/ ١٦٥٥.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص ١٤٦٩، محاسن التأويل، القاسمي ٨/ ٤٦٨.

عمران: ١٦٥].

فقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ دعوة للمحاسبة والمراجعة في تخلف أسباب النصر من النزاع أو مخالفة أمر النبي صلى الله عليه وسلم ونحو ذلك.

ومنها: تمييز الخبيث من الطيب، ومعرفة من يتبع الدين رضًا وقناعة ممن يتبعه حال الرخاء، فإذا حصلت الشدائد انقلب على عقبيه، نسأل الله العافية.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾ [آل عمران: ١٦٦-١٦٧].

وقال تعالى: ﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

٣. أن توريث الله تعالى لعباده المستضعفين والمسلمين بعد تسلط الظالمين، منة ونعمة منه سبحانه كما في قوله: ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ [البقرة: ٤٩].

وقال: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾﴾ [القصص: ٥].

ثم تأتي مرحلة الاختبار والابتلاء ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأعراف: ١٢٩].

فإن قاموا بما أمر الله من العمل والعبادة والصلاح حصل لهم التمكين والوراثة التامة التي أخبر الله تعالى عنها بقوله: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأعراف: ١٢٨].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

٤. أهمية النظر في القصص التي قصها الله تعالى من قصص الوارثين على تنوعها والاعتبار بها.

تمثل قصة ذي القرنين نموذجًا مشرقًا من وراثة الأرض كما يحب الله ويرضى حيث جمع بين أداء حق الله في الأرض بالإيمان والعمل الصالح، والقيام بحقوق المخلوقين، واستثمار الموارد والثروات في تكثير الخير وتقليل الشر.

٣. وراثة الميت.

جاء الحديث عن وراثة الميت في سورة النساء، وكان أول ما نزل في المورايث قوله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾﴾ [النساء: ٧].

وكانت هذه الآية ممهدة وموطئة لما يليها من الأحكام، فقد أصبح من المسلمات لدى العرب في الجاهلية أن المرأة لا حق لها من الميراث وقضوا على ذلك العقود بعد العقود، فإذا جاء تشريع المواريث مبينا الأحكام التفصيلية ومقدار ما يستحقه كل من الذكر والأنثى، سيشق ذلك على الناس وقد لا تقبله النفوس مباشرة.

فكان من الحكمة أن تأتي آية تشريع المواريث ممهدة لبيان الأحكام التفصيلية، لتهيئ النفوس لقبول حكم الله والإذعان له[1].

فقوله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾﴾ [النساء: ٧].

إجمال لما سيتبع من البيان، وإبطال لما قد كان.

وكان التمهيد في هذه الآية بما يلي:

أولًا: أن تقدير المواريث حق لله تبارك وتعالى، وفريضة من الفرائض التي يجب الالتزام فيها بأحكام الله، وإبطال أحكام الجاهلية وإلغائها، وقد ختمت الآية بقوله: ﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ تقريرًا لهذا المعنى.

ثانيًا: إثبات حق المرأة في الميراث، لا كما يفعله أهل الجاهلية، وحماية حقها وتفصيل هذا في الحكمة الثالثة من حكم المواريث كما سيأتي بيانه.

ثالثًا: بيان علة الميراث وهي: القرابة، كيفما تصرفت من قريب أو بعيد.

رابعًا: أن نصيب كل من الرجل أو المرأة محدد معين لامجال فيه للآراء أو العادات[2].

وفي هذه التوطئة من تثبيت القلب وتخفيف التكليف الذي يخالف عادة الجاهلية ما يرفع الحرج ويزيل المشقة، وهذا من رحمة الله وإرادته الخير لعباده حتى يذعنوا ويطيعوا، فهو سبحانه لا تضره معصية العاصين ولا تنفعه طاعة الطائعين، وما هذا التيسير إلا من اصطفاء الله واختياره لهذه الأمة.

ثم جاء الحديث عن المواريث ومقاديرها مفصلة في قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِن

(١) انظر: أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ٣٢٨.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٤٦، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٤/ ٢٤٩.

كُنَّ نِسَآءً فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١١﴾ ۞ وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٞ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡنَۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَكُمۡ وَلَدٞ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكۡتُمۚ مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۗ وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ ﴿١٢﴾﴾ [النساء: ١١-١٢].

ثم جاء بيان بعض أحكامها في آخر سورة النساء بقوله: ﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ لَيۡسَ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَهُۥٓ أُخۡتٞ فَلَهَا نِصۡفُ مَا تَرَكَۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهَا وَلَدٞۚ فَإِن كَانَتَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَۚ وَإِن كَانُوٓاْ إِخۡوَةٗ رِّجَالٗا وَنِسَآءٗ فَلِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴿١٧٦﴾﴾ [النساء: ١٧٦].

كما جاء في آخر سورة الأنفال قوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنفال: ٧٥].

وقد تضمنت هذه الآيات جملة من مسائل المورايث موضعها في كتب الفقه، وأحكام القرآن[١].

وقد تضمنت الآيات من الحكم العظيمة والغايات الجليلة ما يدعو إلى الامتثال والتطبيق وربطها بمقاصد الشريعة وغاياتها ومن ذلك:

١ . تقوى الله تعالى.

ورد النص القرآني صريحا مبينا أن امتثال التقوى يقود إلى الصواب والرشاد، فقال تعالى: ﴿وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ فَلۡيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡيَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدًا ﴿٩﴾﴾ [النساء: ٩].

فجاء الأمر بالتقوى الذي في امتثاله صلاح العبد وتوفيقه إلى القول السديد، سواء في ذلك المورث حال وصيته أو من حضره حال الوصية.

فإن كان يخشى إن هو أوصى بماله للفقراء والمساكين أن يضر بورثته وأولاده، فعليه أن يتقي الله في هؤلاء الورثة وألا

(١) انظر: الفقه الميسر من الكتاب والسنة، مجموعة مؤلفين ١/ ٣٢٨.

يدعهم فقراء[1]، وهذا من السداد.

كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لسعد بن أبي وقاص: (الثلث والثلث كثيرٌ، إنك إن تدع ورثتك أغنياء خيرٌ من أن تدعهم عالةً يتكففون الناس في أيديهم وإنك مهما أنفقت من نفقةٍ فإنها صدقةٌ حتى اللقمة التي ترفعها إلى في امرأتك وعسى الله أن يرفعك فينتفع بك ناسٌ ويضر بك آخرون) ولم يكن له يومئذٍ إلا ابنةٌ[2].

وكذلك فإن من حضر الميت أثناء وصيته ورأى في وصية الميت ما يضر بورثته، فعليه أن يتقي الله ويجعل ورثة الميت مكان أولاده، فهل يرضى لهم ما يرضى لأولاده، فإذا رآه أوصى بما يضر بورثته فعليه نصحه وتوجيهه إلى الهدي النبوي والشرع الإلهي.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: هذا في الرجل يحضره الموت، فيسمعه الرجل يوصي بوصية تضر بورثته، فأمر الله تعالى الذي يسمعه أن يتقي الله، ويوفقه ويسدده للصواب، ولينظر لورثته كما كان يحب أن يصنع بورثته إذا خشي عليهم الضيعة[3].

أما إن غلب على ظنه أنه لو أوصى للفقراء والمساكين ألا يضر بورثته، فإن ذلك من التقوى، فكما أنه يحب أن يحسن إلى ذريته فعليه أن يتقي الله في الفقراء والمساكين.

٢. بيان عدل الله تعالى.

فإن الله - جلت حكمته- فرض عند اجتماع الذكور والإناث في الميراث أن للذكر مثل حظ الأنثيين سواء كانوا أولادا أو إخوة فقال تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾ الآية [النساء: ١١].

وقال: ﴿وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾ [النساء: ١٧٦].

وفي هاتين الآيتين تتجلى مظاهر العدل للقارئ المتبصر في أمرين:

الأول: التسوية بين الذكور فيما بينهم من الميراث، وبين الإناث كذلك.

فلقد كان أهل الجاهلية يورثون من الذكور الأكبر فالأكبر ولا يعطون الصغير شيئا، معللين ذلك بأن الكبير أنفع لهم من الصغير، فأبطل الله هذا الحكم وأمر بالتسوية بين الذكور فيما بينهم ملغيا في ذلك أي علة يراد منها تغيير فرض الله الذي

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ١٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢٢٢، المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٥٠٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوصايا، باب أن يترك ورثته أغنياء خير من أن يتكففوا الناس، رقم ٢٥٩١، ومسلم في صحيحه، كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث، رقم ١٦٢٨.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ١٩.

فرضه [1] فقال: ﴿لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ﴾ [النساء: ١١].

ولذلك فقد جاء التعبير بلفظ: (الذكر والأنثى) دون ذكر (الرجال والنساء) في هذه الآية للتنصيص على استواء الصغار والكبار من الفريقين في الميراث دون البلوغ [2].

وهذا عدل منه جل وعلا، فلئن كان الكبار أحوج إلى المال لحملهم السلاح في نظر قوم فإن الصغار الذين لا يستطيعون التكسب والحصول على المال هم أحوج في نظر آخرين فكان العدل في ذلك هو ما حكم به أحكم الحاكمين.

الثاني: تفضيل الذكر على الأنثى في هذه الحالة.

فإن من عدل الله تبارك وتعالى عدم التسوية بين الرجال والنساء في الميراث، وكيف يسوى بمن فرق الله بينهما وفضل بعضهما على بعض فقال: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٦].

وقد بين الله تبارك وتعالى أن هذه القسمة أعدل قسمة وأقومها، وأن من رام غيرها فهو في ضلال كما ذكر في آخر سورة النساء.

وإذا وجد من يعترض على توريث النساء لضعفهن وعدم قيامهن بما يقوم به الرجل ووجد من يعترضون على عدم التسوية بين الرجل والمرأة فقد رد الله جل جلاله عليهم جميعا بقوله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا ۖ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ۚ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾﴾ [النساء: ٣٢].

فعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: (يا رسول الله: تغزو الرجال ولا نغزو، وإنما لنا نصف الميراث! فنزلت: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا ۖ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ [3].

فالله تبارك وتعالى هو العدل ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

وتتجلى مظاهر العدل لنا في هذه القسمة الربانية بما أخبر الله تعالى عن الرجال والنساء في قوله: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤]

(١) انظر: جامع البيان ٧/ ٣٢، تفسير القرآن العظيم ٢/ ٢٢٦، روح المعاني ٤/ ٢٢٨.

(٢) انظر: روح المعاني ٤/ ٢١٧.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره ٨/ ٢٦١، وابن أبي حاتم في التفسير ٤/ ١٣٢، والترمذي في سننه، كتاب التفسير، باب سورة النساء رقم ٣٠٢٢، والإمام أحمد في المسند رقم ٢٦٧٧٩، والحاكم في المستدرك، كتاب التفسير، باب تفسير سورة النساء برقم ٣١٩٥، كلهم عن ابن أبي نجيح عن مجاهد.
قال الترمذي: هذا حديث مرسل.
وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد على شرط الشيخين، إن كان سمع مجاهد من أم سلمة.

فإن الله تبارك وتعالى جعل الرجال أكمل من النساء، ولما كان ضعف النساء ونقصهن جبلة وطبيعة خلقهن الله عليها، فقد كلف الرجال بما لم يكلف به النساء، وجعل المرأة الضعيفة تحت نظر الرجل، ولذلك فإن الرجل مكلف بالإنفاق عليها والقيام على حوائجها دون أن يطلب منها ذلك، فالرجل أحوج منها للمال لما يجب عليه من النفقة وتكلف معاناة التكسب والتجارة، ولذلك كان من العدل أن يكون ميراثه ضعفي ميراث الأنثى.

ثم إن هذا المال الذي ورثاه لم يتعبا في جمعه، وليس هو حق من أحدهما أعطي للآخر، بل هو فضل من الله وتمليك منه سبحانه ملكهما إياه تمليكا جبريا، فاقتضت حكمته سبحانه أن يضاعف للرجل لأنه مترقب النقص بالنفقة ودفع المهور، والبذل على نوائب الدهر.

بينما المرأة مترقبة للزيادة بدفع المهر والميراث لها، والنفقة عليها، وإيثار مترقب النقص دائمًا على مترقب الزيادة دائمًا لجبر بعض نقصه المترقب، حكمة ظاهرة واضحة لا ينكرها إلا من أعمى الله بصيرته بالكفر والمعاصي[(١)].

ومن كمال عدل الله أنه لم يطرد في الميراث تفضيل الذكر على الأنثى، بل هناك من الأحوال ما يتساوى فيه الذكر والأنثى، كما في قوله: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ﴾ [النساء: ١١].

وقوله: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ﴾[النساء: ١٢].

كما ذكر العلماء حالة اختلف فيها العلماء، وظاهر النص يقتضي تفضيل الأنثى على الذكر في الميراث، في حال ماتت امرأة وتركت زوجًا وأبوين وبنتًا أو بنتين.

والعجب ممن يتهم الإسلام بظلم المرأة، وهو الذي أنقذها من أن تورث كما يورث المال، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا﴾[النساء: ١٩].

«وإذا نظرنا إلى النظام الشائع خارج العالم الإسلامي نرى أنه يعطي المورث الحق في توزيع تركته بين من يخلفه من أولاده وغيرهم وفق رأيه ورغبته، وفي الغالب أن المورث يفضل إيثار الذكور من أولاده بالميراث، أما بقصد عدم خروج المال عن العائلة أو بقصد آخر، وهذا أمر يظهره الواقع.

فالإرث في الإسلام يحمي المساواة بين الذكر والأنثى بأن يكون لكل منهما نصيب

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢٢٥، روح المعاني، الألوسي ٤/ ٢١٧، أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٢٢٢.

من الإرث يقدره العليم الحكيم لعوامل مختلفة ويحصنها من أهواء أو رغبات المورثين ويستجيب بذلك لمقتضيات المنطق والعدل، فالنظام الإسلامي كما هو ظاهر يحمي المساواة بين الذكر والأنثى ولا ينتهكها»[1].

ومن كمال عدل الله تعالى في المواريث: أن رفع مكانة المرأة بأن جعل لها نصيبًا مقدرًا، وقد كانت لا ترث، بل إن سبب نزول آيات المواريث هي في حماية حقوق المرأة حين اشتكت امرأة سعد بن الربيع في أخذ مال ابنتيها.

ومن كمال حفظ حقها: أن الله تعالى بين مقادير الإرث في القرآن فذكر النصف والربع والثلثين والثلث والسدس ونحو ذلك، ولم يذكر عدد ركعات الصلوات، ولا مقادير الزكاة ولا أنصبتها في القرآن، مع أن الصلاة في الإسلام هي أعلى شأنًا من المواريث، وهذا فيه بيان لشأن الميراث، وأن الظلم فيه إثم عظيم وخطر كبير، فكيف يقال إن المرأة في الإسلام ظلمت في ميراثها؟!

بل جعل نصيب المرأة في الميراث هو الأصل، فقال جل وعلا: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء: ١١].

ولم يقل للأنثى نصف حظ الذكر، وهذا يبين أن المرأة أخذت حقها تمامًا غير منقوص.

٣. النهي عن الضرر.

وقد ورد في آيات المواريث النهي عن الضرر في الوصية، فإن الله تعالى لما بين ما للورثة من حق وما للموصى لهم من حق ختم الآية بالنهي عن الضرر فقال: ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ ۚ﴾ [النساء: ١٢].

أي: لا يدخل الضرر على الورثة بالوصية التي يوصي بها الميت، وذلك أنه لما كان الموصى لهم والورثة شركاء فيما بقي من التركة بعد أداء الدين نهى الله عما يضر الورثة في مال مورثهم لما يلحقهم من المشقة والحرج.

ثانيًا: الوراثة الأخروية:

تبين في المباحث السابقة سنة الله في وراثة الحياة الدنيا، قرون تليها قرون، وأجيال ترثها أجيال، وأحياء يرثون أمواتًا، وهكذا تمضي الحياة منذ خلق الله آدم حتى يأتي اليوم الذي أخبر الله عنه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ۝٤٠﴾ [مريم: ٤٠].

فلا بقاء في الدنيا ولا خلود، وهذه الحقيقة التي حاول الكفار التشكيك فيها،

---

(١) انظر: مقالات وأبحاث، صالح الحصين ص ١١١.

فكان هذا الرد قاطعًا للأطماع مؤيسًا للآمال.

هذا هو الجزء الأول من الحقيقة، أما الشطر الثاني وهو الأعظم ألا وهو: ﴿وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ۝٤٠﴾

وهذه هي الحقيقة التي تمايز فيها أهل الكفر وأهل الإيمان، إنها حقيقة اليوم الآخر.

فأما الكافرون والمعاندون فكان حالهم التشكيك والتكذيب والاستهزاء كما جاء خبرهم في غير آية، كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝١٥ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝١٦ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ۝١٧﴾ [الصافات: ١٥-١٧].

وكقوله: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟﴾ [التغابن: ٧].

وكقوله: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ۝٤﴾ [القيامة: ٣-٤].

والآيات كثيرة في بيان حال الكافرين في استهزائهم وتكذيبهم باليوم الآخر.

وأما الصالحون الأبرار فكان إيمانهم باليوم الآخر من أعظم الدوافع للسعي إلى ما يرضي الله، وتحمل المشاق والأذى في سبيل مرضاته، كقوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝١٠﴾ [الإنسان: ٨ - ١٠].

كما جاء الحديث عن اليوم الآخر في القرآن متكاثرًا متنوعًا، فتارة يرد في وصف المتقين، وتارة يأتي في سياق الشرط المقتضي للقيام بأمر من أوامر الله، وتارة يأتي في سياق النفي في ذم الأعمال التي تغضب الله تعالى، لما للإيمان بهذا اليوم العظيم من الأثر البالغ في التقرب إلى الله، وقد جاء تصوير حال أهل الكفر وأهل الإيمان في الدنيا ثم حالهم في الآخرة وأثر الإيمان بهذا اليوم من عدمه على الفريقين، وهو تصوير بليغ يبين عظم منزلة هذا اليوم، وأن الفوز الحقيقي هو الفوز به.

فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ۝٢٩ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۝٣٠ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ۝٣١ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ۝٣٢ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ۝٣٣ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ۝٣٤ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٣٥ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ۝٣٦﴾ [المطففين: ٢٩-٣٦].

والمعنى: هل جازينا الكفار على عملهم الذي كان من جملته ضحكهم بكم واستهزاؤهم بطريقتكم، كما جازيناكم على أعمالكم الصالحة؟ فيكون هذا القول زائدا في سرورهم، لأنه يقتضي زيادة في تعظيمهم والاستخفاف بأعدائهم[1]، وما أعظم هذه

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٣١/ ٩٥.

الكلمة وأشدها على الكفار، فجمع لهم بين العذاب الحسي والعذاب النفسي، حين يتذكرون صنيعهم وتكذيبهم، فإذا هم قد عاينوا العذاب ووقع بهم.

وقد جاءت الآيات متكاثرة في وصف ما أعد الله للمتقين وما أعد للكافرين في الآخرة، والملاحظ في التعبير القرآني أن هناك بعض الألفاظ التي جاءت مشتركة في بيان ما أعد الله لأهل الجنة وأهل النار، وهناك ألفاظ اختصت بما أعد الله لأوليائه في الجنة، ومن هذه الألفاظ: لفظ الوراثة، فقد اختص بما أعد الله لأهل الإيمان كما في قوله: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأعراف: ٤٣].

وكقوله: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الزخرف: ٧٢].

وقوله: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾ [مريم: ٦٣].

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾ [المؤمنون: ١٠-١١].

وسر اختصاص هذا اللفظ بأهل الجنة والله أعلم أن لفظ الوراثة يفيد استحقاق أهل التوحيد للجنة بأكمل أنواع الاستحقاق، فالوراثة أقوى لفظ يستعمل في التملك والاستحقاق من حيث إنها لا تعقب بفسخ ولا استرجاع، ولا تبطل برد ولا إسقاط[١].

قال الزمخشري: الجامعون لهذه الأوصاف هم الوارثون الأحقاء بأن يسموا وراثا دون من عداهم[٢].

وقال ابن الجوزي: «قال بعضهم: لما سمي الكفار أمواتًا بقوله: ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ وسمى المؤمنين أحياء بقوله: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ أورث الأحياء الموتى»[٣].

يتضح مما سبق أن الوراثة الأخروية هي وراثة تكريم ورفعة اختص الله بها أهل الجنة نسأل الله أن نكون من أهلها، وقد جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه عند قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ما منكم من أحدٍ إلا له منزلان: منزلٌ في الجنة، ومنزلٌ في النار، فإذا مات، فدخل النار، ورث أهل الجنة منزله، فذلك قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾)[٤].

(١) أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ١٥.
(٢) الكشاف ٣/ ١٧٧
(٣) زاد المسير ٢/ ١٢٢
(٤) أخرجه الطبري في التفسير ١٧/ ١٥ وابن ماجه في سننه، باب صفة الجنة، رقم ٤٣٤١ ٢/ ١٤٥٣.
قال البوصيري في مصباح الزجاجة ٤/ ٢٦٦: صحيح على شرط الشيخين.

أسباب الوراثة

أولًا: أسباب الوراثة الدنيوية:

من أسباب الوراثة الدنيوية:

أولًا: تعاقب الأجيال، ومن خلال التأمل في آيات الورثة يظهر لنا أن تعاقب الأجيال سبب في وراثة الكتاب، ووراثة الأرض، ووراثة الميت.

فأما وراثة الكتاب فقد قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

فقد أخرج ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «الخلف من بعد ستين سنة»، وعن قتادة قال: «ورثوا الكتاب بعد أنبيائهم ورسلهم، أورثهم»[1].

وأما ورثة الأرض، ففي قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَهۡدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ أَهۡلِهَآ﴾ [الأعراف: ١٠٠].

قال البغوي: «من بعد هلاك أهلها الذين كانوا فيها قبلهم»[2].

وأما ورثة الميت، فقد أخبر الله الإرث لمن يخلفه الميت بعد وفاته من أولاده وقرابته، وقد قسم العلماء أسباب الإرث من خلال آيات المواريث إلى أقسام وهي:

١. النكاح، وهو عقد الزوجية الصحيح بشاهدين وولي، ولو لم يحصل به وطء ولا خلوة، لعموم قوله تعالى ﴿وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ﴾ [النساء: ١٢].

٢. النسب، أي القرابة من الميت، وهي: الاتصال العضوي بين إنسان وآخرين بولادة قريبة أو بعيدة، وتشمل الأصول، والفروع، والحواشي. فالأصول: هم الآباء والأجداد وإن علوا بمحض الذكور، والفروع: هم الأولاد وأولاد البنين وإن نزلوا، والحواشي: هم الإخوة وبنوهم وإن نزلوا، والأعمام وإن علوا، وبنوهم وإن نزلوا.

٣. الولاء، وهو رابطة سببها نعمة المعتق على رقيقه بالعتق، ولا يرث العتيق معتقه بالإجماع، فانحصرت أسباب الإرث في اثنين: النسب، والزواج الصحيح.

ثانيًا: العمل الصالح، فالصلاح من أسباب وراثة الأرض كما ذكر تعالى في قوله تعالى ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ١٠٥﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

وهذه الوراثة هي: وراثة التمكين، وما مكن الله لهم إلا بسبب صلاحهم وتقواهم كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ

---

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٥/ ١٦٠٧.
(٢) معالم التنزيل ٣/ ٢٦١.

﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝١٢٨﴾ [الأعراف: ١٢٨].

ثانيًا: أسباب الوراثة الأخروية:

جاء الحديث عن أسباب الوراثة الأخروية في القرآن الكريم على ضربين: حيث جاء الحديث عنها إجمالًا في عامة الآيات التي تحدثت عن وراثة الآخرة فأجملت الآيات أن سبب هذه الوراثة هي الأعمال المتعلقة بوصف الإيمان والتقوى، وهذا معنى رحب وواسع في الدلالة على تعدد الطرق الموصلة إلى هذه الوراثة وتنوع أسبابها.

قال ابن كثير: «أعمالكم الصالحة كانت سببا لشمول رحمة الله إياكم، فإنه لا يدخل أحدا عمله الجنة، ولكن بفضل من الله ورحمته. وإنما الدرجات تفاوتها بحسب عمل الصالحات»[(١)].

كما أن التعبير بالمضارع «تعملون» فيه الدلالة على الاستمرار والتجدد اللذان يفيدان أن العمل الصالح كائن منهم ومستمرون عليه إلى وفاتهم[(٢)].

وجاء الحديث عن هذه الأسباب مفصلًا في سورة المؤمنون، فقد فصلت الآيات في ذكر بعض الأسباب وذلك في قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٧ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۝٨ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝١٠ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝١١﴾ [المؤمنون: ١-١١].

وهذه الصفات هي كما يلي:

١. الخشوع في الصلاة بحضور القلب مع الاستحضار لما يقوله العبد في صلاته من أولها إلى آخرها.

٢. الإعراض عن اللغو، وهو الكلام الذي لا فائدة فيه، ولا خير يرجى منه، وهذا فيه دلالة على إعراضهم عما هو أشد منه من سائر المحرمات التي رتب عليها العذاب.

٣. أداء الزكاة، طهرة لأموالهم وتزكية لأنفسهم، وقد جمعوا في ذلك بين عدم إيذاء الناس بالإعراض عن اللغو، والإحسان إليهم.

٤. حفظ الفرج عما لا يحل له، كالزنا ومقدماته من النظر واللمس ونحوهما، وتحصين أنفسهم بما يحول دون وقوع ذلك بابتغاء الحلال من النكاح، والإماء المملوكات.

٥. رعاية الأمانة والعهد، بحفظهما

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٧/ ٢٣٩.
(٢) انظر: التحرير والتنوير ٢٥/ ٢٥٦.

والحرص على أدائها، وهو لفظ عام يشمل العهد الذي بينهم وبين الله و والعهد الذي بينهم وبين الناس.

٦. المداومة على الصلاة في أوقاتها حفظًا لها، مما يدل على أنها حاضرة نصب أعينهم لا يتطرق لغليها السهو أو النسيان.

وإيثار هذه الصفات دون غيرها فيها دلالة على ما يلي:

- أهمية هذه الصفات وعظم منزلتها.
- أنها صفات متضمنة لغيرها من الصفات أو مستلزمة لصفات معها، فالخشوع في الصلاة يتضمن الانتهاء عن الفحشاء والمنكر كما في قوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].
- ، والإعراض عن اللغو، يلزم من الإعراض عن غيره من باب أولى كالغيبة والنميمة والسخرية والاستهزاء وغيرها من المحرمات أو الكبائر.
- أنها صفات جامعة، كصفة الإيمان الجامع لأعمال البر القولي والعملي والقلبي، وصفة رعاية العهد الجامع للعهد بين العبد وبين ربه والعهد بين العبد وبين غيره.

وهذه الأسباب مما ذكر مجملًا أو مفصلًا، ترجع إلى سبب واحد وتتفرع عنه ألا وهو فضل الله ورحمته، وهو السبب الأعظم، والمتأمل للآيات يلاحظ أن الآيات التي أرجعت السبب فيها إلى العمل جاء السياق فيها خبرًا عن الله جل جلاله، أو وصفًا منه تعالى لعباده المؤمنين.

وهذا تفضل منه جل وعلا، ولذا لما جاء الحديث على لسان أهل الجنة أرجعوا السبب إلى الله تعالى مسبب الأسباب وإلى فضله ورحمته فقالوا: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ۝٣٥﴾ [فاطر: ٣٥].

وهذا دليل على كمال إيمانهم، وتعظيمهم لله ومعرفتهم بقدر أعمالهم التي لولا فضل الله ورحمته لما اغنت عنهم شيئًا.

وفي ذلك يقول الشنقيطي: «إن العمل لا يكون سببا لدخول الجنة إلا إذا تقبله الله تعالى، وتقبله له فضل منه»[1].

ويقول الخازن: «إن دخول الجنة بسبب الأعمال والتوفيق للإخلاص فيها وقبولها برحمة الله تعالى وفضله فيصح أنه لم يدخل الجنة بمجرد العمل»[2].

وعن عبد الله بن مسعود قال: (تجوزون الصراط بعفو الله وتدخلون الجنة برحمة الله وتقتسمون المنازل بأعمالكم)[3].

---

(١) أضواء البيان ٣/ ٣٥٤.
(٢) لباب التأويل ٣/ ٧٥.
(٣) انظر: الدر المنثور ٧/ ٣٩٤.

مقاصد الوراثة

تتعدد مقاصد الوراثة وتختلف باختلاف أنواعها:

فوراثة النبوة والكتاب هي اصطفاء من الله لعباده، كما قال: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٧٥﴾ [الحج: ٧٥].

وكان من دعاء داود وسليمان عليهما السلام ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗاۖ وَقَالَا ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّنۡ عِبَادِهِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٥﴾ [النمل: ١٥].

وما هذا إلا استشعار هذا الاصطفاء من بين عباد الله المؤمنين.

وأما وراثة العلم، فقد جعلها الله اختبارًا وابتلاء، ليعلم الله تبارك وتعالى من يستحق هذا الإرث بحقه فيكرمه به في الدنيا ويجازيه عليه في الآخرة أو من يفرط فيه ويضيعه، فيكون وبالًا عليه نسأل الله السلامة والعافية.

وكذلك الأمر في وراثة الأرض، فقد جعلها الله تبارك وتعالى اختبارًا لينظر من يعمرها بالطاعة أو من يفسدها بالمعصية، كما دل على ذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ١٢٩﴾ [الأعراف: ١٢٩].

ومن مقاصد وراثة الأرض كذلك الاعتبار بتقلب الأحوال، وتمكين المستضعفين وإهلاك الجبابرة المكذبين كما قال تعالى في سورة القصص: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٥﴾ [القصص: ٥].

أما وراثة الميت فمن مقاصدها: الرضا بحكم الله وامتثال أمره: ويتضح ذلك في قوله: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١١﴾ [النساء: ١١].

وهذه الآية هي آية المواريث التي بين الله فيها ميراث الأولاد والوالدين وقدر نصيبهم من تركة الميت، وقد ختمها الله عز وجل بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١١﴾.

وحكمة ختم الآية بهذين الاسمين المشتملين على صفتي: العلم والحكمة لله تعالى، لما في ذلك من إرشاد الخلق

إلى امتثال أمر الله جل وعلا في تقديره للمواريث وفرضها على عباد الله لكونها تشريع من هو أعلم بعباده إذ هو خالقهم، وهو الحكيم الذي أحكم هذه القسمة، وله الحكمة البالغة في تقدير ما يصلح العباد وما ينفعهم، فلا مجال لمن آمن بذلك إلا التسليم والرضى.

ولربما خطرت للنفس خاطرة بأن التركة لو قسمت على غير هذا الوجه لكانت أنفع وأولى، كما كان أهل الجاهلية يورثون الرجال دون النساء، أو يورثون من الرجال من يحمل السلاح أو نحو هذا، فبين الله -جلت حكمته- شيئًا من هذه الحكم حتى تطمئن النفس وتسلم لأمر الله فقال: ﴿لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾.

فأنكر عز وجل علمهم بما هو أنفع لهم وبين أنهم لا علم لهم بحقيقة النفع، فبعضهم قد يرى النفع كما كان يراه أهل الجاهلية، وبعضهم قد يغلب جانب الأبوة أو جانب البنوة، واعتمدوا في ذلك على أسباب غير منضبطة فرد الله عليهم أنهم لا يدرون من هو أنفع لهم[(١)].

وهذه حكمة واحدة من حكم العليم الحكيم تعالى، ولذلك فقد تكفل الله فرض هذه الفرائض بنفسه تعالى وكفانا مؤونة الاجتهاد وأمرنا بما يصلحنا وهو الانقياد له سبحانه[(٢)].

ومن مقاصد وراثة الميت كذلك: تقوية وشائج الرحمن والقرابة: وقد نص الله على ذكر الوالدين والأقربين في بداية ذكر الميراث فقال: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ [النساء: ٧].

ولما كانت جهة القرابة متفاوتة، فمنهم القريب ومنهم البعيد، قسم الله تبارك وتعالى المواريث حسب الأقرب فالأقرب كما هو بين في قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء: ١١].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: **(ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فلأولى رجل ذكر)**[(٣)].

والمعنى أن الرجال من العصبة بعد أهل الفروض إذا كان فيهم من هو أقرب إلى الميت استحق دون من هو أبعد فإن استووا اشتركوا[(٤)].

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب ٩/ ٢٢٥، روح المعاني ٤/ ٢٢٨، التحرير والتنوير ٤/ ٢٦٢.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٦/ ١٢٥.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه عن ابن عباس، كتاب الفرائض، باب ميراث الولد من أبيه وأمه، رقم ٦٣٥١، ومسلم في صحيحه، كتاب الفرائض، باب ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فلأولى رجل ذكر، رقم ١٦١٥.

(٤) فتح الباري ١٢/ ١٦.
وانظر شرح صحيح مسلم، النووي ١١/ ٥٣.

وبهذا يتبين ما للتوريث من تقوية لأواصر القرابة والرحم، وما يحصل بسببها من النفع في الدنيا والآخرة.

فإن الله تعالى قال: ﴿ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ﴾ [النساء: ١١].

فإن صاحب الميراث قد يعطي أحد أبنائه زيادة على الآخر ظنا منه أنه أنفع له، فنفى الله الدراية عنهم بمن هو أنفع من الآخر وجعل النفع عامًّا في الدنيا والآخرة[(١)].

ومن أعظم النفع ما يحصل بسبب تقسيم التركة على الجميع من صلة للرحم بين الأولاد فيما بينهم وبين الأولاد والآباء أو الآباء والأولاد بعد وفاة أحدهم، كما أن في ذلك قطعا للنزاع والخلاف بين الأقرباء[(٢)].

أما الوراثة الأخروية، فلما كان الإيمان والعمل الصالح بجميع شعبه من أسباب وراثة الآخرة بعد رحمة الله وفضله، فلا شك أن من مقاصد هذه الوراثة التمايز بين المؤمنين والكافرين، والأبرار والفجار.

قال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ لَّا يَسۡتَوُۥنَ ۝١٨ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡمَأۡوَىٰ نُزُلَۢا بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝١٩ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمۡ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝٢٠﴾ [السجدة: ١٨-٢٠].

نسأل الله تعالى أن يورثنا جنته.

(١) انظر: جامع البيان ٧/ ٤٨، الجامع لأحكام القرآن ٦/ ١٢٥، تفسير القرآن العظيم ٢/ ٢٢٩.

(٢) انظر: محاسن الإسلام، البخاري ص ٣٩.

موضوعات ذات صلة

الأبوة، الأمومة، المال، الملك





عناصر الموضوع

المجلد الخامس والثلاثون

مفهوم الوسطية

أولًا: المعنى اللغوي:

(وسط) الواو والسين والطاء: بناء صحيح يدل على العدل والنصف، وأعدل الشيء: أوسطه ووسطه، وسطت القوم أسطهم وسطًا وسطة، أي: توسطتهم وفلان وسيط في قومه إذا كان أوسطهم نسبًا، والأصبع الوسطى، والتوسيط: أن تجعل الشيء في الوسط، والتوسيط: قطع الشيء نصفين، والتوسط بين الناس من الوساطة، والوسط من كل شيء: أعدله، ويقال أيضًا: شيء وسط، أي: بين الجيد والرديء، وعبد وسط وأمة وسط وشيء أوسط، وللمؤنث وسطى بمعناه، وواسطة القلادة: الجوهر الذي في وسطها، وهو أجودها، ووسوط الشمس توسطها السماء، وجلست وسط القوم بالسكون وسطًا، فهو واسط، والمفعول موسوط.

يقال: شيء وسط، أي: بين الجيد والرديء، واليوم الأوسط والليلة الوسطى، ويجمع الأوسط على الأواسط مثل الأفضل والأفاضل، ويجمع الوسطى على الوسط مثل: الفضلى والفضل[(١)].

ويلاحظ مما سبق أن لفظة (وسط) تأتي على عدة معان منها: اسمًا لما بين طرفي الشيء، وبمعنى خيار، وأفضل، وأجود، فأوسط الشيء أفضله، وتأتي بمعنى: عدل كما تقدم أن أعدل الشيء أوسطه، وتأتي بمعنى الشيء بين الجيد والرديء.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

الوسطية تعني: الاعتدال والتوازن، ويعنى بها: التعادل بين طرفين متقابلين أو متضادين بدون إفراط أو تفريط، بحيث لا ينفرد أحدهما بالتأثير ويطرد الطرف المقابل، وبحيث لا يأخذ أحد الطرفين أكثر من حقه، ويطغى على مقابله ويحيف عليه، وهذه الوسطية هي العدل والطريق الأوسط الذي تجتمع عنده الفضيلة[(٢)].

وأهل السنة يتميزون بالوسطية بين الفرق الأخرى التي تقف على طرفي نقيض.

(١) انظر: الصحاح، الجوهري ٣/ ١١٦٧، معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد عمر ٣/ ٢٤٣٦، المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٦٥٨، لسان العرب، ابن منظور ٧/ ٤٢٦، المغرب في ترتيب المعرب، الخوارزمي، ص٤٨٤، مختار الصحاح، الرازي، ص ٣٣٨، مقاييس اللغة، ابن فارس ٦/ ١٠٨، المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٨/ ٥٩٤، شمس العلوم، نشوان الحميري ١١/ ٧١٥٦، مجمل اللغة، ابن فارس، ص ٩٢٤.

(٢) انظر: مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية، عثمان ضميرية، ص ١٥٦.

الوسطية في الاستعمال القرآني

وردت مادة (وسط) في القرآن الكريم (٥) مرات[1].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١	﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ٥﴾ [العاديات:٥]
الاسم	١	﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة:١٤٣]
اسم التفضيل	٣	﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ٢٨﴾ [القلم:٢٨]

وجاء الوسط الميثاق في القرآن بمعناها اللغوي: المعتدل من كل شيء، ويلزم منه التوسط في متصفٍ أو بين طرفين، ويلزم أيضًا على هذا المعنى أن يكون الوسط هو الأعدل والأفضل والأخير[2].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٧٥٠، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب الواو ص١٤١١.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٤٦٤، ٤٦٥، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٥/ ٢٠٩ عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ٤/ ٣٠٩.

الألفاظ ذات الصلة

١ الغلو:

الغلو لغةً:

أصل الغلو تجاوز الحد، وغلا الرجل في الأمر، أي: تشدد فيه حتى جاوز الحد وأفرط كغلو اليهود في دينها[١].

الغلو اصطلاحًا:

«الغلو في الدين البحث عن بواطن الأشياء، والكشف عن عللها وغوامض متعبداتها»[٢].

الصلة بين الوسطية والغلو:

بالنظر إلى معنى مادة (غلو) والمعنى الاصطلاحي لها، نجد أنها ضد الوسطية، حيث إن الوسطية تعني الاعتدال بين الغلو والتساهل.

٢ الإفراط:

الإفراط لغةً:

فرط في الأمر يفرط فرطًا، وفرط عليه، أي: عجل، والإفراط: تجاوز الحد في الأمر[٣].

الإفراط اصطلاحًا:

«الإفراط يستعمل في تجاوز الحد من جانب الزيادة والكمال»[٤].

الصلة بين الوسطية والإفراط:

بين الوسطية والإفراط تضاد، حيث إن الإفراط هو تجاوز الحد، والوسطية تعني الاعتدال.

٣ التفريط:

التفريط لغةً:

يعني: التقصير في الشيء حتى يضيع ويفوت، وقصر فيه وضيعه حتى فات؛ لأنه إذا قصر فيه فقد قعد به عن رتبته التي هي له[٥].

---

(١) انظر: العين، الفراهيدي ٤/ ٤٤٦، جمهرة اللغة، الأزدي ٢/ ٩٦١، مجمل اللغة، ابن فارس، ص٦٨٣.
(٢) تاج العروس، الزبيدي ٣٩/ ١٧٨.
(٣) انظر: مجمل اللغة، ابن فارس، ص ٧١٦، لسان العرب، ابن منظور ٧/ ٣٦٩، شمس العلوم، الحميري ٨/ ٥١٦٨، مختار الصحاح، الرازي، ص ٢٣٧.
(٤) التعريفات، الجرجاني، ص ٣٢.
(٥) انظر: أساس البلاغة، الزمخشري ٢/ ١٨، مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٤٩٠، شمس العلوم، الحميري



التفريط اصطلاحًا:

«والتفريط يستعمل في تجاوز الحد من جانب النقصان والتقصير»[1].

الصلة بين الوسطية والتفريط:

بين الوسطية والتفريط تضاد فهما على طرفي نقيض، حيث إن التفريط هو القصور والنقصان، أما الوسطية فهي الاعتدال.

٤ الصراط المستقيم:

الصراط المستقيم لغةً:

الصراط و السراط والزراط: الطريق، وصراط مفرد: جمعه صُرُط[2].

والمستقيم لغة: من استقام يستقيم، استقم استقامة فهو مستقيم، واستقام العود: استوى، واستقام ميزان النهار: انتصف، واستقام على الطريق: اهتدى، والدين المستقيم: الدين الحقيقي أو الصحيح، والصراط المستقيم: الطريق المستقيم، طريق الهدى وسواء السبيل[3].

الصراط المستقيم اصطلاحًا:

الصراط المستقيم: طريق الهدى وسواء السبيل[4].

الصلة بين الوسطية والصراط المستقيم:

فالصراط المستقيم يمثل الوسطية ويحقق معناها، فهو وسط بين الغلو والجفاء، وهو كذلك وسط بين الإفراط والتفريط، فهما مترادفان.

٨/ ٥١٧١، المطلع على ألفاظ المقنع، البعلي، ص ١٧٩.

(١) التعريفات، الجرجاني، ص٣٢.

(٢) انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد عمر ٢/ ١٢٨٨، مختار الصحاح، الرازي ص١٧٥.

(٣) انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة ٣/ ١٨٧٥.

(٤) انظر: المصدر السابق٣/ ١٨٧٨.

ملامح الوسطية

إن الوسطية منهج رباني حميد يمنع العبد من الحيف والجور، وإن من خصائص الإسلام أنه دين وسط، فهو وسط بين اليهودية والنصرانية، وهناك ملامح لهذه الوسطية في القرآن والسنة تبين عظمة الإسلام في طرحه عدة قضايا تنظم حياة المرء المسلم من أهمها: العدل، والحكمة، والاستقامة، والتيسير، ورفع الحرج.

أولًا: العدل:

العدل: هو ضد الظلم، وإحقاق الحق، وإخراج الحق عن الباطل، وهو الأمر المتوسط بين الإفراط والتفريط[1].

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[البقرة:١٤٣].

وفي قول للطبري أن التأويل جاء بأن الوسط العدل، وذلك معنى الخيار؛ لأن الخيار من الناس عدولهم، ووصف الله عز وجل الإسلام بالوسط لتوسطهم بالدين، وقول الطبري هنا لدليل كبير على أن العدل من ملامح الوسطية[2].

ومن هنا فقد جاءت آيات كثيرة تبين وجوب العدل في الشهادة وفي الحكم، والشهادة هي إحدى مقدمات الحكم في كثير من الأحكام، بل وفي حكم المرء على نفسه قبل غيره من الأهل والأقارب.

وبما أن الوسط يعني: العدل كما تقرر سابقًا، فقد جاءت الكثير من الآيات القرآنية التي تبين وجوب العدل في جميع الأمور، فأمر الله عز وجل بالعدل في الشهادة والحكم هو إقرار لمنهج الوسطية.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء:١٣٥].

ففي هذه الآية دلالة بينة على منهج العدل والوسط، والتحذير من الجور واتباع الهوى، حيث أمرنا الله عز وجل بالعدل في الشهادة ولو كانت الشهادة بحق أنفسنا أو والدينا أو أقاربنا، لا نفرق بين غني فننحاز لغناه، ولا فقير فنجور عليه، وعلينا التزام العدل في أحكامنا على الدوام، فهذه مصلحة أرادها الله جل جلاله[3].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟

(١) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي، ص ٢٣٧، جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، النكري ٢/ ٢٢٠.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ١٤٢.
(٣) انظر: المصدر السابق ٧/ ٥٨٤.

﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة:٨].

دلت هذه الآية على العدل، الذي هو ملمح أساس من ملامح الوسطية، ليس مع النفس والأقارب فحسب، بل مع الاعداء حيث حثنا على عدم ترك العدل وإيثار العدوان على الحق، فلقد أمر بالعدل مع العدو وإن أبغضناه، وألا نتجاوز بالعدوان، فاستعمال العدل مع كل أحد صديقًا كان أو عدوًا[1].

والحكم بين الناس بالعدل أمر قد انعقد عليه الإجماع، وتكرر ذكره في القرآن الكريم.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۖ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[الأنعام:١٥٢]. أمرٌ بالتزام العدل فيما نقول، بدون محاباة لأحد، ولو كان أقرب الناس إلينا.

كذلك أداء الأمانات والحقوق المالية إلى أصحابها، وإصدار الحكم بالعدل والحق، وهذا يشمل الحكم بينهم في الدماء والأموال والأعراض، القليل من ذلك والكثير، على القريب والبعيد، والبر والفاجر، والولي والعدو[2].

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء:٥٨].

وفيما يتعلق بسلوك المؤمنين بعضهم مع بعض في حالة الخلافات أوصى كتاب الله عز وجل بفض كل نزاع قد يقع بينهم، على أساس العدل المطلق دون محاباة لطرف، وفي إطار الأخوة الإسلامية بالإنصاف بينهما، وهذا حكم الله في كتابه الذي جعله عدلًا بين خلقه[3].

قال تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ۖ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ۚ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات:٩].

ويخبر تعالى أنه يأمر عباده بالعدل والقسط والموازنة، ويندب إلى الإحسان.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:٩٠].

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ١١٠.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ١٨٣.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري٢٢/ ٢٩٢، أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ١٣٥.

وقال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾[النحل:١٢٦].

وقال تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾[الشورى:٤٠].

وغيرها من الآيات الدالة على العدل؛ لتنظم حياة المرء على أساس من المحبة وعدم التنافر.

ثانيًا: الاستقامة:

إن رأس الأعمال الصالحة أن يكون الإنسان مستقيمًا في الوسط غير مائل إلى طرفي الإفراط والتفريط، فتكون الاستقامة في أمر الدين والتوحيد وفي جميع الأمور الحياتية[(١)].

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[فصلت:٣٠].

البشرى بالجنة والأمان لمن استقام على الطريقة وداوم السير على الصراط المستقيم، فلم تزل قدمه عن طريق العبودية، واعتدل على منهج الطاعة ومنهج العبادة قولًا وعملًا، دون إفراط أو تفريط.

فالذين استقاموا على شريعته فامتثلوا أوامره، واجتنبوا نواهيه، ولزموا محجته، فلا يلحقهم ما يخافونه ويكرهونه في الآخرة، ولا يروعون؛ لأنهم خافوه تعالى في الدنيا فأمنهم في الآخرة، [(٢)] قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[الأحقاف:١٣].

قال عمر رضي الله عنه: «الاستقامة أن تستقيم على الأمر والنهي ولا تروغ روغان الثعالب»[(٣)].

قال ابن القيم: «فالاستقامة كلمة جامعة آخذة بمجامع الدين، وهي القيام بين يدي الله على حقيقة الصدق والوفاء بالعهد، والاستقامة تتعلق بالأقوال والأفعال والأحوال والنيات، فالاستقامة فيها وقوعها لله وبالله وعلى أمر الله»[(٤)].

والحديث في هذه الآية عن الاستقامة، وما يترتب عليها من الآثار الطيبة في الدنيا والآخرة، فهذه الاستقامة هي السحابة الممطرة التي يحيي الله بها النفوس.

قال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾[الجن:١٦][(٥)].

والاستقامة هي اتباع صراط الله المستقيم، وعدم الالتفات إلى غيره من

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٤/ ٨٧.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٨/ ١٣.

(٣) تفسير القرآن، السمعاني ٢/ ٤٦٣.

(٤) مدارج السالكين ٢/ ١٠٦.

(٥) انظر: التيسير في أحاديث التفسير، المكي ٦/ ٣٢٦.

بنيات الطريق، فهو الطريق الواضح الذي ارتضاه الله لعباده المؤمنين، مبتعدين عن الطرق المختلفة والأهواء المضلة والبدع الرديئة[1].

قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[الأنعام:١٥٣].

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، رفعه قال: (إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان فتقول: اتق الله فينا، فإنما نحن بك، فإن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا)[2].

ولما كانت الاستقامة جامعة لكثير من الأمور التي أمرنا بها الله عز وجل، فقد ورد الحث عليها في القرآن كثيرًا، كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾[فصلت:٦].

فالتزام الاستقامة في طريقنا إلى الله جل جلاله بالإيمان به وطاعته، والإخلاص في عبادته هو المقصود الأسمى[3].

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٢/ ١٧١.
(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الزهد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في حفظ اللسان، ٤/ ٦٠٥، رقم ٢٤٠٧. وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ١٢٤، رقم ٣٥١.
(٣) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ٤/ ٥٦١.

وقال تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [الشورى:١٥].

وذكر القشيري وغيره عن بعضهم أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام، فقال له: يا رسول الله قلت: (شيبتني هود وأخواتها) فما شيبك منها؟ قال: (قوله: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾)[4].

أي: دم يا محمد على ما أمرت به من عبادة الله عز وجل، وطاعته فيما أمر، وتبليغ رسالته، ولا تتبع أهواء الكفار والمضلين مما يحبون من الكفر والباطل كله[5].

وكقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [هود:١١٢].

فالاستقامة تقتضي طاعة الله تعالى، والوقوف عند حدوده التي أذن فيها من واجب، ومستحب، ومباح، وتجنب الحدود التي نهى الله عنها، وفي حديث النفر الثلاث الذين استقلوا عبادة النبي صلى الله عليه وسلم لخير مثال على الاستقامة الحقة في عبادته عز وجل دون إفراط أو تفريط، فهذا هو العمل الذي يمثل الوسطية.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، يقول: (جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي صلى

(٤) تفسير ابن رجب الحنبلي ٢/ ٢٦٢.
(٥) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٢/ ٢٤٦.

الله عليه وسلم، يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم، فلما أخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا: وأين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم ؟! قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبدًا، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم، فقال: (أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني)[1].

إذن فالاستقامة هي بأن يصوم ويفطر، وينام ويرقد، ويتزوج النساء، والخروج عنها انحراف عن الاستقامة، فما الاستقامة إلا الالتزام بسنته صلى الله عليه وسلم والأخذ بها.

وهذه الآية دعوة للاستقامة والسير على المنهج الحق.

قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ۝٢٧ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾[التكوير:٢٧-٢٨].

فهذا القرآن موعظة وزجر لمن أراد أن يتبع الحق ويقيم عليه[2].

واتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الصراط المستقيم الذي ندعو الله تعالى في كل ركعة من فريضة أو نافلة أن يثبتنا عليه.

قال تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾[الفاتحة:٦-٧].

ومما سبق يتضح لنا أن سورة الفاتحة وضعت القاعدة، ورسمت المنهج الوسطي، وحددت معالمه، حيث بين الله لنا أن الصراط المستقيم هو منهج الوسط، حيث قال واصفًا الصراط المستقيم الذي فيه ضمان السعادة في الدنيا والآخرة: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ ومنهج المغضوب عليهم يمثل التفريط، بينما يمثل منهج الضالين الإفراط، فهما منهجان دائران بين الغلو والجفاء، فهو طريق الذين قسم لهم نعمته، لا طريق الذين غضب عليهم لمعرفتهم الحق ثم حيدتهم عنه، أو الذين ضلوا عن الحق فلم يهتدوا أصلًا إليه، إنه صراط السعداء المهتدين الواصلين[3].

قال ابن كثير: غير صراط المغضوب عليهم، وهم الذين فسدت إرادتهم، فعلموا الحق وعدلوا عنه، ولا صراط الضالين، وهم الذين فقدوا العلم، فهم هائمون في

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح ٧/ ٢، رقم ٥٠٦٣.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ٢٤٣.

(٣) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٢٦.

الضلالة، لا يهتدون إلى الحق[1].

ونحن مأمورون بالالتزام بسبيل الذين أنعم الله عليهم؛ لأنه هو الصراط المستقيم، وهو المنهج الوسط بين طريقين منحرفين فاسدين، وهما طريقا اليهود والنصارى.

ثالثًا: الحكمة:

الحكمة: هي العلوم النافعة، والمعارف الصائبة، والعقول المسددة، والألباب الرزينة، وإصابة الصواب في الأقوال والأفعال، وجميع الأمور لا تصلح إلا بالحكمة التي هي وضع الأشياء مواضعها، وتنزيل الأمور منازلها، والإقدام في محل الإقدام، والإحجام في موضع الإحجام[2].

وذكر سيد قطب أن الحكمة القصد والاعتدال، وإدراك العلل والغايات، والبصيرة المستنيرة التي تهديه للصالح الصائب من الحركات والأعمال[3].

وهي فعل ما ينبغي، على الوجه الذي ينبغي، في الوقت الذي ينبغي[4].

الحكمة: أن تعطي كل شيء حقه، ولا تعديه حده، ولا تعجله عن وقته، ولا تؤخره عنه[5].

وهذه الآراء كلها فيها دلالات واضحة على الوسطية وصلتها بالحكمة، ونخلص مما سبق أن الحكمة لا بد من اعتبارها عند تحديد معنى الوسطية، حيث إننا عرفنا سابقًا أن الوسطية هي السير على الطريق المستقيم الذي ارتضاه الله لنا، وعدم الجنوح إلى الإفراط أو التفريط، وهو عين الحكمة وجوهرها؛ وذلك أن الخروج عن الوسطية سواء كان بإفراط أو تفريط له آثاره السلبية وعواقبه الوخيمة، وهذا يخالف الحكمة التي علينا التحلي بها وينافيها.

وقال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة:٢٦٩].

والله عز وجل عندما أنزل الشريعة السمحة كان عليمًا حكيمًا بأحوال العباد، فلم ينه عن فعل إلا لحكمة سواء أدركناها أم لا، ولم يأمر بفعل إلا لحكمة أيضًا، فقد نزل تعالى الأمور منازلها، ووضع الأشياء مواضعها.

وسنورد بعض الأمثلة على ذلك حيث قال تعالى في قضية السرقة: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة:٣٨].

ولا شك أن قطع يد السارق فيه تحذير للسارق نفسه من العودة إلى السرقة، وتحذير لغيره من أن يفعل مثل ما فعل؛ حتى

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم ١/ ١٤٠.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٣٢.
(٣) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٣١٢.
(٤) انظر: مدارج السالكين، ابن القيم ٢/ ٤٧٩.
(٥) انظر: المصدر السابق ٢/ ٤٧٨.

لا يجزى مثل جزائه، وكان العقاب بقطع اليد لحكمة عظيمة فإذا قطعت يد السارق كف عن العودة إلى هذه الجريمة غالبًا، وسلم الناس من آثارها، وارتدع بها من يفكر في السرقة، فكان حكم الله هنا حكيمًا وسطيًا بعيدًا عن الإفراط والغلو بالعقاب، وبعيدًا عن التفريط واللامبالاة، كما بين الشرع لنا مكان القطع والمقدار الذي تقطع به اليد، ولم يجعل الأمور خاضعة للاجتهاد[1].

وعن حكم الزانية والزاني بين الله عز وجل فيهما القول الفصل، فقالجل جلاله: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور:٢].

وقد فرقت الشريعة السمحة الحكيمة بين الثيب والمحصن في العقاب، ولم يجعلهم سواء، وهذا جوهر العدالة والوسطية في الأحكام.

وفي الحديث عن عدة المطلقة والأرملة فرق الله عز وجل في مدة كل منهما، حيث قال عز وجل في حق المطلقات: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة:٢٢٨].

و قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة:٢٣٤].

حيث أكدت الآيتان أن عدة المطلقة ثلاث حيضات، أما في حق المتوفى عنها زوجها فهي أربعة أشهر وعشرة أيام، وزيادة على المطلقة يجب على من توفي عنها زوجها الإحداد، وهو ترك الزينة والطيب ودهن الرأس بكل دهن والكحل المطيب.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة:٢٣٤].

فلا بد من عدة تنتظر المرأة فيها، فلا تتزوج زوجًا آخر؛ استبراء لرحمها من مظنة الحمل؛ وإحدادًا على الزوج السابق؛ وليتمكن الرجل فيها من مراجعة نفسه إذا كان الطلاق رجعيًا، وهذا من تمام حكمة الله عز وجل، حيث لم يسو بينهما لاختلاف طبيعة ظروف كل منهما، فعدة المتوفى عنها زوجها أكبر بسبب الحزن الذي تلاقيه بسبب فراقه أما المطلقات فيكون الحزن أقل.[2].

رابعًا: اليسر ورفع الحرج:

اليسر ورفع الحرج في الشريعة الإسلامية راجع إلى الوسطية والاعتدال في الدين الإسلامي.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا

(١) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٣/ ٥١١.

(٢) انظر: المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة، ص ٣٢٥.

﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[البقرة:١٤٣].

فالتوسط هو منبع الكمالات، والتخفيف والسماحة ورفع الحرج على الحقيقة هو في سلوك طريق الوسط والعدل، فالشارع الحكيم يبغي لنا اليسر ورفع الحرج ودفع المشقة، ويتدرج بنا صاعدًا في مدارج الرقي شيئًا فشيئًا، ويسير بنا من السهل إلى الأسهل، ومن الصعب إلى الأصعب أحيانًا تدريبًا لنا على احتمال صنوف الحياة في شتى صورها، أو يسير بنا من تكليف إلى تكليف آخر مساو له؛ لابتلائنا وامتحان قلوبنا، فتظهر طاعة المطيع وعصيان العاصي[(١)].

وكلما كان العمل بعيدًا عن الإفراط والتفريط وافق أحكام الشرع التي تدعو إلى اليسر ورفع الحرج «وإن رفع الحرج والسماحة والسهولة راجع إلى الاعتدال والوسط، فلا إفراط ولا تفريط، فالتنطع والتشدد حرج من جانب عسر التكليف، والإفراط والتقصير حرج فيما يؤدي إليه من تعطيل المصالح، وعدم تحقيق مصالح الشرع»[(٢)].

فالوسطية في اليسر ورفع الحرج، وليس في التكليف والمشقة والعنت، وهذا هو ديدن رسول صلى الله عليه وسلم في جميع أحواله فعن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم أنها قالت: (ما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثما، فإن كان إثما كان أبعد الناس منه)[(٣)].

وهذا هو منطق الإسلام في التعامل مع الواقع، فإننا لا نجد في الشريعة أمرًا إلا وهو رحمة وتيسير وتسهيل، ولا نهيًا إلا وهو عن عنت وضنك وحرج.

ومن أدلة القرآن الكريم على اليسر ورفع الحرج والسماحة السماح لمن أصابه مرض، أو لحقه أذى أثناء حجه بفعل ما كان ممنوعًا عليه في حالة الصحة، والفدية عنه مقابل الرخصة التي رخص بها الحق تعالى تيسيرًا وتخفيفًا، وتعرف هذه الفدية بفدية الأذى.

قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ

---

(١) انظر: الموسوعة القرآنية المتخصصة، مجموعة مؤلفين ١/ ٦٤٩، بتصرف.

(٢) رفع الحرج في الشريعة الإسلامية، صالح بن حميد، ص ١٣.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب مباعدته صلى الله عليه وسلم للآثام واختياره من المباح أسهله، وانتقامه لله عند انتهاك حرماته، ٤/ ١٣١٨، رقم ٢٣٢٧.

﴿ٱلْعِقَابِ﴾[البقرة:١٩٦][1].

وعلى أساس قاعدة اليسر ورفع الحرج التي تميز بها الإسلام، نزل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾[البقرة:١٩٨].

قال السعدي: «لما أمر تعالى بالتقوى، أخبر تعالى أن ابتغاء فضل الله بالتكسب في مواسم الحج وغيره، ليس فيه حرج إذا لم يشغل عما يجب إذا كان المقصود هو الحج، وكان الكسب حلالًا منسوبًا إلى فضل الله، لا منسوبا إلى حذق العبد، والوقوف مع السبب، ونسيان المسبب، فإن هذا هو الحرج بعينه»[2].

وقال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:١٧٣].

وهذه القاعدة ليست مقصورة على محرمات المطاعم، بل عامة لكل ما يتحقق الاضطرار إليه لأجل الحياة واتقاء الهلاك، ولم يعارضه مثله أو ما هو أقوى منه[3].

لقد بنى الدين الاسلامي عباداته وغيرها على أساس اليسر، ورفع الحرج والعسر كما علل تعالى به رخصة الفطر في رمضان بقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[البقرة:١٨٥].

وقال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ﴾[التوبة:٩١ - ٩٢].

فهؤلاء أصحاب أعذار ظاهرة، ينطق بها لسان الحال قبل أن ينطق بها لسان المقال؛ ولأن الشريعة الإسلامية قائمة على اليسر، ورفع الحرج عن المؤمنين، بدون تعنت ولا مشقة أو عسر في تكاليفها، فهؤلاء جميعًا ومن في حكمهم لا حرج عليهم في أن يتخلفوا عن ركب المجاهدين والجهاد في سبيل الله، الذي هو ذروة سنام الإسلام، وقد قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[البقرة:٢٨٦][4].

وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾[التغابن:١٦].

أي: في حدود ما تحتمل، ففي هذه الآية تخفيف وعافية ويسر[5].

وبين تعالى جانبًا آخر من مظاهر اليسر ورفع الحرج في تشريعاته، فقال تعالى:

(١) انظر: التيسير في أحاديث التفسير، المكي ١/ ١٢٠.
(٢) تيسير الكريم الرحمن ص٩٢.
(٣) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا ١/ ٩٦.
(٤) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٥/ ٨٦٦.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ٦٨.

﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[الأحزاب:٥].

فمن رحمة الله أنه لم يجعل أي حرج أو إثم فيما قمتم به من خطأ غير مقصود بنسبتكم بعض الأبناء الأدعياء إلى غير آبائهم، ولكننا نؤاخذكم ونعاقبكم فيما تعمدته قلوبكم من نسبة الأبناء إلى غير آبائهم الشرعيين[1].

وإذا عدم المسلم الماء أو تضرر باستعماله، فإن الله قد أباح له التطهر بما ينوب عنه، وهو التراب، وذلك للتيسير ورفع الحرج.

قال تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة:٦].

وأخيرًا ومن الأدلة على أن الإسلام دين اليسر قول الرسول صلى الله عليه وسلم صراحة: (إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة)[2].

(١) انظر: التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ١١/ ١٧٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدين يسر، ١/ ١٦، رقم ٣٩.

مجالات الوسطية

للوسطية في القرآن مجالات عدة، فلقد ظهرت وتجلت عظمة الإسلام العظيم، والقرآن القويم في التوازن المستقيم في جميع مجالات الدين، حيث العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملات وحتى في التشريعات، فلا إفراطٌ ولا تفريط، وفيما يلي عرض لوسطية القرآن في تلك المجالات.

أولًا: الوسطية في العقيدة:

تظهر الوسطية في العقيدة أشد الوضوح، وهي من أبرز خصائص العقيدة الإسلامية، والتي يعبر عنها بالتوازن، ويتجلى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ۝٩﴾[الرحمن:٧-٩].

وفيما يلي بعض مظاهر الوسطية في العقيدة.

أولًا: وسط بين الخرافيين الذين يسرفون في الاعتقاد، فيصدقون بكل شيء، ويؤمنون بغير دليل ولا برهان، وبين الماديين الذين ينكرون كل ما وراء الحس، ولا يستمعون لصوت الفطرة، ولا نداء العقل، فالإسلام يدعو للاعتقاد والإيمان مقرونًا بالدليل القطعي والبرهان اليقيني، ويرفض كل ما خلا الدليل والبرهان مصداقًا لقوله تعالى:

﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾﴾ [البقرة:١١١].

قال الزمخشري: «هاتوا برهانكم هلموا حجتكم على اختصاصكم بدخول الجنة إن كنتم صادقين في دعواكم، وهذا أهدم شيء لمذهب المقلدين. وأن كل قول لا دليل عليه فهو باطل غير ثابت»[(١)].

ثانيًا: وسط بين الذين يؤلهون الإنسان ويعتبرونه ربًا يفعل ما يشاء، وبين الذين جعلوه أسير جبرية اقتصادية أو اجتماعية أو دينية، فهو كالريشة في مهب الريح، أو دمية يحرك خيوطها المجتمع، أو الاقتصاد أو القدر، فالإنسان في نظر الإسلام مخلوق مكلف مسؤول، سيد في الكون، عبد لله، قادر على تغيير ما حوله بقدر ما يغير ما بنفسه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١].

ثالثًا: وسط بين الملاحدة الذين لا يؤمنون بإله قط، كاتمين لصوت الفطرة في صدورهم، متحدين منطق العقل في رؤوسهم، وبين الذين يعددون الآلهة حتى عبدوا الأغنام والأبقار، وألهوا الأوثان والأحجار، فلإسلام يدعو إلى الإيمان بإله واحد لا شريك له، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، وكل ما عداه مخلوقات لا تملك ضرًا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، فتأليهها شرك وظلم وضلال مبين.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾﴾ [الأحقاف:٥].

قال الرازي: «إن القول بعبادة الأصنام قول باطل، من حيث إنها لا قدرة لها البتة على الخلق والفعل والإيجاد والإعدام والنفع والضر، فأردفه بدليل آخر يدل على بطلان ذلك المذهب، وهي أنها جمادات فلا تسمع دعاء الداعين، ولا تعم حاجات المحتاجين، وبالجملة فالدليل الأول كان إشارة إلى نفي العلم من كل الوجوه، وإذا انتفى العلم والقدرة من كل الوجوه لم تبق عبادة معلومة ببديهة العقل، فقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ﴾ استفهام على سبيل الإنكار، والمعنى أنه لا امرًا أبعد عن الحق، وأقرب إلى الجهل ممن يدعو من دون الله الأصنام»[(٢)].

رابعًا: وسط في أمر النبوة، لم ترفع الأنبياء إلى مقام الألوهية فيتجه الناس بالعبادة إليهم، كما اعتقد النصارى وغيرهم، ولم تنزل بهم إلى مستوى السفلة من الناس؛ فتنسب إليهم ارتكاب الموبقات، وفعل المنكرات كما افترى اليهود في

(١) الكشاف ١/ ١٧٨.

(٢) مفاتيح الغيب ٢٨/ ٧.

توراتهم المحرفة، وإنما الأنبياء في العقيدة الإسلامية المتزنة هم خيرة خلقه وخصهم بوحيه وكلفهم تبليغ رسالته إلى الناس، وجعلهم قدوة وأسوة لأتباعهم، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب:٢١][1].

قال ابن عاشور: «في الآية دلالة على فضل الاقتداء بالنبيء صلى الله عليه وسلم وأنه الإسوة الحسنة لا محالة»[2].

ثانيًا: الوسطية في العبادة:

إن الناظر نظرة تمعن في العبادات الإسلامية الواجبة والمستحبة على المسلم يجد أنها تتسم بالوسطية والاعتدال، وأنها بعيدة كل البعد عن الغلو، فلا إفراط فيها ولا تفريط.

وقد جاء التوسط في العبادات الإسلامية منسجمًا مع نعمة الله تعالى على هذه الأمة المحمدية بأن جعلها أمة وسطًا، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة:١٤٣].

فبما أنها أمة وسطًا، فكذلك العبادات المفروضة عليها تتسم بالوسطية والاعتدال، فلا إفراط فيها كالنصارى، ولا تفريط كاليهود.

ويمثل النصارى منهج الإفراط؛ حيث ابتدعوا عبادات قاسية على النفس، تحرم الزواج، وتكبت الغرائز، وترفض كل أشكال الزينة، وطيبات الحياة، وبالغوا في ذلك حتى أصبحت العبادة في نظرهم لا تخرج عن تعذيب البدن.

وقد ذمهم الله تعالى حيث قال: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد:٢٧].

قال المراغي: «فقد انقطعوا عن الناس في الفلوات والصوامع معتزلين الخلق، وحرموا على أنفسهم النساء، ولبسوا الملابس الخشنة؛ تبتلًا إلى الله وإخباتًا له، وما فرضناها عليهم ولكنهم استحدثوها»[3].

ويمثل اليهود منهج التفريط، ووصف القرآن بعدهم عن العبادة في قوله تعالى: ﴿۞ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾﴾ [مريم:٥٩].

قال الزمخشري: «هم اليهود، تركوا الصلاة المفروضة، وشربوا الخمر، واستحلوا نكاح الأخت من الأب»[4].

---

(١) انظر: دراسات في العقيدة، سعد عاشور، ص ٤٥.

(٢) التحرير والتنوير ٢١/ ٣٠٣.

(٣) نظم الدرر ٢٧/ ١٨٥.

(٤) الكشاف ٣/ ٢٦.

وقال ابن كثير: «وإذا أضاعوها فهم لما سواها من الواجبات أضيع؛ لأنها عماد الدين وقوامه، وخير أعمال العباد، وأقبلوا على شهوات الدنيا وملاذها، ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها؛ فهؤلاء سيلقون غيًا أي: خسارة يوم القيامة»[(١)].

وقد جاء الإسلام وسطًا إزاء المنهجين، منهج التفريط في العبادة، ومنهج الإغراق في العبادة ونسيان حق البدن؛ ليعطي كل ذي حق حقه.

قال تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [القصص:٧٧].

«أي: اطلب الآخرة فيما آتاك الله من الثروة والغنى بأن تتصدق، وتصل الرحم، ولا تنس أن تبقي لنفسك شيئًا يقيك العوز، ويمنعك من إراقة ماء وجهك»[(٢)].

وقال تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾ [التغابن:١٦].

قال ابن كثير: « أي: جهدكم وطاقتكم، وروى ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران:١٠٢].

وقال: لما نزلت هذه الآية اشتد على القوم العمل فقاموا حتى ورمت عراقيبهم، وتقرحت جباههم فأنزل الله هذه الآية؛ تخفيفًا على المسلمين ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ فنسخت الآية الأولى»[(٣)].

ثالثًا: الوسطية في الأخلاق:

جاء الإسلام وسطا في أخلاقياته، فلم ينظر إلى الإنسان باعتباره خيرًا محضًا أو شرًا محضًا، أي: لم يكن تعامله مع الإنسان على أنه ملك أو شيطان، وإنما تعامل معه بما يتوافق مع أصل فطرته وطبيعة تكوينه، فهو مخلوق مكلف مختار، صالح للطاعة أو المعصية، فيه الجانب المادي والجانب الروحي.

فلقد أمرنا الله برد الاعتداء الظالم علينا في قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [البقرة:١٩٤].

وقال: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى:٤٠].

قال النسفي: «والحرمات قصاصٌ أي: وكل حرمة يجري فيها القصاص، من هتك حرمة أي حرمة كان اقتص منه بأن تهتك له

(١) تفسير القرآن العظيم ٥/ ٢٤٣.
(٢) أوضح التفاسير، محمد الخطيب ١/ ٤٧٩.
(٣) تفسير القرآن العظيم ٨/ ١٤٠.

حرمه، فحين هتكوا حرمة شهركم فافعلوا بهم نحو ذلك ولا تبالوا»[1].

قال تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾﴾ [النساء:١٤٨].

قال السمعاني: «يجوز له أن يشتم، ولكن بمثل ما شتم، لا يزيد عليه، بما لم يكن قذفًا»[2].

فالإسلام يبيح لك رد الاعتداء، بينما النصارى بالغوا في العفو والتسامح، جاء في إنجيلهم: «وأما أنا فأقول لكم: أحبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، أحسنوا إلى مبغضيكم، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم»[3].

ولا شك أنها نظرة مثالية محمودة، ولكنها ليست متوازنة؛ لأن الإنسان بطبيعته وفطرته يميل إلى الدفاع عن نفسه، ورد الاعتداء الواقع عليه، والانتقام ممن أهانه أو غض من كرامته، فإذا وقع الاعتداء، وطلب منه إلزامًا أن يعفو ويصفح، فلا شك أنه سيكبت غضبه وغيظه على كره ومضض، وسيحاول التنفيس عن غضبه وغيظه حينما تسنح الفرصة المناسبة، بينما الإسلام رغم أنه لم يذكر السف في القرآن إلا أنه لا يقبل التهاون الذي يصل إلى حد المذلة، والتفريط المهين.

والقرآن أظهر الوسطية في الأخلاق في كثير من الآيات، وقد ظهر ذلك واضحًا جليًا في ذمه للكبر، وذمه للذلة والمهانة، وكان وسطًا في ذلك.

قال تعالى في ذم الكبر: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾ [غافر:٢٧].

قال الطبري: «إني استجرت أيها القوم بربي وربكم، من كل متكبر عليه، تكبر عن توحيده، والإقرار بألوهيته وطاعته، لا يؤمن بيوم يحاسب الله فيه خلقه»[4].

قال تعالى: ﴿فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [النحل:٢٩].

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [الزمر:٦٠].

وقال أيضًا: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [الإسراء:٣٧].

يقول السمعاني: «وفي المعنى وجهان: أحدهما: أن الإنسان إذا مشى مختالًا، فمرة يمشي على عقبيه، ومرة يمشي على صدور قدميه. فقال: لن تثقب الأرض إن مشيت على عقبيك، ولن تبلغ الجبال طولًا إن

(١) مدارك التنزيل ١/ ١٦٦.
(٢) تفسير السمعاني ١/ ٤٩٦.
(٣) إنجيل متى ٥: ٤٤.
(٤) جامع البيان ٢١/ ٣٧٥.

مشيت على صدور قدميك»[1].

وفي مقابل الكبر نجد الذل والضعف والخور، وبخاصة أمام أعداء الله، فإنه خلق لا يرضاه الله تعالى؛ فلذلك قال واصفًا المؤمنين بما هم عليه من خلق رفيع: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة:٥٤].

وفي هذا دلالة على أن الذل مسبة وعار، وليس خلقًا رفيعًا وسيرة محمودة؛ ولذلك فقد جعله الله عقوبة لمن عصاه، وتكبر على رسله وهداه، فقال: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٦١][2].

قال سيد قطب مبينًا أثر الذل على هؤلاء اليهود: «إن فترة الإذلال التي قضوها تحت حكم فرعون الطاغية قد أفسدت فطرتهم إفسادًا عميقًا، وليس أشد إفسادًا للفطرة من الذل الذي ينشئه الطغيان الطويل، والذي يحطم فضائل النفس البشرية، ويحلل مقوماتها، ويغرس فيها المعروف من طباع العبيد، استخذاء تحت سوط الجلاد، وتمردًا حين يرفع عنها السوط، وتبطرًا حين يتاح لها شيء من النعمة والقوة»[3].

لقد اتصف اليهود بالكبر والتعالي والغطرسة حتى على أنبيائهم ورسلهم عليهم السلام، بل على ربهم حيث قالوا: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء:١٥٣].

وقوله: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة:٢٤].

على الرغم من أن الله قد وصفهم في مواضع أخرى بالذل والجبن، لكنهم يتجبرون ويتغطرسون إن سنحت لهم الفرصة، بينما اتصف النصارى بالذل والجبن.

وخلاصة الأمر: أن هذه الآيات تدل على أن تلك الأخلاق مما لا يقره الشرع لمخالفتها للمنهج الحق والطريق السوي؛ ولذلك جاءت الآيات تبين ما يجب أن يكون عليه المسلم من خلق صادق، بعيدًا عن الخلق الذميم سواء كان إفراطًا أو تفريطًا، وهذه الآيات هي التي ترسم المنهج الوسط في الأخلاق والمعاملة.

رابعًا: الوسطية في المعاملات:

لقد تجلت وسطية القرآن في المعاملات، حيث البعد عن التشدد والغلو من جهة، والتسيب والتميع من جهة أخرى، فللقرآن منهج وسطي يضبط جميع المعاملات من طعام وشراب، وبيع وشراء، وطلاق وزواج، حتى في معاملاتنا مع غير المسلمين.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا

---

(١) تفسير القرآن ٣/ ٢٤٢.

(٢) انظر: الوسطية في ضوء القرآن الكريم، ناصر العمر، ص٢٨٣.

(٣) في ظلال القرآن ١/ ٧٢.

﴿يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [المائدة:٨].

قال الطبري: «يا أيها الذين آمنوا بالله وبرسوله محمد، ليكن من أخلاقكم وصفاتكم القيام لله شهداء بالعدل في أوليائكم وأعدائكم، ولا تجوروا في أحكامكم وأفعالكم فتجاوزوا ما حددت لكم في أعدائكم لعدواتهم لكم، ولا تقصروا فيما حددت لكم من أحكامي وحدودي في أوليائكم لولايتهم لكم، ولكن انتهوا في جميعهم إلى حدي، واعملوا فيه بأمري»[(١)].

فقد نهي الله سبحانه عن ترك الطيبات تنسكًا وعبادة، وطلب عدم تجاوز الحد إلى الإسراف الضار بالجسد، والإسراف الضار بالمال، وطلب عدم الاسترسال في الشهوات من مطعم ومشرب وغيرهما، حتى لا تكون اللذات هي السهم الأكبر في الحياة، فإن للمؤمن في الحياة قصدًا أسمى هو العلم والمعرفة والعبادة، والإحسان إلى الناس، والنفع العام للجماعة، وإذا كانت اللذات مشغولًا بها إلى حد البحث والطلب والانتظار والألم عند فقدها كان ذلك صارفًا عن المقاصد السامية للمؤمن.

وقد بين الله تعالى ذلك فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [المائدة:٨٧].

قال الزمخشري: «لا تمنعوها أنفسكم كمنع التحريم، أو لا تقولوا: حرمناها على أنفسنا، مبالغة منكم في العزم على تركها تزهدًا منكم وتقشفًا»[(٢)].

وفي هذه الآية ردٌّ على من حرم زينة الله التي أخرجها لعباده، فإن التحريم والتحليل حق الله لا يشاركه أحد فيه، قال المراغي: «بعد أن مدح سبحانه النصارى بأنهم أقرب الناس مودة للمؤمنين، وذكر من أسباب ذلك أن منهم قسيسين ورهبانًا، ظن المؤمنون أن في هذا ترغيبًا في الرهبانية، وظن الميالون للتقشف والزهد أنها منزلة تقربهم إلى الله، ولن تتحقق إلا بترك التمتع بالطيبات من الطعام واللباس والنساء، إما دائما كامتناع الرهبان من الزواج، وإما في أوقات معينة كأنواع الصيام التي ابتدعوها، فأزال الله هذا الظن وقطع عرق هذا الوهم بذلك النهى الصريح»[(٣)].

كما أمر الله عز وجل بالتوسط حتى في المأكل والمشرب وعدم المغالاة في ذلك فقال: ﴿۞ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ

(١) جامع البيان ١٠/ ٩٥.

(٢) الكشاف ١/ ٦٧٠.
(٣) نظم الدرر ٧/ ٩.

﴿الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الأعراف:٣١].

قال ابن عاشور: «والإسراف تجاوز الحد المتعارف في الشيء أي: ولا تسرفوا في الأكل بكثرة أكل اللحوم والدسم؛ لأن ذلك يعود بأضرار على البدن وتنشأ منه أمراض معضلة»[1].

كما أظهر القرآن منهج الوسطية وعد المغالاة في المعاملات المالية أمرًا مذمومًا.

قال تعالى: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ۖ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾ [الإسراء:٢٦-٢٧].

قال السعدي: «﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ لأن الشيطان لا يدعو إلا إلى كل خصلة ذميمة فيدعو الإنسان إلى البخل والإمساك، فإذا عصاه دعاه إلى الإسراف والتبذير، والله تعالى إنما يأمر بأعدل الأمور وأقسطها، ويمدح عليه»[2].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ [الإسراء:٢٩].

قال الزمخشري: «هذا تمثيلٌ لمنع الشحيح وإعطاء المسرف، وأمر بالاقتصاد الذي هو بين الإسراف والتقتير ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا﴾ فتصير ملومًا عند الله؛ لأن المسرف غير مرضي عنده وعند الناس، يقول المحتاج: أعطى فلانًا وحرمني، ويقول المستغني: ما يحسن تدبير أمر المعيشة»[3].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان:٦٧].

يقول سيد قطب: «وهذه سمة الإسلام التي يحققها في حياة الأفراد والجماعات، ويتجه إليها في التربية والتشريع، يقيم بناءه كله على التوازن والاعتدال، والمسلم مع اعتراف الإسلام بالملكية الفردية المقيدة ليس حرًا في إنفاق أمواله الخاصة كما يشاء كما هو الحال في النظام الرأسمالي، وعند الأمم التي لا يحكم التشريع الإلهي حياتها في كل ميدان، إنما هو مقيد بالتوسط في الأمرين الإسراف والتقتير، فالإسراف مفسدة للنفس والمال والمجتمع، والتقتير مثله حبس للمال عن انتفاع صاحبه به وانتفاع الجماعة من حوله، فالمال أداة اجتماعية لتحقيق خدمات اجتماعية، والإسراف والتقتير يحدثان اختلالًا في المحيط الاجتماعي والمجال الاقتصادي، وحبس الأموال يحدث أزمات ومثله إطلاقها بغير حساب، ذلك فوق فساد القلوب والأخلاق»[4].

(١) التحرير والتنوير ٨/ ٩٥.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٥٦.
(٣) الكشاف ٢/ ٦٦٢.
(٤) في ظلال القرآن ٥/ ٢٥٧٩.

وأما في معاملات الزواج والطلاق فكان المنهج الوسطي بارزًا بروز الشمس في رابعة النهار، فلقد حث الإسلام على الزواج ورغب فيه، وذلك حفاظًا على النوع البشري، وقد ذكر القرآن الكريم أسس هذا الاختيار.

يقول تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم:٢١].

فأسس هذه العلاقة قائمة على السكن والمودة والرحمة.

كذلك وضع لنا الشرع الحكيم صفات الزوجة الصالحة، فقال صلى الله عليه وسلم: (تنكح المرأة لأربع: لمالها ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك)[1].

عند غير المسلمين منهم من لا يتزوج كالنصارى الذين ابتدعوا الرهبانية، ومنهم من يتجاوز حدود شرع الله، فيقع بالإباحية بانتهاك الحرمات وضياع الأنساب.

يقول تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد:٢٧].

كذلك وضع الشرع الحكيم صفات الزوج الصالح، فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض)[2].

هذه الأسس في اختيار الزوج الصالح غير متوفرة في الأمم غير الإسلامية، فاختيار الزوج يكون فقط للمتعة الجنسية، دون مراعاة تلك الضوابط والأسس التي وضعها الشرع الحكيم.

خامسًا: الوسطية في التشريع:

جاء الإسلام وسطًا في التحليل والتحريم بين اليهودية التي أسرفت في التحريم، وكثرت فيها المحرمات مما حرمه إسرائيل على نفسه، ومما حرمه الله على اليهود جزاء بغيهم وظلمهم قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾﴾ [النساء:١٦٠].

وبين المسيحية التي أسرفت في الإباحة حتى أحلت الأشياء المنصوص على تحريمها في التوراة.

فالإسلام قد أحل وحرم، ولكنه لم يجعل التحليل والتحريم من حق بشر، بل هو

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب الأكفاء في الدين، ٥/ ١٩٨٥، رقم ٥٠٩٠.

(٢) أخرجه الترمذي في صحيحه، كتاب النكاح، باب إذا جاءكم من ترضون دينه فزوجوه، ٣/ ٣٩٥، رقم ١٠٨٤.

من حق الله وحده، ولم يحرم إلا الخبيث الضار، كما لم يحل إلا الطيب النافع.

وفي التشريع الإسلامي موازنة دقيقة بين التكليف وبين الاستطاعة، فلا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، والمشقة تجلب التيسير، والضرورات تبيح المحظورات.

ولقد وردت آيات كثيرة تبين أن الله لا يكلف نفسًا فوق طاقتها، ولا يكلف نفسًا إلا وسعها وقدرتها، قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦].

وقال: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [الطلاق:٧].

وقال أيضًا: ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٣٣].

وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام:١٥٢].

وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ﴾ [الأعراف:٤٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَـٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ﴾ [المؤمنون:٦٢].

قال الطبري: «يعني بذلك جل ثناؤه: لا يكلف الله نفسًا فيتعبدها إلا بما يسعها، فلا يضيق عليها ولا يجهدها»[1] فهناك تكليف وأمر بالتعبد، لكن في حدود الوسع والطاقة، قال الزمخشري: «أي: لا يكلفها إلا ما يتسع فيه طوقه، ويتيسر عليه دون مدى الطاقة والمجهود، وهذا إخبار عن عدله ورحمته كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[البقرة:١٨٥] لأنه كان في إمكان الإنسان وطاقته أن يصلي أكثر من الخمس، ويصوم أكثر من الشهر، ويحج أكثر من حجة»[2].

وخلاصة القول: إن هذه الآيات تقرر منهج الوسطية في التكليف، فهناك أوامر ونواه، ولكنها في حدود الوسع، وعدم المشقة، وليس فيها تضييق وعسر وإحراج.

ولقد ظلمت بنو إسرائيل نفسها وبغت، فشدد الله عليهم.

قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَـٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [الأنعام:١٤٦].

قال المراغي: «أي: إنما حرم الله ذلك عليهم عقوبة بغيهم فشدد عليهم بذلك»[3].

وقال ابن عاشور: «والمقصود من ذكر هذا الأخير: أن يظهر للمشركين أن ما حرموه ليس من تشريع الله في الحال، ولا

(١) جامع البيان ٦/ ١٢٩.

(٢) الكشاف ١/ ٣٣٢.

(٣) نظم الدرر ٨/ ٥٩.

فيما مضى، فهو ضلال بحت»[1].

ولقد امتن الله على هذه الأمة في الكتاب العزيز بأن وضع عنها الإصر والأغلال التي كانت على من قبلها، ولم يحملها ما حمل من قبلها، فكان ذلك مظهرًا من مظاهر وسطية هذا الدين.

قال تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف:١٥٧].

قال الطبري: ويضع النبي الأمي العهد الذي كان قد أخذه الله على بني إسرائيل، من إقامة التوراة والعمل بما فيها من الأعمال الشديدة، كقطع الجلد من البول، وتحريم الغنائم، ونحو ذلك من الأعمال التي كانت عليهم مفروضةً، فنسخها حكم القرآن[2].

وتظهر وسطية التشريع في بيان كفارة اليمين.

قال تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المائدة:٨٩].

والوسطية في هذه الآية من ثلاثة وجوه:

١. إن إطعام المساكين يراعى منه نوعية الطعام أو الكسوة الوسط، وجعل المقياس الذي يرجع إليه في اختيار هذا الوسط إطعام الرجل لأهله أو كسوتهم، فينظر في ذلك ويخرج الوسط منه.

٢. إنه جعل الكفارة تدور على أحد ثلاثة أمور: إما الإطعام، أو الكسوة، أو الإعتاق، والحالف مخير بينها دون إلزام بواحد منها، وهذا فيه من التوسعة والتيسير ما لا يخفى.

٣. إذا لم يجد الحالف أو لم يستطع على أي نوع من هذه الثلاثة انتقل إلى الصيام، وهذه رحمة من الله وتوسعة على عباده.

وبهذا اجتمعت أطراف الوسطية في هذه القضية، وهي قضية جزئية يسيرة، فلا شك أن ما كان أعلى منها وأشد كلفة تكون مراعاة الوسطية فيه من باب أولى؛ لأن الله غني عنا وعن أعمالنا، ولكن التشريع ميدان للامتحان والابتلاء، والله بنا رؤوف رحيم[3].

---

(١) التحرير والتنوير ٨/ ١٤٢.
(٢) جامع البيان ١٣/ ١٦٨ بتصرف.
(٣) انظر: الوسطية في ضوء القرآن الكريم، ناصر العمر، ص ١٩٧.

أثر الوسطية على الفرد والمجتمع

إن المجتمع الصالح يتكون من الأفراد الصالحين، وبصلاح الفرد صلاح للأمة والدولة والمجتمع، فإذا ما صلح المجتمع سادت السكينة والمودة والمحبة وشعر الناس بنعمة الإخاء الإيماني، وانطلقوا يبحثون عن موارد الرزق، وترقي الأحوال، وتجنب المفاسد والمضار.

وإذا كان هناك شيء من التكاليف الشاقة للأفراد، واختل ميزان الحق والعدل والتوسط في الأمور، وانعدمت الحريات التي هي تعبير عن الوسطية، وقع المجتمع فريسة الأمراض الفتاكة، والانحرافات القاتلة، فتأتي الوسطية بآفاقها البعيدة، فهي إيجابية النفع، فتكاد السلبيات أو الأخطاء تنعدم، أو تكون في طريقها إلى الذوبان والنسيان.

وذلك لما تفرزه من آثار اجتماعية ملموسة من إشاعة المحبة، وتنامي المودة، والابتعاد عن التعصب، والأحقاد، وتوافر الثقة للآخرين وإحسان التعامل معهم، وصارت أحوال الأسرة والمجتمع في طمأنينة وشعور بالاستقرار، وتفرغ للإنجاز والعطاء، والتزام الحق والعدل، والبعد عن الشر والفتنة والفساد في الأرض؛ فما من مشكلة اجتماعية تثور إلا وكان سببها شذوذًا في التخطيط والعمل، أو انحرافًا عن المقصد الشريف.

أما حال الوسطية فتكون من أهم الأسباب الداعية إلى الاستقرار والوئام، وإسعاد الفرد والجماعة، وتقدم المدنية وازدهار الحضارة[(١)].

ويظهر أثر الوسطية في الخطاب الديني على الفرد والمجتمع فيما يأتي:

١. انتشار التقارب والتعايش بين الناس: فالوسطية مطلوبة في الخطاب الديني بعيدًا عن التشدد والغلو وتحريض الناس، فالرسول صلى الله عليه وسلم خاطب جميع الفئات وعاش معها، فعاش في مكة مع الكفار، وكذلك في المدينة أبرم عهدًا مع اليهود، وتعايش معهم تحت سقف دولة واحدة.

٢. نبذ العصبية والدعوة إلى الحوار وتقبل الآخر: فهذا الأمر مطلوب بين التيارات والجماعات والفئات الإسلامية لجمع كلمتهم وتوحيد صفهم، وقد نبذ الرسول العصبية القبلية الضيقة حيث قال لأبي ذر رضي الله عنه: (إنك امرؤ فيك جاهلية)[(٢)] ولقد دعا الرسول صلى

(١) انظر: مجلة الوعي الكويتية، مقال لوهبة الزحيلي ٥٣٢/ ٣٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب المعاصي من أمر الجاهلية، ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك، ١/ ١٥، رقم

الله عليه وسلم إلى الحوار كما حصل مع اليهود، حيث قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران:٦٤]. قال الرازي: «واعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أورد على نصارى نجران أنواع الدلائل وانقطعوا، ثم دعاهم إلى المباهلة فخافوا وما شرعوا فيها وقبلوا الصغار بأداء الجزية، وقد كان عليه السلام حريصًا على إيمانهم، فكأنه تعالى قال: يا محمد اترك ذلك المنهج من الكلام واعدل إلى منهج آخر يشهد كل عقل سليم وطبع مستقيم أنه كلام مبني على الإنصاف وترك الجدال»[(١)]، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يستخدم الحجة والبرهان في الخطاب، وكذلك اللين والرحمة شعاره: (بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا)[(٢)].

٣. التعايش السلمي داخل المجتمع المسلم: فالوسطية في الخطاب الديني تنشر المحبة بين المجتمع والطوائف المختلفة تحت شعار: (لا يؤمن أحدكم حتي يحب لأخيه ما يحب لنفسه)[(٣)]، ولكن النجاح في ذلك لا يكون إلا بالرجوع إلى مرجعٍ أصيل ألا وهو الكتاب والسنة، تحت هذا الدستور الواضح البين الصالح إلى قيام الساعة القائم على منهج الوسطية.

٤. ترشيد الخطاب الديني: وهو المبتغى تحقيقًا لشعار يسروا ولا تعسروا و بشروا ولا تنفروا، ومن ثم يتم قبول الخطاب من الناس، ويترجم إلى عمل بعيدًا عن المناكفات المذهبية والطائفية، ويبدأ الناس بداية جادة بالبحث عن الخير للبشرية جمعاء.

٥. انتشار القيم والمبادئ العظيمة الداعية إلى التسامح، وحب الخير للآخرين، ونشر ثقافة التسامح ونبذ الأحقاد والغل فيما بيننا مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر:١٠].

٦. انتشار الأمن والأمان بين المجتمع، إذ إن محاربة الأفكار الهدامة الداعية إلى الإخلال بالأمن والسلم المجتمعي

.٣٠

(١) مفاتيح الغيب ٨/ ٢٥١.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الأضاحي، باب لعن الله من ذبح لغير الله، ٦/ ٨٥، رقم ٥١٦٨.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ١/ ١٢، رقم ١٣.

مطلب لبقاء البشرية، ومطلب للبناء والتعمير للأرض، ونشر الدين وتعليم البشرية دين ربها تعالى، حيث شدد الرسول صلى الله عليه وسلم على عدم إيواء المحدث فقال: (من أحدث فيها حدثًا، أو آوى محدثًا، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين)[1]، وكذلك جعل في الإسلام حد الحرابة للمفسدين في الأرض قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٣٣﴾ [المائدة:٣٣].

٧. التكافل الاجتماعي والتراحم بين المجتمعات على اختلاف مذاهبها ومشاربها الفقهية والطائفية؛ فبالخطاب الديني المعتدل الوسطي المنهج ينتشر التعايش بين الناس والتراحم والتعاطف، فكل واحد يسعى إلى الأجر والمثوبة من الله، وتقديم يد المساعدة للآخرين اقتداء بنبينا صلى الله عليه وسلم؛ فإذا التزم الناس والدعاة وأصحاب الخطاب الديني بما سبق كان أدعى للناس إلى التطبيق والتنفيذ ونشر الخير بين الناس[2].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب تحريم المدينة وفضلها، ٤/ ١١٦، رقم ٣٣٠٩.

(٢) انظر: الوسطية في الخطاب الديني وأثره على المجتمع، عبدالسلام حمود غالب، ص ٧.

الأمة الوسط

لقد امتن الله على أمة الإسلام بجعلها أمة وسطًا؛ لقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة:١٤٣].

ولقد اختلف مفهوم الوسط عند أهل اللغة والمفسرين اختلاف تنوعٍ وليس تضاد، ونعرض مفهوم الأمة الوسط، وبيان أثرها بين الأمم، وذلك فيما يأتي.

أولًا: مفهوم الأمة الوسط:

تميزت الأمة الإسلامية بخاصية منفردة لم تكن لأمة من الأمم السابقة، وهي ميزة الوسطية التي جعلها الله خصيصة لأمة محمد صلى الله عليه وسلم في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة:١٤٣].

فأمة الوسط هي المقياس الشرعي الدقيق، والصفة القرآنية الجليلة، والمصطلح القرآني الهام، والذي لم يعد في هذا الزمان يحظى بتلك الأهمية في حياة الناس، إذ اختلط أمره على الكثيرين، بل وأفسد معناه الكثيرون، فأخرج البعض مضامينه الحقيقية منه، وأدخلوا إليه مضامين جديدة لا تخضع للشرع، وإنما تخضع لحكم العقل ومقاييس الهوى.

لقد فسره البعض تفسيرات حديثة مسايرة للواقع، ونابعة من فقه الهزيمة وثقافة الاستسلام، فقالوا بأن الوسط هو ما بين التطرف والاعتدال، وأقام البعض الآخر حزبًا متوسطًا أسموه بحزب الوسط، بحيث يتوسط بين العلمانية والتدين، وهكذا اختلط أمر هذا المصطلح على الناس، واختلط فيه الحابل بالنابل، فأصبح أمره بحاجة إلى إعادة توضيح وبلورة، وتسليط الضوء عليه؛ لمعرفة واقعه معرفةً واضحةً، ولإدراك معناه إدراكًا صحيحًا بحيث تتضح صورته في الذهن فتكون دقيقة ومبلورة وقاطعة تزيل كل التباس.

قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة:١٤٣].

في هذه الآية الكريمة يقترن معنى الوسط الذي وصفت به أمة الإسلام بمعنيين إضافيين هما: شهادة الأمة على الأمم الأخرى، وشهادة الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم على الأمة الإسلامية.

والوسط من ناحية لغوية يتضمن ثلاثة معانٍ:

١. العدالة.

فعن أبي سعيدٍ الخدري عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم (قال في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ قال:

عدلًا»[1].

٢. الخيار والأجود.

قال ابن كثير: «والوسط هاهنا: الخيار والأجود، كما يقال: قريش أوسط العرب نسبًا ودارًا، أي: خيرها»[2].

٣. الاعتدال والتوسط.

قال الطبري: «وأرى أن الله تعالى ذكره إنما وصفهم بأنهم وسط؛ لتوسطهم في الدين، فلا هم أهل غلوٍ فيه، غلو النصارى الذين غالوا بالترهب، وقيلهم في عيسى ما قالوا فيه ولا هم أهل تقصير فيه، تقصير اليهود الذين بدلوا كتاب الله، وقتلوا أنبياءهم، وكذبوا على ربهم، وكفروا به ولكنهم أهل توسط واعتدال فيه. فوصفهم الله بذلك، إذ كان أحب الأمور إلى الله أوسطها»[3].

ولا تعارض بين هذه المعاني الثلاثة، فكلها صحيحة، والآية صالحة، وهي متلازمة مترابطة.

فالآية تعني أن الله جعلهم خيارًا عدولًا؛ ليشهدوا على الأمم أن رسلهم بلغتهم، ولا يشهد إلا العدل من الناس[4].

(١) أخرجه ابن حبان، في الإحسان، كتاب إخباره صلى الله عليه وسلم عن مناقب الصحابة، باب فضل الأمة، ١٦/ ١٩٩، رقم ٧٢١٦، وصححه الألباني.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٥٤.

(٣) جامع البيان ٣/ ١٤٢.

(٤) انظر: الأمة الوسط والمنهاج النبوي في الدعوة إلى الله، عبد الله التركي ص٣٠.

وقال الرازي: «إن الوسط هو العدل والدليل عليه الآية والخبر والشعر والنقل والمعنى»[5].

وقال المراغي: «والوسط العدل والخيار، والزيادة على ذلك إفراط، والنقص عنه تفريط وتقصير، وكلاهما مذموم، والفضيلة في الوسط»[6].

ويقول السعدي: «يقتضي أنهم إذا شهدوا على حكم أن الله أحله أو حرمه أو أوجبه، فإنها معصومة في ذلك. وفيها اشتراط العدالة في الحكم، والشهادة، والفتيا، ونحو ذلك»[7].

ولتطبيق هذا المعنى على أرض الواقع فإنه يتطلب من الأمة الإسلامية إذا ما أرادت الالتزام بمعنى الوسط أن تتصدر العالم، وأن تكون في مركز الصدارة والقيادة فيه؛ لكي تقيم الحجة على الناس.

فمعنى الوسط إذًا ليس له أي علاقة بالتطرف أو بالتنازل، أو بالحل الوسط، فالوسط كما ورد في الآية هو ذلك العدل والخير الذي على الأمة الإسلامية أن تقترن به، فلا دخل له بالتطرف أو بالتنازل، أو بالتسوية بين المتناقضات، وإنما علاقته واضحة بالعدل الذي يستلزم الشهادة على

(٥) مفاتيح الغيب ٤/ ٨٤.

(٦) نظم الدرر ٢/ ٤.

(٧) تيسير الكريم الرحمن، ص٧١.

الناس، وبالخير الذي يتطلبه حمل الهداية إلى العالم، فالخيرية هي صنو العدل، وهما معًا صفتان مطلوبتان للتبليغ، وللأمر بالمعروف وللنهي عن المنكر. ويعضد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران: ١٠٤].

فهذه الأمور تتناسب مع معنى الوسط الشرعي، وتتناسب مع معنى الشهادة على الناس الوارد في قوله تعالى: ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ فتبين جوهر علاقة الشهادة مع الوسط بمعنى العدل.

ومن هنا كانت محاولة تلبيس معنى الوسط الوارد في الآية الكريمة بمصطلحات غربية وضعية هي محاولة مرفوضة؛ لأنها تفضي إلى تقسيم الأمة إلى تيارات متنازعة، وتؤدي إلى اقتتال هذه التيارات، ووقوع الفتنة ونشوب الحرب الأهلية. فمعنى الوسط الوارد في الآية يخص كل المسلمين بكل تياراتهم، ولا يجوز أن ينفرد به أي تيار أو حزب أو مذهب، فهو ثابت من الثوابت الإسلامية، ويجب أن يعمل ليكون وصفًا للأمة بكليتها، وأما إلصاق هذا الوصف بمجموعة، ونزعه عن مجموعة أخرى، فهذا معناه ضرب الأمة ببعضها، وخضوعها لأعدائها؛ ولذلك كان الواجب على فئات الأمة وعلمائها ومذاهبها أن يقتصر في تعريف الوسط على العدل فقط كما فسره الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وكما فسره كبار المفسرين، وأن لا ينجر البعض بحسن نيةٍ أو بسوئها إلى منزلق اقتباس المعاني الغربية وتنزيلها على المصطلحات الإسلامية بلي أعناقها والتأول المصطنع في تفسيرها[1].

ثانيًا: أثر الأمة الوسط بين الأمم:

إن الأمة الإسلامية كونها أمة وسطًا لها مسؤولية ربانية، فهي مكلفة بأن تحمل أكمل منهج وأقومه في العقيدة والأخلاق والتشريع إلى بقية المجتمعات الإنسانية، مكلفة بدعوة الأمم الأخرى إلى الصراط المستقيم، منهج الإسلام الذي يضمن للإنسان والمجتمع الحق والخير ويحقق له السعادة، حتى تتحقق الخيرية لها؛ لقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [آل عمران: ١١٠].

---

(١) انظر: مجلة الوعي، أحمد الخطيب ٢٢٨/ ٤٣.

ومنهج الإسلام هو منهج الوسط والاعتدال، وتقدير الأحوال والظروف والنتائج، ومراعاة الاستطاعة والقدرة.

لقد قامت الدعوة إلى الله على منهاج الوسطية، وكانت سنة النبي صلى الله عليه وسلم مثلًا أعلى في تطبيق هذا المنهج، الذي سار على هديه الخلفاء الراشدون والتابعون لهم بإحسان.

وفي هذه الفترة القليلة من الزمن في حياة الأمم دخل الناس في دين الله أفواجًا، وتكون المجتمع المسلم الواحد في عقيدته وشريعته وسلوكه الاجتماعي، على الرغم من امتداد الإسلام إلى أقاليم خارج شبه الجزيرة العربية، مثل: مصر والعراق والشام، وكانت الدعوة إلى الله وفق منهج الوسطية القرآنية، وكانت السبيل الأول لانتشار الإسلام ودعوته، وذلك بالأساليب والطرق الحكيمة الرشيدة التي أرشدها الله تعالى في قوله: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل:١٢٥].

وكذلك بالقدوة ليصبح المجتمع الإسلامي مجتمعًا سليمًا يحقق لأهله وللبشر جميعًا الحق والخير والسعادة والاستقرار، لاسيما في الأوقات والظروف التي يزداد فيها الانحراف والبعد عن المنهج الرباني، ويكثر فيها العنف والتطرف وتشويه صورة الإسلام الحقيقية والنيل منه[١].

لقد دخل الإسلام وانتشر في بلاد الكفر عن طريق أحد أمرين هامين: إما عن طريق الجهاد، فيتعرف أهل تلك البلاد على سماحة الإسلام وسماحة أهله وكمال شرائعه، وإما عن طريق تجار المسلمين الذين كانوا ينشرون وسطية الإسلام في تلك البلاد ويتخلقون بخلق الإسلام الوسطي، مما أثر في أهلها، فدخلوا في دين الله أفواجًا.

وبالنظر إلى عدد المسلمين في أندونيسيا ألا وهو ٢٠٢،٨٦٧،٠٠٠ مسلم، أي ٨٨,٢٪ من عدد سكان أندونيسيا و ١٢,٩٪ من نسبة المسلمين في العالم[٢] لم يسجل لنا التاريخ أن هناك غزوة اسمها غزوة أندونيسيا، فهذه الدولة فتحها المسلمون عن طريق التجار المسلمين الدعاة بمنهجهم الوسطي، ومنذ أن دخلها الإسلام وهى من أكبر البلاد والممالك الإسلامية وانتشر الإسلام منها ليصل إلى الفلبين وماليزيا وجميع دول جنوب شرق آسيا، هذا الأمر يقودنا إلى أهمية نشر هذا الدين الوسط لما له من أثر في انتشار الإسلام.

وخلاصة القول أن لأمة الوسط أثرًا كبيرًا في نشر دين الله، ودخول الناس فيه أفواجًا،

---

(١) انظر: الأمة الوسط والمنهاج النبوي في الدعوة إلى الله، عبد الله التركي ص٩٠.

(٢) انظر:، التاريخ المعاصرالأقليات الإسلامية، محمود شاكر ٢٢/ ١٢.

حيث إن خيرتها وعدلها منة من الله وليس من البشر، وهي بالتالي لا تتلقى من الناس تصوراتها وقيمها، وهي شهيدة على الناس، وفي مقام الحكم العدل بينهم، وبينما هي تشهد على الناس فإن الرسول هو الذي يشهد عليها ويزن ما يصدر عنها، ويقول فيها الكلمة الأخيرة، ولكي تضطلع الأمة بهذا الدور فإنها لا تغلو في التجرد الروحي ولا الارتكاس المادي، بل تتبع الفطرة، وهي كذلك في التوازن بين التفكير والشعور، والفرد والجماعة.

موضوعات ذات صلة

الاستقامة، التربية، العدل، الغلو



عناصر الموضوع

مفهوم الوصية

أولًا: المعنى اللغوي:

الوصية لغةً: الإيصال، مأخوذة من وصيت الشيء أصيه إذا وصلته، وسميت الوصية وصية؛ لأن الميت لما أوصى بها وصل ما كان فيه من أمر حياته بما بعده من أمر مماته[1].

قال ابن فارس:«(وصى) الواو والصاد والحرف المعتل: أصل يدل على وصل شيء بشيء، ووصيت الشيء: وصلته، ويقال: وطئنا أرضا واصية، أي: إن نبتها متصل قد امتلأت منه، ووصيت الليلة باليوم: وصلتها، وذلك في عمل تعمله، والوصية من هذا القياس، كأنه كلام يوصى أي: يوصل، يقال: وصيته توصية، وأوصيته إيصاء»[2].

والخلاصة: أن الوصية في اللغة، طلب فعل الشيء بعد موت الموصي، أو هي العهد بفعل الشيء بعد الموت، وهي مشتقة من الوصل وهي إيصال خير الدنيا بخير الآخرة.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

أن الوصية لها معنيان:

الأول: عهد خاص مضاف إلى ما بعد الموت، وقد يصحبه التبرع.

والثاني: ما يقع به الزجر عن المنهيات والحث على المأمورات، وهو ما يعهد إلى الإنسان أن يعمله من خير أو ترك شر بما يرجى تأثيره.

قال الراغب: الوصية: التقدم إلى الغير بما يعمل به مقترنًا بوعظ[3].

والمتدبر في المعنيين يجد اتصالًا بينهما، حيث إن المعنى الاصطلاحي يعني: التقدم إلى الغير بما يعمل به مقترنًا بوعظ، وهذا مرتبط بمعنى الوصية في اللغة، فيعطي معنى قوة الارتباط والاتصال لخير الدنيا بالآخرة.

---

(١) انظر: المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٦٦٢، تاج العروس، الزبيدي ٤٠/ ٢٠٧.
(٢) مقاييس اللغة ٦/ ١١٦.
(٣) انظر: تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ٣١٩، المفردات، الراغب الأصفهاني ص٨٧٣.



الوصية في الاستعمال القرآني

وردت مادة (وصي) في القرآن الكريم (٣٢) مرة، يخص موضوع الميثاق منها (٢٦) مرة[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١٢	﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة:١٣٢]
الفعل المضارع	٥	﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ﴾ [النساء:١٢]
اسم الفاعل	١	﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾﴾ [البقرة:١٨٢]
المصدر	٨	﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة:١٨٠]

وجاءت الوصية في الاستعمال القرآني بمعناها اللغوي، وهو: التقدم إلى الغير بما يعمل به مقترنًا بوعظ[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم، عبد الله جلغوم، باب الواو، ص١٤١٣.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٨٧٣.

الألفاظ ذات الصلة

١ النذر:

النذر لغةً:

ما يقدمه المرء لربه، أو يوجبه على نفسه من صدقة أو عبادة أو نحوهما، وما كان وعدًا على شرط، فعلي إن شفى الله مريضي كذا نذر[(١)].

النذر اصطلاحًا:

أن توجب على نفسك ما ليس بواجب[(٢)].

الصلة بين الوصية والنذر:

أن كليهما قربة، لكن الوصية يجوز الرجوع عنها والنذر لا يجوز الرجوع عنه.

٢ الهبة:

الهبة لغةً:

العطية الخالية عن الأعواض والأغراض[(٣)].

الهبة اصطلاحًا:

تمليك المال بغير عوض[(٤)].

الصلة بين الوصية والهبة:

أن كلا من الوصية والهبة تمليك، لكن الوصية بعد الموت والهبة حال الحياة[(٥)].

٣ الوقف:

الوقف لغةً:

الحبس، قال ابن فارس: «وقف: الواو والقاف والفاء: أصل واحد يدل على تمكث في شيء ثم يقاس عليه»[(٦)].

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٢٠٠، القاموس الفقهي، سعدي أب جيب ص ٣٥٠، المعجم الوسيط لعدد من المحققين ٢/ ٩١٢.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٧٩٧، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٥/ ٣٤.
(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١/ ٨٠٣، المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٦٧٣، تاج العروس، الزبيدي ٤/ ٣٦٤.
(٤) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٨٨٤، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٥/ ٢٨٥.
(٥) انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية ٤٣/ ٢٢٢.
(٦) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٦/ ١٣٥، لسان العرب، ابن منظور ٩/ ٣٥٩، الكليات، الكفوي ص



الوقف اصطلاحًا:

حبس العين على ملك الواقف أو على ملك الله تعالى[1].

الصلة بين الوصية والوقف:

أن كليهما تبرع، لكنهما يفترقان في أن الوصية تكون بعد الموت وقد تكون بالعين، وقد تكون بالمنفعة، أما الوقف فهو تبرع في حال الحياة وبالمنفعة فقط[2].

٤ المواريث:

المواريث لغةً:

جمع ميراث، وهو المال المخلف عن الميت، ولفظ ميراث يطلق في اللغة العربية على معنيين: أحدهما: البقاء، وثانيهما: انتقال الشيء من قوم إلى آخرين[3].

الميراث اصطلاحًا:

عند الجمهور: ما تركه الميت من أموال وحقوق، وعند الحنفية: هي ما تركه الميت من الأموال صافيا عن تعلق حق الغير بعين من الأموال، فالأصل عند الحنفية: أن الحقوق لا يورث منها إلا ما كان تابعًا للمال أو في معنى المال، كحق التعلي وحقوق الارتفاق، أما حق الخيار وحق الشفعة وحق الانتفاع بالعين الموصى بها فلا تورث عند الحنفية، ويدخل في التركة اتفاقا الدية الواجبة بالقتل الخطأ أو بالصلح عن العمد أو بانقلاب القصاص مالا بعفو بعض الأولياء فتقضى منه ديون الميت وتنفذ وصاياه[4].

الصلة بين الوصية والميراث:

أن الوصية قد تكون حقًّا واجبًا مثل الدين، وقد تكون تبرعًا بإرادة الموصي، والميراث حق واجب في مال الموروث وبغير إرادته، والوصية عطية من المالك، والميراث عطية من الله تعالى[5].

.٩٤٠

(١) انظر: التعريفات، الجرجاني ص ٢٥٣، أنيس الفقهاء، القنوي ص ٧٠، التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٣٤٠.

(٢) انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية ٤٤/ ١١٠.

(٣) انظر: الصحاح، الجوهري ١/ ٢٩٥، المطلع على ألفاظ المقنع، البعلي ص ٣٦٢، لسان العرب، ابن منظور ٢/ ٢٠٠، الكليات، الكفوي ص ٧٨.

(٤) انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية ٣/ ١٩.

(٥) انظر: تفسير آيات الأحكام، السايس ص ٦٥، المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة ص ٣٣٢.

حكم الوصية

أجمع العلماء على أنها واجبة على من عنده ودائع وعليه ديون أو نحوها، وأكثر العلماء على أن الوصية غير واجبة على من ليس عليه شيء من ذلك، موسرًا كان الموصي أو فقيرًا، وقالت طائفة: الوصية واجبة على ظاهر القرآن[1].

(١) انظر: الهداية الى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ١/ ٥٧٩، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ٢٥٩، فتح القدير، الشوكاني ١/ ٢٠٥.

الموصي

لقد ذكر القرآن الكريم وصايا ربنا جل وعلا، ووصايا الأنبياء والرسل، ووصية المؤمن لوالده ولولده، ووصيته في ماله، وستتناول ذلك فيما يأتي:

أولًا: الله جل جلاله:

الوصية من الله عز وجل: هي ما عهد إلى العباد أن يعملوه، من فعل خير، أو ترك شر، وكلمة وصية تشعر المتلقي لها بحب الموصي للموصى.

فالله جل جلاله يحب عباده، ويحب لهم الخير، ويكره لهم الشر، ولذلك وصاهم بهذه الوصايا الجليلة العظيمة، وما دام الله تعالى هو الموصي فمعنى ذلك أنها افتراض، والوصية من الله تعالى لا تكون إلا للأمور المهمة التي لا تستقيم الحياة إلا بالقيام بها، وهي في أمهات المسائل التي لا يصح أن نغفلها، والتوصية تخصيص للتشريع؛ لأن التشريع يعم أحكامًا كثيرة جدا، ولكن الوصية التي يوصي الله بها تكون هي عيون التشريع، ولقد وصى الله تعالى عباده بوصايا جليلة تشمل خير الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ

إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ [الأنعام:١٥١-١٥٣].

إن الله تعالى رحيم بنا يوصينا بأحسن الوصايا التي تنفعنا في الدنيا والآخرة، وأول وصية وصانا الله تعالى بها هي ألا نشرك به شيئا، ثم وصى بواجب الإنسان تجاه والديه وأقاربه والمساكين وأبناء السبيل والأيتام من بر وقول معروف وحفظ حق، ثم واجب الاعتدال والقصد في حالة اليسر وعدم التبرم بأحداث الحياة وضيق المعيشة وكثرة الولد في حالة الفقر والعسر.

ثم واجب احترام أعراض الناس ودمائهم وعهودهم وأسرارهم واجتناب الإثم والفحش والبغي والكبر والخيلاء والتصدي للأمور بدون علم وبينة وفائدة بأسلوب قوي محكم الحلقات، وجاءت هذه الوصايا بصيغة الأوامر والنواهي والوصايا والإلزام والتنبيه، وهي من هذه الناحية أجمع وأقوى جوامع القرآن في صدد الأخلاق الدينية والاجتماعية والشخصية التي من شأنها أن تكفل رضاء الله وعنايته، وأن تحفظ الناس من الشرور والمهالك، وأن تضمن لهم السعادة والطمأنينة، وأن تبث فيهم روح التعاون والتراحم والإخاء، وأن تجنبهم ما لا يليق بالكرامة الإنسانية والشعور الإنساني من مواقف وحركات، وهذه هي الوصايا العشر التي أجمعت عليها جميع الشرائع ولم تنسخ قط في ملة.

قال ابن عباس رضي الله عنه عن هذه الآيات: «إنها محكمات لم ينسخهن شيء من جميع الكتب».

وقيل: «إنهن أم الكتاب من عمل بهن دخل الجنة، ومن تركهن دخل النار»، ولم يوجد شرع جاء لينسخ واحدة من هذه الوصايا.

ولذلك يقول كعب الأحبار رضي الله عنه: «والذي نفس كعب بيده إن هذه الآيات لأول شيء في التوراة، ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام:١٥١]»[1].

(١) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢/ ١٨، النكت والعيون، الماوردي ٢/ ١٨٦، التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ١/ ٢٧٩، التفسير الحديث، محمد عزت ٣/ ٣٧٥، تفسير الشعراوي ٤/ ٢٠٣٤.

ثانيًا: الأنبياء والرسل والحكماء:

إن الأنبياء عليهم السلام هم القدوة الحسنة التي يجب أن نقتدي بهم في أقوالهم وأفعالهم، ولذلك جعل الله تعالى الوصية في القرآن على ألسنتهم، وإن وصايا الأنبياء عليهم السلام هي دين وتشريع من الله تعالى يجب اتباعها والعمل بها، وفيها سعادة الدنيا والآخرة، ولقد كانت وصية الأنبياء إلى أممهم هي إقامة الدين.

فقال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [البقرة: ١٣٠-١٣٣].

وقد تضمنت هذه الآيات الشريفة ما كان عليه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من الدعاء إلى الله تعالى، حتى جعلوا ذلك وصية يوصون بها واحدا بعد واحد، وبينت الآية الكريم أن إبراهيم عليه السلام أوصى بملته الحنيفية بنيه، وأن يعقوب أوصى بذلك، وقدم بين يدي وصيته اختيار الله لهم هذا الدين، ليسهل عليهم اتباع ما اختاره الله لهم، ويحضهم على ذلك، وأمرهم أنهم لا يموتون إلا عليه، لأن الأعمال بخواتيمها، ثم ذكر سؤال يعقوب لبنيه عما يعبدون بعد موته، فأجابوه بما قرت به عينه من موافقته وموافقة آبائه الأنبياء من عبادة الله تعالى وحده، والانقياد لأحكامه.

وحكمة هذا السؤال أنه لما وصاهم بالحنيفية، استفسرهم عما تكن صدورهم، وهل يقبلون الوصية؟ فأجابوه بقبولها وبموافقة ما أحبه منهم، ليسكن بذلك جاشه، ويعلم أنه قد خلف من يقوم مقامه في الدعاء إلى الله تعالى.

وصدر سؤال يعقوب بتقريع اليهود والنصارى بأنهم ما كانوا شهدوا وصية يعقوب، إذ فاجأه مقدمات الموت، فدعواهم اليهودية والنصرانية على إبراهيم ويعقوب وبنيهم باطلة، إذ لم يحضروا وقت الوصية، ولم تنبئهم بذلك توراتهم ولا إنجيلهم، فبطل قولهم، إذ لم يتحصل لا عن عيان ولا عن نقل، ولا ذلك من الأشياء التي يستدل عليها بالعقل، ولم يقل: ووصى بها إبراهيم ويعقوب بنيهما، لئلا يتوهم أن الوصية كانت منهما في وقت واحد أو أنها خاصة بأبنائهما معا، وهم أولاد يعقوب[(١)].

(١) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ١/ ٦٦٣، تفسير المنار، محمد رشيد رضا ١/ ٣٩١.

وقد ذكر القرآن الكريم لقمان الحكيم عليه السلام وهو يوصي ابنه بالتوحيد والنهي عن الشرك.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ [لقمان:١٣-١٩].

شملت هذه الوصية قضية التوحيد وإخلاص العقيدة لله وحده لا شريك له؛ فالشرك بالله ظلم عظيم وجرم كبير، وكون الشرك ظلما؛ لما فيه من وضع الشيء في غير موضعه، وكونه عظيما؛ لما فيه من التسوية بين من لا نعمة إلا منه سبحانه ومن لا نعمة له، كما شملت الحرص على طاعة الوالدين والبر بهما، ومراقبة الله له في كل حين، وإحاطته بكل شيء؛ وأداء الصلاة، ومواصلة الصبر في المعاملة مهما كانت الشدائد والعقبات، والحرص على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ والنهي عن الكبر والخيلاء والإعجاب بالنفس وهتك الحرمات، والخوض في أعراض الناس وتلويث البيئة بالأفعال القبيحة والصور المنفرة والأصوات المزعجة، وذلك في صور يهتز لها الوجدان، وينخلع منها القلب، وتتفق مع الفطرة والعقل جميعًا.

قال تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [لقمان:١٨][1].

ثالثًا: عموم الناس:

ذكر القرآن الكريم وصية المؤمن لوالده وولده ووصيته في ماله.

قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾﴾ [البقرة:١٨٠].

وقد تضمنت هذه الآيات الشريفة وصية المؤمن لوالده وولده ووصيته في ماله وكانت هذه الآية أول ما نزل في الأموال،

---

(١) انظر: روح المعاني، الألوسي ١١/ ٨٤، التصوير القرآني للقيم الخلقية والتشريعية، علي صبح ص ١٩٧.

وهذه الوصية تتوقف على نظر الموصي وأمانته وعدله فقد يجور فيها ويظلم، وقد يعدل فيها ويحسن، والمطلوب العدل من الموصي فيما أوصى به.

وقد بين الله تعالى قدر هذه الوصية في قوله: ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ والمعروف الفعل الذي تألفه العقول ولا تنكره النفوس، فهو الشيء المحبوب المرضي، سمي معروفا؛ لأنه لكثرة تداوله والتأنس به صار معروفا بين الناس، وضده يسمى المنكر، والمراد بالمعروف هنا العدل الذي لا مضارة فيه ولا يحدث منه تحاسد بين الأقارب؛ بأن ينظر الموصي في ترجيح من هو الأولى بأن يوصي إليه لقوة قرابة أو شدة حاجة، فإنه إن توخى ذلك استحسن فعله الناس ولم يلوموه.

ومن المعروف في الوصية ألا تكون للإضرار بوارث أو زوج أو قريب، ووكل ذلك إلى نظر الموصي فهو مؤتمن على ترجيح من هو أهل للترجيح في العطاء كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

وخص هذا الحق بالمتقين ترغيبا في الرضى به؛ لأن ما كان من شأن المتقي فهو أمر نفيس فليس في الآية دليل على أن هذا الوجوب على المتقين دون غيرهم من العصاة، بل معناه أن هذا الحكم هو من التقوى وأن غيره معصية، وخص المتقون بالذكر تشريفا للرتبة ليتبارى الناس إليها، وخص الوالدين والأقربين لأنهم مظنة النسيان من الموصي، لأنهم كانوا يورثون الأولاد أو يوصون لسادة القبيلة.

وقدم الوالدين للدلالة على أنهما أرجح في التبدية بالوصية، وكانوا قد يوصون بإيثار بعض أولادهم على بعض أو يوصون بكيفية توزيع أموالهم على أولادهم، وخوفًا من الحيف أو الجنف تولى الشرع الحنيف تعيين المقدار الموصى به من المال وهو الثلث، والثلث كثير.

فقد ثبت في الحديث أن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، قال: **(جاء النبي صلى الله عليه وسلم يعودني وأنا بمكة، وهو يكره أن يموت بالأرض التي هاجر منها، قال: (يرحم الله ابن عفراء)، قلت: يا رسول الله، أوصي بمالي كله؟ قال: (لا)، قلت: فالشطر، قال: (لا)، قلت: الثلث، قال: (فالثلث، والثلث كثير)**[1][2].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٢٧٤٢، ٤/ ٣، كتاب الوصايا، باب أن يترك ورثته أغنياء خير من أن يتكففوا الناس، ومسلم في صحيحه، رقم ١٦٢٨، ٣/ ١٢٥٢، كتاب الهبة، باب الوصية بالثلث.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ١٤٦، في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٥٨٩، روح المعاني، الألوسي ١/ ٤٥١.

الموصى به

مما جاء من الوصايا في القرآن الكريم ما يأتي:

أولًا: أمور العقائد:

ذكرت العقيدة في القرآن الكريم في عدة آيات، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام:١٥٣].

إن هذه الآية تتكلم عن العقيدة التي يجب أن يتمسك بها الناس، والحاكمة في عبادتهم وجميع أعمالهم وأخلاقهم وسلوكهم، عقيدة واحدة وطريق واحد هي الطريق الموصلة إلى الله تعالى، وهو التوحيد وإخلاص العبادة، وأصول الشرائع والأحكام مما لا يختلف باختلاف الأعصار كالإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة واكتساب مكارم الأخلاق وفاضل الصفات، وهي العقيدة التي جاء بها جميع الأنبياء والرسل، فالعقيدة هي أول دعوة الرسل ومعركتهم مع العقائد الأخرى التي كانت سائدة في مجتمعاتهم والتي وقفت أمام كل الأنبياء، وعن مجاهد في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ [الأنعام:١٥٣].

قال: «البدع والشبهات، وهذه السبل تعم اليهودية، والنصرانية، والمجوسية، وعباد القبور، وسائر أهل الملل والأوثان، والبدع والضلالات من أهل الشذوذ والأهواء، والتعمق في الجدل، والخوض في الكلام، فاتباع هذه من اتباع السبل التي تذهب بالإنسان عن الصراط المستقيم إلى موافقة أصحاب الجحيم»، وذكر الصراط المستقيم منفردًا، معرفًا تعريفين: تعريفا باللام، وتعريفا بالإضافة، وذلك يفيد تعينه واختصاصه، وأنه صراط واحد، وأما طرق أهل الغضب والضلال فإنه سبحانه يجمعها ويفردها[1].

وهذه العقيدة هي التي أخبر عنها القرآن في قوله تعالى: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [الشورى:١٣].

بينت هذه الآية الكريمة أن من وصية الله تعالى لجميع الأمم والرسل إقامة الدين بكليته، وقد كانت هذه الوصية عمل الرسل لأممهم ومن بعدهم، فنفذها إبراهيم عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ١٣٨، تفسير المراغي ٢٥/ ٢٥، في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٢١٧.

﴿تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة:١٣٢].

ومن بعد إبراهيم يعقوب عليه السلام، قال تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [البقرة:١٣٣].

فهذا تواصي الأمم بأصل الإيمان وعموم الشريعة، وقوله تعالى: ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا﴾ [الشورى:١٣].

مقدر فيه مضاف، أي: مثل ما وصى به نوحا، أو هو بتقدير كاف التشبيه على طريقة التشبيه البليغ مبالغة في شدة المماثلة حتى صار المثل كأنه عين مثله، والمراد: المماثلة في أصول الدين مما يجب لله تعالى من الصفات، وفي أصول الشريعة من كليات التشريع، وأعظمها توحيد الله، ثم ما بعده من الكليات الخمس الضروريات، ثم الحاجيات التي لا يستقيم نظام البشر بدونها، فإن كل ما اشتملت عليه الأديان المذكورة من هذا النوع قد أودع مثله في دين الإسلام.

فالأديان السابقة كانت تأمر بالتوحيد، والإيمان بالبعث والحياة الآخرة، وتقوى الله بامتثال أمره واجتناب منهيه على العموم، وبمكارم الأخلاق بحسب المعروف، وتختلف في تفاصيل ذلك وتفاريعه، ودين الإسلام لم يخل عن تلك الأصول وإن خالفها في التفاريع تضييقا وتوسيعا، وامتازت هذه الشريعة بتعليل الأحكام وسد الذرائع والأمر بالنظر في الأدلة وبرفع الحرج وبالسماحة وبشدة الاتصال بالفطرة، ثم بين الله تعالى وصيته لجميع أنبيائه، فقال سبحانه: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى:١٣].

والمراد: إقامة دين الإسلام الذي هو توحيد الله وطاعته، والإيمان برسله وكتبه، وبيوم الجزاء، وسائر ما يكون الرجل بإقامته مسلما، ولم يرد الشرائع التي هي مصالح الأمم على حسب أحوالها، فإنها مختلفة متفاوتة.

قال جل وعلا: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨].

ونحوه قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنبياء:٩٢][1].

وفي هذه الآيات: أن جميع الأديان وصايا الله إلى خلقه، وأن دين الإسلام هو دين جميع الأنبياء السابقين بلا استثناء، وأنه لا يخالف هذه الشرائع المسماة، وأن اتباعه

(١) انظر: تفسير الراغب الأصفهاني ٣/ ١٢٤٥، الكشاف، الزمخشري ٤/ ٢١٥، لباب التأويل، الخازن ٢/ ١٧٣، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ٩٨، أضواء البيان، الشنقيطي ٩/ ٩٤.

يأتي بما أتت به من خير الدنيا والآخرة، وفيه إشارة إلى أهل الكتاب من اليهود والنصارى باتباعه، والتعريض بالكفار الذين أعرضوا عنه.

فهذه هي أصول الدين التي بينتها الآيات والتي هي عقيدة كل الأنبياء والرسل عليهم السلام، وهذه العقيدة هي التي بينها النبي صلى الله عليه وسلم، كما جاء من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: (خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا، ثم قال: (هذا سبيل الله)، ثم خط خطوطا عن يمينه وعن شماله، ثم قال: (هذه سبل) - قال يزيد: متفرقة - على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه)، ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣])[1][2].

قال سيد قطب: «لقد كانت المعركة الأولى التي خاضها الإسلام ليقرر وجوده هي معركة الحاكمية وتقرير لمن تكون، لذلك خاضها وهو في مكة، خاضها وهو ينشئ العقيدة، ولا يتعرض للنظام والشريعة، خاضها ليثبت في الضمير أن الحاكمية لله وحده لا يدعيها لنفسه مسلم ولا يقر مدعيها على دعواه مسلم.

فلما أن رسخت هذه العقيدة في نفوس العصبة المسلمة في مكة، يسر الله لهم مزاولتها الواقعية في المدينة، فلينظر المتحمسون لهذا الدين ما هم فيه وما يجب أن يكون، بعد أن يدركوا المفهوم الحقيقي لهذا الدين، إن وجود هذا الدين هو وجود حاكمية الله، فإذا انتفى هذا الأصل انتفى وجود هذا الدين.

وإن مشكلة هذا الدين في الأرض اليوم، لهي قيام الطواغيت التي تعتدي على ألوهية الله، وتغتصب سلطانه، وتجعل لأنفسها حق التشريع بالإباحة والمنع في الأنفس والأموال والأولاد، وهي هي المشكلة التي كان يواجهها القرآن الكريم بهذا الحشد من المؤثرات والمقررات والبيانات، ويربطها بقضية الألوهية والعبودية، ويجعلها مناط الإيمان أو الكفر، وميزان الجاهلية أو الإسلام»[3].

(١) أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده، رقم ٢٤١، ١/ ١٩٧، وأحمد في مسنده، رقم ٤١٤٢، ٧/ ٢٠٧، والدارمي في سننه، رقم ٢٠٨، ١/ ٢٨٥ كتاب العلم، باب في كراهية أخذ الرأي، والنسائي السنن الكبرى رقم ١١١٠٩، ١٠/ ٩٥ كتاب التفسير فاتحة الكتاب، قوله تعالى: (وأن هذا صراطي مستقيمًا).
وحسنه التبريزي في مشكاة المصابيح ١/ ٥٨.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ١٣٨، في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٢١٧.

(٣) في ظلال القرآن ٣/ ١٢١٧.

ثانيًا: أمور العبادات:

ولقد وصى القرآن الكريم بإقامة العبادات.

قال تعالى: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [الشورى:١٣].

بينت هذه الآية الكريمة أن من وصية الله تعالى لجميع الأمم والرسل إقامة الدين بكليته، والعبادات من صلاة وصيام وزكاة وغيرها هي من الدين الذي وصى الله تعالى عباده بإقامتها والمواظبة عليها، فمن ترك هذه العبادات من صلاة وصيام وزكاة وغيرها من العبادات فهو من الذين تركوا وصية الله تعالى بإقامة الدين، بل إن هذه العبادات تعد من أصول الدين وتاركها متعمدا كافر بهذا الدين الذي أمر الله تعالى بإقامته.

قال ابن عباس ومجاهد: «لم يبعث الله نبيا قط إلا وصاه بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإقرار لله بالطاعة، فذلك دينه الذي شرع لهم».

ووصى الله تعالى إبراهيم وإسماعيل بإقامة العبادات، قال تعالى: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة:١٢٥].

العهد أصله الوعد المؤكد، فإذا عدي بإلى كان بمعنى الوصية المؤكد على الموصى العمل بها فعهد هنا بمعنى أرسل عهدا إليه أي أرسل إليه يأخذ منهم عهدا، فالمعنى وأوصينا إلى إبراهيم وإسماعيل بتطهير البيت من كل رجس معنوي كالشرك بالله وعبادة الأصنام، أو رجس حسي كاللغو والرفث والتنازع فيه، حين أداء العبادات كالطواف به والسعي بين الصفا والمروة والعكوف فيه والركوع والسجود، وسماه الله بيته لأنه جعله معبدا للعبادة الصحيحة، وأمر المصلين بأن يتوجهوا في عبادتهم إليه[1].

والصلاة والزكاة، أول ما نطق به عيسى عليه السلام في المهد إذ قال: ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾ [مريم:٣١].

يعنى: أمرني بالمحافظة على حدود الصلاة وإقامتها على ما فرضها علي، فإن قيل: كيف يؤمر بالصلاة والزكاة، في حال طفوليته وقد جاء من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال صلى الله عليه وسلم: (رفع القلم عن ثلاث الصبي حتى يبلغ)[2].

---

(١) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ١/ ٦١٠، الوجيز، الواحدي ص ١٣٠، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٧١١.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، رقم ٤٣٩٨،

والجواب: إن قوله: ﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ لا يدل على أنه تعالى أوصاه بأدائهما في الحال، بل المراد أوصاه بأدائهما في الوقت المعين لهما وهو البلوغ، وقيل: إن الله تعالى صيره حين انفصل عن أمه بالغا عاقلا، وهذا القول أظهر في سياق قوله: ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم:٣١].

فإنه يفيد أن هذا التكليف متوجه إليه في زمان جميع حياته حين كان في الأرض، وحين رفع إلى السماء وحين ينزل الأرض بعد رفعه، وفي الزكاة معنيان: أحدهما: زكاة الأموال أن يؤديها، والآخر: تطهير الجسد من دنس الذنوب، فيكون معناه: وأوصاني بترك الذنوب واجتناب المعاصي[١].

ثالثًا: أمور التشريع:

جعل الله تعالى لكل أهل ملة شريعة ومنهاجا، فلأهل التوراة شريعة، ولأهل الإنجيل شريعة، ولأهل القرآن شريعة، يحل فيها ما يشاء ويحرم ما يشاء، والدين واحد والشرائع مختلفة.

قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨][٢].

ومن التشريعات الدينية التي وصى الله تعالى بها: قوله تعالى: ﴿۞ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [الأنعام:١٥١].

بينت هذه الآية الكريمة أن من وصية الله تعالى لجميع الأمم التوحيد والإخلاص في العبادة وطاعة الوالدين واجتناب الفواحش، والاهتمام بحقوق اليتيم، والعدل في القول مع القريب والبعيد، والعدل في البيع، وجاءت الوصية الرابعة في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ﴾ [الأنعام:١٥١].

نهي عن كل الأخلاق القبيحة والقذرة التي تدمر الروابط والعلاقات الأسرية والاجتماعية، والفواحش: جمع فاحشة، وهي: ما عظم قبحه من الأقوال والأفعال، يقال: فحش فلان، أي: صار فاحشًا مرتكبًا للقبائح، والمتفحش هو الذي يأتي بالفحش

٤/ ١٤٠، كتاب الحدود، باب في المجنون يسرق أو يصيب حدا، والترمذي في سننه، رقم ١٤٢٣، ٤/ ٣٢، أبواب الحدود، باب ما جاء فيمن لا يجب عليه الحد، والنسائي في سننه، رقم ٣٢٣٤، ٦/ ١٥٦، كتاب الطلاق، باب من لا يقع طلاقه من الأزواج، وابن ماجه في سننه، رقم ٢٠٤١، ١/ ٦٥٨، كتاب الطلاق، باب طلاق المعتوه والصغير والنائم. وصححه الألباني في الإرواء ٥/ ٢٧٤.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ١٩١، تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ٣٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ١١، لباب التأويل، الخازن ٣/ ١٨٧.

(٢) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٤/ ٧٤.

من القول أو الفعل، كالسرقة والزنا والنميمة وشهادة الزور، وقد تعلق التحريم والنهي بهذا الوصف الذي يشعر بالعلة- كما يقول علماء الأصول- فكأنه قال: إن كل قول أو فعل تستقبحه العقول فهو فاحشة يجب البعد عنها، وحمل لفظ الفواحش على العموم في جميع الفواحش المحرمات والمنهيات فيدخل فيه الزنا وغيره؛ لأن المعنى الموجب لهذا النهي هو كونه فاحشة.

فحمل اللفظ على العموم أولى من تخصيصه بنوع من الفواحش، وأيضًا فإن السبب إذا كان خاصًا لا يمنع من حمل اللفظ على العموم.

وفي قوله: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ دقيقة، وهي أن الإنسان إذا احترز عن المعاصي في الظاهر ولم يحترز منها في الباطن دل ذلك على أن احترازه عنها ليس لأجل عبودية الله وطاعته فيما أمر به أو نهى عنه، ولكن لأجل الخوف من رؤية الناس ومذمتهم، ومن كان كذلك استحق العقاب.

ومن ترك المعصية ظاهرًا وباطنًا؛ لأجل خوف الله وتعظيمًا لأمره، استوجب رضوان الله وثوابه، وقد نهى عن القرب منها، وهو أبلغ في التحذير من النهي عن ملابستها: لأن القرب من الشيء مظنة الوقوع فيه، ولما لم يكن للإثم قرب وبعد كان القرب مرادا به الكناية عن ملابسة الإثم أقل ملابسة، لأنه من المتعارف أن يقال ذلك في الأمور المستقرة في الأمكنة إذا قيل لا تقرب منها فهم النهي عن القرب منها ليكون النهي عن ملابستها بالأحرى، فلما تعذر المعنى المطابقي هنا تعينت إرادة المعنى الالتزامي بأبلغ وجه[1].

وفي الآية: إن القاعدة التي يقوم عليها المجتمع قاعدة النظافة والطهارة والعفة والأخلاق، فنهاهم الله تعالى عن الفواحش ظاهرها وخافيها؛ لأنه لا يمكن قيام أمة، ولا استقامة مجتمع، ولا أسرة في وحل الفواحش ما ظهر منها وما بطن، إنه لا بد من طهارة ونظافة وعفة لتقوم الأسرة وليقوم المجتمع.

والذين يحبون أن تشيع الفاحشة هم الذين يحبون أن تتزعزع قوائم الأسرة وأن ينهار المجتمع، والجماعة التي تشيع فيها الفاحشة جماعة ميتة، منتهية حتمًا إلى الدمار، والحضارة الإغريقية والحضارة الرومانية والحضارة الفارسية، شواهد من التاريخ، ومقدمات الدمار والانهيار في الحضارة الغربية تنبئ بالمصير المرتقب لأمم ينخر فيها كل هذا الفساد، والمجتمع الذي تشيع فيه المقاتل والثارات، مجتمع مهدد بالدمار، ومن ثم يجعل الإسلام عقوبة

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٢/ ١٧٢، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨، أ/ ١٥٩، التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ٥/ ٢١٧.

هذه الجرائم هي أقسى العقوبات، لأنه يريد حماية مجتمعه من عوامل الدمار[1].

ومن التشريعات الدينية الإحسان للوالدين، قال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الأنعام:١٥١].

وقال سبحانه: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨﴾ [العنكبوت:٨].

وقال جل وعلا: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ۝١٤﴾ [لقمان:١٤].

وقال عز من قائل: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۝١٥﴾ [الأحقاف:١٥].

وصى الله تعالى الإنسان بالإحسان إلى والديه والحنو عليهما، والبر بهما في حياتهما وبعد مماتهما، لما لهما عليه من حق التربية والإنعام، وإذا لم يحسن الإنسان حرمة من هو من جنسه فهو عن حسن مراعاة سيده أبعد، ورعاية حق الوالد من حيث الاحترام، ورعاية حق الأم من حيث الشفقة والإكرام.

وذكره جل وعلا بر الوالدين مقرونا بتوحيده جل وعلا في عبادته، يدل على شدة تأكد وجوب بر الوالدين، والحسن: مصدر حسن، أي: وصيناه بحسن المعاملة، والكره: أي كان حمله مكروها لها، أي حالة حمله وولادته لذلك، وانتصب كرها على الحال، أي كارهة أو ذات كره.

والمعنى: أنها حملته في بطنها متعبة من حمله تعبا يجعلها كارهة لأحوال ذلك الحمل، ووضعته بأوجاع وآلام جعلتها كارهة لوضعه، وفي ذلك الحمل والوضع فائدة له هي فائدة وجوده الذي هو كمال حال الممكن وما ترتب على وجوده من الإيمان والعمل الصالح الذي به حصول النعم الخالدة، والفصال: الفطام.

وذكر الفصال لأنه انتهاء مدة الرضاع، فذكر مبدأ مدة الحمل بقوله: ﴿وَحَمْلُهُ﴾ وانتهاء الرضاع بقوله: ﴿وَفِصَالُهُ﴾.

والمعنى: وحمله وفصاله بينهما ثلاثون شهرًا، ومن بديع معنى الآية جمع مدة الحمل إلى الفصال في ثلاثين شهرا لتطابق مختلف مدد الحمل، إذ قد يكون الحمل ستة أشهر وسبعة أشهر وثمانية أشهر وتسعة وهو الغالب، قيل: كانوا إذا كان حمل المرأة

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٢٣٠.

تسعة أشهر وهو الغالب أرضعت المولود أحد وعشرين شهرا، وإذا كان الحمل ثمانية أشهر أرضعت اثنين وعشرين شهرا، وإذا كان الحمل سبعة أشهر أرضعت ثلاثة وعشرين شهرا، وإذا كان الحمل ستة أشهر أرضعت أربعة وعشرين شهرا، وذلك أقصى أمد الإرضاع فعوضوا عن نقص كل شهر من مدة الحمل شهرا زائدا في الإرضاع؛ لأن نقصان مدة الحمل يؤثر في الطفل هزالا.

ومن بديع هذا الطي في الآية أنها صالحة للدلالة على أن مدة الحمل قد تكون دون تسعة أشهر ولولا أنها تكون دون تسعة أشهر لحددته بتسعة أشهر؛ لأن الغرض إظهار حق الأم في البر بما تحملته من مشقة الحمل، فإن مشقة مدة الحمل أشد من مشقة الإرضاع، فلولا قصد الإيماء إلى هذه الدلالة لكان التحديد بتسعة أشهر أجدر بالمقام.

وقد جعل علي بن أبي طالب رضي الله عنه هذه الآية مع قوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة:٢٣٣]. دليلًا على أن الوضع قد يكون لستة أشهر، ورووا عن معمر بن عبد الله الجهني قال: (تزوج رجل منا امرأة من جهينة فولدت لتمام ستة أشهر فانطلق زوجها إلى عثمان بن عفان فذكر له فبعث إليها عثمان، فلما أتي بها أمر برجمها، فبلغ ذلك عليا فأتاه، فقال: أما تقرأ القرآن؟ قال: بلى. قال: أما سمعت قوله: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾، وقال: ﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ فلم نجده بقي إلا ستة أشهر، فرجع عثمان إلى ذلك)[1].

وهو استدلال بني على اعتبار أن شمول الصور النادرة التي يحتملها لفظ القرآن هو اللائق بكلام علام الغيوب الذي أنزله تبيانا لكل شيء من مثل هذا، ووعد الله على بر الوالدين قبول الطاعة بقوله جل ذكره: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الأحقاف:١٦].

فقبول الطاعة وغفران الزلة مشروطان ببر الوالدين، وسبيل العبد في رعاية حق الوالدين أن يصلح ما بينه وبين الله، فحينئذ يصلح ما بينه وبين غيره على العموم، وأهله على الخصوص، وشر خصال الولد في رعاية حق والديه أن يتبرم بطول حياتهما، ويتأذى بما يحفظ من حقهما، فبر الوالدين أعظم ما يتقرب به إلى الله جل ذكره، وعقوقهما من أعظم الكبائر المهلكات، وبينه الله عز وجل بقوله تعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ﴾ [الإسراء:٢٣].

فنهى الله عز وجل الولد أن يقول أف إذا شم منهما رائحة يكرهها، فالنهي لما فوق

(١) أخرجه مالك في الموطأ رقم ١١، ٢/ ٨٢٥، كتاب المدبر، باب ما جاء في الرجم.

ذلك أعظم، وهذا باب مختصر في الحض على بر الوالدين[1].

ومن التشريعات الدينية إعطاء الوالدين والأقربين حقهم من المال، قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾﴾ [البقرة:١٨٠].

بينت هذه الآية حكم المال بعد موت صاحبه، وكان هذا أول تشريع في المال، وكانت عادة العرب في الجاهلية أن الميت إذا كان له ولد أو أولاد ذكور استأثروا بماله كله، وإن لم يكن له ولد ذكر استأثر بماله أقرب الذكور له من أب أو عم أو ابن عم الأدنين فالأدنين، وكان صاحب المال ربما أوصى ببعض ماله أو بجميعه لبعض أولاده أو قرابته أو أصدقائه، فلما استقر المسلمون بدار الهجرة واختصوا بجماعتهم شرع الله لهم تشريك بعض القرابة في أموالهم ممن كانوا قد يهملون توريثه من البنات والأخوات والوالدين في حال وجود البنين ولذلك لم يذكر الأبناء في هذه الآية، ولم يفتتح بـ(يا أيها الذين آمنوا) لأن الوصية كانت معروفة قبل الإسلام، فلم يكن شرعها إحداث شيء غير معروف، لذلك لا يحتاج فيها إلى مزيد تنبيه لتلقي الحكم.

وكان السبب في نزول هذه الآية: أن أهل الجاهلية كانوا يوصون بما لهم للبعداء رياءً وسمعةً، فصرف الله تعالى بهذه الآية ما كان يصرف إلى البعداء إلى الأهل والأقرباء، والخير ههنا المال قليلًا كان أو كثيرًا، وقال بعض الناس: الخير لا يتناول إلا الكثير، والخير قد ورد في القرآن بمعنى المال، قال تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ [البقرة:٢٧٢].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾﴾ [العاديات:٨].

وقيل: إن المال كما يكون خيرا قد يكون شرًا، لكن جعل الله تعالى ههنا خيرًا تنبيهًا على أن الوصية يستحب في المال الطيب دون الخبيث والمغصوب، فإن ذلك يجب رده إلي أربابه ومما تم بالوصية فقط، ثم بين الله تعالى قدر هذه الوصية في قوله: ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾.

والمعروف الفعل الذي تألفه العقول ولا تنكره النفوس، فهو الشيء المحبوب المرضي، سمي معروفا؛ لأنه لكثرة تداوله والتأنس به صار معروفا بين الناس، وضده يسمى المنكر، والمراد بالمعروف هنا العدل الذي لا مضارة فيه ولا يحدث منه تحاسد بين الأقارب؛ بأن ينظر الموصي في ترجيح

(١) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ١١/ ٦٨٣٠، لطائف الإشارات، القشيري ٣/ ٣٩٨، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ٢٩.

من هو الأولى بأن يوصي إليه لقوة قرابة أو شدة حاجة، فإنه إن توخى ذلك استحسن فعله الناس ولم يلوموه، ومن المعروف في الوصية ألا تكون للإضرار بوارث أو زوج أو قريب، ووكل ذلك إلى نظر الموصي فهو مؤتمن على ترجيح من هو أهل للترجيح في العطاء كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:١٨٠].

وخص هذا الحق بالمتقين ترغيبا في الرضى به؛ لأن ما كان من شأن المتقي فهو أمر نفيس فليس في الآية دليل على أن هذا الوجوب على المتقين دون غيرهم من العصاة، بل معناه أن هذا الحكم هو من التقوى وأن غيره معصية، وخص المتقون بالذكر تشريفا للرتبة ليتبارى الناس إليها، وخص الوالدين والأقربين لأنهم مظنة النسيان من الموصي، لأنهم كانوا يورثون الأولاد أو يوصون لسادة القبيلة، وقدم الوالدين للدلالة على أنهما أرجح في التبدية بالوصية، وكانوا قد يوصون بإيثار بعض أولادهم على بعض أو يوصون بكيفية توزيع أموالهم على أولادهم.

ثم لما كان الموصي قد لا يحسن التدبير في مقدار ما يوصي لكل واحد منهم وربما كان يقصد المضارة تولى بنفسه بيان ذلك الحق على وجه تيقن به أنه الصواب وأن فيه الحكمة البالغة، وقصره على حدود لازمة من السدس والثلث والنصف والثمن لا يمكن تغيرها فتحول من جهة الإيصاء إلى الميراث.

قال تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾﴾ [النساء:١١].

وصى الله تعالى في هذه الآية في الأولاد، ثم بين ما هي هذه الوصية، فقال تعالى: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾ بيان لنصيب كل من الولد والبنت في تركة والدهما المتوفى، فللذكر ضعف الأنثى، أو مثل نصيب الأنثيين.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ أي: إن كان المتوفى لم يعقب ذكرا، وكانت ذريته إناثا، فإن كن اثنتين فأكثر، فلهما أو لهن الثلثان، ﴿وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ﴾ أي: ويوصيكم الله أن تفرضوا لأبوي المتوفى،

لكل واحد منهما السدس من التركة، وذلك ﴿إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ ذكرا كان أو أنثى، ﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ﴾ أي: إن لم يكن للمتوفى فرع كابن أو بنت، أو ابن ابن، ﴿وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ﴾ أي: انحصر الميراث فيهما ﴿فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ﴾ وللأب الباقي وهو الثلثان، ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ﴾ اثنان فأكثر أشقاء، أو لأب ذكورا أو إناثا، ﴿فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ﴾ أي: أن نصيبها مع وجود الإخوة ينتقل من الثلث إلى السدس.

وهذا الانتقال لصالح الأب؛ لأن الأخوة لا يأخذون مع وجود الأب شيئا، وإنما هم يؤثرون على نصيب الأم فقط، ويحجبونها حجب نقصان، والسر في تساوي الوالدين في الميراث مع وجود الأولاد، الإشارة إلى وجوب احترامهما على السواء، وفي أن حظ الوالدين من الإرث أقل من حظ الأولاد مع عظم حقهما على الولد، أنهما يكونان في الغالب أقل حاجة إلى المال من الأولاد، إما لكبرهما وإما لتمولهما، وإما لوجود من تجب عليه نفقتهما من أولادهما الأحياء.

وأما الأولاد، فإما أن يكونوا صغارًا لا يقدرون على الكسب، وإما أن يكونوا على كبرهم محتاجين إلى نفقات كثيرة في الحياة كالزواج وتربية الأطفال ونحو ذلك.

وقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾ فقدم الدين والوصية على الميراث، لأن الدين حق على الميت، والوصية حق له، وهما مقدمان على حق ورثته، وقد قدم سبحانه الوصية على الدين في اللفظ مع أنها مؤخرة عن الدين في السداد، وذلك للتشديد في تنفيذها، إذ هي مظنة الإهمال، أو مظنة الإخفاء، ولأنها مال يعطى بغير عوض فكان إخراجها شاقا على النفس، فكان من الأسلوب البليغ الحكيم العناية بتنفيذها.

وكان من مظاهر هذه العناية تقديمها في الذكر، قال علي رضي الله عنه: **إنكم تقرؤون الوصية قبل الدين، (وبدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالدين قبل الوصية)**[(١)].

وهذا إجماع على أن الدين مقدم على الوصية والإرث مؤخر عنهما؛ لأن الدين حق على الميت والوصية حق له وهما يتقدمان على حق الورثة.

وقوله تعالى: ﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ أي: إنكم لا تدرون أي الفريقين أقرب لكم نفعا آباؤكم أو أبناؤكم، فلا تتبعوا في قسمة التركات ما كان يتعارفه أهل الجاهلية من إعطائها

---

(١) أخرجه البخاري تعليقًا، ٤/ ٥، كتاب الوصايا، باب تأويل قول الله تعالى: (من بعد وصية يوصي بها أو دين)، ووصله الترمذي في سننه، رقم ٢٠٩٤، ٤/ ٤١٦، كتاب الفرائض، باب ما جاء في ميراث الإخوة من الأب والأم، وابن ماجه في سننه، رقم ٢٧١٥، ٢/ ٩٠٦، كتاب الوصايا، باب الدين قبل الوصية. وحسنه الألباني في الإرواء ٦/ ١٣١.

للأقوياء الذين يحاربون الأعداء، وحرمان الأطفال والنساء لأنهم من الضعفاء، بل اتبعوا ما أمركم الله به، فهو أعلم منكم بما هو أقرب نفعا لكم مما تقوم به في الدنيا مصالحكم وتعظم به في الآخرة أجوركم، ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: فرض الله ما ذكر من الأحكام فريضة لا هوادة في وجوب العمل بها، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي: إنه تعالى لعلمه بشؤونكم ولحكمته العظيمة لا يشرع لكم إلا ما فيه المنفعة لكم، إذ لا تخفى عليه خافية من وجوه المصالح والمنافع، إلا أنه منزه عن الغرض والهوى اللذين من شأنهما أن يمنعا من وضع الشيء في غير موضعه، ومن إعطاء الحق لمن يستحقه، وروي أن هذه الآية نزلت لما استشهد سعد بن الربيع يوم أحد، وترك بنتين وامرأة، وأباه الربيع، فأخذ أبوه جميع ما ترك على ما كانوا عليه في الجاهلية، فأتت امرأة سعد النبي صلى الله عليه وسلم فشكت ذلك إليه مرتين وهي تبكي، وتذكر فقر بنيها، وأنه لا أحد يرغب فيهما لفقرهما، فنزلت آية المواريث: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾ [النساء:١١][1][2].

ومن التشريعات الدينية التي وصى الله تعالى بها، قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم﴾ [البقرة:٢٤٠].

قال المفسرون: «كان في ابتداء الإسلام إذا مات الرجل لم يكن لامرأته في الميراث شيء إلا السكنى والنفقة سنة ما لم تخرج من بيت زوجها، وكان المتوفى يوصي بذلك لها، فإن خرجت من بيت زوجها لم يكن لها نفقة، وكان الحول واجبا عليها في الصبر عن التزوج، ثم نسخت هذه الآية بالربع والثمن، وتقدير لمدة الوفاة بأربعة

(١) أخرجه أبو داود في سننه، رقم ٢٨٩١، ٣/ ١٢١، كتاب الفرائض، باب ما جاء في ميراث الصلب، والترمذي في سننه، رقم ٢٠٩٢، ٤/ ٤١٤، أبواب الفرائض، باب ما جاء في ميراث البنات، وابن ماجه في سننه، رقم ٢٧٢٠، ٢/ ٩٠٨، كتاب الفرائض، باب فرائض الصلب.
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.
وصححه ابن الملقن في البدر المنير ٧/ ٢١٣.

(٢) انظر: الهداية الى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ٢/ ١٢٣٨، التفسير الوسيط، الواحدي ١/ ٢٦٨، تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ٣٨٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٤٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٩٢، غرائب القرآن، النيسابوري ١/ ٤٨٧، التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس ٢/ ٧٠٩، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ١٤٦، في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٥٨٩، روح المعاني، الألوسي ١/ ٤٥١.

أشهر وعشر»[1].

ومن التشريعات الدينية التي وصى الله تعالى بها، قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۙ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

[المائدة:١٠٦-١٠٨].

أخبر الله تعالى المؤمنين أن حكمه في الشهادة على الموصي إذا حضره الموت أن تكون شهادة عدلين، فإن كان في سفر وهو الضرب في الأرض ولم يكن معه من المؤمنين أحد فليشهد شاهدين ممن حضره من أهل الكفر، فإذا قدما وأديا الشهادة على وصيته حلفا بعد الصلاة أنهما ما كذبا ولا بدلا وأن ما شهدا به حق ما كتما فيه شهادة الله، وحكم بشهادتهما، فإن عثر بعد ذلك على أنهما كذبا أو خانا ونحو هذا مما هو إثم، حلف رجلان من أولياء الموصي في السفر وغرم الشاهدان ما ظهر عليهما[2].

رابعًا: أمور الأخلاق:

ذكر القرآن الكريم أن من مكارم الأخلاق التواصي بالحق والتواصي بالصبر، فقال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾

[العصر:١-٣].

أقسم الله تعالى في هذه الآية الكريمة، أنَّ كلَّ إنسان خاسر إلا من اتصف بهذه الأوصاف الأربعة: الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر على الحقِّ، فهذه السورة ميزان للأعمال يزين المؤمن بها نفسه، فيبين له بها ربحه من خسرانه، ولهذا قال الشافعي رضي الله عنه: «لو فكر الناس كلهم فيها لكفتهم»[3].

وقوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ﴾

[العصر:٣].

والحقُّ: الأمر الثابت الذي لا يسوغ إنكاره، وهو الخير كله: من توحيد الله وطاعته، واتباع كتبه ورسله، والزهد في الدنيا، والرغبة في الآخرة، وقيل: الحق: هو القرآن؛ لشموله كلَّ أمر وكلَّ نهي، وكل خير،

(١) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ١/ ٣٥٣.

(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٢٥١.

(٣) انظر: تفسير الإمام الشافعي ٣/ ١٤٦١.

ويشهد لذلك قوله تعالى في حقِّ القرآن: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء:١٠٥].

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿٢﴾﴾ [الزمر:٢].

وقد اشتمل قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر:٣].

على إقامة المصالح الدينية كلها، فالعقائد الإسلامية والأخلاق الدينية مندرجة في الحقِّ، والأعمال الصالحة وتجنب السيئات مندرجة في الصبر، والتخلق بالصبر ملاك فضائل الأخلاق كلها، فإنَّ الارتياض بالأخلاق الحميدة لا يخلو من حمل المرء نفسه على مخالفة شهوات كثيرة.

ففي مخالفتها تعب يقتضي الصبر عليه حتى تصير مكارم الأخلاق ملكة لمن راض نفسه عليها، وأفادت صيغة التواصي بالحق وبالصبر أن يكون شأن حياة المؤمنين قائمًا على شيوع التآمر بهما ديدنًا لهم، وذلك يقتضي اتصاف المؤمنين بإقامة الحقِّ وصبرهم على المكاره في مصالح الإسلام وأمته؛ لما يقتضيه عرف الناس من أنَّ أحدًا لا يوصي غيره بملازمة أمر إلا وهو يرى ذلك الأمر خليقًا بالملازمة، إذ قلَّ أن يقدم أحد على أمر بحقٍّ و لا يفعله أو أمر بصبر وهو ذو جزع.

وقد قال الله تعالى توبيخًا لبني إسرائيل: ﴿۞ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [البقرة:٤٤][1].

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٤/ ٧٩٤، مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ٦٧٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٤٨٠، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٥٣٣، أضواء البيان، الشنقيطي ٩/ ٩٤.

الموصى

تظهر وصية الله تعالى للأنبياء والمؤمنين وأهل الكتاب والإنسان عامة وذلك من خلال ما يلي:

أولًا: الأنبياء:

وصى الله تعالى الأنبياء والمرسلين بالتشريعات الدينية، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [الشورى:١٣].

إن الأنبياء عليهم السلام مأمورون بتبليغ وصية الله تعالى، وقد بينت هذه الآية الكريمة أن من وصية الله تعالى لجميع الرسل إقامة الدين بكليته، ومن إقامة الدين الذي أمر الله تعالى بإقامته اتباع جميع التشريعات التي أمر الله تعالى بها، وقد كانت هذه الوصية عمل الرسل لأممهم ومن بعدهم، فنفذها إبراهيم عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة:١٣٢].

ومن بعد إبراهيم يعقوب عليه السلام، قال تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [البقرة:١٣٣].

فهذا تواصي الأمم بأصل الإيمان وعموم الشريعة، وقوله تعالى: ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ [الشورى:١٣].

مقدر فيه مضاف، أي مثل ما وصى به نوحا، أو هو بتقدير كاف التشبيه على طريقة التشبيه البليغ مبالغة في شدة المماثلة حتى صار المثل كأنه عين مثله، والمراد: المماثلة في أصول الدين مما يجب لله تعالى من الصفات، وفي أصول الشريعة من كليات التشريع، وأعظمها توحيد الله، ثم ما بعده من الكليات الخمس الضروريات، ثم الحاجيات التي لا يستقيم نظام البشر بدونها.

فإن كل ما اشتملت عليه الأديان المذكورة من هذا النوع قد أودع مثله في دين الإسلام، فالأديان السابقة كانت تأمر بالتوحيد، والإيمان بالبعث والحياة الآخرة، وتقوى الله بامتثال أمره واجتناب نهيه على العموم، وبمكارم الأخلاق بحسب المعروف، وتختلف في تفاصيل ذلك وتفاريعه.

ودين الإسلام لم يخل عن تلك الأصول وإن خالفها في التفاريع تضييقا وتوسيعا، وامتازت هذه الشريعة بتعليل الأحكام

وسد الذرائع والأمر بالنظر في الأدلة ويرفع الحرج وبالسماحة وبشدة الاتصال بالفطرة، وكما وصى الله تعالى أنبياءه ورسله بأصل الإيمان وعموم الشريعة، كذلك وصى الله تعالى الأنبياء بالعبادة من صلاة وزكاة، كما في قوله تعالى عن نبي الله عيسى عليه السلام: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾ [مريم:٣١][1].

ثانيًا: المؤمنون:

المؤمنون مأمورون بالتواصي بالحق، وهو الخير كله: من توحيد الله وطاعته، واتباع كتبه ورسله، والزهد في الدنيا، والرغبة في الآخرة، لذلك قرن الأمر بالتواصي بالحق بالأمر بالتواصي بالصبر في سورة العصر، والحق هو المقصود الأول من الدين، وهو لا يقوم إلا بالصبر، فكانت سورة العصر مشتملة على التواصي بالاستقامة على صراط الله المستقيم واتباعه، ويأتي عقبها قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر:٣].

بمثابة التثبيت على هذا الصراط المستقيم إذ الصبر لازم على عمل الطاعات، كما هو لازم لترك المنكرات، وقد اشتمل قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر:٣].

على إقامة المصالح الدينية كلها، فالعقائد الإسلامية والأخلاق الدينية مندرجة في الحق، والأعمال الصالحة وتجنب السيئات مندرجة في الصبر، والتخلق بالصبر ملاك فضائل الأخلاق كلها فإن الارتياض بالأخلاق الحميدة لا يخلو من حمل المرء نفسه على مخالفة شهوات كثيرة، ففي مخالفتها تعب يقتضي الصبر عليه حتى تصير مكارم الأخلاق ملكة لمن راض نفسه عليها، وأفادت صيغة التواصي بالحق وبالصبر أن يكون شأن حياة المؤمنين قائما على شيوع التآمر بهما ديدنًا لهم.

وذلك يقتضي اتصاف المؤمنين بإقامة الحق وصبرهم على المكاره في مصالح الإسلام وأمته، لما يقتضيه عرف الناس من أن أحدًا لا يوصي غيره بملازمة أمر إلا وهو يرى ذلك الأمر خليقا بالملازمة إذ قل أن يقدم أحد على أمر بحق هو لا يفعله أو أمر بصبر وهو ذو جزع.

وقد قال الله تعالى توبيخا لبني إسرائيل: ﴿۞ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [البقرة:٤٤][2].

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ١٩١، تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ٣٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ١١، لباب التأويل، الخازن ٣/ ١٨٧.

(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ٤/ ٧٩٤، مدارك

والمؤمنون مأمورون أن لا يقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۖ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢)﴾ [الأنعام:١٥٢].

نهى الله تعالى ولي اليتيم أو وصية عن قربان مال اليتيم إلا بالوجه الذي هو أنفع، فلا بد لكافل اليتيم من النظر والتحري عند التصرف في ماله، حتى يعرف ما هو ضار وما هو نافع، فلا يتصرف إلا بما هو نافع، ويحرم أخذ مال اليتيم بالباطل، والتعدي عليه ظلمًا، ومثل اليتيم في النهي غيره؛ فكل ذي ولاية أو أمانة على مال غيره يجب عليه أن يتحرى التحري المذكور، كما يحرم على كل أحد أن يتعدى على مال غيره، ووجه تخصيص حق اليتيم في ماله بالحفظ: أن ذلك الحق مظنة الاعتداء عليه من الولي، وهو مظنة انعدام المدافع عنه، لأنه ما من ضعيف عندهم إلا وله من الأقارب والموالي من يدفع عنه إذا استجاره أو استنجده.

فأما اليتيم فإن الاعتداء عليه إنما يكون من أقرب الناس إليه وهو وليه؛ لأنه لم يكن يلي اليتيم عندهم إلا أقرب الناس إليه، وكان الأولياء يتوسعون في أموال أيتامهم، ويعتدون عليها، ويضيعون الأيتام لكيلا ينشؤوا نشأة يعرفون بها حقوقهم، ولذلك قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ (٦)﴾ [الضحى:٦].

فلذلك لم يوص الله تعالى بمال غير اليتيم؛ لأن صاحبه يدفع عن نفسه، أو يستدفع بأوليائه ومنجديه، لأنه ضعيف لا ناصر له، والنفوس أشد طمعًا في مال الضعيف؛ فالعناية به أوكد، والعقوبة عليه أشد، ومن بليغ إيجاز القرآن في بيانه أنه يذكر الشيء ليدل به على تأثيره، أو الذي هو أحرى بالحكم منه، أو لكون امتثال الحكم الشرعي فيه داعيا إلى امتثاله في غيره بالمساواة.

وفي قوله: ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام:١٥٢] أربعة تأويلات:

أحدها: حفظ ماله عليه إلى أن يكبر ليتسلمه.

والثاني: أن ذلك هو التجارة به.

والثالث: هو ألا يأخذ من الربح إذا اتجر له بالمال شيئًا.

والرابع: هو أن يأكل الولي بالمعروف من ماله إن افتقر، ويترك إن استغنى، ولا يتعدى من الأكل إلى اللباس ولا غيره.

التنزيل، النسفي ٣/ ٦٧٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٤٨٠، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٥٣٣، أضواء البيان، الشنقيطي ٩/ ٩٤.

ويحتمل خامسًا: أن التي هي أحسن: حفظ أصوله وتثمير فروعه.

ثم قال: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ [الأنعام:١٥٢].

أي: الرشد وزوال السفه مع البلوغ، وفي حدها ثلاثة أقاويل: قال مقاتل: «يعني ثماني عشرة سنة»، وقال الكلبي: «الأشد ما بين ثماني عشرة إلى ثلاثين سنة»، ويقال: «حتى يبلغ مبلغ الرجل»، ويقال: «بلوغ الأشد ما بين ثماني عشرة إلى أربعين سنة».

وقد نص الفقهاء على أن من ولي مال اليتيم واستحق أجرًا، فله الأقل من أحد أمرين: إما نفقته في نفسه، وإما أجرته على عمله، أي: إن كان العمل يستحق أجرة ألف ريال، ونفقته يكفي لها خمسمائة أخذ نفقته فقط، وإن كان العمل يكفيه أجرة مائة ريال، ونفقته خمسمائة أخذ أجرته مائة فقط حفظًا لماله[1].

قال المفسرون: لما نزلت سورة بني إسرائيل، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام:١٥٢].

وفي سورة النساء: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ۝١٠﴾ [النساء:١٠].

تحرج المسلمون أن يخلطوا طعامهم بطعام من يكون عندهم من الأيتام، وكانوا يعزلون طعامهم عن طعامهم، وشرابهم عن شرابهم، حتى ربما فسد طعامهم، فشق ذلك عليهم، فشكوا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ [البقرة:٢٢٠].

يعني في الطعام، والشراب، والمساكنة، وركوب الدابة، واستخدام العبد، قال الشعبي: فمن خالط يتيمًا، فليوسع عليه، ومن خالط بأكل فلا يفعل، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾ [البقرة:٢٢٠].

قال ابن زيد: الله يعلم حين تخلط مالك بماله، أتريد أن تصلح ماله أو تفسد ماله بغير حق، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾ [البقرة:٢٢٠].

فيه تأويلان:

أحدهما: لشدد عليكم.

والثاني: لجعل ما أصبتم من أموال اليتامى موبقًا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة:٢٢٠].

يعني: عزيز في سلطانه وقدرته على الإعنات، حكيم فيما صنع من تدبيره وتركه الإعنات[2].

ثالثًا: أهل الكتاب:

ومن الوصايا التي وصى الله تعالى بها أهل الكتاب وصية التقوى.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا

(١) انظر: تفسير السمرقندي ١/ ٤٩٤، تفسير ابن باديس ص ٩٥، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ أ ١٦٤، أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٥٦٤.

(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي ١/ ٢٨٠.

﴿فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ١٣١﴾ [النساء:١٣١].

وصى الله تعالى الذين أوتوا الكتاب وهم اليهود والنصارى، من الأمم السالفة، ووصيناكم أنتم يا أمة محمد كذلك بأن اتقوا الله جميعا، وفي هذا إشارة إلى أن الأديان جميعها متفقة على مبدأ التوحيد وتقوى الله ومختلفة في الفروع تبعا للزمان والمكان، وإن تكفروا بالله فاعلموا أن له ما في السموات وما في الأرض وكان الله غنيا عن عبادتكم.

والإخبار بأن الله أوصى الذين أوتوا الكتاب من قبل بالتقوى مقصود منه إلهاب همم المسلمين للتهمم بتقوى الله لئلا تفضلهم الأمم الذين من قبلهم من أهل الكتاب، فإن للاتتساء أثرا بالغا في النفوس، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾ [البقرة:١٨٣].

والمراد بالذين أوتوا الكتاب اليهود والنصارى، فالتعريف في الكتاب تعريف الجنس فيصدق بالمتعدد، وبين بها عدم حاجته تعالى إلى تقوى الناس، ولكنها لصلاح أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَ﴾ [الزمر:٧][1].

رابعًا: عامة الناس:

لقد وجه الله تعالى الوصية بالإحسان إلى الناس عامة.

قال تعالى: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًاۖ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ كُرۡهًا وَوَضَعَتۡهُ كُرۡهًاۖ وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهۡرًاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحًا تَرۡضَىٰهُ وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ١٦﴾ [الأحقاف:١٥-١٦].

بينت الآية أن الوصية بالإحسان للوالدين: هي وصية لجنس الإنسان كله، فهذه الوصاة بالإحسان إلى الوالدين موجهة إلى كل إنسان أي: وصينا الناس وهو مراد به خصوص الناس الذين جاءتهم الرسل بوصايا الله والذين آمنوا وعملوا الصالحات وذلك هو المناسب لقوله في آخرها، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾ [الأحقاف:١٦].

وهي قائمة على أساس إنسانيته، بدون

---

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ١/ ٥٧٤، البحر المحيط، أبو حيان ٤/ ٩٠، تفسير المنار، محمد رشيد ٥/ ٣٦٨، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/ ٢٢٠.

حاجة إلى أية صفة أخرى وراء كونه إنسانا، وهي وصية بالإحسان مطلقة من كل شرط ومن كل قيد، فصفة الوالدية تقتضي هذا الإحسان بذاتها، بدون حاجة إلى أية صفة أخرى كذلك، وهي وصية صادرة من خالق الإنسان، وربما كانت خاصة بهذا الجنس أيضًا[1].

قال سيد قطب: «ولا ترد وصية الوالدين بالأولاد إلا نادرة، ولمناسبة حالات معينة، ذلك أن الفطرة وحدها تتكفل برعاية الوالدين للأولاد، رعاية تلقائية مندفعة بذاتها لا تحتاج إلى مثير، وبالتضحية النبيلة الكاملة العجيبة التي كثيرا ما تصل إلى حد الموت- فضلا على الألم- بدون تردد، ودون انتظار عوض، ودون مَنٍّ ولا رغبة حتى في الشكران! أما الجيل الناشئ فقلما يتلفت إلى الخلف، قلما يتلفت إلى الجيل المضحي الواهب الفاني، لأنه بدوره مندفع إلى الأمام، يطلب جيلا ناشئا منه يضحي له بدوره ويرعاه! وهكذا تمضي الحياة!

والإسلام يجعل الأسرة هي اللبنة الأولى في بنائه والمحضن الذي تدرج فيه الفراخ الخضر وتكبر وتتلقى رصيدها من الحب والتعاون والتكافل والبناء، والطفل الذي يحرم من محضن الأسرة ينشأ شاذا غير طبيعي في كثير من جوانب حياته- مهما توافرت له وسائل الراحة والتربية في غير محيط الأسرة- وأول ما يفقده في أي محضن آخر غير محضن الأسرة، هو شعور الحب.

فقد ثبت أن الطفل بفطرته يحب أن يستأثر وحده بأمه فترة العامين الأولين من حياته، ولا يطيق أن يشاركه فيها أحد، وفي المحاضن الصناعية لا يمكن أن يتوفر هذا، إذ تقوم الحاضنة بحضانة عدة أطفال، يتحاقدون فيما بينهم، على الأم الصناعية المشتركة، وتبذر في قلوبهم بذرة الحقد فلا تنمو بذرة الحب أبدا، كذلك يحتاج الطفل إلى سلطة واحدة ثابتة تشرف عليه فترة من حياته كي يتحقق له ثبات الشخصية، وهذا ما لا يتيسر إلا في محضن الأسرة الطبيعي.

فأما في المحاضن الصناعية فلا تتوفر السلطة الشخصية الثابتة لتغير الحاضنات بالمناوبة على الأطفال، فتنشأ شخصياتهم مخلخلة، ويحرمون ثبات الشخصية والتجارب في المحاضن تكشف في كل يوم عن حكمة أصيلة في جعل الأسرة هي اللبنة الأولى في بناء المجتمع السليم، الذي يستهدف الإسلام إنشاءه على أساس الفطرة السليمة[2].

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٢٦١، التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس ١٣/ ٢٧٥، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ٢٩.

(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٢٦١- ٣٢٦٢.

صيغ عرض الوصية

تظهر صيغ الوصية من خلال ما يلي:

أولًا: الصيغة الفعلية:

وردت الوصية في القرآن الكريم بعدة صيغ فعلية، منها:

١. صيغة الفعل الماضي وصى وأوصى، اثنتى عشرة مرة.

فيما أوصى به سبحانه رسله وعباده، وغلب مجيء الوصية بمعناها المعروف فيما يوصي به الراحلون عن الدنيا، مع حرمة دينية يسبغها القرآن على الوصية بالحق في حدود ما أمر به الله، أما التواصي فجاء في القرآن خمس مرات، كلها بصيغة الفعل الماضي، وإحداها في سياق الاستفهام الإنكاري لموقف أمم خلت من رسل الله إليهم، وكأنهم تواصوا بالتكذيب: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ۝٥٣﴾ [الذاريات:٥٢-٥٣].

والأربع الباقيات في مسئولية الإنسان عن الجماعة، بآية العصر: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ [العصر:٣][1].

والحكمة في مجيء هذه الصيغة بالماضي: يعني أنها وصايا قديمة ما زال يوصي الله تعالى بها عباده، وجيء بها بصيغة الماضي الذي يفيد الثبات والاستمرار، وكان ورود أكثرها على التعبير بالماضي لأنه أوضح في استحكام الثبات وامتداده، فورد هذا كله على أنسب وجه، ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [النساء:١٣١].

يعني: أنها وصية قديمة ما زال يوصي الله بها عباده، لستم بها مخصوصين[2].

وكذلك وصية الله جاءت بصيغة الماضي: قال تعالى: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًا﴾ [الأحقاف:١٥].

لتشمل خصوص الناس الذين جاءتهم الرسل بالإحسان إلى الوالدين موجهة إلى كل إنسان، أي وصينا الناس وهو مراد به خصوص الناس الذين جاءتهم الرسل بوصايا الله، والذين آمنوا وعملوا الصالحات وذلك هو المناسب لقوله في آخرها: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾ [الأحقاف:١٦][3].

وجاء التعبير بالماضي في قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ [العصر:٣].

إنما قال: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ﴾ ولم يقل:

---

(١) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس ٢/ ٨٩.

(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٥/ ٣٠٥.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ٢٩.

ويتواصون؛ لئلا يقع أمرًا بل الغرض مدحهم بما صدر عنهم في الماضي، وذلك يفيد رغبتهم في الثبات عليه في المستقبل[(١)].

٢. جاءت الوصية بلفظ المضارع.

قال تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ﴾ [النساء:١١].

اهتماما بشأنها، وإيذانا بوجوب سرعة الامتثال لمضمونها، إذ الوصية من الله تعالى إيجاب مؤكد، وجاءت أيضًا بلفظ المضارع تنبيها على نسخ ما مضى والشروع في حكم آخر[(٢)].

وردت الوصية في القرآن الكريم بصيغة المضارع في عدة مواطن، وذلك أن الفعل المضارع يفيد التجدد والاستمرار.

وأطلق الإيصاء على ما أمر الله به؛ لأن الناس لم يشاهدوا الله حين فعلهم ما يأمرهم به، فكان أمر الله مؤكدًا فعبر عنه بالإيصاء تنبيها لهم على الاحتراز من التفويت في أوامر الله، ولذلك أطلق على أمر الله الإيصاء في مواضع كثيرة من القرآن، كقوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ﴾ [النساء:١١][(٣)].

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣٢/ ٢٨٢.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣٢/ ٢٨٢، التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ١/ ١٨٠، البحر المديد، ابن عجيبة ١/ ٤٧١.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨أ/ ١٣٤.

ثانيًا: الصيغة الإسمية:

سبيل الواجبات الإتيان بالمصدر مرفوعًا، وسبيل المندوبات الإتيان به منصوبًا، ولهذا اختلفوا: هل كانت الوصية للزوجات واجبة لاختلاف القراءة في قوله تعالى: ﴿وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِم﴾ [البقرة:٢٤٠].

بالرفع والنصب، فإن الأول مندوب، والثاني واجب، والحكمة في ذلك أن الجملة الإسمية أوكد وأثبت من الفعلية[(٤)].

ثالثًا: بلاغة فواصل آيات الوصية:

قال تعالى: ﴿۞ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ

(٤) انظر: الإتقان في علوم القرآن، السيوطي ٢/ ٣٧٩، معترك الأقران في إعجاز القرآن، السيوطي ٣/ ٤٩٧.

﴿١٥٣﴾ [الأنعام:١٥١-١٥٣].

ختمت الأولى بـ ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، والثانية: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ والثالثة: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ لأن ترك الوصايا في الآية الأولى دال على عدم التعقل؛ لأن الشرك والعقوق وقتل الأولاد لأجل الفقر وارتكاب الفواحش وقتل النفس التي حرم الله بغير الحق، كلها عظام جسام، وكانت الوصية بها من أبلغ الوصايا، فختم الآية بما في الإنسان من أشرف السجايا وهو العقل الذى امتاز به الإنسان عن سائر الحيوان وفي الآية الثانية حقوق قولية ومالية، وكل إنسان يحرص عليهما لنفسه، وترك ذلك بالنسبة للغير غفلة يناسبه الدعوة إلى التذكر.

وفي الآية الثالثة دعوة إلى شرع الله والبعد عن سبل الشيطان، والمخالفة تعرض إلى سخط الله؛ فناسبه الدعوة إلى التقوى[(١)].

(١) انظر: الأصلان في علوم القرآن، محمد القيعي ص ٧٢، ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل، أحمد بن إبراهيم الثقفي ١/ ١٧٣، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ١/ ١٩٩.

ثمرات الوصية الدنيوية والأخروية

تظهر نتائج الوصية وثمرتها من خلال ما يلي:

أولًا: ثمرات الوصية الدنيوية:

الثمرات الخيرة الدنيوية للوصية بالخير:

١. أن وصايا القرآن من شأنها أن تكفل رضاء الله وعنايته، وأن تحفظ الناس من الشرور والمهالك وأن تضمن لهم السعادة والطمأنينة، وأن تبث فيهم روح التعاون والتراحم والإخاء، وأن تجنبهم ما لا يليق بالكرامة الإنسانية والشعور الإنساني من مواقف وحركات[(٢)].

٢. ومن ثمراتها الحفاظ على النفس وصيانتها من الاعتداء عليها. وشملت الوصية ما كان يعمله أهل الجاهلية فكانت الجاهلية تقتل أولادها خشية كثرة العيلة، ودخول الفقر عليهم إذا كثروا، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ﴾ [الأنعام:١٥١]. وشملت الوصية حفظ النفس الإنسانية، ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام:١٥١]. أي: حرم

(٢) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ١/ ٢٧٩، التفسير الحديث، محمد عزت ٣/ ٣٧٥، تفسير الشعراوي ٤/ ٢٠٣٤.

قتلها بأن عصمها بالإسلام أو بالعهد فيخرج الحربي ويدخل الذمي، فما روي عن ابن جبير من كون المراد بالنفس المذكورة النفس المؤمنة ليس في محله ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال، أي: لا تقتلوها في حال من الأحوال إلا حال ملابستكم بالحق الذي هو أمر الشرع بقتلها، وذلك كما جاء من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق الجماعة)[1]. أو من أعم الأسباب أي: لا تقتلوها بسبب من الأسباب إلا بسبب الحق وهو ما في الخبر، أو من أعم المصادر أي: لا تقتلوها قتلا إلا قتلا كائنا وهو القتل بأحد المذكورات، والحفاظ على النفس يشيع في المجتمع الأمن والسلام ويقضي على كل مظاهر العنف، ويحفظ التعايش مع جميع المجتمعات والأمم والشعوب، فالإسلام دين السلام والتعايش والقبول بالآخر، ويرفض كل أشكال العنف والتطرف بجميع أشكاله وأنواعه وصوره[2].

٣. الحفاظ على العقيدة الصحيحة، والتي هي سبب الفوز والنجاح والفلاح في الدنيا والآخرة، وهي السبب في الحفاظ على الفرد والأسرة والمجتمع وهي التي تحفظ الفرد من البدع والضلالات والشبهات، والسبل المؤدية إلى الضلال من اليهودية، والنصرانية، والمجوسية، وعباد القبور، وسائر أهل الملل والأوثان، والشذوذ والأهواء والطوائف، وأشير إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام:١٥٣][3].

٤. الحفاظ على الفرد والأسرة والمجتمع. فالوصية بالأخلاق الكريمة هي القاعدة الأساسية التي يقوم عليها المجتمع وهي قاعدة النظافة والطهارة والعفة

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٦٨٧٨، ٩/ ٥ كتاب الحدود، باب قول الله تعالى: (أن النفس بالنفس والعين بالعين)، ومسلم في صحيحه، رقم ١٦٧٦، ٣/ ١٣٠٢، كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب ما يباح به دم المسلم.

(٢) انظر: روح المعاني، الألوسي ٤/ ٢٩٨.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ١٣٨، في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٢١٧.

والأخلاق، فنهاهم عن الفواحش ظاهرها وخافيها؛ لأنه لا يمكن قيام أمة، ولا استقامة مجتمع، ولا أسرة في وحل الفواحش ما ظهر منها وما بطن، إنه لا بد من طهارة ونظافة وعفة لتقوم الأسرة وليقوم المجتمع، والذين يحبون أن تشيع الفاحشة هم الذين يحبون أن تتزعزع قوائم الأسرة وأن ينهار المجتمع، والجماعة التي تشيع فيها الفاحشة جماعة ميتة، منتهية حتمًا إلى الدمار، والحضارة الإغريقية والحضارة الرومانية والحضارة الفارسية، شواهد من التاريخ. ومقدمات الدمار والانهيار في الحضارة الغربية تنبئ بالمصير المرتقب لأمم ينخر فيها كل هذا الفساد، والمجتمع الذي تشيع فيه المقاتل والثارات، مجتمع مهدد بالدمار، ومن ثم يجعل الإسلام عقوبة هذه الجرائم هي أقسى العقوبات؛ لأنه يريد حماية مجتمعه من عوامل الدمار وأشير إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [الأنعام:١٥١][(١)].

٥. الحفاظ على وحدة الأمة وكيانها وقوتها. فاتباع صراط الله المستقيم الواحد هو سبب وحدة الأمة، وحدتها في الألوهية ووحدتها في الربوبية ووحدتها من الشتات والتمزق التي تسببه الأهواء والبدع والطوائف والأحزاب، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام:١٥٣]. فهذه الآية تحذر من التفرق وتدعو إلى الوحدة وجمع كلمة المسلمين، والسير في طريق واحد، فإذا تفرق المسلمون بعد ذلك فهم خارجون عن السير فيه، وحينما تفرق المسلمون أحزابًا كل حزب بما لديهم فرحون، زعمت كل فرقة أنها هي الناجية، وما عداها هالك، حتى التبس الأمر على كثير من المسلمين فلم يهتد إلى الفرقة الناجية بسبب تلك المزاعم، ولا ينبغي أن نأبه لتلك المزاعم. بل نعرض كل ما نسمع على كتاب الله وسنة نبيه، فما وافقهما فهو الحق، وما خالفهما عرفنا أنه باطل وهذا هو الميزان الذي

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٢٣٠.

ينبغي أن نزن به كل قول ومعتقد مهما كان مصدره كما هو حال أهل السنة في عرضهم للأقوال والمعتقدات على كتاب الله وسنة رسوله، وهو توفيق من الله لهم، وهم الفرقة الناجية، وهم أهل الحق إلى أن تقوم القيامة[(١)].

٦. الحفاظ على الأموال، فحفظت وصايا القرآن أموال اليتامى من الضياع، وحذرت أصحاب النفوس الضعيفة من المساس بها، وحفظت الموازين في التجارة لتستقيم المعاملات، وأعطت للأولاد والآباء حقهم من المال، ونهت عن المضارة في الوصية في المال، وذلك يعمل على حفظ مال الفرد والجماعة والأمة، وأشير لذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ [الأنعام:١٥٢].

٧. رجاء أن يتكلف ذكر هذه الوصايا وما فيها من المصالح والمنافع من كان كثير النسيان والغفلة أو كثير الشواغل الدنيوية، أو رجاء أن يتذكرها المرة بعد المرة من أراد الانتفاع بها بتلاوة آياتها في الصلاة وغيرها وبغير ذلك، أو رجاء أن يتعظ بها من سمعها وقرأها أو ذكرها أو ذكَّر بها، وبعض هذه الوجوه عام يطلب من كل مسلم، وبعضها خاص، وأشير إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام:١٥٢][(٢)].

٨. الإمامة في الدين والدنيا، وذلك أن قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر:٣]. إرشاد إلى منصب الإمامة في قوة الدين، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة:٢٤]. فبالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين[(٣)].

٩. أنهم ثنية الله سبحانه من الخاسرين، قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر:١-٣]. فأقسم سبحانه على خسران نوع الإنسان إلا من كمل نفسه بالإيمان والعمل الصالح، وكمل غيره بوصيته له بهما، ولهذا قال الشافعي رحمه الله: «لو

(١) انظر: فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام وبيان موقف الإسلام منها، غالب عواجي ١/ ٤٠.

(٢) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٨/ ١٧١.

(٣) انظر: إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، ابن القيم ٢/ ١٦٧، التبيان في أقسام القرآن، ابن القيم ص ٨٧.

فكر الناس كلهم في سورة العصر لكفتهم»[1].

والخلاصة: أن وصايا القرآن الكريم تحافظ على الكليات الضرورية للفرد والمجتمع وهي العقيدة والنفس والعرض والمال والعقل وكل ما فيه صلاح المجتمع وسلامته والحفاظ على أمنه ووحدته واستقراره بما يكفل له سبل الحياة الكريمة، فإذا هم فعلوا بهذه الوصايا كثر في الأمة الخير، وندر فيها وقوع الشر، وائتلفت قلوب أهليها، وتواصوا بالحق، وتواصوا بالصبر، وسعدوا في دنياهم وآخرتهم[2].

النتائج الشريرة للتواصي بالشر:

والتواصي بالشر بعكس التواصي بالخير فهو سبب الشرك والكفر وفساد الأخلاق وأكل مال اليتيم وقتل النفس التي حرم الله تعالى وقتل الأولاد خوف الفقر ووأد البنات وحرمان خير الدنيا والآخرة، وسبب الشقاء والانحراف والطغيان.

قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ۝٥٣ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ ۝٥٤﴾ [الذاريات:٥٢-٥٤].

يخبر تعالى عن سبب شقاء قريش وحرمانها خير الدنيا والآخرة وهو اتباعها وصية الأمم السالفة المكذبة رسلها، فكما كذبت قريش نبيها محمدًا صلى الله عليه وسلم، وقالت: هو شاعر، أو ساحر أو مجنون، كذلك فعلت الأمم المكذبة رسلها، الذين أحل الله بهم نقمته، كقوم نوح وعاد وثمود، وفرعون وقومه، وقوله تعالى: ﴿أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ۝٥٣﴾ [الذاريات:٥٣].

يقول تعالى ذكره: أأوصى هؤلاء المكذبين من قريش محمدًا عليه السلام على ما جاءهم به من الحق أوائلهم وآباؤهم الماضون من قبلهم، بتكذيب محمد عليه السلام، فقبلوا ذلك عنهم[3].

ثانيًا: ثمرات الوصية الأخروية:

الثمرات الأخروية للوصية بالخير ما يأتي:

من ثمرات الوصايا بالحق والوصايا بالصبر والوصايا بالمرحمة ووصايا القرآن بشكل عام، قال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ۝١٧ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ۝١٨﴾ [البلد:١٧-١٨].

أي: أن هؤلاء الذين آمنوا، وتواصوا بالصبر، وتواصوا بالمرحمة، وتخطوا هذه العقبة، ففكوا الرقاب، وأطعموا الجياع من الأيتام والمساكين هؤلاء ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ

---

(١) انظر: رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه ص ٢١.

(٢) انظر: نظم الدرر، البقاعي ٤/ ٢٣.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٤٤١، محاسن التأويل، القاسمي ٩/ ٥٣٦.

﴿١٨﴾ [البلد:١٨].

على جهة التفخيم لشأنهم والتعظيم لقدرهم، وهم أصحاب اليمن والبركة والثواب، والفوز، والفلاح، وأنهم من أهل اليمين، الذين وعدهم الله جنات النعيم، الذين يؤتون كتبهم بأيمانهم، وقال يحيى بن سلام: «لأنهم ميامين على أنفسهم»، وقال ابن زيد: «لأنهم أخذوا من شق آدم الأيمن»، وقيل: «لأن منزلتهم عن اليمين»[1].

ووصف تعالى ما أعد لأصحاب اليمين في آيات أخر، قال تعال: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الواقعة:٢٧-٤٠].

النتائج الأخروية للتواصي بالشر:

ثم ذكر تعالى مقابل أصحاب اليمين وهم الذين صدوا عن سبيل الله، وتواصوا بالإثم وتواصوا بالعدوان ومعصية الرسول فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾﴾ [البلد:١٩-٢٠].

أي: والذين جحدوا آياتنا الكونية وآياتنا السمعية التي جاءت على ألسنة الرسل، هم أصحاب المشأمة، أي أهل الشمال الذين وصفهم الله بقوله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الواقعة:٤١-٤٧].

وقوله تعالى: ﴿هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾﴾ [البلد:١٩]. على جهة التعظيم والمبالغة في ذمهم، وهي منزلة الإهانة والغضب والخسران، وهم أصحاب الشؤم على أنفسهم، ويقال: أصحاب المشأمة: هم الذين يؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار، والعرب تقول لليد الشمال الشؤمى، وللجانب الأيسر الأشام، ومنه الشؤم، وقيل: إنما سموا بذلك لأنهم أعطوا كتبهم بشمائلهم، وقوله تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾﴾ [البلد:٢٠]. أي: عليهم نار تطبق عليهم فلا يستطيعون الفكاك منها ولا الخلاص من عذابها، نجانا الله منها بمنه وكرمه، وجعلنا من أصحاب الميمنة[2].

موضوعات ذات صلة:

الشهادة، العدل، المال، الوراثة

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٦/ ٢٨٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٠/ ٧١.

(٢) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ١١/ ٧٢٥٧، نظم الدرر ٣٠/ ١٦٣.



عناصر الموضوع

مفهوم الوفاء

أولًا: المعنى اللغوي:

قال ابن فارس: (وفي) «الواو والفاء والحرف المعتل: كلمةٌ تدل على إكمالٍ وإتمام. منه الوفاء: إتمام العهد وإكمال الشرط. ووفى: أوفى، فهو وفيٌّ. ويقولون: أوفيتك الشيء، إذا قضيته إياه وافيًا. وتوفيت الشيء واستوفيته؛ إذا أخذته كله حتى لم تترك منه شيئًا» [(١)].

وقال ابن منظور: «معنى الوفاء في اللغة الخلق الشريف العالي الرفيع» [(٢)].

«يقال: وفى بعهده وأوفى، ووفيت بالعهد وأوفيت به سواء، فمن قال وفى فإنه يقول تم كقولك وفى لنا فلانٌ أي: تم لنا قوله ولم يغدر، ومن قال أوفى فمعناه أوفاني حقه أي: أتمه ولم ينقص منه شيئًا، وكذلك أوفى الكيل أي: أتمه ولم ينقص منه شيئًا» [(٣)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال الراغب: الوفاء بالعهد: إتمامه وعدم نقض حفظه [(٤)].

وقال أيضًا: الوفاء صدق اللسان والفعل معًا [(٥)].

وقال الجرجاني: الوفاء: هو ملازمة طريق المواساة، ومحافظة عهود الخلطاء [(٦)].

وقيل: الوفاء: المحافظة على العهد والالتزام به، ومنه الوفاء بالالتزام، ووفاء الدين، والوفاء بالعهد [(٧)].

فالوفاء يدور حول الالتزام والإكمال والتمام والمحافظة على ما ألزم الإنسان به نفسه من عهود أو مواثيق أو وعود أو أمانات أو غير ذلك مما يضاف إلى كلمة الوفاء.

(١) مقاييس اللغة، ٦/ ١٢٩.
(٢) لسان العرب، ١٥/ ٣٩٨.
(٣) لسان العرب، ابن منظور، ١٥/ ٣٩٨.
(٤) المفردات، ص٥٢٨.
(٥) الذريعة إلى مكارم الشريعة، ص ٢٩٢.
(٦) التعريفات، الجرجاني، ص ٢٧٤.
(٧) معجم لغة الفقهاء، قلعجي وقنيبي، ١/ ٥٠٧.



الوفاء في الاستعمال القرآني

وردت مادة (وفي) في القرآن الكريم (٦٦) مرة، يخص موضوع البحث منها (٤١) مرة[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٦	﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ۝٧٠﴾ [الزمر:٧٠]
الفعل المضارع	٢٠	﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ۝٧﴾ [الإنسان:٧]
فعل الأمر	١١	﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ۝٣٤﴾ [الإسراء:٣٤]
اسم الفاعل	٢	﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ ۝١٠٩﴾ [هود:١٠٩]
اسم تفضيل	٢	﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ [التوبة:١١١]

وجاء الوفاء في القرآن بمعناه اللغوي، وهو: التمام، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾ [النجم: ٣٧]. يعني: أنه بذل المجهود في جميع ما طولب به وأداه تامًا كاملًا[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٧٥٦، ٧٥٧، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب الواو ص١٤١٧.

(٢) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٥/ ٢٤٤، ٢٤٥، عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ٤/ ٣٢٧.

الألفاظ ذات الصلة

١ الصدق:

الصدق لغةً:

نقيض الكذب، صدق، يصدق، صدقًا، وصدقًا، وتصادقًا، قيل: صدقه الحديث: أنبأه بالصدق، ويقال: صدقت القوم، أي: قلت لهم صدقًا وتصادقًا في الحديث وفي المودة(١).

الصدق اصطلاحًا:

مطابقة الكلام للواقع بحسب اعتقاد المتكلم(٢).

وقال الراغب: الصدق مطابقة القول الضمير والمخبر عنه معا، ومتى انخرم شرط من ذلك لم يكن صدقا تاما(٣).

الصلة بين الصدق والوفاء:

قال الماوردي: «الصدق والوفاء توأمان، والصبر والحلم توأمان فيهن تمام كل دين، وصلاح كل دنيا، وأضدادهن سبب كل فرقة وأصل كل فساد(٤).

وقيل: بين الوفاء والصدق عموم وخصوص «فكل وفاء صدق، وليس كل صدق وفاء. فإن الوفاء قد يكون بالفعل دون القول، ولا يكون الصدق إلا في القول، لأنه نوع من أنواع الخبر، والخبر قول»(٥).

٢ الأمانة:

الأمانة لغةً:

لها أصلان متقاربان: أولهما: الأمانة التي ضد الخيانة، ومعناه سكون القلب. والآخر: التصديق(٦).

الأمانة اصطلاحًا:

قال الكفوي: الأمانة: كل ما افترض الله على العباد فهو أمانة كالصلاة والزكاة والصيام

---

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٥/ ١٩٣.
(٢) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ٥١١.
(٣) المفردات، الراغب، ص٢٧٧.
(٤) أدب الدنيا والدين، ص٣٢٥.
(٥) الفروق اللغوية، العسكري، ص ٥٧٥.
(٦) انظر: مقاييس اللغة، ١/ ١٣٣.



وأداء الدين، وأوكدها الودائع، وأوكد الودائع كتم الأسرار، وقال في موضع آخر: كل ما يؤتمن عليه من أموال وحرم وأسرار فهو أمانة(١).

الصلة بين الأمانة والوفاء:

معنى الأمانة قريب من معنى الوفاء؛ فإذا كانت الأمانة بمعنى الفرائض فمن الوفاء إتمامها كاملة غير منقوصة، وكذا إذا كانت بمعنى الوديعة.

قال النسفي: ومعنى الخون النقص كما أن معنى الإيفاء التمام، ومنه تخونه إذا انتقصه، ثم استعمل في ضد الأمانة والوفاء، لأنك إذا خنت الرجل في شيء فقد أدخلت عليه النقصان فيه(٢).

٣ الخيانة:

الخيانة لغةً:

الاحتيال والخداع. فالخيانة خلاف الأمانة(٣).

الخيانة اصطلاحًا:

«مخالفة الحق بنقض العهد في السر»(٤).

الصلة بين الخيانة والوفاء:

من خلال معرفة معنى الخيانة يلاحظ أنها تأتي في مقابل الوفاء خاصة، وأن الوفاء يقوم على الإتمام والإكمال والالتزام بالعهود والمواثيق، والخيانة تنصرف إلى نقضها وعدم الوفاء بها، ومن استعمال القرآن للخيانة بمعنى نقض العهود والمواثيق وعدم الوفاء بها ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الأنفال: ٥٨].

---

(١) الكليات، ص١٧٦، ١٨٦ بتصرف يسير.
(٢) مدارك التنزيل، ١/ ٤١٧.
(٣) انظر: المغرب في ترتيب المعرب، الخوارزمي، ص ١٥٦.
(٤) المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٣٠٥.

مجالات الوفاء

والوفاء له مجالات كثيرة يجب على المسلم أن يقوم بها على وجه الإكمال والإتمام، حتى يكون قد حقق الوفاء المأمور به في الشريعة، ومن أبرز هذه المجالات:

أولًا: الوفاء بالعهود والمواثيق:

والوفاء بالعهود والمواثيق من الأمور المهمة في حياة المسلم، والتي جاءت الكثير من النصوص الشرعية تأمر بالوفاء بها على وجه التمام والكمال.

ويشمل ذلك الوفاء بالعهد والميثاق مع الله سبحانه، أو مع الناس، وقد جاء الأمر بذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ۝٤٠﴾ [البقرة: ٤٠].

وقد بين الشيخ ابن عثمين أهمية الوفاء بالعهد مع الله فقال: «ومن فوائد هذه الآية أن من وفى لله بعهده وفى الله له؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ بل إن الله أكرم من عبده، حيث يجزيه الحسنة بعشر أمثالها؛ وأن من نكث بعهد الله فإنه يعاقب بحرمانه ما رتب الله تعالى على الوفاء بالعهد؛ وذلك لأن المنطوق في الآية أن من وفى لله وفى الله له؛ فيكون المفهوم أن من لم يف فإنه يعاقب، ولا يعطى ما وعد به؛ وهذا مقتضى عدل الله عز وجل»[1].

ومن الآيات التي تحث على الوفاء بالعهود والمواثيق قوله تعالى: ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝١٥٢﴾ [الأنعام: ١٥٢].

والآية تجعل الوفاء بعهد الله من وصية الله لعباده كما قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ أي: وبوصية الله التي أوصاكم بها فأوفوا. وإيفاء ذلك: أن تطيعوه فيما أمركم ونهاكم، وتعملوا بكتابه وسنة رسوله، وذلك هو الوفاء بعهد الله. ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ يقول تعالى: هذا وصاكم به، وأمركم به، وأكد عليكم فيه»[2].

وقد جاء الأمر أيضًا بالوفاء بالعهود والمواثيق في قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾ [النحل: ٩١].

قال القرطبي: «﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ لفظ عام لجميع ما يعقد باللسان ويلتزمه الإنسان من بيع الإنسان من بيع أو صلة أو موافقة للديانة»[3].

وعن سر إيثار التعبير بـ﴿وَأَوْفُوا﴾ فلأن فيه دلالة على التمسك بالعهد تمسكًا تامًّا، وأداءً وافيًا لا نقيصة فيه، وهذا ما يناسب الحديث عن العهد مع الله تعالى، لذا أضيف العهد الى الله في قوله: ﴿بِعَهْدِ اللَّهِ﴾

(١) تفسير القرآن الكريم، الفاتحة والبقرة، ٣/ ٩٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ٣/ ٣٦٥.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، ١٠/ ١٦٩.

لإبراز عظمة هذا العهد وفخامته، وللحث على الالتزام به وعدم نقضه، هذا ما أوحى به لفظ الجلالة بما فيه من معاني الجلالة والعزة، لأنه اسم الله الأعظم. والإتيان بـ(إذا) الظرفية لتأكيد الوفاء بالعهد[1].

وبين القرآن أن الإنسان سيسأل عن عهده الذي أعطاه لغيره وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾﴾ [الإسراء: ٣٤].

قال ابن كثير: «أي: الذي تعاهدون عليه الناس والعقود التي تعاملونهم بها، فإن العهد والعقد كل منهما يسأل صاحبه عنه»[2].

وقال الطبري: «يقول: وأوفوا بالعقد الذي تعاقدون الناس في الصلح بين أهل الحرب والإسلام، وفيما بينكم أيضًا، والبيوع والأشربة والإجارات، وغير ذلك من العقود؛ لأن الله جل ثناؤه سائل ناقض العهد عن نقضه إياه، يقول: فلا تنقضوا العهود الجائزة بينكم وبين من عاهدتموه أيها الناس فتخفروه، وتغدروا بمن أعطيتموه ذلك. وإنما عنى بذلك أن العهد كان مطلوبًا، يقال في الكلام: ليسئلن فلان عهد فلان»[3].

وقد مدح الله الذين يفون بعهودهم ومواثيقهم، وأنهم من الذين صدقوا، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: ١٧٧].

وأنهم من المتقين قال تعالى: ﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [آل عمران: ٧٦].

وانهم من أولي الألباب قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾﴾ [الرعد: ١٩-٢٠].

وأن له الأجر العظيم من الله سبحانه: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾[الفتح: ١٠].

وقد ورد في السنة النبوية أيضًا ما يأمر بالوفاء بالعهود والمواثيق والإنكار على من خالف ذلك، وأنه مما أمر به الإسلام، فعن عبد الله بن عباسٍ رضي الله عنهما قال: (أخبرني أبو سفيان أن هرقل قال له: سألتك ماذا يأمركم فزعمت أنه أمركم بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة، قال: وهذه صفة نبيٍ)[4].

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يفي بالعهود حتى في أشد الظروف، فعن الحسن بن على بن أبى رافع رضي الله عنه أن أبا رافعٍ أخبره قال: (بعثتنى قريشٌ إلى رسول

(١) الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، ٢/ ١٥٧.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ٥/ ٧٤.
(٣) جامع البيان، ١٧/ ٤٤٤.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٢٥٣٥، كتاب الشهادات، باب من أمر بإنجاز الوعد.

الله صلى الله عليه وسلم فلما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، ألقي في قلبي الإسلام، فقلت: يا رسول الله إني والله لا أرجع إليهم أبدًا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إني لا أخيس بالعهد ولا أحبس البرد، ولكن ارجع فإن كان في نفسك الذي في نفسك الآن فارجع). قال: فذهبت ثم أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فأسلمت)[(١)].

قال ابن الأثير: «(إني لا أخيس بالعهد) أي: لا أنقضه. يقال: خاس بعهده يخيس، وخاس بوعده إذا أخلفه»[(٢)].

ويبين النبي صلى الله عليه وسلم أن من لا يوفون بعهودهم إنما يفضحون يوم القيامة ويكون لهم علامة جزاء على غدرهم، وهذا وإنْ دلَّ فإنما يدلُّ على عظم هذا الأمر في الإسلام، فعن عبد الله رضي الله عنه: عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لكل غادرٍ لواءٌ يوم القيامة يقال هذه غدرة فلانٍ)[(٣)].

وثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: (من كان بينه وبين قوم عهد فلا يحلن عقدة ولا يشدها حتى يمضي أمده، أو ينبذ إليهم على سواء)[(٤)].

بل كان النبي صلى الله عليه وسلم يوجه أصحابه رضي الله عنهم إلى الوفاء بعهودهم، ولا يطلب منهم نقضها مهما كان الأمر، فعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: (ما منعني أن أشهد بدرًا إلا أني خرجت أنا وأبي حسيلٌ قال فأخذنا كفار قريش، قالوا: إنكم تريدون محمدًا، فقلنا: ما نريده ما نريد إلا المدينة فأخذوا منا عهد الله وميثاقه لننصرفن إلى المدينة ولا نقاتل معه، فأتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرناه الخبر، فقال: انصرفا نفي لهم بعهدهم ونستعين الله عليهم)[(٥)].

ولقد استنبط أهل العلم من هذه النصوص وغيرها أن الوفاء بالعهود والمواثيق من الأمور اللازمة والمهمة، كما قال ابن تيمية: «جاء الكتاب والسنة بالأمر بالوفاء بالعهود والشروط والمواثيق والعقود وبأداء الأمانة، ورعاية ذلك، والنهي عن الغدر ونقض العهود والخيانة، والتشديد على من يفعل

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الجهاد، باب الإمام يستجن به في العهود، ٢٧٦٠. وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٢٥١٠.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ٢/ ١٩٠.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٣٠١٥، كتاب أبواب الجزية والموادعة، باب إثم الغادر للبر والفاجر، ومسلم في صحيحه، رقم ١٧٣٦، كتاب الجهاد والسير، باب تحريم الغدر. واللفظ له.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب السير، باب ما جاء في الغدر، رقم ١٥٨٠. وصححه الألباني في صحيح أبي داود، رقم ٢٤٦٨.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، رقم ١٧٨٧، كتاب الجهاد والسير، باب الوفاء بالعهد.

ذلك»[1].

وقال الشيخ صالح الفوزان: «من الوصايا العظمية: الوفاء بعهد الله عز وجل بأن تعبده ولا تشرك به شيئًا؛ والوفاء بالمواثيق التي تكون بين الناس بعضهم مع بعض، فإذا عاهدت سلطانًا، أو أميرًا، أو عاهدت أحدًا من الناس فلا تغدر العهد»[2].

وبعض العلماء قد عد النقض للعهود والمواثيق من الكبائر والموبقات، كما ذكر الذهبي فقال: «الكبيرة الخامسة و الأربعون: الغدر و عدم الوفاء بالعهد»[3].

ومن خلال ما سبق يتضح لنا أهمية ووجوب الوفاء بالعهود والمواثيق وإتمامها والقيام بها على وجه الكمال، ويشمل ذلك كل العهود والمواثيق سواء مع الله سبحانه أم مع الناس على اختلاف أنواعهم، مسلمين أم غير مسلمين، طالما أعطيناهم عهودًا ومواثيق.

ثانيًا: الوفاء بالوعود:

ومن المجالات المهمة من مجالات الوفاء، الوفاء بالوعود، لأنه دليل على صدق المسلم، وتمام إيمانه، وكمال إسلامه.

والوفاء بالوعد: هو الصبر على ما يبذله الإنسان من نفسه ويرهنه به لسانه. والخروج مما يضمنه (بمقتضى العهد الذي قطعه على نفسه) وإن كان مجحفا به، فليس يعد وفيا من لم تلحقه بوفائه أذية وإن قلت، وكلما أضر به الدخول تحت ما حكم به على نفسه كان ذلك أبلغ في الوفاء[4].

والوعد: «هو الإخبار بإيصال الخير في المستقبل، والإخلاف: جعل الوعد خلافا، وقيل: هو عدم الوفاء به»[5].

قال ابن حجر العسقلاني: «المراد بالوعد، الوعد بالخير، أما الوعد بالشر فيستحب إخلافه، وقد يجب ما لم يترتب على ترك إنفاذه مفسدة»[6].

فالوعد لا بد أن يكون بمعروف، فحين يكون الوعد بشر، لا يجب الوفاء به. وإن زمن الوفاء بالوعد هو المستقبل، وليس الآن (حين الوعد). «وينبغي أن يفرق بين الوعد والنذر؛ لكون الوفاء بهما في المستقبل فيتشابهان من هذا الوجه، لكن هذا التشابه لا يمنع وجود الفرق بينهما، فالنذر وإن كان فيه معنى الوعد، إلا أن فيه معنى القربة إلى الله تعالى، وأن في عدم الوفاء به الكفارة، وليس كذلك الوعد»[7].

وهناك فرق بين الوعد والعهد، إذ العهد، يراد به الأمان واليمين والموثق والذمة

(١) القواعد النورانية الفقهية، ص ١٩٦.
(٢) إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد، ص٣٩.
(٣) الكبائر، ص ١٦٨.
(٤) تهذيب الأخلاق، الجاحظ، ص ٢٤.
(٥) عمدة القاري، بدر الدين العيني، ١/ ٢٢٠.
(٦) انظر: فتح الباري، ١/ ٩٠.
(٧) الوفاء بالوعد، د. إبراهيم فاضل الدبو، ص ٥.

والحفاظ والوصية، فتقول: عهد الله علي لأفعلن كذا[(١)] والعهد يراد به ما تعبد الله به من أمور الدين، أو ما يكون بين العباد مما يكون بخلفه إتلاف مال أو نفس، أو إدخال ضرر كثير.

أما الوعد ففيما لا يتعلق ذلك به حق لمخلوق. أو ما لا يؤدي إلى إخلافه كثير ضرر، فمن نقض عهده فذلك من كبائر الذنوب ويبلغ به الهلاك، ومن أخلف وعده كان إثما ولا يبلغ فاعلوه إلى الكفر والهلاك[(٢)].

وقيل: العهد ما يكون من الجانبين، وأما ما يكون من جانب فوعد، ونقضه خلف وعد[(٣)].

وقيل: العهد ما كان من الوعد مقرونا بشرط، نحو قولك: إن فعلت كذا فعلت كذا وما دمت على ذلك فأنا عليه، والعهد يقتضي الوفاء والوعد يقتضي الإيجاز، ويقال: نقض العهد وأخلف الوعد[(٤)].

ومع ما نقلناه من خلاف بين العهد والوعد، فإن العسقلاني ذكر أنه قد يتحد معناهما[(٥)].

ولعل ما يؤيد هذا الرأي قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [التوبة: ٧٥-٧٧].

إذ بدأ الذكر الحكيم بقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ﴾ فلما أخلفوا رتب عليهم ما رتب، ثم علله بقوله: ﴿بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ﴾[(٦)].

والوعد مباح [(٧)]. فلكل شخص أن يعد بالمعروف والخير من يشاء من الناس، لكن الذي ينبغي الإشارة إليه هو أن يتحفظ الشخص في إطلاق الوعود للناس؛ لأن الوفاء بالوعد أمر مستقبل، والشخص لا يملك معرفة أحواله المستقبلية؛ إذ قد يكون الواعد عاجزًا عن الوفاء فيكون مخلفًا للوعد، فيوصم بخصلة من خصال النفاق؛ لذلك فإن الإمام الغزالي رحمه الله قد اعتبر وعد الكاذب آفة، إذ يقول: «إن اللسان سباق إلى الوعد، ثم النفس ربما لا تسمح بالوفاء فيصير الوعد خلفًا، وذلك من أمارات النفاق»[(٨)].

وقد جعل الله تعالى الوفاء بالوعود من

---

(١) انظر: مختار الصحاح، الرازي، ص ٤٦٠.
(٢) انظر: المصنف، ابن أبي شيبة، ٢/ ٢٠٠.
(٣) بريقة محمودية، أبو سعيد الخادمي، ٢/ ٢٨١.
(٤) الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، ص ٣٧٩.
(٥) انظر: فتح الباري، ابن حجر، ١/ ٩٠.
(٦) الوفاء بالوعد، إبراهيم فاضل الدبو، ص ٥.
(٧) أحكام القرآن، الجصاص، ٣/ ٤٤٢.
(٨) إحياء علوم الدين، الغزالي، ٣/ ١٣٢.

صفات الأنبياء، فقال سبحانه عن نبي الله إسماعيل عليه السلام: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝٥٤﴾ [مريم: ٥٤].

قال القرطبي: «وخصه الله تعالى بصدق الوعد وإن كان موجودا في غيره من الأنبياء تشريفًا له وإكرامًا، كالتلقيب بنحو الحليم والأواه والصديق، ولأنه المشهور المتواصف من خصاله. وصدق الوعد محمود وهو من خلق النبيين والمرسلين، وضده وهو الخلف مذموم، وذلك من أخلاق الفاسقين والمنافقين على ما تقدم بيانه في براءة. وقد أثنى الله تعالى على نبيه إسماعيل فوصفه بصدق الوعد»[1].

وقال القاسمي: «وفيه تنبيه بعظم هذه الخلة. ولذا كان ضدها نفاقًا، كما صرحت به الأخبار»[2].

وبين الرازي أنواع الوعد التي صدق فيها إسماعيل عليه السلام فقال: «وهذا الوعد يمكن أن يكون المراد فيما بينه وبين الله تعالى ويمكن أن يكون المراد فيما بينه وبين الناس.

أما الأول: فهو أن يكون المراد أنه كان لا يخالف شيئًا مما يؤمر به من طاعة ربه، وذلك لأن الله تعالى إذا أرسل الملك إلى الأنبياء وأمرهم بتأدية الشرع فلا بد من ظهور وعد منهم يقتضي القيام بذلك ويدل على القيام بسائر ما يخصه من العبادة. وأما الثاني: فهو أنه عليه السلام كان إذا وعد الناس بشيء أنجز وعده، فالله تعالى وصفه بهذا الخلق الشريف»[3].

وقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم عدم الوفاء بالوعود من صفات المنافق، فعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال: **(آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا اؤتمن خان وإذا وعد أخلف)**[4].

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: عن النبي صلى الله عليه و سلم قال: **(أربع من كُنَّ فيه كان منافقًا أو كانت فيه خصلة من أربعة كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر)**[5].

ومخلف الوعد يكون فاسد النية عديم الوفاء، قال العيني: «ونبه بقوله: **(إذا وعد أخلف)** على فساد النية؛ لأن خلف الوعد لا يقدح إلا إذا عزم عليه مقارنًا بوعده، أما إذا كان عازما ثم عرض له مانع أو بدا له رأي،

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، ١١/ ١١٤.
(٢) محاسن التأويل، ٧/ ١٠٤.
(٣) مفاتيح الغيب، ٢١/ ٥٤٩.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٢٥٣٦، كتاب الشهادات، باب من أمر بإنجاز الوعد.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٢٣٢٧، كتاب المظالم، باب إذا خاصم فجر.

فهذا لم توجد فيه صفة النفاق»[(١)].

قال النووي: «أجمعوا على أنَّ من وعد إنسانًا شيئًا ليس بمنهيٍّ عنه فينبغي أن يفي بوعده، وهل ذلك واجب أو مستحب فيه خلاف، ذهب الشافعي وأبو حنيفة والجمهور إلى أنه مستحبٌّ، فلو تركه فاته الفضل وارتكب المكروه كراهة شديدة ولا يأثم يعني: من حيث هو خلف. وإن كان يأثم، إن قصد به الأذى. قال: وذهب جماعة إلى أنه واجب، منهم عمر بن عبد العزيز وبعضهم إلى التفصيل، ويؤيد الوجه الأول ما أورده في الإحياء حيث قال: وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا وعد وعدًا قال: « عسى »، وكان ابن مسعود لا يعد وعدًا إلا ويقول: إن شاء الله تعالى، وهو الأولى، ثم إذا فهم مع ذلك الجزم في الوعد فلا بد من الوفاء إلا أن يتعذر، فإن كان عند الوعد عازمًا على أن لا يفي به فهذا هو النفاق انتهى»[(٢)].

ويظهر بذلك أهمية الوفاء بالوعود وعدم إخلافها لما فيه من التشبه بصفات المنافقين.

ثالثًا: الوفاء بالعقود:

ومن الأمور المهمة في حياة المسلم الحرص على الوفاء بالعقود، وقد جاء النصُّ على ذلك في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾ [المائدة:١]

قال ابن عاشور: «فالتعريف في العقود تعريف الجنس للاستغراق، فشمل العقود التي عاقد المسلمون عليها ربهم، وهو الامتثال لشريعته، وشمل العقود التي عاقد المسلمون عليها المشركين، ويشمل العقود التي يتعاقدها المسلمون بينهم»[(٣)].

وما ذكره ابن عاشور هو الراجح في نظري؛ لدلالة العقود عليها.

قال الثعالبي: (فالآية عامة في الوفاء بالعقود، وهي الربوط في القول، كلٌّ ذلك في تعاهد على بِرٍّ أو في عقدة نكاح، أو بيع، أو غيره، فمعنى الآية: أمر الله جميع المؤمنين بالوفاء على عقدٍ جارٍ على رسم الشريعة، وفسر بعض الناس لفظ العقود بالعهود. وأصوب ما يقال في هذه الآية: أن تعمم ألفاظها بغاية ما تتناول، فيعمم لفظ المؤمنين في مؤمني أهل الكتاب، وفي كلِّ مظهر للإيمان، وإن لم يبطنه، وفي المؤمنين حقيقة، ويعمم لفظ العقود في كل ربط بقول موافق للحقِّ والشرع»[(٤)].

وقال القرطبي: « فأمر الله سبحانه بالوفاء بالعقود؛ قال الحسن: يعني بذلك عقود الدين، وهي ما عقده المرء على نفسه؛ من بيع وشراء وإجارة وكراء ومناكحة وطلاق ومزارعة ومصالحة وتمليك وتخيير وعتق

(١) عمدة القاري، ٢/ ٩٣.
(٢) تحفة الأحوذي، ٥/ ٢٤٠.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٥/ ٩.
(٤) الجواهر الحسان، ١/ ٤٣٦.



وتدبير، وغير ذلك من الأمور، ما كان ذلك غير خارج عن الشريعة؛ وكذلك ما عقده على نفسه لله من الطاعات، كالحج والصيام والاعتكاف والقيام والنذر، وما أشبه ذلك من طاعات ملة الإسلام»[(١)].

وما من شك أنه من الأهمية بمكان أن يحرص المسلم على الوفاء بالعقود التي أبرمها «فالأمر بالإيفاء بالعقود يدلُّ على وجوب ذلك،فتعين أنَّ إيفاء العاقد بعقده حقٌّ عليه،فلذلك يقضى به عليه،لأن العقود شرعت لسد حاجات الأمة، فهي من قسم المناسب الحاجي،فيكون إتمامها حاجيًّا؛ لأنَّ مكمل كلِّ قسم من أقسام المناسب الثلاثة يلحق بمكمله:إن ضروريًّا،أو حاجيًّا،أو تحسينًا»[(٢)].

قال ابن تيمية: «وأما سورة المائدة فإنها سورة العقود، وهي العهود والمواثيق التي يعقدها بنو آدم بينهم وبين ربهم، ويعقدها بعضهم لبعضٍ، مثل عقد الإيمان وعقد الأيمان، فأمر الله بالوفاء بالعهود، والوفاء بالعهود من صفات الصادقين دون الكاذبين، وختم السورة بما يناسب ما فيها فقال: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١٩﴾ [المائدة: ١١٩] فالموفون بالعقود صادقون، فنفعهم الصدق بالوفاء يوم القيامة بما وعدهم من الكرامة»[(٣)].

الوفاء بالعهود والعقود من أَجَلِّ مراتب السعادة[(٤)]. قال صلى الله عليه وسلم: (**لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له**)[(٥)].

وكما قال ابن رجب: «وأما عهود المسلمين فيما بينهم، فالوفاء بها أشد، ونقضها أعظم إثمًا، ويدخل في العهود التي يجب الوفاء بها، ويحرم الغدر فيها: جميع عقود المسلمين فيما بينهم، إذا تراضوا عليها من المبايعات والمناكحات وغيرها من العقود اللازمة التي يجب الوفاء بها. والمقصود بالمبايعات والمناكحات والعقود التي توجب الوفاء هي التي على شرعة الله ومنهاجه، لا التي على خلاف ذلك، وفي ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**من اشترط شرطًا ليس في كتاب الله فليس له، وإن شرطه مائة مرةٍ**،

(١) الجامع لأحكام القرآن، ٦/ ٣٢.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٥/ ١٠.

(٣) المسائل والأجوبة، ص٢٠٣.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي، ١٩/ ٣٢.
(٥) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٤/ ٤٨١، رقم ١١٩٣٥.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٧١٧٩.

شرط الله أحق وأوثق»[1][2].

وما من شك أن حرص المسلم على الوفاء بالعقود التي أبرمها يدلُّ على الاستجابة لتوجيهات الشرع الحنيف، ويعطي صورة طيبة عن المسلمين أن عندهم الوفاء دينًا يتعبدون الله به.

رابعًا: الوفاء بالأيمان والنذور والكفارات:

١. الوفاء بالأيمان.

وما ينبغي الوفاء به في حياة المسلم الوفاء بالأيمان، ذلك لأن الإنسان قد يحلف بالله وهو أمر عظيم؛ فالواجب أن يفي بيمينه التي أقسمها ويبر بها.

وأما الأيمان فهي جمع يمين (واليمين أصله الجارحة، واليمين في الحلف مستعار من اليد؛ اعتبارًا بما يفعله المعاهد والمحالف وغيره)[3].

قال ابن حجر: «وأصل اليمين في اللغة اليد وأطلقت على الحلف لأنهم كانوا إذا تحالفوا أخذ كلٌّ بيمين صاحبه، وقيل: لأن اليد اليمنى من شأنها حفظ الشيء، فسمى الحلف بذلك لحفظ المحلوف عليه، وسمي المحلوف عليه يمينًا لتلبسه بها، واليمين هي توكيد الشيء بذكر اسم أو صفة لله»[4].

وشأن اليمين عند الله عظيم، وخطر التساهل بها جسيم، فليست اليمين مجرد كلمة تمر على اللسان، ولكنها عهد وميثاق ينتهي عندها حده، ويجب أن يوافي حقه، ومن ثم فلا ينبغي للإنسان التسرع إلى اليمين إلا عند الحاجة، وكثرة الحلف تدلُّ على الاستخفاف بالمحلوف به، وعدم تعظيمه، وكثرة الحلف بالباطل من صفات المنافقين، قال الله تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ١٤﴾ [المجادلة: ١٤]

قال ابن عاشور: «والتوجيهات القرآنية بشأن اليمين قبل صدوره تضيق الحالات التي يشرع فيها، ومرد ذلك إلى أمرين:

أولهما: ارتباط اليمين بتعظيم الله تعالى، وبالتالي فإنَّ من تعظيمه جلَّ وعلا أن يصان اسمه من الابتذال بكثرة الحلف بغير حاجة إلى ضرورة أو مصلحة راجحة.

الثاني: مقصود الحالف إشهاد الله على صدقه فيما قاله، ومن أجل ذلك تضمن اليمين معنى قويًّا في الصدق، وحينئذٍ فالواجب على المسلم التحرز من إشهاد الله على أمر قد يكون واقع الحال أو المآل بخلافه، لئلا يكون مستخفًّا بمن أشهده

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٢٤٢٢، كتاب العتق، باب ما يجوز من شروط المكاتب ومن اشترط شرطا ليس في كتاب الله، ومسلم في صحيحه، رقم ١٥٠٤، كتاب العتق، باب إنما الولاء لمن أعتق.

(٢) جامع العلوم والحكم، ص ٥٠.

(٣) المفردات، الراغب، ص ٥٢٢.

(٤) فتح الباري، ١١/ ٥٢٥.

والتحرز لا يكون إلا بالإقلال من اليمين وحصرها في أضيق الحدود»[1].

وقد حذر القرآن الكريم من نقض الأيمان وعدم الوفاء بها فقال سبحانه: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [النحل: ٩١- ٩٢]

قال البغوي: «قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾ والعهد هاهنا هو: اليمين. قال الشعبي: العهد يمين وكفارته كفارة يمين، ﴿وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ تشديدها، فتحنثوا فيها، ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ شهيدًا بالوفاء. ثم ضرب الله مثلا لنقض العهد فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ أي: من بعد غزله وإحكامه. قال الكلبي، ومقاتل: هي امرأة خرقاء حمقاء من قريش، كانت تغزل الغزل من الصوف والشعر والوبر، وتأمر جواريها بذلك، فكُنَّ يغزلن من الغداة إلى نصف النهار، فإذا انتصف النهار أمرتهن بنقض جميع ما غزلن، فهذا كان دأبها، ومعناه: أنها لم تكف عن العمل، ولا حين عملت كفت عن النقض، فكذلك أنتم إذا نقضتم العهد، لا كففتم عن العهد، ولا حين عاهدتم وفيتم به. ﴿أَنكَاثًا﴾ يعني: أنقاضًا واحدتها «نكث» وهو ما نقض بعد الفتل، غزلًا كان أو حبلًا. ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ أي: دخلًا وخيانة وخديعة، و «الدخل» ما يدخل في الشيء للفساد. قال مجاهد: وذلك أنهم كانوا يحالفون الحلفاء فإذا وجدوا قومًا أكثر منهم وأعزَّ نقضوا حلف هؤلاء وحالفوا الأكثر، فمعناه: طلبتم العزَّ بنقض العهد، بأن كانت أمة أكثر من أمة. فنهاهم الله عن ذلك. ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ﴾ يختبركم الله بأمره إياكم بالوفاء بالعهد»[2].

وهذه الآية يظهر فيها التحذير من عدم الوفاء ومن نكث العهد، ومن التلاعب باسم الحق جلَّ وعلا فهو سبحانه يعلم من يفي بعهده، ويعرف لاسمه الكريم جلاله، ومن لا يوقر الله، ولا يحفل بالعهد الذي قطعه، وأشهد الله عليه، والله سبحانه غيور على حماه أن يستباح، فمن استباحه فقد أورد نفسه موارد الهالكين[3].

ولا يوجد ثمة تعارض بين هذه الآية وبين الآيات الأخرى التي توجه المسلم إلى

(١) التحرير والتنوير، ١/ ٣٧٨.

(٢) معالم التنزيل، ٥/ ٣٩.

(٣) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب، ٧/ ٣٥٣.

كفارة اليمين عند الحنث في يمينه حيث قال ابن كثير بعد أن تحدث وبين خطورة نقض الأيمان والرجوع فيها بعد توكيدها:

«ولا تعارض بين هذا وبين قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾﴾ [البقرة: ٢٢٤].

وبين قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المائدة: ٨٩].

أي: لا تتركوها بلا تكفير، وبين قوله، عليه السلام فيما ثبت عنه في الصحيحين: (إني والله إن شاء الله، لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرًا منها، إلا أتيت الذي هو خير وتحللتها). وفي رواية: (وكفرت عن يميني)[(١)].

لا تعارض بين هذا كله، ولا بين الآية المذكورة هاهنا وهي قوله: ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ [النحل: ٩١].

لأن هذه الأيمان، المراد بها الداخلة في العهود والمواثيق، لا الأيمان التي هي واردة على حث أو منع»[(٢)].

٢ . الوفاء بالنذور.

وما ينبغي الوفاء به في حياة المسلم الوفاء بالنذور، حيث إنها قربة أوجبها المسلم على نفسه فيما بينه وبين الله، فمن الوفاء أن يقوم بما أوجبه على نفسه على وجه الكمال والتمام.

وقد مدح الله عباده الأبرار، وبين أن من أعمالهم الجليلة في الدنيا أنهم كانوا يوفون بنذرهم كما قال تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾﴾ [الإنسان: ٧].

قال ابن كثير: «أي: يتعبدون لله فيما أوجبه عليهم من فعل الطاعات الواجبة بأصل الشرع، وما أوجبوه على أنفسهم بطريق النذر»[(٣)].

فالمراد بالنذر هنا: أي بكل ما نذروه وأعطوا به عهدًا[(٤)].

والمعنى: يوفون بما أوجبه الله عليهم من الطاعات.

«قال قتادة، ومجاهد: يوفون بطاعة الله من الصلاة والحج ونحوهما. وقال عكرمة: يوفون إذا نذروا في حق الله سبحانه، والنذر في الشرع ما أوجبه المكلف على نفسه، فالمعنى: يوفون بما أوجبوه على أنفسهم. وقال الكلبي: يوفون بالعهد، أي: يتممون

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٢٩٦٤، كتاب الخمس، باب ومن الدليل على أن الخمس لنوائب المسلمين، ومسلم في صحيحه، رقم ١٦٤٩، كتاب الإيمان، باب ندب من حلف يمينا فرأى غيرها خيرا منها.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ٤/ ٥٩٨.

(٣) المصدر السابق، ٨/ ٢٨٧.

(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية، ٦/ ٤٦٣.

العهد. والأولى حمل النذر هنا على ما أوجبه العبد على نفسه من غير تخصيص»[(١)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ذكر سبحانه من أعمال الأبرار ما ينبه سامعه على جمعهم لأعمال البر كلها فذكر سبحانه وفاءهم بالنذر وخوفهم من ربهم، وإطعامهم الطعام على محبتهم له وإخلاصهم لربهم في طاعتهم،وذكر سبحانه الوفاء بالنذر وهو أضعف الواجبات، فإن العبد هو الذي أوجبه على نفسه بالتزامه فهو دون ما أوجبه الله سبحانه عليه، فإذا وفى لله بأضعف الواجبين الذي التزمه هو فهو بأن يوفى بالواجب الأعظم الذي أوجبه الله عليه أولى وأحرى»[(٢)].

وقد جاء في السنة النبوية ما يدلُّ على ضرورة الوفاء بالنذر، فعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصيه فلا يعصه)[(٣)].

قال ابن قدامة: (وأجمع المسلمون على صحة النذر في الجملة، ولزوم الوفاء به».

وما ورد من النهي عنه فهو نهي كراهة، لا نهي تحريم؛ لأنه لو كان حرامًا لما مدح الموفين به؛ لأن ذنبهم في ارتكاب المحرم أشد من طاعتهم في وفائه؛ ولأن النذر لو كان مستحبًّا، لفعله النبي صلى الله عليه وسلم وأفاضل أصحابه»[(٤)].

قال ابن حجر: «النهي عن النذر والتشديد فيه ليس هو أن يكون مأثمًا،ولو كان كذلك ما أمر الله أن يوفى به، ولا حمد فاعله، ولكن وجهه عندي تعظيم شأن النذر وتغليظ أمره؛ لئلا يستهان بشأنه، فيفرط في الوفاء به،ويترك القيام به»[(٥)].

وبين الله سبحانه أن من جملة الأعمال التي يقوم بها الحاج ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾ [الحج: ٢٩].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني: نحر ما نذر من أمر البدن.

وقال ابن أبي نجيح، عن مجاهد: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾: نذر الحج والهدي وما نذر الإنسان من شيء يكون في الحج.

وقال ليث بن أبي سليم، عن مجاهد: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ كلُّ نذر إلى أجل.

وقال عكرمة: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ قال: حجهم»[(٦)].

وقال النسفي: «قوله: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ مواجب حجهم، والعرب تقول

(١) فتح القدير، الشوكاني، ٧/ ٣٧٥.
(٢) جامع الرسائل،١/ ٧١.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٦٣١٨، كتاب الأيمان والنذور، باب النذر في الطاعة.
(٤) المغني، ٢٢/ ٣٧٦.
(٥) فتح الباري، ١١/ ٥٧٧.
(٦) تفسير القرآن العظيم، ٥/ ٤١٧.

لكلِّ من خرج عما وجب عليه: وفَّى بنذره وإن لم ينذر، أو ما ينذرونه من أعمال البر في حجهم»[1].

٣. الوفاء بالكفارات.

وما ينبغي الوفاء به في حياة المسلم الوفاء بالكفارات، حيث يجب على المسلم الذي وجبت عليه الكفارة أن يقوم بالوفاء بما عليه كاملًا غير منقوص.

ومن الكفارات: كفارة اليمين، وفيها جاء قوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المائدة: ٨٩].

فالمراد «أنه لا يؤاخذكم الله - أيها المؤمنون - بما جرى على ألسنتكم من لغو اليمين، الذي لم تتقصدوا فيه الكذب، أو لم تتعمد قلوبكم العزم على الحلف به، ولكن يؤاخذكم بما وثقتموه من الأيمان، فكفارة هذا النوع من الأيمان أن تطعموا عشرة مساكين من الطعام الوسط الذي تطعمون منه أهليكم، أو تكسوهم بكسوة وسط، أو تعتقوا عبدًا مملوكًا أو أمة لوجه الله، فإذا لم يقدر الشخص على الإطعام أو الكسوة أو الإعتاق، فليصم ثلاثة أيام متتابعة، ذلك كفارة أيمانكم أيها المؤمنون فاحفظوا أيمانكم عن الابتذال وأقلوا من الحلف لغير الضرورة»[2].

ومن الكفارات: كفارة الظهار، وقد جاء فيها قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [المجادلة: ٢-٣].

وعن الحكمة منها قال أبو السعود: «وهذه الكفارات تزجرون بها عن ارتكاب المنكر المذكور، فإن الغرامات مزاجرُ عن تعاطي الجنايات، والمراد بذكره بيان أن المقصود من شرع هذا الحكم ليس تعريضكم للثواب بمباشرتكم لتحرير الرقبة الذي هو علمٌ في استتباع الثواب العظيم، بل هو ردعكم وزجركم عن مباشرة ما يوجبه ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الأعمال التي من جملتها التكفير وما يوجبه من جناية الظهار ﴿خَبِيرٌ﴾ أي: عالمٌ بظواهرها وبواطنها ومجازيكم بها، فحافظوا على حدود ما شرع لكم ولا تخلوا بشيءٍ منها»[3].

(١) مدارك التنزيل، ٢/ ٣٥٥.

(٢) روائع البيان في تفسير آيات الأحكام، الصابوني، ١/ ٢٦٠.

(٣) إرشاد العقل السليم، ٦/ ٢٨٦.



ومن الكفارات: كفارة القتل الخطأ وجاء فيها قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٩٢﴾ [النساء: ٩٢].

فكلُّ هذه الكفارات يجب الوفاء بها رعاية لحق الله تعالى، ودليل على وفاء المسلم بعهده فيما بينه وبين الله تعالى.

ومما ينبغي التنبيه إليه أن الكفارات خمسة: كفارة اليمين، وكفارة الحلق، وكفارة القتل، وكفارة الظهار، وكفارة الإفطار. والأربعة التي عرف وجوبها بالكتاب العزيز، فكفارة اليمين وكفارة الحلق وكفارة القتل وكفارة الظهار. وكفارة الإفطار عرفت بالسنة النبوية[1].

خامسًا: الوفاء بالأمانات:

ومن أعظم مجالات الوفاء: الوفاء بالأمانات، ومعناها واسع يدخل فيها الكثير من أمور الدين والدنيا، وهي من أعظم ما يجب على المسلم الوفاء به.

ولقد دلت الكثير من النصوص الشرعية على أهمية الوفاء بالأمانات استجابة لأمر الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨].

قال الرازي: «أمر المؤمنين في هذه الآية بأداء الأمانات في جميع الأمور، سواء كانت تلك الأمور من باب المذاهب والديانات، أو من باب الدنيا والمعاملات، وأيضًا لما ذكر في الآية السابقة الثواب العظيم للذين آمنوا وعملوا الصالحات، وكان من أجل الأعمال الصالحة الأمانة، لا جرم أمر بها في هذه الآية»[2].

وبين الألوسي أن الأمانة هنا تشمل جميع ما يؤتمن عليه الإنسان فقال: «والآية عند أكثر المفسرين عامة في كل ما اؤتمنوا عليه وعوهدوا من جهة الله تعالى ومن جهة الناس، كالتكاليف الشرعية، والأموال المودعة، والإيمان، والنذور، والعقود ونحوها، وجمعت الأمانة دون العهد، قيل: لأنها متنوعة متعددة جدًّا بالنسبة إلى كل مكلف من جهته تعالى، ولا يكاد يخلو مكلف من ذلك ولا كذلك العهد»[3].

(١) انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية، ٣٥/ ٥٥.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي، ٥/ ٢٤٣.

(٣) روح المعاني، ١٣/ ١٧٠.

وفي مدح الذين يراعون العهد ويؤدون أمانة الوفاء بالعهد، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾ [المؤمنون: ٨].

قال ابن عاشور: «هذه صفة أخرى من جلائل صفات المؤمنين، تنحل إلى فضيلتين هما؛ فضيلة أداء الأمانة التي يؤتمنون عليها، وفضيلة الوفاء بالعهد. فالأمانة تكون غالبًا من النفائس التي يخشى صاحبها عليها التلف، فيجعلها عند من يظن فيه حفظها، وفي الغالب يكون ذلك على انفراد بين المؤتمن والأمين، فهي لنفاستها قد تغري الأمين عليها بأن لا يردها، وبأن يجحدها ربها، ولكون دفعها في الغالب عريًا عن الإشهاد، تبعث محبتها الأمين على التمسك بها وعدم ردها؛ فلذلك جعل الله ردها من شعب الإيمان»(١).

وجاء التحذير من خيانة الأمانة في كثير من المواضع منها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنفال: ٢٧]

وجميع الآيات التي تأمر بالوفاء بعهد الله يدخل فيها الوفاء بالأمانات على تعدد أنواعها ومجالاتها.

وفي السنة الكثير من الأحاديث التي توصي بأهمية الوفاء بالأمانات فعن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: ما خطبنا نبي الله صلى الله عليه وسلم إلا قال: (لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له)(٢).

والأمانة تفرق بين المؤمن والمنافق، والخيانة علامة من علامات النفاق، فقد روي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (آية المنافق ثلاثٌ إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان)(٣).

سادسًا: الوفاء في الكيل والميزان:

ومن أبرز مجالات الوفاء: الوفاء في الكيل والميزان، وقد جاءت الدعوة إلى ذلك في أكثر من موضع من القرآن خاصة في دعوة الأنبياء لأقوامهم وتقويم هذا الانحراف لدى أتباعهم، لما يترتب على وجوده من مفاسد خطيرة على الفرد والمجتمع.

ومما جاء في ذلك: قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: ١٥٢].

قال البغوي: « قوله: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾ بالعدل، ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي: طاقتها في إيفاء

(١) التحرير والتنوير، ٩/ ٣٣٤.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ٢٤/ ٤٨١، رقم ١١٩٣٥.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٢٠٥، رقم ٧١٧٩.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٢٥٣٦، كتاب الشهادات، باب من أمر بإنجاز الوعد.

الكيل والميزان، أي: لم يكلف المعطي أكثر مما وجب عليه، ولم يكلف صاحب الحق الرضا بأقل من حقه، حتى لا تضيق نفسه عنه، بل أمر كل واحد منهما بما يسعه مما لا حرج عليه فيه»[1].

وجاء في توجيه الأنبياء لأقوامهم وصيتهم بإيفاء الكيل والميزان، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾ [الأعراف: ٨٥].

وقوله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ [هود: ٨٥].

وقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ [الإسراء: ٣٥].

وقوله تعالى: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾﴾ [الشعراء: ١٨١].

وجاء التحذير من عدم الوفاء في الكيل والميزان، والوعيد على ذلك بالويل في قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾﴾ [المطففين: ١-٣].

قال الطبري: «والويل هو: الوادي الذي يسيل من صديد أهل جهنم في أسفلها للذين يطففون، يعني: للذين ينقصون الناس، ويبخسونهم حقوقهم في مكاييلهم إذا كالوهم، أو موازينهم إذا وزنوا لهم عن الواجب لهم من الوفاء، وأصل ذلك من الشيء الطفيف، وهو القليل النزر، والمطفف: المقلل حق صاحب الحق عما له من الوفاء والتمام في كيل أو وزن؛ ومنه قيل للقوم الذي يكونون سواء في حسبة أو عدد: هم سواء كطف الصاع، يعني بذلك: كقرب الممتلئ منه ناقص عن الملء»[2].

وقال السعدي: «وفسر الله المطففين بقوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ﴾ أي: أخذوا منهم وفاء عما ثبت لهم قبلهم ﴿يَسْتَوْفُونَ﴾ يستوفونه كاملا من غير نقص. ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ﴾ أي: إذا أعطوا الناس حقهم، الذي للناس عليهم بكيل أو وزن، ﴿يُخْسِرُونَ﴾ أي: ينقصونهم ذلك، إما بمكيال وميزان ناقصين، أو بعدم ملء المكيال والميزان، أو نحو ذلك. فهذا سرقة لأموال الناس، وعدم إنصاف لهم منهم»[3].

ويستنبط مما جاء به القرآن الكريم أن التطفيف: «هو الاستيفاء من الناس عند الكيل أو الوزن، والإنقاص والإخسار عند الكيل أو الوزن لهم. ويلحق بالوزن والكيل ما أشبههما من المقاييس والمعايير التي يتعامل بها الناس»[4].

قال الإمام النيسابوري رحمه الله: اعلم أن أمر المكيال والميزان عظيم؛ لأن مدار معاملات الخلق عليهما ولهذا جرى على

(١) معالم التنزيل، ٣/ ٢٠٤.

(٢) جامع البيان، ٢٤/ ٢٧٧.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص ٩١٥.

(٤) انظر: المفردات، الراغب، ص٣٨، ٣١٤.

قوم شعيب بسببه ما جرى[(١)].

وقد عد ابن حجر الهيثمي التطفيف من الكبائر وجعله شاملا لبخس نحو الكيل أو الوزن أو الذرع، وذلك لأنه من أكل أموال الناس بالباطل؛ ولهذا اشتد الوعيد عليه كما علمته من الآية والأحاديث، وأيضًا فإنما سمي مطففا لأنه لا يكاد يأخذ إلا الشيء الطفيف وذلك ضرب من السرقة والخيانة مع ما فيه من الإنباء عن عدم الأنفة والمروءة بالكلية، ومن ثم عوقب بالويل الذي هو شدة العذاب، أو الوادي في جهنم لو سيرت فيه جبال الدنيا لذابت من شدة حره، نعوذ بالله منه، وأيضًا فقد شدد الله تعالى عقوبة قوم شعيب على نبينا وعليه الصلاة والسلام على بخسهم المكيال والميزان[(٢)].

ومما سبق يظهر دعوة القرآن الكريم إلى الوفاء بالكيل والميزان، وعدم تطفيفه للوفاء بحقوق الناس، وعدم أكلها بالباطل.

سابعًا: الوفاء بالبيعة:

ومن أبرز مجالات الوفاء: الوفاء بالبيعة.

ومن الآيات التي تشير إلى الوفاء بالبيعة قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة: ١١١].

قال ابن عاشور: «قوله: ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ أي: وعدا حقا عليه ولا أحد أوفى بعهده منه، فالاستفهام إنكاري بتنزيل السامع منزلة من يجعل هذا الوعد محتملا للوفاء وعدمه كغالب الوعود فيقال: ومن أوفى بعهده من الله إنكارا عليه. و ﴿أَوْفَىٰ﴾ اسم تفضيل من وفى بالعهد إذا فعل ما عاهد على فعله. و ﴿مِنَ﴾ تفضيلية، وذكر اسم الجلالة عوضا عن ضميره لإحضار المعنى الجامع لصفات الكمال. والعهد: الوعد بحلف والوعد الموكد، والبيعة عهد، والوصية عهد. وتفرع على كون الوعد حقا على الله، وعلى أن الله أوفى بعهده من كل واعد، أن يستبشر المؤمنون ببيعهم هذا، فالخطاب للمؤمنين من هذه الأمة»[(٣)].

ومدح الله الذين أوفوا ببيعة النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾ [الفتح: ١٠]

قال النسفي: «ومعنى الآية: تقرير أن عقد الميثاق مع الرسول كعقده مع الله من غير

(١) غرائب القرآن، ٣٠/ ٤٤.
(٢) انظر، الزواجر، ص٣٣٤.
(٣) التحرير والتنوير، ١٠/ ٢١٠.

تفاوت بينهما كقوله ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

وقوله ﴿فَمَن نَّكَثَ﴾ نقض العهد ولم يف بالبيعة ﴿فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ فلا يعود ضرر نكثه إلا عليه[١].

والبيعة عقد يقوم به «أهل الحل والعقد»وهم الجماعة الذين تنعقد البيعة بمبايعتهم وهم « أولي الأمر» فهم أصحاب الأمر المطاع من كبار الأمراء وكبار العلماء قد أمر الله تعالى بطاعتهم في قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٞ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۝٥٩﴾ [النساء: ٥٩]

والوفاء بالبيعة عهد؛ لأن البيعة معاهدة على السمع والطاعة في غير معصية الله قال الله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ﴾ [النساء: ٥٩]

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره، إلا أن يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة)**[٢].

ونقض البيعة غدر: لقوله صلى الله عليه وسلم: **(لكل غادر لواء يوم القيامة يرفع له بقدر غدرته، ألا و لا غادر أعظم غدرا من أمير عامة)**[٣].

قال ابن رجب: «أما السمع والطاعة لولاة أمور المسلمين، ففيها سعادة الدنيا، وبها تنتظم مصالح العباد في معايشهم، وبها يستعينون على إظهار دينهم، وطاعة ربهم»[٤].

وقال ابن تيمية: «وقد استفاض وتقرر في غير هذا الموضع ما قد أمر به صلى الله عليه وسلم من طاعة الأمراء في غير معصية الله، ومناصحتهم والصبر عليهم في حكمهم وقسمهم، والغزو معهم والصلاة خلفهم، ونحو ذلك من متابعتهم في الحسنات التي لا يقوم بها إلا هم؛ فإنه من باب التعاون على البر والتقوى، وما نهى عنه من تصديقهم بكذبهم، وإعانتهم على ظلمهم، وطاعتهم في معصية الله ونحو ذلك مما هو من باب التعاون على الإثم والعدوان»[٥].

فالوفاء بالبيعة من الأمور المهمة ومن صور الوفاء التي يجب التزامها والقيام بها على وجه الكمال والتمام لأنها بمثابة العقد والعهد الذي حذرنا القرآن من نقضه والإخلال به.

---

(١) مدارك التنزيل، ٣/ ٣٣٢.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، رقم ١٨٣٩، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، رقم ١٧٣٨، كتاب الجهاد والسير، باب تحريم الغدر.
(٤) جامع العلوم والحكم، / ١١٧.
(٥) مجموع فتاوى ابن تيمية، ٣٥/ ٢١.

أثر الوفاء على الفرد والمجتمع

والوفاء له أثره الإيجابي الفاعل المحمود على الفرد والمجتمع، وسيكون الحديث عنه في النقاط الآتية:

أولًا: أثر الوفاء على الفرد:

١. تحقيق تقوى الله ومحبته.

فإن من يلتزم بالوفاء في سلوكه وتصرفاته يحقق التقوى المأمور بها شرعًا، وقد كان الوفاء سبيلًا لذلك.

قال الله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [آل عمران: ٧٦].

وربط القرآن بين تمام العهد ووفائه ومحبة الله، فقال سبحانه: ﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾ [التوبة: ٤].

قال الزمخشري: «كل من أوفى بما عاهد عليه واتقى الله في ترك الخيانة والغدر، فإن الله يحبه»[١].

وعدد الله من صفات المؤمنين الصادقين قيامهم بالوفاء بالعهد، فقال سبحانه: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ۖ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: ١٧٧].

٢. نيل الأجر العظيم.

وقد ربط القرآن بين تحقيق الوفاء وحصول المسلم على الأجر العظيم من الله سبحانه، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾ [الفتح: ١٠].

قال السعدي: «قوله: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ﴾ أي: أتى به كاملا موفرا، ﴿فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لا يعلم عظمه وقدره إلا الذي آتاه إياه»[٢].

وكذلك بين القرآن أن الوفاء بعهد الله فيه الفوز العظيم للمسلم كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ۚ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة: ١١١].

٣. نيل الفلاح.

ومن آثار الوفاء على الفرد نيل الفلاح حيث أخبر القرآن من صفات المؤمنين المفلحين: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾﴾ [المؤمنون: ٨].

٤. وفاء الله بعهود عباده.

فمن آثار الوفاء أن الفرد الذي يفي بعهده مع الله يكون جزاؤه من جنس ما صنع، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾ [البقرة: ٤٠].

قال الطبري: «وعهده إياهم أنهم إذا

(١) الكشاف، ١/ ٣٧٥.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص ٧٩٢.

فعلوا ذلك أدخلهم الجنة»[1].

وذكر عز وجل صفات أولي الألباب ذكر منها أنهم يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق، ثم بين عاقبة هؤلاء، فقال عز وجل: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ۝٢٠ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ۝٢١ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ۝٢٢﴾[الرعد: ٢٠-٢٢].

ومما يبين أن الجزاء من جنس العمل فأصحاب الوفاء والصدق لهم جزاؤهم على صدقهم، كما قال تعالى: ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ۝٢٣ لِّيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٢٣- ٢٤].

٥. تحمل المسؤولية والالتزام.

ومن آثار الوفاء على الفرد أنه يجعل المسلم متحملًا لمسؤولية قوله وفعله، وملتزمًا بعهوده ومواثيقه، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ۝٣٤﴾[الإسراء: ٣٤].

قال ابن كثير: «أي: الذي تعاهدون عليه الناس والعقود التي تعاملونهم بها، فإن العهد والعقد كل منهما يسأل صاحبه عنه ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ أي: عنه»[2].

وقال أبوالسعود: «وقوله: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾ سواءٌ جرى بينكم وبين ربكم أو بينكم وبين غيركم من الناس، والإيفاء بالعهد والوفاء به هو القيام بمقتضاه والمحافظة عليه ﴿إِنَّ الْعَهْدَ﴾ أظهر في مقام الإضمار إظهارًا لكم والعناية بشأنه، ﴿كَانَ مَسْئُولًا﴾ أي: مسؤولًا عنه»[3].

٦. أداء حقوق العباد.

والمسلم عندما يلتزم بالوفاء في عهوده وعقوده وما لديه من أمانات وبالوفاء في الكيل والميزان يكون قد أدى ما عليه من حقوق العباد فلا يطالبه أحد بشيء يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ۝٤٧﴾[الأنبياء: ٤٧].

٧. السلامة من النفاق.

ومن جملة آثار الوفاء على الفرد السلامة من النفاق حيث إن نقض العهود والمواثيق وإخلاف الوعود من أبرز صفات المنافقين؛ فالوفاء من خاصية أهل الإيمان، والخيانة والغدر من خاصية أهل النفاق، كما قال تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا

(١) جامع البيان، ١/ ٢٥٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ٥/ ٧٤.

(٣) إرشاد العقل السليم، ٤/ ١٩٢.

﴿يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [التوبة: ٧٧].

قال ابن عاشور: «جعل فعلهم ذلك سببًا في بقاء النفاق في قلوبهم إلى موتهم، وذلك جزاء تمردهم على النفاق»(١).

ثانيًا: أثر الوفاء على المجتمع:

١. تحقيق الاستقرار داخل المجتمع.

إن وجود الوفاء من عوامل الاستقرار في المجتمعات؛ فاستشعار الجميع لأهمية الوفاء وتطبيقه بينهم يجعل المجتمع مستقرًا تسوده الطمأنينة لأفراده، خاصة عندما تتدرج دائرة الوفاء من محيط الأسرة إلى المسجد إلى المدرسة إلى الجامعة إلى الوظيفة، وكل جوانب المعاملات بين الناس.

إن الوفاء بالعهد «يثمر الكثير من خصال الخير فهو يثمر قوة الثقة، وإذا ما أنست من وفاء إنسان قويت ثقتك فيه وارتاحت نفسك إليه، إنه يثمر الاطمئنان والأمانة، يثمر النجدة والشهامة والمروءة، والمجتمع الذي يسوده الوفاء مجتمع متين البناء، تظلله روح المودة والصفاء ويشد أزره التعاون البناء»(٢).

وقد مدح الله الذين يفون بعهودهم ومواثيقهم، وأنهم من الذين صدقوا، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: ١٧٧].

وأن ذلك من أبرز صفات المجتمع المسلم وأنهم من أولي الألباب قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾﴾ [الرعد: ١٩-٢٠].

٢. حفظ الحقوق وصيانتها.

وجود الوفاء في داخل المجتمع يعمل على حفظ الحقوق وصيانتها وعدم تضييعها، ومن ثم تختفي الكثير من المنازعات والشكاوي حول ضياع الحقوق وصعوبة الحصول عليها؛ فالمسلم بالتزامه بالوفاء بعهوده ومواثيقه وأمانات الناس لديه يجنب المجتمع الكثير من المشكلات.

ويظهر ذلك في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١].

ومن ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾ [الأعراف: ٨٥].

وقوله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ [هود: ٨٥].

وقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ [الإسراء: ٣٥].

وقوله تعالى: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾﴾ [الشعراء: ١٨١].

٣. صيانة الدماء والأنفس.

ومن آثار الوفاء أنه يصون المجتمع من إراقة الدماء بغير حق وقتل الأنفس من

(١) التحرير والتنوير، ٦/ ٢٧٢.

(٢) قيمة الوفاء في المنظور الإسلامي، طه خضير، ص ٤٠.

خلال التزام المسلم بالعهود والمواثيق مع غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، والوفاء لهم بحقوقهم.

فمن يرتبط مع المسلمين بعهد أو ميثاق، فإنه يدرك أي أمن يعيش فيه، وأي حياة مستقرة يحياها، فلا خوف على نفسه أو أهله أو مجتمعه من الدولة المسلمة. وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾﴾ [الإسراء: ٣٤].

وتتحقق صيانة الدماء والأنفس من خلال الوفاء بالبيعة وعدم نقضها مما يجنب المجتمع الكثير من الفتن والاختلاف والتنازع الذي يفضي إلى سفك الدماء، وقتل الأبرياء. ويظهر هذا من قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾ [الفتح: ١٠].

٤ . تحقيق التعاون ودفع التنازع.

والوفاء في داخل المجتمع يخلق روحًا من التعاون والتناصر والتواد بين أفراد المجتمع، ويقلل الشحناء والبغضاء والنفرة والكراهية والظلم. ويظهر هذا في قوله تعالى: ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الأنعام: ١٥٢].

وبقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ﴾ [النحل: ٩١].

«فالوفاء صفة أساسية في بنية المجتمع الإسلامي، حيث تشمل سائر المعاملات، إذ كل المعاملات والعلاقات الاجتماعية والوعود والعهود تتوقف على الوفاء، فإذا انعدم الوفاء انعدمت الثقة، وساء التعامل وساد التنافر»[1].

٥ . القدوة الحسنة.

إن المجتمع المسلم عندما يلتزم بقيمة الوفاء يكون قد قدم صورة طيبة عن الإسلام، مما يجعله قدوة للمجتمعات الأخرى، وصورة حقيقة معبرة عن توجيهات الإسلام في هذا الشأن، ولعل ذلك له أثر أيضًا في دخول غير المسلمين في الإسلام لما يرونه من واقع حي ملموس في الوفاء بالعهود والمواثيق والأيمان والأمانات والعقود. وقد جعل الله من صفات المجتمع المسلم ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: ١٧٧].

وأن ذلك من أبرز صفات المجتمع المسلم وأنهم من أولي الألباب.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَـٰقَ ﴿٢٠﴾﴾ [الرعد: ١٩-٢٠].

٦ . الرخاء والبركة.

ومن آثار الوفاء والقيام والالتزام به وجود

(١) موسوعة نضرة النعيم، مجموعة مؤلفين ٨/ ٣٦٦٨.

الرخاء والبركة، ويظهر ذلك في الوفاء بأموال وحقوق الناس وعدم تضييعها، والوفاء بالكيل والميزان مما يترتب عليه رضى الله تعالى عن هذا المجتمع «فحينما يلزم المجتمع بالوفاء بالكيل والميزان يتحقق الرخاء والاستقرار الاقتصادي، ويبارك الله تعالى في الأموال، وتصلح أحوال الناس، وتسود الثقة بين أفراد المجتمع، وتظهر عليهم علامات البر والصدق، ويعم الخير أرجاء المجتمع المسلم»[1].

وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾ [البقرة: ٤٠].

وقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [آل عمران: ٧٦].

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾ [الفتح: ١٠].

موضوعات ذات صلة:

البيعة، الثبات، الرجولة، العهد، الميثاق

(١) الوفاء في ضوء القرآن الكريم، وفاء حيدر شقورة، ص ١٧٠.





عناصر الموضوع

مفهوم الوقت

أولًا: المعنى اللغوي:

«الواو والقاف والتاء: أصلٌ يدل على حد شيءٍ وكنهه في زمان وغيره، منه الوقت: الزمان المعلوم، والموقوت: الشيء المحدود»[1]، ووقت الشيء بالتخفيف فهو موقوتٌ إذا بين له وقتا ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء:١٠٣].

أي: مفروضا في الأوقات، والتوقيت تحديد الأوقات، ويقال: وقته ليوم كذا توقيتًا مثل أجله، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾﴾ [المرسلات:١١][2]، وفي لسان العرب: «الوقت: مقدار من الزمان، وكل شيء قدرت له حينا، فهو مؤقت، وكذلك ما قدرت غايته، فهو مؤقت.»[3] وقال الكفوي: «الوقت، لغة: المقدار من الدهر، وأكثر ما يستعمل في الماضي كالميقات، ونهاية الزمان المفروض لعمل، ولهذا لا يكاد يقال إلا مقيدا.»[4]

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

بالنظر في أقوال العلماء في الدلالة اللغوية والاصطلاحية للوقت نجد أنه لا فرق بينهما، فالوقت هو الدهر، وهو حياة الإنسان التي ينبغي أن تعمر بالطاعات، وهو المقدار من الزمان، ولا يكاد يذكر إلا مقيدًا، مثل أوقات العبادات كالصلاة والزكاة والصيام والحج، وآجال أداء الديون والحقوق، وعدد النساء.

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٦/ ١٣١.

(٢) انظر: مختار الصحاح، الرازي ص٣٤٣.

(٣) لسان العرب، ابن منظور ٢/ ١٠٧.

(٤) الكليات، أبو البقاء الكفوي ص٩٤٥.

الوقت في الاستعمال القرآني

وردت مادة (وقت) في القرآن الكريم (١٣) مرة[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١	﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ ۝١١﴾ [المرسلات:١١]
المصدر	٣	﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ۝٣٨﴾ [الحجر:٣٨]
اسم	٨	﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝٣٨﴾ [الشعراء:٣٨]
اسم مفعول	١	﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ۝١٠٣﴾ [النساء:١٠٣]

وجاء في القرآن بمعناه في اللغة وهو: الزمان المعلوم. والموقوت: الشيء المحدود[٢].
والميقات: الوقت المضروب للفعل[٣].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص٧٥٧.
(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٦/ ١٢٣.
(٣) انظر: مختار الصحاح، الرازي ص٣٤٣.

الألفاظ ذات الصلة

١ الأوان:

الأوان لغةً:

الحين والزمان، والجمع: آونة مثل: زمان وأزمنة، تقول: جاء أوان البرد[١]، و«آن الشيء أينًا حان»[٢].

الأوان اصطلاحًا:

«أوان الشيء: وقته الذي يوجد فيه وجمعه آونة»[٣]، و(الأوان) أعم من (الوقت).

الصلة بين الأوان والوقت:

أن (الوقت): مقدار من الزمان مفروض لأمر ما، و(الأوان): الحين، وهو الزمان قل أو كثر، وسواء كان مفروضا أم لا، فكل وقت أوان دون العكس[٤]، ولذلك يقال عن الأمر الذي يقع بشكل غير منتظم زمانيا: أحيانا يقع كذا، أما الأمر الذي يقع بانتظام زمانيا فيقال عنه: في وقت كذا يقع.

٢ الميقات:

الميقات لغةً:

«مصدر (الوقت)»[٥].

الميقات اصطلاحًا:

«الوقت المضروب للشيء، والوعد الذي جعل له وقت وقد يقال الميقات للمكان الذي يجعل وقتا للشيء، كميقات الحج»[٦].

الصلة بين الميقات والوقت:

أن الميقات: ما قدر ليعمل فيه عمل من الأعمال، وأما الوقت فهو: وقت الشيء قدره مقدر، أو لم يقدره»[٧].

(١) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ١٥/ ٣٩٢، مختار الصحاح، الرازي ص٢٦.
(٢) لسان العرب، ابن منظور ١٣/ ٤٠.
(٣) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص٦٦.
(٤) انظر: الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري ص٥٧٦.
(٥) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٩/ ١٩٨.
(٦) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٨٧٩.
(٧) انظر: الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري ص٥٢٦.



٣ الدهر:

الدهر لغةً:

«الزمان»[١] قال ابن فارس: «الدال والهاء والراء أصل واحد، وهو الغلبة والقهر. وسمي الدهر دهرا؛ لأنه يأتي على كل شيء ويغلبه»[٢].

الدهر اصطلاحًا:

اسم لمدة العالم من مبدأ وجوده إلى انقضائه وعليه قوله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ١﴾ [الإنسان: ١].

ثم عبر به عن كل مدة كثيرة[٣].

الصلة بين الدهر والوقت:

أن الدهر يعبر به عن كل مدة كثيرة، بخلاف الوقت فإنه يقع على المدة القليلة والكثيرة، ويقال: دهر فلان: مدة حياته.[٤].

٤ الساعة:

الساعة لغةً:

قال ابن فارس: «السين والواو والعين يدل على استمرار الشيء ومضيه من ذلك الساعة سميت بذلك»[٥].

الساعة اصطلاحًا:

هي جزء من أجزاء الزمان، قال الراغب: «الساعة جزء من أجزاء الزمان، ويعبر به عن القيامة»[٦].

الصلة بين الساعة والوقت:

أن الساعة هي الوقت المنقطع من غيره، والوقت اسم الجنس ولهذا تقول إن الساعة عندي ولا تقول الوقت عندي»[٧].

(١) الصحاح، الجوهري ٢/ ٦٦١.
(٢) مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٣٠٥.
(٣) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص١٦٨.
(٤) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣١٩.
(٥) مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٣٠٥.
(٦) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٤٣٤.
(٧) الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري ص٢٧٢.

٥ الحين:

الحين لغةً:

«الزمان قليله وكثيره»[(١)].

الحين اصطلاحًا:

«وقت بلوغ الشيء وحصوله، وهو مبهم المعنى ويتخصص بالمضاف إليه»[(٢)].

الصلة بين الحين والوقت:

الوقت قدر من الزمان مفروض مميز من جملته، مشار إليه بعينه، وكذلك الحين هو مدة أطول من الوقت وأفسح وأبعد، وإنما تقترن أبدا هاتان اللفظتان بما يميزهما ويفصلهما من جملة الزمان الذي هو كل لهما، فيقال: وقت كذا وحين كذا، فينسب إلى حال أو شخص أو ما أشبه ذلك.

فإذا أريد بهما الإبهام لا الإفهام قيل: كان كذا أو يكون كذا في حين أو وقت، فيعلم السامع أن المتكلم لم يؤثر تعيين الوقت والحين، وهما لا محالة معينان محصلان[(٣)].

٦ العصر:

العصر لغةً:

الدهر، وجمعه: عصور، قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾ [العصر: ١-٢][(٤)]، أي: الدهر.

العصر اصطلاحًا:

«العصر: الدهر واليوم والليلة والعشاء إلى احمرار الشمس»[(٥)].

الصلة بين العصر والوقت:

الوقت هو مقدار من الزمان مفروض لأمر ما، وأما العصر فهو الزمن والظرف الذي يملؤه الإنسان في حياته بعمله.

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ١٢٥.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٢٦٧، التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص١٥٠.
(٣) الهوامل والشوامل، ابن مسكويه ص٥٨.
(٤) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٥٦٩.
(٥) الكليات، أبو البقاء الكفوي ص٦٥٢.



الوقت نعمة الهية

أولًا: الوقت نعمة إلهية:

من أجل نعم الله تعالى على الإنسان في حياته نعمة الوقت، والتي لولاها لما تمكن من القيام بأي عمل ينتفع به في دنياه أو آخرته، فبالوقت واستغلاله يؤدي العبادة لخالقه ويتقرب إليه، بل إن في الوقت فرصة متاحة له إن كان معرضا عن عبادة الله وطاعته لكي يتوب ويؤوب إليه، وبالوقت أيضًا يتمكن من العمل والإنتاج، فالوقت ساحة العمل والانتفاع وميدان للجد والاجتهاد.

وقد أوضح الله تعالى في كتابه العزيز عظم نعمة الوقت وتنظيمه في عدة مواضع، وبين أن ذلك من آياته الباهرة لعباده، ورحمته الواسعة بهم.

قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ الْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم:٣٣-٣٤].

فامتن الله تعالى على عباده بتسخير الليل والنهار والشمس والقمر لتنتظم أمور حياتهم وأعمالهم.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا الَّيْلَ وَالنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ الَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَـٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾ [الإسراء:١٢].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «يمتن تعالى على خلقه بآياته العظام، فمنها مخالفته بين الليل والنهار، ليسكنوا في الليل وينتشروا في النهار للمعايش والصناعات والأعمال والأسفار، وليعلموا عدد الأيام والجمع والشهور والأعوام، ويعرفوا مضي الآجال المضروبة للديون والعبادات والمعاملات والإجارات وغير ذلك؛ ولهذا قال: ﴿لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾، أي: في معايشكم وأسفاركم ونحو ذلك، ﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾، فإنه لو كان الزمان كله نسقا واحدا وأسلوبا متساويا لما عرف شيء من ذلك»[(١)].

فالليل والنهار نعمتان عظيمتان على الإنسان، ولا غنى له عن أحدهما، فتتعذر حياة الإنسان والحيوان والنبات لو كان الليل سرمدًا إلى يوم القيامة، وكذا تتعذر الحياة لو كان النهار سرمدًا إلى يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٤٩.

﴿بِلَيۡلٖ تَسۡكُنُونَ فِيهِۖ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٧٢﴾ [القصص:٧١-٧٢].

والمعنى: «أخبروني من يقدر على هذا؟ والسرمد: الدائم المتصل، من السرد وهو المتابعة»[١].

وفي الآيتين السابقتين امتن الله تعالى على عباده بما سخر لهم من الليل والنهار، اللذين لا قوام لهم بدونهما. وبين لهم أنه لو جعل الليل دائما عليهم سرمدا إلى يوم القيامة، لأضر ذلك بهم، ولسئمته النفوس، ولهذا قال تعالى:﴿مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾ أي: تبصرون به وتستأنسون بسببه، ثم أخبر أنه لو جعل النهار سرمدا دائما مستمرا إلى يوم القيامة، لأضر ذلك بهم، ولتعبت الأبدان وكلت من كثرة الحركات والأشغال؛ ولهذا قال:﴿مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٖ تَسۡكُنُونَ فِيهِ﴾ أي: تستريحون من حركاتكم وأشغالكم[٢].

قال الزمخشري: «فإن قلت: هلا قيل: بنهار تتصرفون فيه، كما قيل:﴿بِلَيۡلٖ تَسۡكُنُونَ فِيهِ﴾؟

قلت: ذكر الضياء وهو ضوء الشمس: لأن المنافع التي تتعلق به متكاثرة، ليس التصرف في المعاش وحده، والظلام ليس بتلك المنزلة، ومن ثمة قرن بالضياء ﴿أَفَلَا تَسۡمَعُونَ﴾ لأن السمع يدرك ما لا يدركه البصر من ذكر منافعه ووصف فوائده، وقرن بالليل ﴿أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ لأن غيرك يبصر من منفعة الظلام ما تبصره. وأنت من السكون ونحوه ومن رحمته زاوج بين الليل والنهار لأغراض ثلاثة: لتسكنوا في أحدهما وهو الليل، ولتبتغوا من فضل الله في الآخر وهو النهار ولإرادة شكركم»[٣].

قال تعالى: ﴿وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٣﴾ [القصص:٧٣].

وقال تعالى: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ٥﴾ [الرحمن:٥].

أي: بحساب دقيق، وتقدير حكيم بحيث لا يشوب جريهما اختلال أو اضطراب[٤]، «يجريان بحساب ومنازل لا يعدوانها، ويدلان بذلك على عدد الشهور والسنين»[٥] والأيام، ولولا الليل والنهار والشمس والقمر لم يدر أحد كيف يحسب لأن الدهر يكون كله ليلا أو نهارا. فالشمس والقمر يجريان بحساب ومنازل محكمة ليعرف الإنسان بذلك شهر الصوم، وأشهر الحج، ويوم الجمعة، وعدد النساء اللاتي تعتد بالشهور، كاليائسة والصغيرة والمتوفى عنها

(١) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٤٢٨.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٥٢.
(٣) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٤٢٨-٤٢٩.
(٤) انظر: الوسيط، محمد سيد طنطاوي ١٤/ ١٣٠.
(٥) فتح القدير، الشوكاني ٥/ ١٥٨.

زوجها[1]، ومدة الحمل، ومدة الرضاعة، ومدة الإجارة، وآجال الخلائق، وتاريخ الأمم والشعوب، وغير ذلك من الأمور المستفادة معرفتها من جريان الشمس والقمر، وهو من تيسير الله تعالى على خلقه في أمور حياتهم، ومن مظاهر رحمته تعالى بهم، كما يشهد له مطلع السورة: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١﴾ [الرحمن:١].

أي: الرحمن هو الذي أنعم بذلك، ولذلك يكثر في هذه السورة قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾ [الرحمن:١٣].

حيث تكرر واحدًا وثلاثين مرة فيها.

وقد أنعم الله تعالى على خلقه بتنظيم أوقاتهم وجعلها أياما وشهورا وسنين، ليعلموا من ذلك ما مضى من أعمارهم وأوقاتهم، وليتنبهوا إلى اقتراب آجالهم، ودنو حسابهم، فيكون ذلك دافعا وحافزا لهم على العمل والجد والاستعداد ليوم الحساب.

ثانيًا: الوقت مسؤولية:

وهذه النعمة العظيمة على الإنسان في تنظيم وقته سيسأله الله تعالى عنها.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾ [التكاثر:٨].

والنعيم لفظ عام، فهو يشمل كل ما يتنعم به الإنسان في الدنيا، سيسأل عنه يوم القيامة[2].

والوقت من أجل النعم، وقد أورد الإمام ابن كثير رحمه الله عند تفسيره لهذه الآية حديثا عن النبي صلى الله عليه وسلم في الإشارة إلى نعمة الوقت والحث على اغتنامها: عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (نعمتان مغبونٌ[3] فيهما كثيرٌ من الناس: الصحة والفراغ)[4].

ثم قال ابن كثير: «ومعنى هذا: أنهم مقصرون في شكر هاتين النعمتين، لا يقومون بواجبهما، ومن لا يقوم بحق ما وجب عليه، فهو مغبون»[5].

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ٤٩١.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٥٨٦، أضواء البيان، الشنقيطي ٩/ ٨٥، ٨٦.

(٣) الغبن: الخسارة، وهو بالسكون في البيع، وبالتحريك في الرأي، ويصح كل منهما في هذا الخبر فإن من لا يستعمل الصحة والفراغ فيما ينبغي فقد غبن لكونه باعهما ببخس ولم يحمد رأيه في ذلك، وقوله في الحديث: (مغبون فيهما كثير من الناس)، كقوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾، فالكثير في الحديث في مقابلة القليل في الآية. انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١١/ ٢٣٠.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب لا عيش إلا عيش الآخرة، رقم ٦٤١٢، ٨/ ٨٨.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٤٧٨.

فالوقت نعمة عظيمة من نعم الله تعالى على عباده، سيسألهم عنها وما عملوا فيها، ومن اللطائف أن السورة التي تلت هذه الآية من سورة التكاثر في المصحف، هي سورة العصر، وفي مطلعها قسمه تعالى بالعصر: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١﴾ [العصر:١].

وهو الوقت، وفي ذلك إشارة إلى نعمة الوقت ودخوله في النعيم المسؤول عنه يوم القيامة.

وفي الحديث عن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تزول قدما عبدٍ يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيم فعل، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه)[1].

فالواجب على العبد حتى ينجو بنفسه في ذلك اليوم العصيب، أن يحافظ على قضاء وقته في طاعة الله تعالى، ويقوم بشكر نعمة الله عليه في ذلك.

وقد أمر الله تعالى عباده بالحفاظ على نعمة الوقت وصيانته، ومن ذلك أنه تعالى حرم عليهم الانتحار وقتل النفس بغير الحق عمومًا.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الإسراء:٣٣].

وفي ذلك حفظ لحياة الإنسان وعمره ووقته، ومن ذلك أيضًا تحريمه تعالى بعض الأشياء كالخمر والميسر وغيرهما مما فيه إضاعة للوقت ومشغلة عن طاعة الله والتفكر في خلقه.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ۝٩١﴾ [المائدة:٩١].

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، باب في القيامة، رقم ٢٤١٧، ٤/ ٦١٢.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٧٣٠٠، ٢/ ١٢٢١.

أهمية الوقت

الوقت عمر الإنسان، ورأس ماله، ولولا الوقت لما تعلم متعلم ولا وصل سائر، ولولا الوقت لما بدا من اجتهاد نبي الله نوح عليه السلام في دعوته لقومه ما بدا، ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [العنكبوت:١٤].

ولولا الوقت لما تعجب من قصة أصحاب الكهف من تعجب، ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾﴾ [الكهف:٢٥].

ولما كان الوقت بتلك الأهمية والقيمة في حياة الإنسان، أشار القرآن الكريم إلى أهميته، لينبه على ضرورة اغتنامه وصرفه فيما ينبغي من العبادات وأعمال البر التي يهدي إليها القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩].

ومن الإشارات القرآنية التي تدل على أهمية الوقت وفضله ما يلي:

أولًا: القسم بالوقت:

ولعظم مكانة الوقت أقسم الله تعالى به على مختلف أطواره (الليل، والنهار، والفجر، والصبح، والضحى، والعصر) في عدة مواضع من كتابه الكريم، ومما لا شك فيه أن الله تعالى إذا أقسم بأمر فإنما يدل هذا القسم على مكانة المقسم به العالية، وأهميته البالغة، ومنافعه الحسية والمعنوية التي يريد لفت أنظار الناس إليها.

فقد أقسم تعالى بالفجر، قال تعالى: ﴿وَٱلْفَجْرِ ﴿١﴾﴾ [الفجر:١]كما أقسم بالصبح في قوله تعالى: ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾﴾ [المدثر:٣٤].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾﴾ [التكوير:١٨].

أقسم تعالى بالفجر، الذي هو آخر الليل ومقدمة النهار، لما في إدبار الليل وإقبال النهار، من الآيات الدالة على كمال قدرة الله تعالى، وأنه وحده المدبر لجميع الأمور، الذي لا تنبغي العبادة إلا له، ويقع في الفجر صلاة فاضلة معظمة، يحسن أن يقسم الله بها[1].

قال السعدي: «أقسم تعالى بالقمر، وبالليل وقت إدباره، والنهار وقت إسفاره، لاشتمال المذكورات على آيات الله العظيمة»[2].

ومن ذلك قسمه تعالى بالضحى على إنعامه على رسوله صلى الله عليه وسلم وإكرامه له وإعطائه ما يرضيه، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٩٢٣.

(٢) انظر: المصدر السابق ص ٨٩٧.

﴿وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥﴾ [الضحى:١-٥].

قال ابن القيم رحمه الله: «فتأمل مطابقة هذا القسم -وهو نور الضحى- الذي يوافي بعد ظلام الليل للمقسم عليه -وهو نور الوحي- الذي وافاه بعد احتباسه عنه حتى قال أعداؤه: ودع محمدًا ربه، فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل على ضوء الوحي ونوره بعد ظلمة احتباسه واحتجابه»[(١)].

ومن ذلك قسمه تعالى بالليل، وقد أقسم الله تعالى به في ثمانية مواضع، سبعة منها بإفراد الليل وهي:

﴿وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ۝٣٣﴾ [المدثر:٣٣].

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝١٧﴾ [التكوير:١٧].

﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۝١٧﴾ [الانشقاق:١٧].

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤﴾ [الفجر:٤].

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ۝٤﴾ [الشمس:٤].

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١﴾ [الليل:١].

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾ [الضحى:٢].

وواحد بالجمع وهو قوله تعالى: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾ [الفجر:٢].

«فهو سبحانه يقسم بالليل في جميع أحواله إذ هو من آياته الدالة عليه»[(٢)].

فالليل فيه السكن والمأوى والهدوء والراحة والستر.

ومن ذلك أيضًا قسمه تعالى بالنهار، فقد أقسم بالنهار في موضعين، قال تعالى: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ۝٣﴾ [الشمس:٣].

وقال تعالى: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾ [الليل:٢].

يعني: النهار إذا جلى الظلمة وأضاء الدنيا[(٣)].

ومن ذلك أيضًا قسمه تعالى بالعصر، كما في قوله: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢﴾ [العصر:١-٢].

والعصر: «الزمان الذي يقع فيه حركات بني آدم، من خير وشر»[(٤)]، «فأقسم بالعصر الذي هو زمان أفعال الانسان ومحلها على عاقبة تلك الأفعال وجزائها»[(٥)]، وفيه إشارة إلى ضرورة صرف هذا الوقت في طاعة الله، وإلا فإن ضيع وقته في معصية الله فقد خسر أوقاته، وخسر نفسه معها.

ثانيًا: الثناء على مستثمري الوقت:

ومما يبين اهتمام القرآن الكريم بالوقت وعنايته به: ثناؤه على مستثمريه من العباد والصالحين والدعاة وغيرهم من الطائعين لرب العالمين، والآيات في ذلك كثيرة جدًّا.

(١) التبيان في أقسام القرآن، ابن القيم ص٧٣.
(٢) المصدر السابق ص٥٥.
(٣) انظر: تفسير السمرقندي ٣/ ٥٨٥، معالم التنزيل، البغوي ٨/ ٤٣٥.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٤٨٠.
(٥) التبيان في أقسام القرآن، ابن القيم ص٨٤.



قال الله تعالى في وصفه المحسنين من عباده: ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الذاريات:١٦-١٨].

كابدوا قيام الليل، فلا ينامون من الليل إلا أقله، ونشطوا فمدوا إلى السحر، ثم في السحر أخذوا في الاستغفار(١)، فمدح الله أفعالهم وانتفاعهم بوقتهم.

قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾ [الزمر:٩].

وقوله في مدح صفوته وأحبائه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾﴾ [الفرقان:٦٤].

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران:١٩٠-١٩١].

إنهم يستغلون أوقاتهم على جميع الهيئات قائمين وقاعدين وعلى جنوبهم، ولذلك كانوا أهلًا لاستجابة الله لهم، وإكرامه لهم، ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ [آل عمران:١٩٥].

وأخبر تعالى عن نبيه زكريا عليه السلام: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء:٩٠].

فمدحه تعالى في إسراعه بالخير ودعائه له، وذلك كله من زكريا من حسن تصرفه في وقته وعمارته له.

ثالثًا: توبيخ مضيعي الوقت:

ومما يبين اهتمام القرآن الكريم بالوقت وعنايته به: توبيخه لمضيعيه من الكفرة والعصاة والغافلين عن طاعة رب العالمين، ممن أضاعوا أوقاتهم في اللهو واللعب، والآيات في ذلك كثيرة جدًا.

قال الله تعالى في وصف حال أهل النار: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾ [فاطر:٣٧].

فأخبر تعالى عن صراخهم واستغاثتهم وعويلهم(٢)، يقولون: ربنا أخرجنا من هذه النار لكي نعمل صالحا غير ما كنا نعمل

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٤١٧.

(٢) انظر: تفسير الجلالين ص ٥٧٦.

في دنيانا من قبل، فيقال لهم جوابا على ما طلبوه: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ «والاستفهام تقريع للتوبيخ والتعمير: تطويل العمر، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [البقرة:٩٦]»[١].

والغرض من الاستفهام في قوله: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ توبيخهم في إضاعة أعمارهم وأوقاتهم، وعدم الانتفاع بها.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «أي: أو ما عشتم في الدنيا أعمارا لو كنتم ممن ينتفع بالحق لانتفعتم به في مدة عمركم؟»[٢].

ومن توبيخ القرآن الكريم على إضاعة الوقت، ما ذكره الله تعالى في كثير من الآيات من التعريض بالكفرة لإضاعتهم أوقاتهم في اللعب والخوض في الباطل، وتوعدهم بالعذاب.

قال تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [الزخرف:٨٣].

والمعنى: «فذرهم يخوضوا ويلعبوا أي: اترك الكفار حيث لم يهتدوا بما هديتهم به ولا أجابوك فيما دعوتهم إليه يخوضوا في أباطيلهم، ويلهوا في دنياهم حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون وهو يوم القيامة»[٣]

كما قال تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المعارج:٤٢-٤٤].

قوله تعالى: «﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا﴾ أي: يخوضوا بالأقوال الباطلة، والعقائد الفاسدة، ويلعبوا بدينهم، ويأكلوا ويشربوا، ويتمتعوا ﴿حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ فإن الله قد أعد لهم فيه من النكال والوبال ما هو عاقبة خوضهم ولعبهم.

ثم ذكر حال الخلق حين يلاقون يومهم الذي يوعدون، فقال: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ أي: القبور، ﴿سِرَاعًا﴾ مجيبين لدعوة الداعي، مهطعين إليها ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ أي: كأنهم إلى علم يؤمون ويسرعون أي: فلا يتمكنون من الاستعصاء للداعي، والالتواء لنداء المنادي، بل يأتون أذلاء مقهورين للقيام بين يدي رب العالمين، ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾.

وذلك أن الذلة والقلق قد ملك قلوبهم، واستولى على أفئدتهم، فخشعت

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ٣١٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٥٥٣.

(٣) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٦٤٩.
وانظر: معالم التنزيل، البغوي ٧/ ٢٢٣، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ١٢١، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٧٠.

منهم الأبصار، وسكنت منهم الحركات، وانقطعت الأصوات، فهذه الحال والمآل، هو يومهم ﴿الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ ولا بد من الوفاء بوعد الله»[1].

ثالثًا: المفاضلة بين الأعمال بسبب الوقت:

ومن اهتمام القرآن بالوقت واعتنائه به أنه فاضل بين بعض الأعمال بسبب الوقت والتبكير فيه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ⑩﴾ [الحديد:١٠].

فجعل تعالى النفقة والقتال في سبيله قبل الفتح وهو فتح مكة -وعليه أكثر المفسرين- أو صلح الحديبية، أعظم من نظيريهما مما كان بعد الفتح المذكور[2]، وذلك لعظم موقع نصرة الرسول -صلوات الله وسلامه عليه- بالنفس، وإنفاق المال في تلك الحال وذلك الوقت، وفي المسلمين قلة، وفي الكافرين شوكة وكثرة عدد، فكانت الحاجة إلى النصرة والمعاونة أشد، بخلاف ما بعد الفتح، فإن الإسلام صار في ذلك الوقت قويا، والكفر ضعيفا[3].

وقال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ﴾ [التوبة:١٠٠].

وفي الحديث عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم (لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحدٍ، ذهبًا ما بلغ مد أحدهم، ولا نصيفه)[4].

وفي رواية مسلم عن أبي سعيدٍ رضي الله عنه: قال: كان بين خالد بن الوليد، وبين عبد الرحمن بن عوفٍ شيءٌ، فسبه خالدٌ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تسبوا أحدًا من أصحابي، فإن أحدكم لو أنفق مثل أحدٍ ذهبًا، ما أدرك مد أحدهم، ولا نصيفه)[5].

قال الإمام ابن أبي العز الحنفي: «فالنبي صلى الله عليه وسلم يقول لخالد رضي الله عنه» ونحوه: (لا تسبوا أصحابي)، يعني عبد الرحمن رضي الله عنه وأمثاله، لأن عبد الرحمن ونحوه هم السابقون الأولون،

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٨٨.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ٢٣٩.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٩/ ٤٥٣، محاسن التأويل، القاسمي ٩/ ١٤٣.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: (لو كنت متخذا خليلا)، رقم ٣٦٧٣، ٥/ ٨.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب تحريم سب الصحابة رضي الله عنهم، رقم ٢٥٤١، ٤/ ١٩٦٧.

وهم الذين أسلموا من قبل الفتح وقاتلوا، وهم أهل بيعة الرضوان، فهم أفضل وأخص بصحبته ممن أسلم بعد بيعة الرضوان، وهم الذين أسلموا بعد الحديبية، وبعد مصالحة النبي صلى الله عليه وسلم أهل مكة، ومنهم خالد بن الوليد، وهؤلاء أسبق ممن تأخر إسلامهم إلى فتح مكة، وسموا الطلقاء، منهم أبو سفيان وابناه يزيد ومعاوية. والمقصود أنه نهى من له صحبة آخرًا أن يسب من له صحبة أولًا، لامتيازهم عنهم من الصحبة بما لا يمكن أن يشركوهم فيه، حتى لو أنفق أحدهم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه»[1].

ومن تفضيل الأعمال بالوقت قول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: **(سألت النبي صلى الله عليه وسلم: أي العمل أحب إلى الله؟ قال: (الصلاة على وقتها) قال: ثم أيٌّ؟ قال: (بر الوالدين) قال: ثم أيٌّ؟ قال: (الجهاد في سبيل الله)**[2].

وكقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ثم راح، فكأنما قرب بدنةً[3]، ومن راح في الساعة الثانية، فكأنما قرب بقرةً، ومن راح في الساعة الثالثة، فكأنما قرب كبشًا أقرن، ومن راح في الساعة الرابعة، فكأنما قرب دجاجةً، ومن راح في الساعة الخامسة، فكأنما قرب بيضةً، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر)**[4].

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «قوله: فكأنما «قرب بدنة» أي: تصدق بها متقربا إلى الله وقيل: المراد أن للمبادر في أول ساعة نظير ما لصاحب البدنة من الثواب ممن شرع له القربان؛ لأن القربان لم يشرع لهذه الأمة على الكيفية التي كانت للأمم السالفة»[5].

وهكذا تظهر فضيلة الوقت في مضاعفة ثواب العمل، وفي ذلك حث للمسلم على حفظ الوقت والتبكير فيه.

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز ٢/ ٦٩١.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل الصلاة لوقتها، رقم ٥٢٧، ١/ ١١٢، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال، رقم ٨٥، ١/ ٩٠.

(٣) البدنة: البعير ذكرا كان أو أنثى. انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢/ ٣٦٧.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة، باب فضل الجمعة، رقم ٨٨١، ٢/ ٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الجمعة، باب الطيب والسواك يوم الجمعة، رقم ٨٥٠، ٢/ ٥٨٢.

(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢/ ٣٦٦.

استثمار الوقت

لقد حث القرآن الكريم على استثمار الوقت، واستغلاله الأمثل بالعمل الصالح النافع، وذلك لأن الإسلام دين العمل والجد والإنتاج، لا دين الكسل والنوم، وسنبين من خلال المطلبين التاليين مجالات استثمار الوقت، والتي تتمثل في: عبادة الخالق وعمارة الأرض.

أولًا: عبادة الخالق:

من أشرف الأمور التي يجب على المسلم أن يشغل بها أوقاته ويعمرها به هي عبادته لربه وخالقه الذي خلقه وملك أمره، وبيده رزقه وهدايته ومصيره، فبعبادة العبد لربه يحصل نجاته وفوزه وسعادته، وبدونها يكون من الآبقين الخاسرين في الدنيا والآخرة.

وعمارة الوقت بالعبادة عند العبد اللبيب الذي فقه معنى العبادة تستغرق جميع الوقت، وذلك كما قال ابن قيم الجوزية رحمه الله: «وعمارة الوقت الاشتغال في جميع آنائه بما يقرب إلى الله، أو يعين على ذلك من مأكل أو مشرب، أو منكح، أو منام، أو راحة. فإنه متى أخذها بنية القوة على ما يحبه الله، وتجنب ما يسخطه. كانت من عمارة الوقت، وإن كان له فيها أتم لذة، فلا تحسب عمارة الوقت بهجر اللذات والطيبات، فالمحب الصادق ربما كان سيره القلبي في حال أكله وشربه، وجماع أهله وراحته، أقوى من سيره البدني في بعض الأحيان»[1].

والآيات في الأمر بعمارة الوقت في طاعة الله أكثر من أن تحصى، منها قوله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ۝٨﴾ [الشرح:٧-٨].

وهو أمر من الله لنبيه أصلا وللمؤمنين تبعا[2] إذا فرغ من أمور الدنيا وأشغالها وقطع عنه علائقها، فلينصب في العبادة، ويقوم إليها نشيطا فارغ البال، وأن يخلص لربه النية والرغبة[3].

والنصب: التعب بعد الاجتهاد، والأمر بالنصب في الآية توجيه عام للأخذ بحظ الآخرة بعد الفراغ من عمل الدنيا، كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ۝٧٩﴾ [الإسراء:٧٩].

وقوله: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦﴾ [المزمل:٦].

أي: لأنها وقت الفراغ من عمل النهار وفي سكون الليل، وهكذا يكون وقته كله مشغولا، إما للدنيا وإما للدين، وفي ذلك حل لمشكلة الفراغ التي شغلت العالم حيث

(١) مدارج السالكين، ابن القيم ٢/ ١٧.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٩٢٩.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٤٣٣.

لم تترك للمسلم فراغا في وقته؛ لأنه إما في عمل للدنيا، وإما في عمل للآخرة[1].

ومن الآيات التي تحث على توظيف الوقت وإعماره في تحقيق العبودية لله، قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الأحزاب:٤١-٤٢].

وهي في الإكثار من ذكر الله تعالى وتسبيحه وتعظيمه، وإعمار المؤمن وقته بذلك.

ثانيًا: إعمار الأرض:

من الأمور التي حض القرآن الكريم على استثمار الوقت فيها: عمارة الأرض وإصلاحها.

قال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾ [هود:٦١].

وقد نهى في المقابل عن الفساد في الأرض، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف:٧٤].

قال أبو بكر الجصاص رحمه الله: «وقوله: ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ يعني: أمركم من عمارتها بما تحتاجون إليه وفيه الدلالة على وجوب عمارة الأرض للزراعة والغراس والأبنية»[2].

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله: ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ أي: «جعلكم فيها عمارا تعمرونها وتستغلونها»[3].

وقال السعدي: «﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ﴾ أي: خلقكم فيها ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ أي: استخلفكم فيها، وأنعم عليكم بالنعم الظاهرة والباطنة، ومكنكم في الأرض، تبنون، وتغرسون، وتزرعون، وتحرثون ما شئتم، وتنتفعون بمنافعها، وتستغلون مصالحها، فكما أنه لا شريك له في جميع ذلك، فلا تشركوا به في عبادته. ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ مما صدر منكم، من الكفر، والشرك، والمعاصي، وأقلعوا عنها، ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ أي: ارجعوا إليه بالتوبة النصوح، والإنابة، ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ أي: قريب ممن دعاه دعاء مسألة، أو دعاء عبادة، يجيبه بإعطائه سؤله، وقبول عبادته، وإثابته عليها، أجل الثواب»[4].

وقد وجه النبي صلى الله عليه وسلم أمته إلى عمارة الأرض وإصلاحها في أكثر من حديث، كما جاء عن عائشة رضي الله عنها، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من أعمر أرضًا ليست لأحدٍ فهو أحق)[5].

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٥٧٨، ٥٧٩.

(٢) أحكام القرآن، أبو بكر الجصاص ٣/ ٣١٢.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٣١.

(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٨٤.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «المراد من أعمر أرضا بالإحياء فهو أحق به من غيره وحذف متعلق أحق للعلم به»[1].

وعن سعيد بن زيد رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من أحيا أرضًا ميتةً فهي له)[2].

والأرض الميتة أي: «التي لم تعمر شبهت العمارة بالحياة وتعطيلها بفقد الحياة وإحياء الموات أن يعمد الشخص لأرض لا يعلم تقدم ملك عليها لأحد فيحييها بالسقي أو الزرع أو الغرس أو البناء فتصير بذلك ملكه سواء كانت فيما قرب من العمران أم بعد سواء أذن له الإمام في ذلك أم لم يأذن وهذا قول الجمهور»[3].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما من مسلم يغرس غرسًا، أو يزرع زرعًا، فيأكل منه طيرٌ أو إنسانٌ أو بهيمةٌ، إلا كان له به صدقةٌ)[4].

كما جاء في الحديث عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلةٌ، فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليفعل)[5].

يقول الدكتور وهبة الزحيلي «إن الله سبحانه استخلف البشر في الأرض بقصد عمارة الكون وإنمائه واستغلال كنوزه وثرواته، والناس في ذلك شركاء، والمسلمون ينفذون أمر الله ومقاصده، قال الله تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود:٦١].

والاستعمار: معناه التمكين والتسلط، كما هو واضح من قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝١٠﴾ [الأعراف:١٠].

وقوله عز شأنه: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة:٢٩].

واللام في ﴿لَكُم﴾ تفيد الاختصاص على جهة الانتفاع للمخاطبين، أي: أن ذلك مختص بكم، مما يدل على أن الانتفاع بجميع مخلوقات الأرض، وما فيها من

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥/ ٢٠.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، باب في القيامة، رقم ١٣٧٨، ٣/ ٦٥٤.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٥٩٧٦، ٢/ ١٠٣٦.

(٣) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥/ ١٨.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المزارعة، باب فضل الزرع والغرس إذا أكل منه، رقم ٢٣٢٠، ٣/ ١٠٣، ومسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب فضل الغرس والزرع، رقم ١٥٥٣، ٣/ ١١٨٩.

المزارعة، باب من أحيا أرضا مواتا، رقم ٢٣٣٥، ٣/ ١٠٦.

(٥) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ١٢٩٨١، ٢٠/ ٢٩٦.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٣٠٠، رقم ١٤٢٤.

خيرات مأذون فيه، بل مطلوب شرعًا، واعتبر الفقهاء تعلم أصول الحراثة والزراعة ونحوها مما تتم به المعايش التي بها قوام الدين والدنيا من فروض الكفاية»[1].

(١) الفقه الإسلامي وأدلته، د. وهبة الزحيلي ٨/ ٦٣٨٧.

معوقات استثمار الوقت

في هذا المبحث نذكر بعض المعوقات في استثمار الوقت مما أشار إليه القرآن الكريم، وذلك لخطورتها في إضاعة الوقت وإذهابه، وبالله التوفيق.

أولًا: طول الأمل:

وأول هذه المعوقات وأخطرها على الوقت والانتفاع به: هو طول الأمل، بمعنى «استشعار طول البقاء في الدنيا حتى يغلب على القلب فيأخذ في العمل بمقتضاه»[2].

قال الإمام ابن الجوزي رحمه الله: «طول الأمل، وما من آفة أعظم منه، فإنه لولا طول الأمل، ما وقع إهمال أصلًا، وإنما تقدم المعاصي، وتؤخر التوبة، لطول الأمل، وتبادر الشهوات، وتنسى الإنابة، لطول الأمل»[3].

وقد ذكره الله تعالى في صفات أهل الكفر والشرك، قال تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾ [الحجر:٣].

فبين تعالى حالهم في غفلتهم وإضاعتهم لأوقاتهم في الباطل والشهوات، وأن من أسباب ذلك طول أملهم في البقاء في الدنيا

(٢) منتهى السول على وسائل الوصول إلى شمائل الرسول، عبد الله اللحجي ٢/ ٣٧٩.
(٣) صيد الخاطر، ابن الجوزي ص٢٠٦.

وانشغالهم بها، فيلهيهم ذلك عن الآخرة[1]، ولا يزالون في الآمال الفارغة والتمنيات الباطلة في عدم بعثهم وحسابهم حتى يأتيهم أجلهم ويروا من الله ما يوعدون.[2]

كما بين تعالى أن المشركين لطول أمل الواحد منهم يود لو عاش ألف سنة، وذلك من حرصه على الحياة الدنيا، وعدم إيمانه بغيرها، فيتمنى لو عاش هذا الوقت ليزداد من الدنيا نعيما، قال تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [البقرة:٩٦].

والسبب في طول الأمل عند هؤلاء، واغترارهم به عدم رجائهم للقاء الله وحسابه، وقد أشار الله تعالى إلى ذلك في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾﴾ [يونس:٧].

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾﴾ [النبأ:٢٧].

ولو علموا يقينا أنهم محاسبون، وبين يدي الله موقوفون، وأن أعمارهم بيد الله متى شاء أنهاها وقبض أرواحهم، وأن طول العمر -ولو بلغ ما بلغ- مع سوء العمل لا ينفعهم شيئا، لما اغتروا بذلك.

قال ابن قدامة: «واعلم: أن السبب في طول الأمل شيئان: أحدهما: حب الدنيا، والثاني: الجهل.

أما حب الدنيا فإن الإنسان إذا أنس بها وبشهواتها ولذاتها وعلائقها، ثقل على قلبه مفارقتها، فامتنع قلبه من الفكر في الموت الذي هو سبب مفارقتها، وكل من ذكره شيئًا دفعه عن نفسه، والإنسان مشغول بالأماني الباطلة، فيمني نفسه أبدًا بما يوافق مراده من البقاء في الدنيا، وما يحتاج إليه من مال وأهل ومسكن وأصدقاء وسائر أسباب الدنيا، فيصير قلبه عاكفًا على هذا الفكر، فيلهو عن ذكر الموت، ولا يقدر قربه. فإن خطر له الموت في بعض الأحوال والحاجة إلى الاستعداد له، سوف بذلك ووعد نفسه، وقال: الأيام بين يديك إلى أن تكبر ثم تتوب. وإذا كبر قال: إلى أن تصير شيخًا، وإن صار شيخًا، قال: إلى أن يفرغ من بناء هذه الدار، وعمارة هذه الضيعة، أو يرجع من هذه السفرة.

فلا يزال يسوف ويؤخر، ولا يحرص في إتمام شغل إلا ويتعلق بإتمام ذلك الشغل عشرة أشغال، وهكذا على التدريج يؤخر يومًا بعد يوم، ويشتغل بشغل بعد شغل، إلى أن تختطفه المنية في وقت لا يحتسبه، فتطول عند ذلك حسرته.

السبب الثاني: الجهل، وهو أن الإنسان

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٢٩.

(٢) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ١٤٦.

يعول على شبابه، ويستبعد قرب الموت مع الشباب وأصل هذه الأماني كلها، حب الدنيا والأنس بها، ولو تفكر وعلم أن الموت ليس له وقت مخصوص، من صيف وشتاء وربيع وخريف وليل ونهار، ولا هو مقيد بسن مخصوص، من شاب وشيخ أو كهل أو غيره، لعظم ذلك عنده واستعد للموت»[(١)].

ثانيًا: الجهل بقيمة الوقت:

ومن أعظم أسباب إضاعة الوقت الجهل بقيمته، ولو فكر الإنسان في أن ما مضى من الوقت لن يعود ولا يعوض، لاغتنم كل لحظة من عمره فيما يعود عليه بالنفع عاجلا وآجلا، وقد قال الله تعالى في حق المال: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ [النساء:٥].

وذلك لأن السفيه لا يعرف قيمة المال، ولا يحسن التصرف فيه فيضيعه، فمن لم يعرف قيمة الشيء تهاون فيه وضيعه، وأما الوقت فما أكثر السفهاء في حقه، من الذين يضيعون أعمارهم وأوقاتهم في الباطل واللهو واللعب وتفاهات الأمور، ومن هؤلاء الجاهلين لقيمة الوقت، المضيعين له، أهل الكفر والشرك.

قال تعالى: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾﴾ [المؤمنون:١١٢-١١٤].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «يقول تعالى منبها لهم على ما أضاعوه في عمرهم القصير في الدنيا من طاعة الله تعالى وعبادته وحده كم كانت إقامتكم في الدنيا؟ ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ﴾ أي: الحاسبين، ﴿قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: مدة يسيرة على كل تقدير ﴿لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: لما آثرتم الفاني على الباقي، ولما تصرفتم لأنفسكم هذا التصرف السيئ، ولا استحققتم من الله سخطه في تلك المدة اليسيرة، ولو أنكم صبرتم على طاعة الله وعبادته-كما فعل المؤمنون-لفزتم كما فازوا»[(٢)].

إن من أسباب إهدار الكفار لأوقاتهم وعدم مبالاتهم بها هو جهلهم بقيمة هذه الحياة، وأنها دار ممر لا دار مقر، دار عمل وجدٍ ليوم الحساب لا دار لهو ولعب، ولذلك جاء بعد تلك الآيات قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون:١١٥].

«أي: تعاظم وارتفع عن هذا الظن الباطل، الذي يرجع إلى القدح في حكمته»[(٣)].

ويوضح الفرق بين وعي أهل الإيمان والعلم حول خطورة الوقت، وبين غيرهم،

(١) مختصر منهاج القاصدين، ابن قدامة المقدسي ص٣٨٦.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٥٠٠.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٦٠.

هذا المشهد القرآني الذي جاء في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ۝٥٥ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٥٦ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ۝٥٧﴾ [الروم:٥٥-٥٧].

فبين تعالى أن أهل الكفر والإجرام في حقه إذا حشروا يوم القيامة فإنهم يستقلون وقت مكثهم في الدنيا، حتى كأنه قدر ساعة عندهم[1].

وأما أهل الإيمان والعلم فيعلمون أنهم مكثوا في ذلك أعمارهم التي كتب الله لهم، إلى أن بعثهم الله ليوم الحساب، ولذلك ينكرون على أهل الكفر مقالتهم، ويبينون لهم أن سببها جهلهم بقيمة أعمارهم، وعدم إيمانهم بيوم الحساب.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «يخبر الله تعالى عن جهل الكفار في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا فعلوا ما فعلوا من عبادة الأصنام، وفي الآخرة يكون منهم جهل عظيم أيضًا، فمنه إقسامهم بالله أنهم ما لبثوا في الدنيا إلا ساعة واحدة، ومقصودهم بذلك عدم قيام الحجة عليهم، وأنهم لم ينظروا حتى يعذر إليهم»[2].

وهكذا يظهر في هذا الموقف العصيب جهل أهل الكفر بحقائق الأمور، وهو جهل ناتج عن كفرهم بما جاءت به الرسل عليهم السلام من الإيمان بالبعث، حتى صار ذلك اعتقادًا راسخًا في قلوبهم، كما قال تعالى في الآية: ﴿وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: «وقوعه في الدنيا فلا ينفعكم العلم به الآن»[3]، فالاستدراك في الآية استدراك على ما تضمنته جملة ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾[4].

وهكذا تظهر خطورة الجهل بقيمة الوقت في تضييعه وعدم الانتفاع به، فأهل الكفر والطغيان لم يعلموا قيمة حياتهم في هذه الدنيا فضيعوها هباءً منثورًا.

ثالثًا: ضعف الإرادة والعزيمة:

من أهم أسباب استغلال الوقت والانتفاع به وجود الإرادة القوية والعزيمة الصادقة، وبدونهما يضيع الوقت هباء منثورا، وكلما قويت إرادة العبد واشتدت عزيمته كلما استثمر أكبر قدر من الوقت، والعكس صحيح، فكلما ضعفت هذه الإرادة وقلت العزيمة كلما ضاعت الأوقات سدى.

وقد أشار الله تعالى إلى لزوم تحقق

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ١٥٧.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣٢٨.

(٣) تفسير البسيط، الواحدي ١٨/ ٨٦.

(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ١٣٢.

الإرادة في الانتفاع بالوقت.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ [الفرقان:٦٢].

فأخبر تعالى أنه جعل الليل والنهار «متعاقبين يخلف أحدهما الآخر»[١]، لمن يريد أن يتذكر بهما ويعتبر، ولما يحدثه تعاقبهما من النشاط والذكر، وإذهاب الملالة التي قد تصاحب العبادة إذا لم يتغير الزمان، فكلما تكررت الأوقات واختلفت تجدد في النفس النشاط والقوة على العبادة من جديد[٢]، وقد خص الله الانتفاع بذلك لمن كانت لديه إرادة قوية، وعزيمة صادقة، أو رغبة في شكر الخالق تعالى.

كما ذكر تعالى مثالًا عمليًا في إضاعة الوقت بسبب ضعف الإرادة أو عدم وجودها بالكلية، قال تعالى عن المتخلفين من المنافقين عن الجهاد مع النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [التوبة:٤٦].

أي: لو كانوا صادقين فيما يدعونه -ويخبرونك به- من أنهم يريدون الجهاد معك، لما تركوا إعداد العدة، وتحصيلها قبل وقت الجهاد كما يستعد لذلك المؤمنون[٣].

ولكنهم لم يريدوا الخروج إلى الغزو، وهذا تكذيب لزعمهم أنهم تهيؤوا للغزو ثم عرضت لهم الأعذار فاستأذنوا في القعود؛ لأن عدم إعدادهم العدة للجهاد دل على انتفاء إرادتهم الخروج إلى الغزو[٤].

وهكذا أضاع هؤلاء المتخلفون فرصة الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقضاء الوقت في ذلك العمل العظيم، بسبب عدم تحقق إرادتهم في ذلك.

كما ذكر تعالى أيضًا مثالا آخر لاستثمار الوقت والانتفاع به بسبب صحة الإرادة وقوتها، قال تعالى مخاطبا نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام:٥٢].

وقوله: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف:٢٨].

فبين تعالى أنهم يريدون وجه الله ورضاه، فلذلك يدعونه ويستثمرون أوقاتهم صباحا ومساءً في الطاعات.

رابعًا: نسيان الآخرة:

من أهم معوقات استثمار الوقت نسيان

---

(١) تفسير المراغي ١٩/ ٣٣.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٨٦.

(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٤١٨.

(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ٢١٤.

الآخرة وما أعده الله تعالى فيها من النعيم المقيم لمن أطاعه والتزم أوامره، وما توعد به من العذاب الأليم الدائم لمن عصاه وخالف أوامره، فيترك العبد العمل لها، ويضيع أوقاته في الشهوات والملهيات، كما قال تعالى في وصف حال الكفار: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الأعراف:٥١].

فوصف الله تعالى حالهم في اتخاذهم الدين لهوا ولعبا، واغترارهم بالدنيا وزينتها وزخرفها عما أمروا به من العمل للدار الآخرة، ثم أخبر تعالى بأن عقابهم يكون من جنس عملهم، فكما نسوا الآخرة وغفلوا عنها، فسيعاملهم معاملة من ينساهم، ويتركهم في العذاب[1].

وكما وصف الله تعالى حال أهل الغفلة من خلقه فقال: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء:١-٣].

فبين تعالى حالهم في لهوهم ولعبهم وإضاعتهم أوقاتهم بسبب غفلتهم عن حسابهم ونسيان آخرتهم، قال الإمام الطبري رحمه الله: «يقول تعالى ذكره: دنا حساب الناس على أعمالهم التي عملوها في دنياهم ونعمهم التي أنعمها عليهم فيها في أبدانهم، وأجسامهم، ومطاعمهم، ومشاربهم، وملابسهم وغير ذلك من نعمه عندهم، ومسألته إياهم ماذا عملوا فيها، وهل أطاعوه فيها، فانتهوا إلى أمره ونهيه في جميعها، أم عصوه فخالفوا أمره فيها؟

﴿وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ يقول: وهم في الدنيا عما الله فاعل بهم من ذلك يوم القيامة، وعن دنو محاسبته إياهم منهم، واقترابه لهم في سهو وغفلة، وقد أعرضوا عن ذلك، فتركوا الفكر فيه، والاستعداد له، والتأهب، جهلا منهم بما هم لاقوه عند ذلك من عظيم البلاء، وشديد الأهوال»[2].

وقال الحافظ ابن كثير: «هذا تنبيه من الله عز وجل، على اقتراب الساعة ودنوها، وأن الناس في غفلة عنها، أي: لا يعملون لها، ولا يستعدون من أجلها»[3].

وقد أخبرنا المولى تعالى عن قصة صاحب الجنتين، الذي حمله الغرور بالدنيا وانغماسه في متاعها على الغفلة عن البعث ونسيانه، وبذلك استحق سخط الله وأليم عقابه.

قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٢٤.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٤٠٩.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٣٣١.

﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾ [الكهف:٣٥-٣٦].

والمعنى: «هذا الذي جعلنا له جنتين من أعناب ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ﴾ وهي بستانه ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ وظلمه نفسه: كفره بالبعث، وشكه في قيام الساعة، ونسيانه المعاد إلى الله تعالى، فأوجب لها بذلك سخط الله وأليم عقابه، وقوله: ﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾ أي: قال لما عاين جنته، ورآها وما فيها من الأشجار والثمار والزروع والأنهار المطردة شكًا في المعاد إلى الله: ما أظن أن تبيد هذه الجنة أبدا، ولا تفنى ولا تخرب، وما أظن الساعة التي وعد الله خلقه الحشر فيها تقوم فتحدث، ثم تمنى أمنية أخرى على شك منه، فقال: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى﴾ فرجعت إليه، وهو غير موقن أنه راجع إليه ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ يقول: لأجدن خيرًا من جنتي هذه عند الله إن رددت إليه مرجعا ومردًا»[1].

وقد بين الله تعالى بعض الملهيات التي تنسي الدار الآخرة والاستعداد لها.

قال تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾﴾ [التكاثر:١-٢].

أي: «شغلتكم المباهاة والمفاخرة بكثرة المال والعدد عن طاعة ربكم وما ينجيكم من سخطه»[2]، «وقيل ألهاكم: أنساكم»[3].

قال الإمام ابن قيم الجوزية: «ولم يعين سبحانه المتكاثر به بل ترك ذكره، إما لأن المذموم هو نفس التكاثر بالشيء لا المتكاثر به، كما يقال: شغلك اللعب واللهو. ولم يذكر ما يلعب ويلهو به، وإما إرادة الإطلاق وهو كل ما تكاثر به العبد غيره من أسباب الدنيا من مال أو جاه أو عبيد أو إماء أو بناء أو غراس أو علم لا يبتغي به وجه الله أو عمل لا يقربه إلى الله فكل هذا من التكاثر الملهي عن الله والدار الآخرة»[4].

وقال ابن كثير: يقول تعالى: شغلكم حب الدنيا ونعيمها وزهرتها عن طلب الآخرة وابتغائها، وتمادى بكم ذلك حتى جاءكم الموت وزرتم المقابر، وصرتم من أهلها؟![5]، وكما في قوله تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾ [الحجر:٣].

وقد تقدم الكلام عليه، وكما حذر تعالى عباده المؤمنين من ذلك كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [المنافقون:٩].

(١) جامع البيان، الطبري، بتصرف يسير ١٨/ ٢٢.

(٢) معالم التنزيل، البغوي ٨/ ٥١٥

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٠/ ١٦٨..

(٤) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، ابن القيم ص١٨٣.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٤٧٢.

وهو في نهي المؤمنين عن التشبه بالمنافقين، أي: لا تشغلكم أموالكم التي تعتنون بجمعها وتحصيلها، ولا أولادكم الذين هم أشهى ثمرات حياتكم، لا يشغلكم ذلك عن أداء ما كلفكم سبحانه بأدائه من طاعات، وخص الأموال والأولاد بتوجه النهي عن الاشتغال بهما اشتغالًا يلهي عن ذكر الله، لأنهما أكثر الأشياء التي تلهي عن طاعة الله تعالى[1].

الوقت في الأحكام الشرعية

اعتنت الشريعة الإسلامية عناية كبيرة بالوقت، حيث ربطت بين العديد من التشريعات والوقت، كما حرصت على غرس مفهوم العناية بالوقت، وتثبيته في نفوس المؤمنين، وعلى تربيتهم على مراقبة الوقت وحفظه، وبذلك تثمر الشريعة الإسلامية والالتزام بها أجيالا صالحة على مر القرون حتى يرث الله الأرض ومن عليها، تتصف بأكبر قدر من المسؤولية والانضباط، ولا تعرف للكسل والبلادة والفوضى والعشوائية طريقا.

وفي النقاط الآتية سنذكر بعض الشواهد التي تدل على الارتباط الوثيق بين الوقت والكثير من التشريعات المختلفة في مجال العبادات، والكفارات، والمعاملات، وأحكام الأسرة، والآداب، والأذكار، والأدعية.

أولًا: العبادات:

ارتبطت العديد من العبادات بالوقت، وسيتحدث في هذا المطلب عن بعض العبادات التي ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالوقت.

١ . الصلاة.

وهي من أعظم الأمور التي تضبط للمؤمن وقته وتنظمه، وقد افترض الله تعالى على المؤمن خمس صلوات في

(١) انظر: الوسيط، محمد سيد طنطاوي ١٤/ ٤١٣.

اليوم والليلة، تبدأ بصلاة الفجر، وفيه تعويد للمؤمن على الجد والنشاط، والاهتمام بوقت الصباح، وهو وقت مبارك، كما جاء في الحديث، عن صخر الغامدي، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اللهم بارك لأمتي في بكورها)[1].

ثم تأتي صلاة الظهر ثم العصر في وسط اليوم ثم المغرب ثم العشاء في آخر اليوم.

قال تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الروم:١٧-١٨].

ذهب جماعة من المفسرين إلى أن «المراد بالتسبيح في هذه الآية الصلاة، وأشار بقوله: ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾ إلى صلاة المغرب والعشاء، وبقوله: ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ إلى صلاة الصبح، وبقوله: ﴿وَعَشِيًّا﴾ إلى صلاة العصر، وبقوله: ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ إلى صلاة الظهر»[2].

وفي هذه الصلوات تنبيه للمؤمن في كل حين، وإيقاظ لحسه بالوقت وساعاته، ثم إن فيها تدريبًا له على الانضباط به، وذلك لأن هذه الصلوات لها أوقاتًا محددة مضبوطة لا يجوز تقديمها أو تأخيرها عنها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ [النساء:١٠٣].

أي: مفروضة في وقتها، لا تصح إلا به[3]، وقال سبحانه: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ [البقرة:٢٣٨].

وقال ناهيًا عن إضاعتها، ومتوعدًا من تهاون فيها: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾﴾ [مريم:٥٩].

وقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾﴾ [الماعون:٤-٥].

وفي الحديث عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: (سألت النبي صلى الله عليه وسلم: أي العمل أحب إلى الله؟ قال: (الصلاة على وقتها) قال: ثم أيٌّ؟ قال: (بر الوالدين) قال: ثم أيٌّ؟ قال: (الجهاد في سبيل الله)[4].

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب البيوع، باب ما جاء في التبكير بالتجارة، رقم ١٢١٢، ٣/ ٥٠٩.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ١٢٩٦، ١/ ٢٧٨.

(٢) أضواء البيان، الشنقيطي ١/ ٢٨٠.
وانظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٨٣، معاني القرآن، الفراء ٢/ ٣٢٣، تفسير السمرقندي ٣/ ٨.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٩٨.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل الصلاة لوقتها، رقم ٥٢٧، ١/ ١١٢، ومسلم في صحيحه، كتاب

٢. الزكاة.

قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦٠ ﴾ [التوبة: ٦٠].

وقد بينت السنة وجوب الزكاة في المال الذي بلغ النصاب، وحال عليه الحول، وأنه ليس في مالٍ زكاةٌ حتى يحول عليه الحول.

عن علي رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (فإذا كانت لك مائتا درهمٍ، وحال عليها الحول، ففيها خمسة دراهم، وليس عليك شيءٌ - يعني - في الذهب حتى يكون لك عشرون دينارًا، فإذا كان لك عشرون دينارًا، وحال عليها الحول، ففيها نصف دينارٍ، فما زاد، فبحساب ذلك)[١].

أما الزروع فتخرج زكاتها وقت الحصاد قال تعالى: ﴿ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾ [الأنعام: ١٤١].

قال السعدي رحمه الله: «أمرهم أن يعطوها يوم حصادها، وذلك لأن حصاد الزرع بمنزلة حولان الحول، لأنه الوقت الذي تتشوف إليه نفوس الفقراء، ويسهل حينئذ إخراجه على أهل الزرع، ويكون الأمر فيها ظاهرًا لمن أخرجها، حتى يتميز المخرج ممن لا يخرج»[٢].

وهكذا يراقب المؤمن الوقت في زكاته، فإذا حان وقت الحصاد أدى زكاة زروعه، وإذا حال الحول على أمواله إذا كانت من أصناف الزكاة، دفع زكاته منها.

أما زكاة الفطر فقد ورد ذكرها في حديث عبدالله بن عمر: (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فرض زكاة الفطر من رمضان صاعًا من تمرٍ، أو صاعًا من شعيرٍ، على كل حرٍ أو عبدٍ ذكرٍ أو أنثى من المسلمين)[٣].

وبينت السنة وقت زكاة الفطر، وأنها تؤدى قبل صلاة العيد كما جاء عن ابن عمر رضي الله عنهما: (أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بزكاة الفطر قبل خروج الناس إلى الصلاة)[٤].

الإيمان، باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال، رقم ٨٥، ١/ ٩٠.

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الزكاة، باب في زكاة السائمة، رقم ١٥٧٣، ٢/ ١٠٠.
وصححه الألباني في صحيح أبي داود، الأم، ٥/ ٢٩١.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٧٦.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ٩/ ٢٤٣.
وصححه الألباني في كتابه الإرواء ٣/ ٢١٤.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب الصدقة قبل العيد، رقم ١٥٠٩، ٢/ ١٣١، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب الأمر بإخراج زكاة الفطر قبل الصلاة، رقم ٩٨٦، ٢/ ٦٧٩.

٣. الصيام.

وقد بين الله تعالى وقته الواجب من كل عام وهو شهر رمضان، فقال عز وجل: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة:١٨٥].

وبين النبي صلى الله عليه وسلم علامة بدء هذا الشهر المبارك بظهور الهلال، كما في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته، فإن غبي[(١)] عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين)[(٢)].

كما بين تعالى وقت الصيام المحدد من كل يوم من أيام الشهر فقال سبحانه: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ [البقرة:١٨٧].

أي: أباح تعالى للمؤمنين الأكل والشرب، في أي وقت من الليل إلى أن يتبين ضياء الصباح من سواد الليل[(٣)]، وهو وقت أذان الفجر، فيمسك الصائم من أذان الفجر إلى وقت أذان المغرب، عند غروب الشمس، وهكذا يظل الصائم يراقب الوقت في إمساكه وإفطاره، وأيضًا فقد بينت السنة الأوقات المستحبة في الصيام، كصيام ستة أيام من شوال، ويوم عرفة، ويوم عاشوراء، ويومي الإثنين والخميس، وغير ذلك مما يستدعي مراقبة الوقت والسؤال عنه.

٤. الحج.

قال تعالى: ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ [البقرة:١٨٩].

كما بين تعالى أن للحج أوقات معينة معلومة لا يؤدى الحج في غيرها، قال تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ [البقرة:١٩٧].

«وهي شوال وذو القعدة وعشر ليال من ذي الحجة، وقيل: كله»[(٤)].

والاقتصار على الحج دون العمرة في الآيتين، لأن العمرة لا وقت لها في فعلها، فلهذا لم يذكرها في الآية[(٥)].

وهكذا يظل المؤمن في متابعة لأشهر العام، هذا شهر الصيام وذاك شهر الحج، وهكذا.

---

(١) قوله صلى الله عليه وسلم: (فإن غَبِيَ عليكم). أي: خفي. وأخرجه بعضهم (غُبِّيَ) بضم الغين وتشديد الباء المكسورة، لما لم يسم فاعله، من الغباء: شبه الغبرة في السماء. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٣/ ٣٤٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: (إذا رأيتم الهلال فصوموا، وإذا رأيتموه فأفطروا)، رقم ١٩٠٩، ٣/ ٢٧، ومسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب وجوب صوم رمضان لرؤية الهلال، رقم ١٠٨١، ٢/ ٧٦٢.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٥١٢.

(٤) تفسير الجلالين، المحلي والسيوطي ص٤٢.

(٥) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ١٩٦.

ثانيًا: الكفارات:

ارتبطت العديد من الكفارات بالوقت، ومن هذه الكفارات التي ارتبطت بالوقت:

١. كفارة اليمين.

ومن اعتبار الوقت في الكفارات ما جاء في كفارة اليمين في قوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ ۖ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المائدة:٨٩].

فبين تعالى أن كفارة اليمين المنعقدة الموثقة بالقصد والنية إذا حنث صاحبها فيها تكون بإحدى ثلاثة أمور على التخيير بينها، وهي إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم من أوسط ما يطعم الحانث في يمينه أهله، والمراد بالوسط هنا: المتوسط بين طرفي الإسراف والتقتير، أو أن يعتق رقبة، ثم بين تعالى ما ينبغي فعله على الحانث الذي لم يجد شيئا من الأمور المذكورة، وأنه يصوم ثلاثة أيام، فيكون صيامه كفارة لحنثه في اليمين، وقد اختلف العلماء في صيام هذه الثلاثة أيام في كفارة اليمين، هل يكون متتابعًا أم متفرقًا، على قولين في ذلك[1]، وكل ذلك مما يشهد لاعتبار الوقت في أمر الكفارات وانضباطها به.

٢. كفارة القتل.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾﴾ [النساء:٩٢].

وقوله: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا﴾ هذان واجبان في قتل الخطأ:

أحدهما: الكفارة لما ارتكبه من الذنب العظيم، وإن كان خطأ، ومن شرطها أن تكون عتق رقبة مؤمنة فلا تجزئ الكافرة.

وقوله: ﴿وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾ هو الواجب الثاني فيما بين القاتل وأهل القتيل، عوضا لهم عما فاتهم من قريبهم.

وقوله: ﴿إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا﴾ أي: فتجب فيه الدية مسلمة إلى أهله إلا أن يتصدقوا بها فلا تجب.

وقوله: ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾

---

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٨٢-٨٣.

أي: إذا كان القتيل مؤمنا، ولكن أولياؤه من الكفار أهل حرب، فلا دية لهم، وعلى القاتل تحرير رقبة مؤمنة لا غير.

وقوله: ﴿وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ أي: فإن كان القتيل أولياؤه أهل ذمة أو هدنة، فلهم دية قتيلهم، فإن كان مؤمنا فدية كاملة، وكذا إن كان كافرًا أيضًا عند طائفة من العلماء. ويجب أيضًا على القاتل تحرير رقبة مؤمنة.

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ أي: لا إفطار بينهما، بل يسرد صومهما إلى آخرهما، فإن أفطر من غير عذر، من مرض أو حيض أو نفاس، استأنف.

وقوله: ﴿تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي: هذه توبة القاتل خطأ إذا لم يجد العتق صام شهرين متتابعين[1].

٣. كفارة الظهار.

قال تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ④﴾ [المجادلة:٤].

«عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ [المجادلة:٣].

فهو الرجل يقول لامرأته: أنت علي كظهر أمي، فإذا قال ذلك، فليس يحل له أن يقربها بنكاح ولا غيره حتى يكفر عن يمينه بعتق رقبة، ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا﴾ والمس: النكاح، ﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾»[2]

ثالثًا: المعاملات:

ارتبطت العديد من المعاملات بالوقت، وسوف نذكر نماذج من هذه المعاملات التي ارتبطت بالوقت.

١. الدين.

بين تعالى أحكام الدين في آية الدين، وهي أطول آية في القرآن، وبين فيها اعتبار الوقت في الدين وضبطه به، قال جل وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾ [البقرة:٢٨٢].

فأمر الله تعالى المؤمنين إذا داين بعضهم بعضا إلى موعد «محدود بالأيام والشهور والسنة ونحوها مما يفيد العلم، لا بالحصاد وقدوم الحاج مما فيه جهالة»[3]، فأمرهم تعالى في هذه «الحقوق المؤجلة بالكتابة والإشهاد، حفظا منه للأموال»[4]، وحتى لا

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٧٤- ٣٧٦.

(٢) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٢٣١.

(٣) تفسير المراغي ٣/ ٧٠.

(٤) التفسير البسيط، الواحدي ٤/ ٤٨٥.

يقع فيه الشك والاختلاف والإنكار، كما بين تعالى ذلك في قوله: ﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ﴾ [البقرة:٢٨٢].

وفي كتابة الدين وتوقيته بأجل معين إلزام للمدين بأدائه، وهكذا يظل المؤمن في مراقبة للوقت، سواء أكان دائنا لاستيفاء حقه، أو مدينا لأداء ما عليه.

٢. الإجارات.

وهي من الأمور التي يعتبر فيها الوقت، بل هو من شروط صحتها عند الفقهاء، فالإجارة في الشرع هي: عقد على تمليك المنفعة بعوض[1]، يتفق عليه الطرفان في عقد الإجارة: المؤجر والمستأجر، وقد اشترط الفقهاء لصحة عقد الإجارة شروطا، منها أن يبين فيه مدة الإجارة كشهر أو سنة أو أكثر أو أقل[2]، وذلك «لأن المعقود عليه لا يصير معلوم القدر بدونه، فترك بيانه يفضي إلى المنازعة»[3].

ومما يدلل على ارتباط الإجارة بالوقت ما ذكره الله تعالى في كتابه في قصة موسى عليه السلام مع صاحب مدين[4].

قال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٢٧﴾ [القصص:٢٧].

أي: قال صاحب مدين وهو «أبو المرأتين اللتين سقى لهما موسى: إني أريد أن أزوجك إحدى ابنتي الحاضرتين أمامك، فانظر من يقع اختيارك عليها منهما، على أن تكون أجيرًا لي ثماني سنوات ترعى لي فيها غنمي، فإن أتممت الثماني السنين التي شرطتها عليك فجعلتها عشرا فإحسان من عندك، وما أحب أن أشاقك بمناقشة أو مراعاة أوقات ولا إتمام عشر ولا غير ذلك، وإنك ستجدني إن شاء الله ممن تحسن صحبتهم ويوفون بما تريد من خير لك ولنا»[5].

---

(١) انظر: التعريفات، الجرجاني ص١٠، أنيس الفقهاء، القونوي ص٩٦.
(٢) انظر: فقه السنة، سيد سابق ٣/ ١٨١.
(٣) الفقه الإسلامي وأدلته، وهبة الزحيلي ٥/ ٣٨٠٩.
(٤) اختلف المفسرون فيه من هو؟ على أقوال، فمنهم من قال: إنه شعيب النبي عليه السلام الذي أرسل إلى أهل مدين، وهذا هو المشهور عند كثيرين، وقيل: هو رجل مؤمن من قوم شعيب. قال الحافظ ابن كثير: من المقوي لكونه ليس بشعيب أنه لو كان إياه لأوشك أن ينص على اسمه في القرآن هاهنا. وما جاء في بعض الأحاديث من التصريح بذكره في قصة موسى لم يصح إسناده، والله أعلم.
انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٢٨- ٢٢٩.
(٥) تفسير المراغي ٢٠/ ٥٢.

٣. المواثيق والعهود.

أمر الله تعالى بالوفاء بالعهود والالتزام بها.

قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء:٣٤].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة:١].

«والعقود: العهود، وأصل العقود الربوط، واحدها عقد، يقال: عقدت الحبل والعهد، فهو يستعمل في الأجسام والمعاني، وإذا استعمل في المعاني كما هنا أفاد أنه شديد الإحكام، قوي التوثيق قيل: المراد بالعقود هي التي عقدها الله على عباده، وألزمهم بها من الأحكام وقيل: هي العقود التي يعقدونها بينهم من عقود المعاملات، والأولى شمول الآية للأمرين جميعا، ولا وجه لتخصيص بعضها دون بعض»[(١)].

قال أبو السعود: «والمراد بالعقود ما يعم جميع ما ألزمه الله تعالى عباده وعقده عليهم من التكاليف والأحكام الدينية وما يعقدونه فيما بينهم من عقود الأمانات والمعاملات ونحوها مما يجب الوفاء به»[(٢)].

وقال السعدي: «هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين بما يقتضيه الإيمان بالوفاء بالعقود، أي: بإكمالها، وإتمامها، وعدم نقضها ونقصها. وهذا شامل للعقود التي بين العبد وبين ربه، من التزام عبوديته، والقيام بها أتم قيام، وعدم الانتقاص من حقوقها شيئا، والتي بينه وبين الرسول بطاعته واتباعه، والتي بينه وبين الوالدين والأقارب، ببرهم وصلتهم، وعدم قطيعتهم. والتي بينه وبين أصحابه من القيام بحقوق الصحبة في الغنى والفقر، واليسر والعسر، والتي بينه وبين الخلق من عقود المعاملات، كالبيع والإجارة، ونحوهما، وعقود التبرعات كالهبة ونحوها.

بل والقيام بحقوق المسلمين التي عقدها الله بينهم في قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات:١٠] بالتناصر على الحق، والتعاون عليه والتآلف بين المسلمين وعدم التقاطع. فهذا الأمر شامل لأصول الدين وفروعه، فكلها داخلة في العقود التي أمر الله بالقيام بها»[(٣)].

ويكون الوقت ملزمًا في العهود التي يلزم المتعاهد نفسه بأدائها في وقت معين، كما جاء في قصة موسى مع صاحب مدين، فقد وفى موسى لصاحب مدين في ما عاهده به من الرعي طيلة المدة التي طلبها منه في ذلك، بل وزاد عليها، كما بين ذلك تعالى في قوله: ﴿قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ

(١) فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٦.
(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٣/ ٢.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢١٨.

﴿وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾ [القصص:٢٨].

وهو إخبار عن موسى، أنه قال لصهره صاحب مدين: الأمر على ما قلت من أنك استأجرتني على ثماني سنين، فإن أتممت عشرا فمن عندي، فأنا متى فعلت أقلهما فقد برئت من العهد، وخرجت من الشرط؛ وقد فعل موسى أكمل الأجلين وأتمهما[1]، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا﴾ [القصص:٢٩].

وسئل ابن عباس رضي الله عنهما: أي الأجلين قضى موسى؟ فقال: «قضى أكثرهما وأطيبهما، إن رسول الله إذا قال فعل»[2]، وهكذا نلحظ في وفاء موسى للعهد اعتبار الوقت، وهكذا يلاحظ المسلم الوقت ويراقبه في عهوده حتى لا يؤخر أدائها عن وقتها، أو يتخلف في ذلك.

إن الوفاء بالعهود والمواثيق إلى مدتها واجب حتي مع الكفار والأعداء.

قال تعالى: ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾ [التوبة:٣-٤].

رابعًا: أحكام الأسرة:

١. العِدَد.

ومنها: عدة المطلقة.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ [الطلاق:١].

قال السعدي رحمه الله: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾: «أي: لأجل عدتهن، بأن يطلقها زوجها وهي طاهر في طهر لم يجامعها فيه، فهذا الطلاق هو الذي تكون العدة فيه واضحة بينة، بخلاف ما لو طلقها وهي حائض، فإنها لا تحتسب تلك الحيضة، التي وقع فيها الطلاق، وتطول عليها العدة بسبب ذلك، وكذلك لو طلقها في طهر وطئ فيه، فإنه لا يؤمن حملها، فلا يتبين ولا يتضح بأي عدة تعتد، وأمر تعالى بإحصاء العدة، أي: ضبطها بالحيض إن كانت تحيض، أو بالأشهر إن لم تكن تحيض، وليست حاملا فإن في إحصائها أداء لحق الله، وحق الزوج المطلق، وحق من سيتزوجها بعد، وحقها في النفقة ونحوها، فإذا ضبطت عدتها، علمت حالها على بصيرة، وعلم ما يترتب

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٣٠.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب من أمر بإنجاز الوعد، رقم ٢٦٨٤، ٣/ ١٨١.

عليها من الحقوق، وما لها منها، وهذا الأمر بإحصاء العدة، يتوجه للزوج وللمرأة، إن كانت مكلفة، وإلا فلوليها»[1].

وقد بين الله تعالى العدد التي يجب على المرأة المطلقة أن تعتدها وأنوعها، فمنها عدة المطلقة المدخول بها، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة:٢٢٨].

أي: ليتنظرن عن النكاح ثلاثة قروء تمضي من حين الطلاق، والقروء: جمع قرء بفتح القاف وهو الطهر أو الحيض قولان للعلماء، وهذا في المدخول بهن أما غير المدخول بهن فلا عدة عليهن؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ۝٤٩﴾ [الأحزاب:٤٩].

أما الآيسة والصغيرة فعدتهن ثلاثة أشهر، وأما الحوامل فعدتهن أن يضعن حملهن[2].

قال تعالى: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:٤].

ومنها: عدة المتوفى عنها زوجها.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٢٣٤﴾ [البقرة:٢٣٤].

«أي: إذا توفي الزوج مكثت زوجته متربصة أربعة أشهر وعشرة أيام وجوبًا، والحكمة من ذلك، ليتبين الحمل في مدة الأربعة، ويتحرك في ابتدائه في الشهر الخامس، وهذا العام مخصوص بالحوامل، فإن عدتهن بوضع الحمل، وكذلك الأمة عدتها على النصف من عدة الحرة، شهران وخمسة أيام.

وقوله: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي: انقضت عدتهن ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ﴾ أي: من مراجعتها للزينة والطيب، ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: على وجه غير محرم ولا مكروه. وفي هذا وجوب الإحداد مدة العدة، على المتوفى عنها زوجها، دون غيرها من المطلقات والمفارقات، وهو مجمع عليه بين العلماء.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي: عالم بأعمالكم، ظاهرها وباطنها، جليلها وخفيها، فمجازيكم عليها.

وفي خطابه للأولياء بقوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ﴾ دليل على أن الولي ينظر على المرأة، ويمنعها مما لا يجوز فعله ويجبرها على ما يجب، وأنه

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٦٩.
(٢) انظر: تفسير الجلالين، المحلي والسيوطي ص٤٩.

مخاطب بذلك، واجب عليه»[1].

٢. الإيلاء.

وهو «اليمين على ترك وطء المنكوحة مدةً مثل: والله لا أجامعك أربعة أشهر»[2].

وقد بين الله حكمه في قوله: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾﴾ [البقرة:٢٢٦].

قال الحافظ ابن كثير: «الإيلاء: الحلف، فإذا حلف الرجل ألا يجامع زوجته مدة، فلا يخلو: إما أن يكون أقل من أربعة أشهر، أو أكثر منها، فإن كانت أقل، فله أن ينتظر انقضاء المدة ثم يجامع امرأته، وعليها أن تصبر، وليس لها مطالبته بالفيئة في هذه المدة، عن عائشة - رضي الله تعالى عنها - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم آلى من نسائه شهرا، فنزل لتسع وعشرين، وقال: (الشهر تسع وعشرون)[3].

فأما إن زادت المدة على أربعة أشهر، فللزوجة مطالبة الزوج عند انقضاء أربعة أشهر: إما أن يفيء -أي: يجامع - وإما أن يطلق، فيجبره الحاكم على هذا أو هذا لئلا يضر بها، ولهذا قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ﴾ أي: يحلفون على ترك الجماع من نسائهم، ﴿تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ أي: ينتظر الزوج أربعة أشهر من حين الحلف، ثم يوقف ويطالب بالفيئة أو الطلاق. ولهذا قال: ﴿فَإِن فَآءُو﴾ أي: رجعوا إلى ما كانوا عليه، وهو كناية عن الجماع، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: لما سلف من التقصير في حقهن بسبب اليمين»[4].

٣. الحمل والإرضاع.

قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف:١٥].

وقال أيضًا: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [لقمان:١٤].

فبين تعالى أن مدة فصال المولود -أي: تربيته وإرضاعه بعد وضعه- في عامين، كما قال تعالى: ﴿۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة:٢٣٣].

ومن هاهنا استنبط ابن عباس رضي الله عنهما وغيره من الأئمة، أن أقل مدة الحمل ستة أشهر؛ لأن الله تعالى قال في الآية الأخرى: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٠٤.

(٢) التعريفات الفقهية، محمد عميم الإحسان ص٤٠.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطلاق، باب قول الله تعالى: (للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر)، رقم ٥٢٨٩، ٧/ ٥٠.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، بتصرف واختصار ١/ ٦٠٤.

وذكر تعالى تربية الوالدة وتعبها ومشقتها في سهرها ليلًا ونهارًا، ليذكر الولد بإحسانها المتقدم إليه. كما قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤].

ولهذا قال: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: فإني سأجزيك على ذلك أوفر الجزاء[1].

[انظر: الأجل: الأجل في العبادات والمعاملات]

خامسًا: الآداب:

١. الزيارة.

جاء اعتبار الوقت في الزيارة في الشرع في عدة أمور، كما أشار تعالى إلى ذلك في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾﴾ [الأحزاب: ٥٣].

فأمر الله تعالى عباده المؤمنين، بالتأدب مع نبيه صلى الله عليه وسلم في دخولهم لبيوته، وذلك بألا يدخلوها إلا بعد استئذان وإذن، وإذا كان دخولهم استجابة لدعوة إلى طعام، فلا يتعجلوا في الحضور قبل أن ينضج الطعام، وذلك حتى لا يطول مكثهم في بيت النبي صلى الله عليه وسلم[2] ويكون ثقيلًا عليه.

كما قال تعالى: ﴿غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ يعني: «غير منتظرين إدراكه وبلوغه»[3]، أي: أنهم مع كونهم مأذونًا لهم ومدعوين، فلا يدخلوا قبل الميعاد المضروب لهم حضورهم فيه، عجلة وانتظارًا منهم لنضج الطعام، فإن ذلك مما يؤذي قلب صاحب الدعوة، لشغل هذه الحصة معهم بلا فائدة، إلا ضيق صدر الداعي وأهله، وشغل وقته، وتوليد حديث، وتكلفا لكلام لا ضرورة له، وإطالة زمن الحجاب على نسائه[4].

وأيضًا فإن في هذا الوقت يكون أهل البيت في شغلهم في إعداد الطعام، وفي ثياب العمل فلا يحسن أن يروهن وهن على هذه الحال، وما ذلك كله إلا من شؤم التعجيل قبل الوقت[5].

ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ﴾

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣٣٦.

(٢) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب ٦/ ٣٣٦.

(٣) جامع البيان، الطبري ١٩/ ١٥٧.

(٤) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٨/ ٩٩.

(٥) انظر: تفسير المراغي ٦/ ٣٣٦.

﴿فَٱدۡخُلُواْ﴾ «أي إذا دعيتم إلى الدخول في وقته، فادخلوا فيه لا قبله ولا بعده، فـ ﴿وَلَٰكِنۡ﴾ استدراك من النهي عن الدخول، مع الإذن المطلق الذي هو الدعوة بتعليم أدب آخر. وإفادة شرط مهم، وهو الإشارة إلى أن للدعوة حينًا ووقتًا يجب أن يراعى زمنه، وهذا المنهي عنه لم يزل يرتكبه ثقلاء القرويين ومن شاكلهم من غلظاء المدنيين الذين لم يتأدبوا بآداب الكتاب الكريم»(١).

ثم قال تعالى: ﴿فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾، أي: أن يكون جلوسكم بمقدار الحاجة، «فلا تطيلوا الجلوس ليستأنس بعضكم بحديث بعض، وكانوا يجلسون بعد الطعام يتحدثون فنهوا عن ذلك»(٢).

ثم بين تعالى حكمة النهي وفائدته فقال: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ أي: إن انتظاركم الزائد على الحاجة كان يشق على النبي بحبسكم إياه عن شئون بيته، واشتغاله فيه، وهو يستحي منكم أن يقول لكم: اخرجوا، كما هو جاري العادة، أن الناس -وخصوصًا أهل الكرم منهم- يستحيون أن يخرجوا الناس من مساكنهم، ولكن الله

(١) محاسن التأويل، القاسمي ٨/ ٩٩.
(٢) لباب التأويل، الخازن ٣/ ٤٣٤.

تعالى لا يستحي أن يأمركم، بما فيه الخير لكم، والرفق لرسوله كائنًا ما كان(٣).

وفي هذه الآية يظهر اعتبار الوقت ومراعاته في آداب الزيارة في الشرع، من اختيار الوقت المناسب للزيارة، وأن يكون على قدر الحاجة، وأن لا يطول بحيث يثقل ذلك على المزور.

٢. الاستئذان.

من عظمة التشريع الإسلامي كماله وشموله لجميع مناحي الحياة، صغيرها وكبيرها، فما من أمر من أمور هذه الحياة وإلا نجد فيه تشريعا يضبطه ويبين الصواب فيه من الخطأ، ومن ذلك التشريعات في باب الاستئذان وأحكامه، وقد بين النبي الحكمة في الاستئذان وأهميته، كما في الحديث عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (**إنما جعل الاستئذان من أجل البصر**)(٤).

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في معنى الحديث: «أي: شرع من أجله لأن المستأذن لو دخل بغير إذن لرأى بعض ما يكره من يدخل إليه أن يطلع عليه»(٥).

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٧٠.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاستئذان، باب الاستئذان من أجل البصر، رقم ٦٢٤١، ٨/ ٥٤.
(٥) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ١١/ ٢٤.

ولذلك فقد أمر الله تعالى عباده المؤمنين عند دخولهم بيوتا غير بيوتهم بالاستئذان، كما قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [النور:٢٧].

ومعنى الاستئناس في الآية أي :الاستئذان، سمي بذلك، «لأنه به يحصل الاستئناس، وبعدمه تحصل الوحشة»[(١)].

والأمر بالاستئذان في الآية عام في كل حين يراد فيه دخول بيوت الغير، وهذا في حق عموم المؤمنين، وقد ورد ما يخصص هذا الحكم في حق الإماء والعبيد والأطفال، فإنهم لا يجب عليهم الاستئذان كلما دخلوا إلى بيوت غيرهم، إلا في ثلاثة أوقات[(٢)] بينها الله تعالى في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾ [النور:٥٨].

فبين تعالى هذه الأوقات الثلاثة، من قبل صلاة الفجر وهو وقت الانتباه من النوم، ولبس ثياب النهار، ووقت القائلة وهي الظهيرة، لأن النهار يظهر فيها إذا علا شعاعه واشتد حره، ومن بعد صلاة العشاء وهو وقت التعري للنوم[(٣)].

«وإنما خص هذه الأوقات لأنها ساعات الخلوة ووضع الثياب، فربما يبدو من الإنسان ما لا يحب أن يراه أحد، فأمر الله العبيد والصبيان بالاستئذان في هذه الأوقات»[(٤)].

«وأما ما عدا هذه الأحوال الثلاثة فقال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ﴾ أي: ليسوا كغيرهم، فإنهم يحتاج إليهم دائما، فيشق الاستئذان منهم في كل وقت، ولهذا قال: ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: يترددون عليكم في قضاء أشغالكم وحوائجكم»[(٥)].

وهكذا ظهر اعتبار الوقت في آداب الاستئذان، وأن هذه الأوقات الثلاثة التي سماها الله تعالى (عورات) يجب مراعاتها وتوكيد الاستئذان عندها.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٦٥.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ٣٠٢.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ٣٠٤.
(٤) معالم التنزيل، البغوي ٦/ ٦٠.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٧٣.

سادسًا: الأذكار والأدعية:

ذكر الله تعالى مستحب في جميع الأوقات، ولكن يزداد استحبابه في أوقات مخصوصة، كما قال تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ الَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ۝٧٨﴾ [الإسراء:٧٨].

فقراءة القرآن -كلام الله- عموما في أي وقت لها فضلها العظيم، ولكنها في ساعة الفجر اختصت مع ذلك بشهود الملائكة[١]، وكما قال تعالى لنبيه زكريا عليه السلام: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَٰرِ﴾ [آل عمران:٤١].

وقال لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَٰرِ ۝٥٥﴾ [غافر:٥٥].

وقال لعموم المؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٤٢﴾ [الأحزاب:٤١-٤٢].

فأمر الله تعالى بذكره عموما في كل وقت، ثم خص فيه بعض الأوقات تنبيها على شرف العبادة فيها، فذكر تعالى من ذلك وقتين:

الأول: وهو وقت الغداة أو الإبكار، وهو أول النهار، وهو ما بين طلوع الفجر إلى الضحى[٢].

والثاني: العشي أو الأصيل وهو آخر النهار، وهو «ما بين العصر إلى المغرب»[٣].

وهما وقتان فاضلان ولذكر الله فيهما مزية وفضيلة على غيرهما، فمن فضلهما أن الله أقسم بكل واحد منهما، فأقسم تعالى بالصبح كما في قوله: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ۝٣٤﴾ [المدثر:٣٤].

وكما في قوله: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨﴾ [التكوير:١٨].

وأقسم تعالى بالعصر، كما في قوله: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١﴾ [العصر:١] على أحد أوجه التفسير في الآية[٤]، فوقتا الغدو والعشي وقتان مشهودان من الملائكة، كما في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(يتعاقبون فيكم ملائكةٌ بالليل وملائكةٌ بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم، فيسألهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون، وأتيناهم**

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٣٠٧.

(٢) انظر: تفسير البسيط، الواحدي ٥/ ٢٤٤، مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٢١٦.

(٣) جامع البيان، الطبري ١٣/ ٣٥٥.

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٠/ ١٧٩.

وهم يصلون)[1].

ولأجل فضيلة هذين الوقتين خصهما الله تعالى بالأمر بالذكر فيهما، فإن لفضيلة الأزمنة والأمكنة أثرًا في فضيلة ما يقع فيهما من العبادات[2].

كما يضاعف الثواب في ليلة القدر لشرفها، وكما تضاعف الصلاة في المسجد الحرام لمكانته، ولذلك أيضًا فقد أوجب الله تعالى في هذين الوقتين -الغداة والعشي- صلاتين عظيمتين جليلتين، وهما صلاة الفجر وصلاة العصر، وهي الصلاة الوسطى التي خصها الله بتوكيد المحافظة عليها.

قال تعالى: ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ [البقرة:٢٣٨][3].

كما شرع تعالى فيهما أذكار الصباح والمساء.

قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾﴾ [ق:٣٩].

«وهذا تفسير ما جاء في الأحاديث: من قال كذا وكذا حين يصبح وحين يمسي، أن المراد به قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، وأن محل هذه الأذكار بعد الصبح وبعد العصر»[4].

كما جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من قال: حين يصبح وحين يمسي: سبحان الله وبحمده، مائة مرةٍ، لم يأت أحدٌ يوم القيامة بأفضل مما جاء به، إلا أحدٌ قال مثل ما قال أو زاد عليه)[5].

وغير ذلك من الأحاديث، وهكذا يظل المؤمن مراقبًا لهذين الوقتين الفاضلين، ليذكر الله تعالى فيهما ويغتنمهما في ذلك.

وكما جعل الشارع للذكر أوقاتا مخصوصة يزداد فيها شرفه ويعظم أجره، جعل ذلك للدعاء أيضًا، فللدعاء أوقات

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مواقيت الصلوات، باب فضل صلاة العصر، رقم ٥٥٥، ١/ ١١٥، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر، والمحافظة عليهما، رقم ٦٣٢، ١/ ٤٣٩.

(٢) انظر: روح المعاني، الألوسي ١٢/ ١٦٨، تفسير المراغي ٢٣/ ١٠٦.

(٣) اختلف في الصلاة الوسطى اختلافا كثيرا، وقد ذكر الحافظ ابن كثير الأقوال في ذلك، ثم قال: وكل هذه الأقوال فيها ضعف بالنسبة إلى التي قبلها، وإنما المدار ومعترك النزاع في الصبح والعصر. وقد ثبتت السنة بأنها العصر، فتعين المصير إليها.
انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٦٥٤.

(٤) الوابل الصيب من الكلم الطيب، ابن القيم ص٩٣.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، رقم ٢٦٩٢، ٤/ ٢٠٧١.

مخصوصة يكون فيها أقرب للإجابة، من ذلك ساعة الاضطرار والتي يحصل فيها كمال التوجه إلى الله، كما قال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [النمل:٦٢].

وكما جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: (ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلةٍ إلى السماء الدنيا، حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: من يدعوني فأستجيب له، ومن يسألني فأعطيه، ومن يستغفرني فأغفر له)[(١)].

ولا يخفى ما في هذا الحديث من الترغيب في الدعاء والحرص عليه في هذا الوقت.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل، والإجابة فيه، رقم ٧٥٨، ١/ ٥٢١.

اوقات فاضلة

ورد في القرآن الكريم ذكر بعض الأوقات المخصوصة وبيان فضلها، وذلك تنبيها عليها وحضا على الانتفاع بها واغتنامها، وهو من طريقة القرآن في الهداية إلى خير الأمور وأقومها، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩].

وستتحدث عن تلك الأوقات المخصوصة في النقاط الآتية:

أولًا: شهر رمضان:

قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة:١٨٥].

فبين تعالى شرف هذا الشهر من بين سائر الشهور، باختياره من بينهن لإنزال القرآن العظيم فيه[(٢)].

وذهب الجمهور في معنى نزول القرآن إلى أنه: نزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، ثم نزل بعد ذلك مفرقا على النبي صلى الله عليه وسلم في ثلاث وعشرين سنة، وقيل: معنى إنزاله في شهر رمضان: ابتداء إنزاله فيه، وذلك لأن مبادئ الملل والدول هي التي يؤرخ بها

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٥٠١.

لكونها أشرف الأوقات[1].

وبعد أن بين تعالى فضل هذا الشهر وما حصل فيه من الفضل العظيم بإنزال القرآن المشتمل على الهداية والبيان والفرقان بين الحق والباطل، نبه جل شأنه عباده إلى اغتنام هذا الشهر المبارك، وأن يشكروه تعالى فيما أنعم به عليهم فيه، فأمر بصيامه، فكأنه قال: حقيق بشهر، هذا فضله، وهذا إحسان الله عليكم فيه، أن يكون موسما للعباد مفروضا فيه الصيام[2].

وقد جاء في الحديث عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من صام رمضان، إيمانًا واحتسابًا، غفر له ما تقدم من ذنبه)[3].

ثانيًا: ليلة القدر:

وقد أنزل الله تعالى سورة كاملة في بيان فضلها، هي سورة القدر، ومما ذكره تعالى فيها من ذلك: أنها الليلة التي أنزل فيها القرآن.

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ١﴾ [القدر:١].

وأن العمل فيها أفضل من العمل في ألف شهر خالية منها[4]، كما في قوله تعالى: ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ٣﴾ [القدر:٣].

وأن الملائكة يكثر نزولها فيها كما في قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ٤﴾ [القدر:٤].

قال ابن كثير: «أي: يكثر تنزل الملائكة في هذه الليلة لكثرة بركتها، والملائكة يتنزلون مع تنزل البركة والرحمة، كما يتنزلون عند تلاوة القرآن ويحيطون بحلق الذكر، ويضعون أجنحتهم لطالب العلم بصدق تعظيما له»[5].

وما ذكره الحافظ ابن كثير من كثرة بركة ليلة القدر جاءت الإشارة إليه في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ٣﴾ [الدخان:٣].

فالليلة المباركة هي ليلة القدر، ومن قال: إنها ليلة النصف من شعبان فقد أبعد النجعة، فإن نص القرآن أنها في رمضان[6].

وقد أرشد النبي صلى الله عليه وسلم إلى اغتنام هذه الليلة المباركة ورغب في ذلك، كما جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٥/ ٢٥٢.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٦.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب صوم رمضان احتسابا من الإيمان، رقم ٣٨، ١/ ١٦، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في قيام رمضان، وهو التراويح، رقم ٧٦٠، ١/ ٥٢٣.

(٤) انظر تفسير الجلالين، المحلي والسيوطي ص٨١٥.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٤٤٤.

(٦) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢٤٥.



الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا، غفر له ما تقدم من ذنبه، ومن صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه)(1).

ثالثًا: العشر الأوائل من ذي الحجة:

وقد أقسم الله تعالى بها في قوله: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾ [الفجر:٢](2).

وقسمه تعالى بها فيه إشعار بفضلها، وهي ليال عظيمة فيها تؤدى مناسك الحج، كالإحرام ودخول مكة وأعمال الطواف، وفي ثامنتها ليلة التروية، وتاسعتها ليلة عرفة وعاشرتها ليلة النحر(3).

وفي الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما: قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما من أيام العمل الصالح فيهن أحب إلى الله من هذه الأيام العشر، فقالوا: يا رسول الله، ولا الجهاد في سبيل الله؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجلٌ خرج بنفسه وماله فلم يرجع من ذلك بشيء)(4).

رابعًا: الأشهر الحرم:

وهي أربعة أشهر: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب، كما بينها النبي صلى الله عليه وسلم بذلك.

ففي الحديث عن أبي بكرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهرًا، منها أربعةٌ حرمٌ، ثلاثٌ متوالياتٌ: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب، مضر الذي بين جمادى، وشعبان)(5).

وقد ورد ذكرها في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ۝٣٦﴾ [التوبة:٣٦].

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب من صام رمضان إيمانا واحتسابا ونية، رقم ١٩٠١، ٣/ ٢٦، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في قيام رمضان، وهو التراويح، رقم ٧٦٠، ١/ ٥٢٣.

(2) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٣٩٠.

(3) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٣١٣.

(4) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الصوم، باب ما جاء في العمل في أيام العشر، رقم ٧٥٧، ٣/ ١٢١.

وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٥٥٤٨، ٢/ ٩٧٣.

(5) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في سبع أرضين، رقم ٣١٩٧، ٤/ ١٠٧، ومسلم في صحيحه، كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال، وهو التراويح، رقم ١٦٧٩، ٣/ ١٣٠٥.

قال الإمام القرطبي: «هذه الآية تدل على أن الواجب تعليق الأحكام من العبادات وغيرها إنما يكون بالشهور والسنين التي تعرفها العرب، دون الشهور التي تعتبرها العجم والروم والقبط وإن لم تزد على اثني عشر شهرًا، لأنها مختلفة الأعداد، منها ما يزيد على ثلاثين ومنها ما ينقص، وشهور العرب لا تزيد على ثلاثين وإن كان منها ما ينقص، والذي ينقص ليس يتعين له شهر، وإنما تفاوتها في النقصان والتمام على حسب اختلاف سير القمر في البروج»[(١)].

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾ أي: هذا هو الشرع المستقيم، من امتثال أمر الله فيما جعل من الأشهر الحرم، والحذو بها على ما سبق في كتاب الله الأول أي: اللوح المحفوظ[(٢)].

وقد خص الله تعالى الأشهر الحرم من بين سائر الشهور بمزيد حرمتها.

قال العلامة السعدي رحمه الله: «سميت حرما لزيادة حرمتها، وتحريم القتال فيها، ﴿فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡ﴾ يحتمل أن الضمير يعود إلى الاثني عشر شهرًا، وأن الله تعالى بين أنه جعلها مقادير للعباد، وأن تعمر بطاعته، ويشكر الله تعالى على منته بها، وتقييضها لمصالح العباد، فلتحذروا من ظلم أنفسكم فيها. ويحتمل أن الضمير يعود إلى الأربعة الحرم، وأن هذا نهي لهم عن الظلم فيها، خصوصا مع النهي عن الظلم كل وقت، لزيادة تحريمها، وكون الظلم فيها أشد منه في غيرها»[(٣)].

وقال قتادة رحمه الله: «الظلم في الأشهر الحرم أعظم خطيئةً ووزرًا، من الظلم فيما سواها، وإن كان الظلم على كل حال عظيمًا، ولكن الله يعظم من أمره ما شاء»[(٤)].

وقد حذر القرآن الكريم من التلاعب بالأشهر الحرم كما كانت العرب تفعل، وعد ذلك من الكفر.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٧﴾ [التوبة: ٣٧].

أي: «إنما التأخير الذي يؤخره أهل الشرك بالله من شهور الحرم الأربعة، وتصييرهم الحرام منهن حلالا والحلال منهن حرامًا، زيادة في كفرهم وجحودهم أحكام الله وآياته»[(٥)].

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ١٣٣.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٤٨.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٣٦.
(٤) جامع البيان، الطبري ١٤/ ٢٣٩.
(٥) المصدر السابق ١٤/ ٢٤٣.

خامسًا: يوم الجمعة:

وقد سمى الله تعالى سورة من كتابه باسمه (سورة الجمعة)، جاء فيها ذكر يوم الجمعة في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٩﴾ [الجمعة:٩].

وهو أفضل أيام الأسبوع[١]، كما جاء في الحديث عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها، ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة)[٢].

وقد أقسم الله تعالى به كما في قوله تعالى: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣﴾ [البروج:٣].

أقسم بشاهد، وهو يوم الجمعة، ومشهود وهو يوم عرفة[٣].

قال ابن كثير: «﴿وَشَاهِدٍ﴾ يوم الجمعة. وما طلعت شمس ولا غربت على يوم أفضل من يوم الجمعة، وفيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله فيها خيرًا إلا أعطاه إياه، ولا يستعيذ فيها من شر إلا أعاذه، ﴿وَمَشْهُودٍ﴾ يوم عرفة»[٤].

(١) انظر: زاد المعاد، ابن القيم ١/ ٦٠.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجمعة، باب فضل يوم الجمعة، رقم ٨٥٤، ٢/ ٥٨٥.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٣٣٣.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٣٦٤.

وقد رغب النبي صلى الله عليه وسلم في استغلال هذا اليوم الفضيل بالعمل الصالح، كما جاء في الحديث عن أوس بن أوس، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة، فأكثروا علي من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضةٌ علي، قال: فقالوا: يا رسول الله: وكيف تعرض صلاتنا عليك، وقد أرمت؟ - قال: يقولون: بليت - قال: إن الله تبارك وتعالى حرم على الأرض أجساد الأنبياء صلى الله عليهم)[٥].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة أضاء له من النور ما بين الجمعتين)[٦].

موضوعات ذات صلة.

الأجل، الذكر، العبادة، الليل، النهار

(٥) أخرجه أبو داود في سننه، باب تفريع أبواب الوتر، باب في الاستغفار، رقم ١٥٣١، ٢/ ٨٨.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٢٢١٢، ١/ ٤٤٠.
(٦) أخرجه الحاكم في مستدركه، رقم ٣٣٩٢، ٢/ ٣٩٩.
قال الحاكم: هذا حديثٌ صحيح الإسناد ولم يخرجاه.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٦٤٧٠، ٢/ ١١٠٤.



عناصر الموضوع

مفهوم الولاء

أولًا: المعنى اللغوي:

أصله من مادة (ولي)، والوَلْيُ: القرب والدنو، يقال: تباعد بعد وَلْيٍ، أي: تباعد بعد قرب، وكل مما يليك: أي مما يقاربك، والولاء: الموالون، يقال: هؤلاء ولاء فلان، أي: موالوه، و(الولاء): ولاء المعتق، بمعنى: أن يكون ولاء المعتق لمعتقه بأن يكون هو الأولى في إرث معتقه إن لم يكن له وارثٌ من نسبه.

ويطلق (الولاء) أيضًا على التتابع، يقال: والى بينهما ولاءً: أي تتابع، وافعل هذه الأشياء على الولاء، أي: على التتابع، وتوالى عليه شهران: أي: تتابع، وتوالت عليه الأخبار: أي: تتابعت.

ومنه أيضًا: تولى العمل: إذا تقلده، وتولى عنه: إذا أعرض، وولى هاربًا: إذا أدبر، والولي ضد العدو، و(الولاية): السلطان والإمارة، ومنه وليت الأمر أليه ولاية، ووليت على الصبي والمرأة، والفاعل والٍ، والجمع ولاة، و(الولاية) بالفتح والكسر: النصرة، وبالفتح أكثر، يقال: هم على ولاية، أي: مجتمعون في النصرة.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

لا يختلف المعنى الاصطلاحي عن المعنى اللغوي، الذي يدور حول الحب والنصرة، وعرفه أبو عاصم البركاتي، فقال: «هو حب الله تعالى ورسوله ودين الإسلام وأتباعه المسلمين، ونصرة الله تعالى ورسوله ودين الإسلام وأتباع المسلمين»[(١)].

وذكر محماس بن عبد الله الجلعود تعريفًا للموالاة، فقال: «هي التقرب وإظهار الود بالأقوال والأفعال والنوايا لمن يتخذه الإنسان وليًّا، فإن كان هذا التقرب والود مقصودًا به الله ورسوله والمؤمنون، فهي الموالاة الشرعية الواجبة على كل مسلم، وإن كان المقصود هم الكفار على اختلاف أجناسهم، فهي موالاة كفر وردة عن الإسلام»[(٢)].

فالولاء يتمثل في المحبة والمودة والاتباع والنصرة، وهذه معانٍ جليلة وقيمة أراد الإسلام ترسيخها في نفوس المسلمين.

---

(١) الولاء والبراء في الإسلام، ص٤.

(٢) الموالاة والمعاداة في الشريعة الإسلامية، ١/ ٢٨.



الولاء في الاستعمال القرآني

وردت مادة (ولي) في القرآن الكريم (٢٣٢) مرة، يخص موضوع البحث (١٢٤) مرة[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٣	﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾ [المجادلة:١٤]
الفعل المضارع	١١	﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ [الأعراف:١٩٦]
المصدر	٢	﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾ [الكهف:٤٤]
اسم الفاعل	١	﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾ [الرعد:١١]
اسم المفعول	٢١	﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾ [محمد:١١]
الصفة المشبهة	٨٦	﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام:٧٠]

وجاء الولاء في القرآن على أربعة أوجه[٢]:

الأول: الرب: ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ [الأنعام:١٤] يعني: ربًّا.

الثاني: الولد: ومنه قوله تعالى: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ [مريم:٥]. يعني: ولدًا.

الثالث: الناصر: ومنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا﴾ [الدخان: ٤١].

الرابع: المولى الذي يعتق: ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾ [الأحزاب:٥].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٧٤٦-٧٤٧.

(٢) انظر: نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص٦١٣، ٦١٤، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٥/ ٢٨٠، ٢٨٤، الوجوه والنظائر، مقاتل بن سليمان، ص٢٠٠، ٢٠١، الوجوه والنظائر، أبو هلال العسكري، ص٤٩٣.

الألفاظ ذات الصلة

١ النصرة:

النصرة لغةً:

مصدر من مادة (نصر)، والنصر هو إعانة المظلوم، يقال: نصره على عدوه، ينصره نصرًا، والاسم النصرة وهي العون[1].

النصرة اصطلاحًا:

قال المناوي: «النصر والنصرة: العون»[2].

الصلة بين النصرة والولاء:

يتضح أن النصرة من مستلزمات الولاء؛ لأنه كما ذكر سابقًا أنَّ الولاء يتحدد معناه في الحب والنصرة، فمن والى شخصًا أحبه، ويقتضي هذا الرضا بأفعاله، ونصرته والدفاع عنه إذا تعرض لظلم، أو ما شابه.

٢ التعاون:

التعاون لغةً:

تعاونوا: أعان بعضهم بعضًا، وقالوا: عاونه معاونةً وعوانًا، أعانه، والمعوان: الحسن المعونة للناس[3].

التعاون اصطلاحًا:

قال الراغب: «التعاون: التظاهر»[4].

الصلة بين التعاون والولاء:

لاشك أن التعاون والمظاهرة من مستلزمات الولاء أيضًا، فمن والى شخصًا أعانه وظاهره على عدوه.

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٦/ ٤٤٣٩، المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٨٠٨.
(٢) التوقيف على مهمات التعاريف، ص ٣٢٥.
(٣) انظر: تاج العروس، الزبيدي، ٣٥/ ٤٣١.
(٤) المفردات، ص ٥٩٨.

٣ البراء:

البراء لغةً:

مصدر من (برأ)، وهو التباعد عن الشيء، ومنه البرء وهو السلامة من المرض، والوصف منه براء، وبريء، وهما لغتان في القرآن، والبراءة تكون من العيوب والمكاره[(١)].

البراء اصطلاحًا:

البراءة «هي انقطاع العصمة»[(٢)]، وقال الألوسي: «هي عبارة عن إنهاء حكم الأمان، ورفع الخطر المترتب على العهد السابق»[(٣)]، وقال محمد بن سعيد القحطاني: «هو البعد والخلاص والعداوة بعد الإعذار والإنذار»[(٤)].

الصلة بين البراء والولاء:

يتبين أن العلاقة بينهما متناقضة، فالبراء ضد الولاء، وهو متمثل في البغض والمعاداة، فالأمران لا يجتمعان.

---

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ١/ ٢٤٠.
(٢) البحر المحيط، أبو حيان، ٥/ ٣٦٥.
(٣) روح المعاني، ١٠/ ٤٢.
(٤) الولاء والبراء في الإسلام، ص٩٠.

اقتران الولي بالنصير في القرآن

اقترن اسم الله تعالى (الولي أو المولى) باسمه تعالى النصير ثلاث عشرة مرة في القرآن الكريم، منها -على سبيل المثال- قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٤٥].

وقوله: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨].

وقوله: ﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٠].

وذكرنا في العلاقة بين الولاء والنصرة، أن النصرة من مقتضيات الولاء ومستلزماته، وعليه يكون اسم الله تعالى (النصير) هو مقتضى اسمه تعالى (الولي أو المولى). قال البقاعي في بيان حكمة اقتران الولي بالنصير عند تفسيره لآية النساء المذكورة: «﴿وَلِيًّا﴾ أي: قريبًا بعمل جميع ما يفعله القريب الشفيق.

ولما كان الولي قد تكون فيه قوة النصرة، والنصير قد لا يكون له شفقة الولي، وكانت النصرة أعظم ما يحتاج إلى الولي فيه، أفردها بالذكر إعلامًا باجتماع الوصفين مكررًا الفعل والاسم الأعظم اهتمامًا بأمرها فقال: ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا﴾ أي: الذي له العظمة، ﴿نَصِيرًا﴾ أي: لمن والاه فلا يضره عداوة أحد، فثقوا بولايته ونصرته دونهم، ولا تبالوا بأحد منهم ولا من غيرهم، فهو يكفيكم الجميع»[1].

وقال الشعراوي في تفسيره لذات الآية: ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا﴾ نعم كفى به وليًّا؛ لأن غيره من البشر إنما يملكون الأسباب، والحق تعالى هو الذي خلق الأسباب، فيملك ما هو فوق الأسباب، ولذلك يقول مطمئنًا لنا: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣].

و(الولي) دائمًا هو من يليك مباشرة أي: أنه قريب منك. ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ إذن فهناك قريب، وهناك أيضًا نصير، فقد يكون هناك من هو قريب منك ولا ينصرك، لكن الله ولي ونصير، فما دامت المسألة مسألة معركة ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾، كأن الحق ينبهنا: إياكم أن تقولوا إننا نلتمس النصرة عند أحد، اصنعوا ما في استطاعتكم أن تصنعوه، ثم اتركوا ما فوق الاستطاعة إلى الله»[2].

(١) تفسير المراغي ٢/ ٢٦٢.
(٢) تفسير الشعراوي، ٤/ ٢٢٧٨.

ولاية الله تعالى لعباده

إن الكلام عن ولاية الله عز وجل لعباده تتطلب بيان أن الله جل جلاله هو وحده الولي، وأن ولايته تعالى تنقسم إلى قسمين: ولاية عامة لجميع خلقه، وولاية خاصة لأصفيائه المؤمنين مع شرح موجبات هذه الولاية لهم خاصة دون غيرهم، بالإضافة إلى شرح أسباب الحرمان من ولاية الله عز وجل، وتفصيل هذه الأمور فيما يأتي:

أولًا: الله تعالى هو الولي:

لقد سَمَّى الله عز وجل نفسه باسم (الولي)، فهو من أسمائه الحسنى، وعرف الزجاج هذا الاسم بقوله: «هو فعيل من الموالاة، والولي الناصر وهو تعالى وليهم أي: المؤمنين.

بأن يتولى نصرهم وإرشادهم، كما يتولى ذلك من الصبي وليه، وهو يتولى يوم الحساب ثوابهم وجزاءهم»[1].

وقيل: (الولي) هو المتولي لأمور العالم والخلائق القائم بها، ومن أسماء الله عز وجل أيضًا: (الوالي)، وهو مالك الأشياء جميعها والمتصرف فيها، وكأن الولاية تحمل معنى التدبير والقدرة والفعل معًا، فأي عنصر فُقِدَ منها، فلا يطلق على صاحبها اسم الوالي[2].

وهناك آيتان قرآنيتان فقط أثبتتا أن الله تعالى هو الولي، وهما: قوله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الشورى:٩].

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الشورى:٢٨].

فنلحظ من قوله: ﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾ في الآية الأولى أنَّ الضمير (هو) ضمير فصل يفيد التأكيد والحصر والقصر، ففي هذا التركيب قصر جنس الولي بهذا الوصف على الله تعالى وحده، وبما أن المشركين قد عبدوا غير الله عز وجل، فيكون المعنى المراد هو قصر الولاية الحقة على الله تعالى وحده. يقول ابن عاشور: «وأفاد ضمير الفصل في قوله: ﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾ تأكيد القصر وتحقيقه، وأنه لا مبالغة فيه تذكيرًا بأن الولاية الحق في هذا الشأن مختصة بالله تعالى»[3].

ويظهر هذا المعنى جليًّا في قوله: ﴿وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ حيث قصر صفة الولي والحمد على الله جل جلاله وحده دون غيره.

لأجل هذا يعترف المؤمنون دائمًا بأن

(١) تفسير أسماء الله الحسنى، ص ٥٥.

(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٦/ ٤٩٢٠.

(٣) التحرير والتنوير، ٢٥/ ٤٠.

الله عز وجل هو وليهم ومولاهم. يقول الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٢٨٦].

والمعنى أن الله تعالى لا يكلف أحدًا فوق طاقته، وهذا من رحمة الله تعالى ولطفه بعباده، وللنفس الإنسانية ما كسبت من خير، فلها الثواب عليه، وعليها ما اكتسبت من الشر، فعليها العقاب عليه، ثم أرشد الله عز وجل المؤمنين إلى هذا الدعاء الذي تكفل لهم بإجابته، وهو: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ أي: لا تعاقبنا على فرضٍ تركناه، أو على حرامٍ فعلناه نسيانًا، أو أخطأنا الصواب في العمل جهلًا منا بواجبه الشرعي، ويؤيد هذا حديث النبي صلى الله عليه وسلم: (إن الله تجاوز عن أمتي الخطأ، والنسيان، وما استكرهوا عليه)[1].

﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ أي: لا تكلفنا من الأعمال الشاقة -وإن كانت في طاقتنا- كما كلفت الأمم الماضية قبلنا كبني إسرائيل، أما رسالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم فتحمل التيسير والتخفيف والسماحة، فهو نبي الرحمة المهداة للأمم جميعها.

﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ من التكليف والمصائب والبلاء، فلا تبتلينا بما لا قدرة لنا عليه من الفتن.

﴿وَٱعْفُ عَنَّا﴾ فيما بدر منا من معصية بيننا وبينك.

﴿وَٱغْفِرْ لَنَا﴾ فيما بدر منا من زلل بيننا وبين عبادك، فلا تظهرهم على عيوبنا.

﴿وَٱرْحَمْنَآ﴾ فيما يستقبل، فجنبنا وباعد بيننا وبين الوقوع في ذنوب أخرى.

﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾ أي: متولي أمورنا، ومالكنا، وناصرنا، وعليك توكلنا، وأنت المستعان، وعليك التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بك.

﴿فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ الذين جحدوا دينك، وأنكروا وحدانيتك، وكذبوا رسالة نبيك، وعبدوا غيرك، فأشركوا معك من عبادك، فانصرنا عليهم، واجعل لنا العاقبة عليهم في الدنيا والآخرة[2].

ونخلص من هذا إلى أن الله تعالى هو ولي المؤمنين حيث يتولى نصرهم وإرشادهم، كما يتولى ثوابهم وجزاءهم يوم

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، رقم ٢٠٤٣، عن أبي ذر الغفاري، كتاب الطلاق، باب طلاق المكره والناسي، ٣/ ١٩٩.
وصححه الألباني في تعليقه على مشكاة المصابيح، ٣/ ١٧٧١، رقم ٦٢٩٣.

(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ٣/ ١٣٥.

الحساب، وأيضًا هو المتولي لأمور العالم والخلائق القائم بها، فهو مالك الأشياء جميعها والمتصرف فيها.

ثانيًا: ولاية عامة للخلق جميعًا:

عرفنا أن الله تعالى وحده هو المتصف بالولاية الحقة، فإذا كان كذلك فهو الأولى بالعبادة والأحق بها مما يعبد من دونه من الآلهة والأوثان؛ فلهذا السبب نعى الله عز وجل على المشركين وأنكر عليهم اتخاذهم آلهة يعبدونها من دونه جل جلاله، فقال تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الشورى:٩].

كما أخبر فيها أنه هو الولي الحق الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده عز وجل، فإنه وحده القادر على إحياء الموتى، وهو على كل شيء قدير[١].

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الشورى:٢٨].

فالله تعالى هو الذي ينزل المطر الغزير الذي يغيث البلاد والعباد من بعد انقطاعه مدة يظن بها الناس أنه لن يأتيهم، فينشر الله عز وجل بالمطر رحمته من إخراج الأقوات للآدميين وبهائمهم، فيستبشرون بذلك ويفرحون، فالله جل جلاله هو الولي الذي يتولى عباده بأنواع التدبير، ويتولى القيام بما يصلح لهم دينهم ودنياهم، كما أنه الحميد في تدبيره على ما له من كمال مطلق، وما يوصله إلى خلقه من ألوان الإفضال وأنواعه[٢].

وفي هذا المعنى يأمر الله عز وجل نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم أن يخاطب المشركين قائلًا: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:١٤].

أي: قل لهم يا محمد: أغير الله تعالى أتخذ وليًّا معبودًا أواليه بالعبادة والمحبة، وأشركه مع الله الذي أبدع السماوات والأرض، وهو الغني عما سواه، الذي يطعم عباده ولا يطعم، ولا يحتاج إلى من يطعمه، فهو الذي يرزق ولا يرزق، كما أمرت أن أنقاد بكليتي إلى هذا الإله الحقيقي[٣].

ونخلص من هذا إلى أن الله تعالى هو وحده الولي، وولايته عز وجل ليست كأي ولاية، فهو تعالى الولي الذي يتولى أمور الخلائق، وهو مالك التدبير، وهو الولي الذي صرف لخلقه ما ينفعهم في أمور دينهم ودنياهم وأخراهم، كما أن هذه الولاية

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/ ١٩٣.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٧٥٨.

(٣) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة، ٢/ ١٠٣.

للخلق جميعًا دون تمييز بين مؤمن، أو كافر، أو منافق، فهي ولاية عامة لجميع الناس.

ثالثًا: ولاية خاصة لأوليائه وأصفيائه وموجباتها:

إن الله تعالى اصطفى أهل الإيمان من خلقه، وحظاهم وأولاهم رعايته ونصرته، فقال جل جلاله فيهم: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة:٢٥٧].

وقيل في معنى ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أقوال، منها: الحافظ، والناصر، فهو ناصر المؤمنين وحافظهم، وسمَّى الله تعالى نفسه وليًا؛ لأنه يلي أمور الخلق من النصر والحفظ والرزق وغيره، ومنه سمي الولي وليًّا؛ لأنه يلي أمور الناس[(١)].

ومعنى الآية أنَّ الله تعالى وليُّ الذين آمنوا حيث يتولاهم بالنصرة والإرشاد، فهو وحده الذي يخرجهم من ظلمات الضلالة إلى نور الهداية، أو يخرجهم من ظلمات العذاب في النار إلى نور الثواب في الجنة، ولا يقدر على هذا إلا الله عز وجل[(٢)].

وهذا يوسف عليه السلام يقول: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف:١٠١].

فنادى ربه: يا رب أعطيتني من نعمة الدنيا الجاه والسلطان، ومن نعمة العلم تفسير الرؤيا، فيا مبدع السماوات والأرض وخالقهما على غير مثال سابق، أنت يا رب متولي أموري وشؤوني في الدنيا والآخرة، فاقبضني مسلمًا، واجعل لحاقي بالصالحين[(٣)]، فلا بد لهذه الولاية كي تتحقق من موجبات؛ لأن هذه الولاية لا تعطى ولا تمنح لأي شخص، وهذه الموجبات متمثلة في ثلاث:

١. الإيمان.

يقول الله عز وجل في بيان ولايته لأهل الإيمان: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:٦٨].

والمعنى: إن أحق الناس بنصرة إبراهيم عليه السلام وولايته هم الذين سلكوا طريقه ومنهاجه، فوحدوا الله تعالى مخلصين له الدين غير مشركين به، ثم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا معه من المهاجرين والأنصار ومن تبعهم بعدهم هم أولى الناس بإبراهيم عليه السلام كذلك، فإن الله تعالى سوف ينصر المؤمنين بمحمد صلى الله عليه وسلم، المصدقين له في نبوته، وفيما جاءهم به من عند الله عز وجل،

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢/ ٢٤١.
(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي، ١/ ٣٢٨.
(٣) انظر: صفوة التفاسير، الصابوني، ٢/ ٦٣.

فسينصرهم على من خالفهم من أهل الملل الأخرى[1].

ويقول تعالى أيضًا في هذا الصدد: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد:١١].

والمعنى: أن الله جل جلاله هو ولي المؤمنين وناصرهم، وقد نزلت هذه الآية عقب غزوة أحد عندما صاح المشركون: يوم بيوم -يقصدون عندما انتصر عليهم النبي صلى الله عليه وسلم في بدر-، لنا العزى ولا عزى لكم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم للمؤمنين: قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم[2].

وفي المقابل فالكافرون لا ينصرهم من الله تعالى أحد. قال السعدي في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة:٢٥٧]: «وهذا يشمل ولايتهم لربهم، بأن تولوه فلا يبغون عنه بدلًا ولا يشركون به أحدًا، قد اتخذوه حبيبًا ووليًا، ووالوا أولياءه وعادوا أعداءه، فتولاهم بلطفه ومن عليهم بإحسانه، فأخرجهم من ظلمات الكفر والمعاصي والجهل إلى نور الإيمان والطاعة والعلم، وكان جزاؤهم على هذا أن سلمهم من ظلمات القبر والحشر والقيامة إلى النعيم المقيم والراحة والفسحة والسرور»[3].

فالمؤمنون أمة واحدة يجمعها الإيمان بالله عز وجل، والتصديق بكل ما جاء به من غير تفريق بينهم بالأجناس والألوان والقوميات والأوطان، فصورة المؤمنين هذه من حيث تجمعهم هي أرقى صورة للتجمع البشري الذي يليق به.

٢. التقوى.

يقول الله عز وجل في بيان ولايته لأهل التقوى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال:٣٤].

والمعنى: ما كان الله عز وجل ليعذب المشركين والرسول صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم، لكنه سوف يعذبهم بعدما يفارقهم النبي صلى الله عليه وسلم، وكيف لا يعذبون والحال أنهم يصدون عن المسجد الحرام كما صدوا النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين عنه عام الحديبية، وكانوا يقولون: نحن ولاة البيت الحرام، نصد من نشاء، وندخل من نشاء، فرد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ﴾ أي لم يستحقوا أن يكونوا ولاة البيت الحرام وهم مشركون، فولاته الحقيقيون هم المسلمون، وقيل: إن الضميرين في (أولياءه، أولياؤه)

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٦/ ٤٩٧.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٦/ ٢٣٤.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص١١١.

يرجعان إلى الله عز وجل[1].

ويقول الله تعالى أيضًا: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٨ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية:١٩-١٨].

فهذه الآية تتحدث عن بني إسرائيل الذين أنعم الله تعالى عليهم، وآتاهم الكتاب والحكم والنبوة، وفضلهم على عالمي زمانهم، ولكنهم ظلموا أنفسهم، فاختلفوا واتبعوا أهواءهم، فبين الله تعالى أنهم لن يغنوا عن النبي صلى الله عليه وسلم من الله تعالى شيئًا، وأن المتصفين بالظلم لا ولاية بينهم وبين الله تعالى، والله جل جلاله المتصف بجميع صفات الكمال والجلال والجمال هو ولي المتقين الذين همهم الأعظم هو الاتصاف بالحكمة عن طريق اتخاذ الوقايات المنجية لهم من سخط الله تعالى وعذابه، ولا ولاية بينه وبين الظالمين[2].

٣. الصلاح.

يقول الله عز وجل على لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿إِنَّ وَلِۦِّىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف:١٩٦].

وكأن النبي صلى الله عليه وسلم يخاطب المشركين قائلًا: لا أبالي بكم وبشركائكم؛ لأن وليي هو الله عز وجل الذي أنزل القرآن العظيم الناطق بأنه وليي وناصري، وإن شركاءكم الذين تعبدونهم من دون الله تعالى لا يستطيعون نصر أنفسهم فضلًا عن نصركم أنتم، فالله عز وجل من عادته أن يتولى الصالحين من عباده، وينصرهم ولا يخذلهم[3].

وهكذا تتضح ولاية الله تعالى الخاصة بأوليائه وأصفيائه المؤمنين المتقين الصالحين.

رابعًا: آثار ولاية الله للمؤمنين:

إن المؤمنين عندما يتخذون الله عز وجل حبيبًا ووليًّا فلا يتولون غيره، ولا يشركون به شيئًا، ويوالون أولياءه، ويتبرؤون من أعدائه، فإن الله تعالى سوف ينعم عليهم من مَنِّهِ وإحسانه الشيء الكثير، فتظهر عليهم آثار ولاية الله تعالى لهم.

ومن هذه الآثار: قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝٦٣ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [يونس:٦٢-٦٤].

(١) انظر: مدارك التنزيل، النسفي، ١/ ٦٤٣.
(٢) انظر: نظم الدرر، البقاعي، ١٨/ ٨٨.
(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٣/ ٣٠٧.

والمعنى: إن أولياء الله تعالى الذين يتولونه بإخلاص العبادة له وحده، ويتوكلون عليه، ولا يتخذون من دونه أندادًا، ولا أولياء، ولا شفعاء، فإنه لا خوفٌ عليهم يوم القيامة مما يخاف منه غيرهم من أهوال الموقف وعذاب الآخرة، كما أنهم لا يحزنون من لحوق مكروه بهم، أو ذهاب محبوب عنهم؛ لأنهم لا يقصدون بذلك إلا نيل رضا الله عز وجل، وكذلك لا خوف عليهم في الحياة الدنيا مما يخاف منه غيرهم من الكفار وضعاف الإيمان، فليس هذا الجزاء إلا لأولياء الله تعالى الذين جمعوا بين الإيمان الصحيح بالله جل جلاله وملائكته وكتبه ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وبين ملكة التقوى له عز وجل، فهؤلاء لهم البشرى في الحياة الدنيا بالنصر وحسن العاقبة، وباستخلافهم في الأرض ما أقاموا شرع الله تعالى، ونصروا دينه، وأعلوا كلمته[1].

ويقول الله عز وجل في موضع آخر: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:١٢٧-١٢٦].

والمعنى: أن هذا البيان الذي جاء به القرآن الكريم، أو طريق التوحيد، وإسلام الوجه إلى الله جل جلاله، هو الطريق الذي ارتضاه الله تعالى مستقيمًا لا ميل فيه إلى إفراط أو تفريط في الاعتقاد والأخلاق والأعمال، ولا اعوجاج فيه إلى النظر إلى الغير والشرك به، فقد بينت أحكامه، وفصلت شرائعه، وميز فيه الخير من الشر، ولكن هذا التفصيل، وهذا البيان ليس لأي شخص، إنما هو ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ يذكرون المعارف والحقائق التي هي مستقرة في استعدادهم فيهتدوا بها؛ لأنهم هم الذين علموا، فانتفعوا بعلمهم.

وأعد الله تعالى لهم الجزاء الجزيل، والأجر الأوفى، وهو الجنة التي سماها الله عز وجل دار السلام؛ وذلك لسلامتها من كل عيب ونقص وآفة وكدر، وهمٍّ وغمٍّ، إلى غير ذلك من المنغصات والمكدرات التي كانت في الدنيا، فيلزم من هذا أن يكون نعيم الجنة في غاية الكمال، بحيث لا يقدر على وصفه الواصفون من نعيم الروح والقلب والبدن.

كما أن الله تعالى هو الذي يتولى تدبيرهم وتربيتهم، حيث لطف بهم في جميع شؤون أمورهم، وأعانهم على طاعته في الدنيا، ويسر لهم كل طريق إلى محبته، كلُّ هذا بسبب أعمالهم الصالحة التي قدموها في دنياهم، وقصدوا بها رضا مولاهم جل جلاله[2].

(١) انظر: نظم الدرر، البقاعي، ١١/ ١٢٩.

(٢) انظر: محاسن التأويل، القاسمي، ٤/ ٤٨٨.

هذا وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي: (إن الله قال: من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب، وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيءٍ أحبَّ إليَّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته: كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيءٍ أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته)[1].

فبين النبي عز وجل أنه من عادى لله تعالى وليًّا فقد بارز الله تعالى بالمحاربة.

خامسًا: أسباب الحرمان من ولاية الله:

من خلال النظر في آيات الموضوع نجد أن أسباب الحرمان من ولاية الله عز وجل تتمثل في الآتي:

١. الكفر.

فالشخص الذي لا يؤمن بالله عز وجل كيف يكون الله تعالى وليه وناصره في الدنيا وفي الآخرة؟ يقول الله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٠ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ۝٢١ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝٢٢ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [العنكبوت: ٢٠-٢٣].

والمعنى: يأمر الله عز وجل نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم أن يخاطب المشركين الكافرين المنكرين قضية البعث بعد الممات أن يسيروا في الأرض، فينظروا كيف بدأ الله تعالى الأشياء وأوجدها من عدم، ولم يتعذر عليه شيء من ذلك، فكذلك لا يتعذر عليه إعادتها مرة أخرى بعد فنائها، فإن الله تعالى قادر على ذلك، ولا يعجزه شيء.

وبعد إعادتهم بعد فنائهم، يعذب الله تعالى منهم على ما أسلف من ذنوب في حياته، ويرحم منهم من تاب وآمن وعمل صالحًا، ثم يبين الله تعالى لهم أن رجوعهم ومآلهم هو إلى الله جل جلاله، ثم يتوعدهم ويتهددهم بأنهم لن يعجزوا الله تعالى في الأرض ولا في السماء، ولن يكون لهم من دون الله عز وجل من ولي يلي أمورهم، ولا نصير ينصرهم من دون الله تعالى إن أراد بهم سوءًا، كما لا يمنعهم منه أحد إن أراد أن يوقع عقوبته عليهم.

ثم يذكر الله تعالى أن الذين كفروا بحججه تعالى، وأنكروا أدلته، وجحدوا

تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٢٧٣.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٦٥٠٢، عن أبي هريرة، كتاب الرقاق، باب التواضع، ٨/ ١٠٥.

لقاءه والرجوع إليه يوم القيامة، فهؤلاء يئسوا من رحمة الله تعالى في الآخرة عند معاينتهم ما أعد الله تعالى لهم من العذاب الموجع[(١)].

ويقول الله تعالى أيضًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٤-٦٥].

أي: إن الله عز وجل لعن الكافرين فخذلهم وطردهم من رحمته، وأعد لهم في الآخرة جهنم ماكثين فيها أبدًا بلا انقطاع، فلا يجدون فيها وليًّا قريبًا ينفعهم، ولا نصيرًا مانعًا يمنعهم من عذاب الله عز وجل[(٢)].

٢. النفاق.

إن الشخص المنافق هو الذي يظهر خلاف ما يبطن، حيث يظهر الإسلام، ويخفي الكفر، فخطره على الإسلام والمسلمين أشد من خطر الكفار؛ لأن عداءهم للمسلمين غير واضح ولا ظاهر، فمن اتصف بهذه الخصلة السيئة يحرم نفسه من ولاية الله عز وجل له في الدنيا والآخرة.

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٣-١٧].

ففي هذه الآيات يبين الله عز وجل حال المنافقين في غزوة الأحزاب حيث تواصوا فيما بينهم بالفرار عندما ظنوا أن المسلمين سوف ينهزمون في المعركة، وعندها لا يكون لهم نصيبٌ من الغنائم، فتعللوا بانكشاف بيوتهم، وضياع ما فيها، مع علمهم أنهم يكذبون في عذرهم هذا، فهم جبناء لا يريدون إلا مجرد الفرار مع أنهم عاهدوا الله تعالى سابقًا أنهم لن يولوا الأدبار.

لكن لما ظهر الجد لم يساعدهم الصدق، ولم يتذكروا أن الله تعالى سوف يسألهم عن العهود التي قدموها، فيعاقبهم على ما أذنبوا. عندئذٍ يأمر الله تعالى نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم أن يخبرهم أن الفرار من المعركة خوف القتل أو الموت لن ينفعهم؛ لأن الآجال إذا حان وقتها فلا تأخير لها، ولا تقديم عليها، وإن بقوا أحياء فلن يكون متاعهم في الدنيا إلا قليلًا.

كما يخبرهم أيضًا أنه من الذي يمنعهم من الله عز وجل إن أراد أن يوقع بهم

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٠/ ٢٠، ٢٣.
(٢) انظر: تفسير السمرقندي، ٣/ ٧٤.

مكروهًا، أو يحقق لهم أمرًا مرجوًا، ومن الذي يصرف عنهم دونه عدوًا؟![1].

٣. اتباع الهوى.

إن من لم يأتمر بأوامر الله تعالى، وينتهي عما نهى الله تعالى عنه، فإنه يعرض نفسه للحرمان من ولاية الله تعالى، وحفظه ورعايته ونصرته له.

يقول الله عز وجل: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة:١٢٠].

فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يرجو إيمان أهل الكتاب قبل غيرهم؛ لذلك كبر عليه إعراضهم عن إجابة دعوته، فأراد الله تعالى أن ييئسه من الطمع في إسلامهم، فعلق رضا أهل الكتاب عن النبي صلى الله عليه وسلم بما هو مستحيل أن يحدث، فليس غرض اليهود ومبلغ الرضا منهم ما يقترحونه عليه من الآيات، وما يوردونه من الأمور التي فيها تشدد وتعنت، فإنك يا محمد لو جئتهم بكل ما طلبوه تعنتًا لم يرضوا عنك، ثم أخبره الله تعالى بأنهم لن يرضوا عنك حتى يدخل في دينهم، ويتبع ملتهم.

ثم أمر الله تعالى نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم أن يرد عليهم بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ [البقرة:١٢٠].

أي: أن الهدى الحقيقي محصور فقط في اتباع ما أمر الله تعالى به، لا فيما أنتم عليه من الكتب المحرفة، والشرائع المنسوخة، ثم أتبع ذلك بوعيد شديد للنبي صلى الله عليه وسلم إن فكر في اتباع أهوائهم، وحاول إرضاءهم وتلبية طلباتهم، ولا يخفى ما في هذا من تعريض لأمة النبي صلى الله عليه وسلم، وتحذيرًا لهم من أن يقعوا في شيء من ذلك، فإن لم يمتثلوا لأمر الله عز وجل حينئذٍ لن يجدوا من يكون لهم وليًا وناصرًا من عذاب الله عز وجل؛ لأن الله تعالى أعلمهم حقيقة اليهود وما هم عليه[2].

يقول سيد قطب رحمه الله في قوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة:١٢٠].

«فتلك هي العلة الأصيلة، ليس الذي ينقصهم هو البرهان، وليس الذي ينقصهم هو الاقتناع بأنك على الحق، وأن الذي جاءك من ربك الحق، ولو قدمت إليهم ما قدمت، ولو توددت إليهم ما توددت، لن يرضيهم من هذا كله شيء، إلا أن تتبع ملتهم وتترك ما معك من الحق. إنها العقدة الدائمة التي نرى مصداقها في كل زمان ومكان إنها هي العقيدة. هذه حقيقة المعركة التي يشنها

(١) انظر: لطائف الإشارات، القشيري، ٣/ ١٥٤.

(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ١/ ١٥٧.

اليهود والنصارى في كل أرض وفي كل وقت ضد الجماعة المسلمة »[1].

ويقول الله جل جلاله: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ ۝٣٦ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ [الرعد:٣٧-٣٦].

هناك قولان في المقصود بـ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ وهما:

الأول: هم أصحاب النبي محمد صلى الله عليه وسلم الذين آتاهم الله عز وجل القرآن، فهم يفرحون بهذا القرآن النازل على النبي صلى الله عليه وسلم، ومن الأحزاب الذين تحزبوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم اليهود والنصارى ينكرون بعض القرآن.

الثاني: المسلمون من اليهود أمثال عبد الله بن سلام وأصحابه، فهؤلاء قد ساءهم ذكر اسم الله تعالى (الرحمن) في القرآن الكريم مع كثرة ذكره في التوراة، فلما كثر ذكره في القرآن فرحوا به، فأنزل الله تعالى الآية.

ويقصد بـ ﴿الْأَحْزَابِ﴾ مشركي مكة، فلما عقد النبي صلى الله عليه وسلم بينه وبينهم صلح الحديبية، كتب فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، فاعترضوا قائلين: ما نعرف الرحمن إلا رحمان اليمامة، يعنون به مسيلمة الكذاب، وكانوا لا ينكرون اسم الله تعالى.

فيأمر الله تعالى نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم أن يقول: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ﴾ ثم يذكر الله عز وجل أنه كما أنزل القرآن الكريم على محمد صلى الله عليه وسلم، فأنكره الأحزاب، كذلك أنزل الحكم والدين عربيًا، فنسب إلى العرب؛ لأنه نزل بلغتهم، فكذب به الأحزاب، ثم توعد الله عز وجل النبي صلى الله عليه وسلم أنه إن اتبع أهواء أهل الكتاب في الملة بعد ما جاءه من العلم الصحيح من الله تعالى، فلن يجد منه عز وجل ناصرًا ولا حافظًا[2].

٤ . الضلال.

وهو عكس الهداية والتوفيق، فمن كان على ضلالة فكيف يكون الله تعالى وليه وناصره؟!

يقول الله عز وجل: ﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء:٩٧].

(١) في ظلال القرآن، ١/ ١٠٨.

(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي، ٤/ ٣٢٢.

أي: من وفقه الله تعالى إلى الهداية فهو المهتدي، فهؤلاء سبق لهم حكم الله تعالى بالإيمان، فوجب أن يصيروا مؤمنين، ومن سبق عليهم حكم الله تعالى بالضلال، استحال أن ينقلبوا عن ذلك الضلال، وأن يوجد من يصرفهم عنه حين يحشرهم الله عز وجل على وجوههم خزيًا عميًا وبكمًا، لا يبصرون ولا ينطقون، فمقرهم ودارهم هي جهنم، كلما تهيأت للانطفاء، سعرها الله تعالى بهم، فلا يفتر عنهم العذاب، ولا يخفف عنهم من عذابها، فلم يظلمهم الله تعالى؛ بل جازاهم بسبب كفرهم بآيات الله تعالى، وإنكارهم البعث وكمال قدرته تعالى[(١)].

ويقول الله عز وجل مخبرًا عن حال أصحاب الكهف عندما كانوا بداخله: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف:١٧].

فأيها المخاطب إنك ترى الشمس إذا طلعت فإنها تميل عن كهفهم جهة اليمين، وإذا غربت تقطعهم وتبعد عنهم جهة الشمال، وحال الشمس هذه كرامة لهم من الله عز وجل؛ لئلا تؤذيهم بحرها، وقد كانوا في متسع من الكهف بحيث لا تصيبهم الشمس لا في ابتداء النهار ولا في آخره، وذلك الصنيع هو من دلائل قدرة الله تعالى الباهرة، فمن يوفقه الله تعالى للإيمان، ويرشده إلى طريق السعادة، فهو المهتدي حقًا، ومن يضلله الله تعالى بسوء عمله فلن تجد له من دون الله تعالى من يهديه ويرشده[(٢)].

ونلمح من قصة أصحاب الكهف أن هؤلاء الفتية كانوا حريصين على الهداية واتباع دين الله عز وجل؛ لذلك كان الله تعالى لهم مؤيدًا وناصرًا، فلم يخذلهم، ولم يدع أيدي الشر تطالهم؛ بل أكرمهم الله جل جلاله بهذه الكرامة الباهرة، فمن يصدق الله يصدقه الله، وفي المقابل من لم يكن في داخله استعداد للهداية، فلن يجد له وليًا ومرشدًا إلى طريق الهداية والسعادة.

ويقول الله تعالى في موضع آخر: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ

(١) انظر: مراح لبيد، محمد بن عمر الجاوي، ١/٦٣٧، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٤٦٧.

(٢) انظر: صفوة التفاسير، الصابوني، ٢/ ١٧٠.

﴿يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ [الشورى:٤٤-٤٦].

حيث يخبر الله جل جلاله أنه وحده المنفرد بالهداية والإضلال، وأن من يضلله الله تعالى فبسبب ظلمه لنفسه بالمعاصي والذنوب والآثام، فما له من ولي يتولى أمره ويهديه[1]، فكان ضلاله وعدم هدايته إلى طريق الرشاد سببًا من أسباب الحرمان من ولاية الله تعالى له، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن لَّا يُجِبۡ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيۡسَ بِمُعۡجِزٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَيۡسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءُۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ [الأحقاف:٣٢].

٥. الظلم.

يقول الله عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ۝٧ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [الشورى:٧،٨].

والمعنى: أن الله تعالى أوحى إلى النبي صلى الله عليه وسلم القرآن وهو كلام عربي، واقتضت الحكمة الإلهية اختيار الأمة العربية لتكون أول من يتلقى الإسلام وينشره بين الأمم، ولو روعي فيه جميع الأمم المخاطبة بدعوة الإسلام لاقتضى أن ينزل القرآن بلغات لا تحصى، لكن الله عز وجل اختار له أفضل اللغات، كما اختار إنزاله على أفضل البشر، وهذا الإنزال لأجل إنذار المشركين من أهل مكة ومن حولها ما ينذرونه من العذاب في الدنيا والآخرة، وتنذرهم أيضًا يوم القيامة وما يكون فيه من أهوال وشدائد، وسمي بالجمع؛ لأن الخلائق تجمع فيه للحساب، ففريق من هذه الخلائق سيكون في الجنة، وفريق آخر سيكون في النار.

وهذا أمرٌ شاء الله تعالى تقديره بأن أوجد من أسبابه بحكمته، فلو شاء لقدر أسباب اتحادهم على عقيدة واحدة من الهدى، فيكونون جميعًا في نفس المصير في الجنة، ولكن الله جل جلاله شاء مشيئة أخرى جرت وفق حكمته، وهي أنه تعالى خلقهم على قابلية واستعداد للهدى والضلال، كما مكنهم من كسب أفعالهم، ووضح لهم طريق الخير من الشر، فكان منهم المهتدون، وهم الذين شاء الله تعالى إدخالهم في رحمته، ومنهم الظالمون الذين ظلموا أنفسهم بحرمانها من الهداية، وظلموا غيرهم بالتعدي على حقوقهم فتجاوزوا الحد، فهؤلاء ليس لهم ولي يدفع عنهم ما حاق بهم، ولا نصير يثأر لهم[2].

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٧٦١.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٥/ ٣٥.

٦. عمل السيئات.

يقول الله عز وجل: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء:١٢٣].

أي: ليس أمر النجاة والتزكية بالأماني التي يمني بها أهل الكتاب أنفسهم، وهي عبارة عن أحاديث وتوهمات وتخيلات مجردة عن العمل الصالح، فقد أخبر الله تعالى عن هذه الأماني عندما قالوا: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ [البقرة:١١١].

فإن مجرد الانتساب إلى أي دين كان لا يفيد صاحبه شيئًا إن لم يأت بعمل صالح يبرهن على صدق دعواه، لذلك يقول الله: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾.

والسوء هي كلمة شاملة لأي ذنب كان صغيرًا أم كبيرًا، قليلًا أم كثيرًا، دنيويًا أم أخرويًا.

والناس في هذا الأمر درجات لا يعلمها إلا الله تعالى، فمنهم مقل ومنهم مكثر، ومن كان عمله كله سوءًا -وهذا لا ينطبق إلا على الكافر- فإذا مات دون توبة إلى الله عز وجل جوزي بالخلود في العذاب الأليم يوم القيامة.

وحينئذٍ ليس له ولي يحصل له المطلوب به، ولا نصير يدفع عنه المرهوب إلا الله تعالى. أما من كان مستقيمًا في أغلب أحواله، ويعمل الصالحات، ويصدر عنه من بعض الذنوب الصغيرة، فما يصيبه من هم أو غم، أو أذى في نفسه، أو ماله، أو أهله، فإنها مكفرات لهذه الذنوب التي قدرها الله تعالى لطفًا بعباده[1].

كما يحذر الله عز وجل عباده من اللهو واللعب، وإضاعة العمر فيما لا يفيد، فضلًا عن عمل السيئات والذنوب، فيأمر الله تعالى نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام:٧٠].

أي: يا أيها الرسول دع الذين اتخذوا دينهم -الذي كان يجب أن يتبعوا تعاليمه، ويهتدوا به- اتخذوه لعبًا ولهوًا، فإنهم لما عملوا هذه الأعمال التي ختم الله تعالى بها على قلوبهم، ودس بها على نفوسهم، ولم يعملوا ليوم لا ينفع فيه مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم.

فأضاعوا أعمارهم فيما لا يفيد، وهو

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٢٠٥.

اللعب، وشغلوا أنفسهم عن الجد والعمل المفيد، وهو اللهو، وغرتهم الحياة الدنيا، وغرهم بالله الغرور، فيا أيها الرسول أعرض عن هؤلاء، ولا تبال بأمثالهم، ولكن ذكر بالقرآن من يخاف وعيدي؛ لأنهم هم المنتفعون بالامتثال لأوامري، والاجتناب لنواهي؛ لئلا تبسل نفس بما كسبت، أي قبل اقتحام العبد للذنوب، وتجرئه على الله عز وجل.

فذكرها يا محمد وعظها؛ لترتدع وتنزجر عن فعل ما لا يليق بالمؤمنين، فلن يكون لهذه النفس ولي ولا شفيع إن أحاطت بها ذنوبها، ومن ثم فلا ينفعها أحد من الخلق، لا قريب ولا صديق، ولا يتولى أمرها أحد من دون الله تعالى، كما لا يشفع لها شافع، وإن افتدت نفسها بملء الأرض ذهبًا، فلا يقبل منها ولا يفيد، فأولئك الموصوفون بتلك الصفات هم الذين أهلكوا أنفسهم وحرموها من الخير، فجزاؤهم ماء حار يشوي وجوههم، ويقطع أمعاءهم، وعذاب أليم بسبب ما كانوا يكفرون به[1].

٧. الاستكبار.

الاستكبار حالة تمنع صاحبها من نيل ولاية الله تعالى له، وفي هذا يقول الله عز وجل: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ۖ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء:١٧٣-١٧٢].

والمعنى: لن يأنف ولن يترفع المسيح عليه السلام أن يكون عبدًا لله عز وجل، مستمرًا على عبادته وطاعته، حسب وظيفة العبودية التي شرف الله تعالى بها عباده، وكذلك الملائكة المقربون لن يأنفوا أن يكونوا عبيدًا لله عز وجل، ثم بين الله تعالى على سبيل التهديد أن من يستنكف عن طاعة الله تعالى، ويطلب الكبر لنفسه من غير استحقاق له، فسوف يحشر المستنكفين إليه جميعًا لمحاسبتهم.

فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ووصفوا بعدم الاستنكاف، فسيوفيهم الله تعالى أجورهم من غير أن ينقص منها شيئًا، ويزيدهم من فضلها بتضعيفها أضعافًا مضاعفة، وبإعطائهم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وأما الذين استنكفوا وترفعوا عن عبادة الله جل جلاله، واستكبروا، فسوف يعذبهم بسبب استنكافهم واستكبارهم عذابًا أليمًا

(١) انظر: أوضح التفاسير، محمود حجازي، ص٦٢٧، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٢٦١.

لا يحيط به وصف، كما لا يجدون لهم من دون الله تعالى وليًا يلي أمورهم، ويدبر مصالحهم، ولا نصيرًا ينصرهم من بأسه عز وجل، وينجيهم من عذابه[1].

ولاية الملائكة للمؤمنين

يتضمن الحديث في هذا المبحث عن أسباب ولاية الملائكة للمؤمنين وشرحها، وكذلك بيان الآثار المترتبة على ولاية الملائكة للمؤمنين، وتوضيح ذلك كما يأتي:

أولًا: أسباب ولاية الملائكة للمؤمنين:

من خلال النظر في آيات الموضوع نجد أن الأسباب التي ذكرها القرآن الكريم، وجعلها موجبة لولاية الملائكة للمؤمنين تتمثل في ثلاثة أسباب:

١. **إنعام الله عز وجل على أنبيائه بالنبوة والوحي والرسالة.**

وخصوصًا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، كما تحدث القرآن عن ولاية الملائكة للنبي صلى الله عليه وسلم، وخاصة أمين الوحي جبريل عليه السلام في معرض الحديث عن أمرٍ حدث بين النبي صلى الله عليه وسلم وبعض زوجاته.

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِىُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝٣ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٣-٤].

---

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٢/ ٢٦٠.

والمعنى: واذكر وقت إذ أسر النبي صلى الله عليه وسلم إلى حفصة حديثًا ما، فسره ابن عباس بأنه ذات يوم اطلعت حفصة على النبي صلى الله عليه وسلم وهو مع مارية أم ولده إبراهيم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لحفصة: لا تخبري عائشة، وذكر لها أن أباها عمر بن الخطاب، وأبا عائشة أبا بكر الصديق سيليان أمر الخلافة بعد النبي صلى الله عليه وسلم، ولكن لم تكتم حفصة سر رسول الله صلى الله عليه وسلم لها، فانطلقت إلى عائشة وأخبرتها.

فأطلع الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم على ما حدث، فأظهر بعضه، وأعرض عن ذكر البعض الآخر، وجازى النبي صلى الله عليه وسلم حفصة على ما بدر منها بأن طلقها طلقة واحدة، فقال لها عمر: لو كان في آل الخطاب خير لما طلقك رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فأمره جبريل بمراجعتها، وشفع فيها، وهناك رواية أخرى تذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم قد هم بطلاقها حتى قال له جبريل: لا تطلقها فإنها صوامة قوامة، وإنها من نسائك في الجنة، فلم يطلقها. فلما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم حفصة بما أطلعه الله عز وجل عليه، قالت: من أنبأك بهذا يا رسول الله؟ -وكانت قد ظنت أن عائشة أخبرته- فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم: نبأني العليم الخبير الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

وبعد ذلك حث الله عز وجل كلًا من حفصة وعائشة على التوبة على ما كان منهما من الميل إلى خلاف محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد مالت قلوبهما وزاغت عن الحق حتى أحبتا ما كره النبي صلى الله عليه وسلم من اجتناب جاريته مارية.

ثم أخبرهما على سبيل التهديد لهما بأنهما إن تتظاهرا وتتعاونا على النبي صلى الله عليه وسلم بالمعصية والإيذاء، فإن الله جل جلاله هو وليه وناصره، وحينئذٍ لا يضره ذلك التظاهر منهما، وكذلك جبريل عليه السلام هو مولاه، بالإضافة إلى صالح المؤمنين وخيارهم أيضًا، وكذلك الملائكة كلهم هم ظهراء وولاة وأعوان للنبي صلى الله عليه وسلم[1].

٢. اعتراف المؤمنين الذين هم أولياء الله عز وجل بربوبيته، والتسليم لأوامره.

٣. استقامة المؤمنين على الصراط المستقيم علمًا وعملًا.

وهذان السببان قد وردا في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٨/١٨٦.

﴿٣٠ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ٣١ نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢].

فهذا حال المؤمنين دائمًا حيث يقولون: ربنا الله وحده لا شريك له، ثم استقاموا على هذا التوحيد، ولم يلتفتوا إلى إله غير الله عز وجل، وأورد المفسرون أقوالًا في معنى استقامتهم، منها: إخلاصهم العمل لله تعالى، حيث عملوا بطاعته، واجتنبوا معصيته، ومنها: استقاموا على شهادة أن لا إله إلا الله حتى ماتوا، ومنها: عملهم على وفق ما قالوا، ومنها: إعراضهم عما سوى الله تعالى، ومنها: زهدهم في الدنيا ورغبتهم في الآخرة[1].

ولا مانع من كون هذه المعاني جميعها تدخل في معنى الاستقامة.

ثانيًا: آثار ولاية الملائكة للمؤمنين:

تتمثل آثار ولاية الملائكة للمؤمنين في النقاط الآتية:

أولًا: ورد ذكر آثار ولاية الملائكة للمؤمنين في نفس الموضع الذي ذكرت فيه الأسباب والموجبات، حيث قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ٣٠ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ٣١ نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢].

فهؤلاء المؤمنون الذين أقروا بربوبية الله تعالى وتوحيده، وداموا على هذا التوحيد حتى ماتوا، فلم يلتفتوا إلى إله غيره عز وجل، واستقاموا وثبتوا على أمر الله تعالى فامتثلوا لأوامره، واجتنبوا نواهيه، فهؤلاء يستحقون ولاية الملائكة لهم، فقد ورد في الحديث عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: (قلت: يا رسول الله، حدثني بأمر أعتصم به، فقال: (قل: ربي الله، ثم استقم) قلت: يا رسول الله، ما أخوف ما تخاف علي؟ قال: فأخذ بلسان نفسه، ثم قال: (هذا)[2].

ثانيًا: إن ولاية الملائكة لهؤلاء المؤمنين تكون بتنزل الملائكة عليهم بما يشرح صدورهم، ويدفع عنهم المخاوف والأحزان، كأن يبشروهم بنجاتهم عند الموت، وفي القبر وعند البعث، وكذلك إزالة الخوف من أهوال الآخرة، وإذهاب الحزن عما فاتهم من أمور الدنيا من أهل وما وولد، فإذا ذهبت أحزان الماضي،

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٤/ ٥٩٠.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ١٥٤١٩، ٢٤/ ١٤٥.
وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، رقم ٢٨٦٢، ٣/ ٥٦.

وأزيلت مخاوف المستقبل، حصلت الطمأنينة والسعادة وانشراح الصدر، كما إن الملائكة تقول لهم: أبشروا بدخول الجنة التي وعدكم الله تعالى بها على ألسنة أنبيائه ورسله، فإنكم ستستقرون بها، وتخلدون في نعيمها إلى الأبد.

ثم أخبر الله عز وجل عن قول الملائكة للمؤمنين: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أي: نحن نتولى أمور حفظكم ومعونتكم في الدنيا والآخرة، حيث ندفعكم إلى السداد والتوفيق والحفظ بأمر من الله تعالى، فنحثكم على فعل الخير، ونرهبكم من فعل الشر.

هذا في الدنيا، أما في الآخرة فإننا نكون معكم أيضًا حيث نؤنس وحشتكم في قبوركم، ونكون معكم عند النفخة في الصور، كم نؤمنكم من الفزع يوم البعث والنشور، ونجاوز بكم الصراط، ونوصلكم إلى جنات النعيم، كما أن لكم في الجنة جميع ما تختارون وتطلبون وتشتهون، من أصناف اللذات وأنواع الطيبات مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

فكل ما تتمنونه تحصلون عليه، فهو معدٌّ لكم سلفًا ضيافةً وعطاءً ومنًا من الله جل جلاله الذي غفر لكم ذنوبكم، ووفقكم لفعل الحسنات، ثم قبلها منكم، فبمغفرته أزال عنكم المحذور، وبرحمته أنالكم المطلوب[1].

ثالثًا: إن ولاية الملائكة لهؤلاء المؤمنين تكون بتثبيت المؤمنين في ساحات الجهاد كما قال الله عز وجل: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال:١٢].

والمعنى: اذكروا أيها المؤمنون نعمة ربكم عليكم حين أوحى إلى الملائكة أن الله جل جلاله معكم بالعون والتأييد والنصر.

فأمر الملائكة أن تلقي في قلوب المؤمنين وتلهمهم الجرأة على عدوهم، وترغبهم في الجهاد وفضله، فإن الله تعالى سوف يلقي في قلوب الكافرين الرعب الذي هو أعظم جند للمؤمنين على الكافرين.

فإن الله عز وجل إذا ثبت المؤمنين وألقى الرعب في قلوب الكافرين، لم يقدر الكافرون على الثبات لهم ومكنهم الله تعالى منهم، حينئذٍ يأمر الله عز وجل المؤمنين أن يضربوا أعناقهم ومفاصلهم.

وهذا الخطاب إما أن يكون للملائكة الذين أوحى الله تعالى إليهم أن يثبتوا الذين

---

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ٢٧/ ٢٢٣، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٧٤٨.

آمنوا فيكون في ذلك دليل أنهم باشروا القتال يوم بدر، أو يكون الخطاب للمؤمنين بحيث يشجعهم الله، ويعلمهم كيف يقتلون المشركين، وأنهم لا يرحمونهم، وذلك لأنهم شاقوا الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، أي: حاربوهما وبارزوهما بالعداوة[(١)].

ولاية المؤمنين

يقتضي الحديث عن ولاية المؤمنين بيان موجبات هذه الولاية بين بعضهم البعض، بالإضافة إلى بيان آثار هذه الولاية على أصحابها، وكذلك بيان آثار ولاية المؤمنين للكافرين والظالمين وآثارها، وتوضيح ذلك فيما يأتي:

أولًا: موجبات ولاية المؤمنين بعضهم البعض:

هناك أمورٌ أو صفات تجمع بين المؤمنين مما يؤهلهم أو يوجب عليهم أن تكون الولاية بين بعضهم البعض، وقد ذكرت بعض آيات القرآن الكريم هذه الموجبات.

ومنها قول الله عز وجل: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

فهذه الآية إما أن تكون على سبيل الإخبار من الله تعالى أن الدين الذي اعتنقه هؤلاء المؤمنون، وتمسكوا به، يوجب لهم الولاية، فيصير بعضهم أولياء لبعض، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

وإما أن يكون على سبيل الأمر، أي يأمر

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، ص٣١٦.



الله عز وجل المؤمنين أن يتخذوا بعضهم أولياء بعض، ولا يتخذوا غيرهم أولياء، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الممتحنة: ١][١].

وذكر الماتريدي في تفسيره نوعين للولاية بين المؤمنين: أحدهما: ولاية روحانية، والأخرى: ولاية نفسانية، فقال: «**الأولى**: ولاية روحانية، وهي ولاية في الدين توجب مراعاة حقوق تحدث بالدين الذي جمعهم وحفظها.

والثانية: ولاية نفسانية، وهي الولاية التي تكون في الأنفس والأموال، من نحو ولاية النكاح والميراث وغيره.

فهذه الولاية هي الولاية النفسانية التي كانت بالرحم والنسب، فإذا اجتمعوا في دين واحد وجبت تلك الولاية لهم، وهي الولاية نفسها، والولاية الروحانية هي المودة والمحبة، فيجب مراعاتها بالدين وتعاهدها، وهذا كما تقول: حياة روحانية وحياة جسدانية، والحياة الروحانية: هي العلم والآداب، يرى أشياء ويعرفها من بعد الحياة الجسدانية: وهي الروح الذي به يحيا الجسد، وبذهابه يموت الجسد، والله أعلم»[٢].

فهؤلاء المؤمنون والمؤمنات المصدقون بالله عز وجل، وبرسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وبالقرآن العظيم، فإن صفتهم أن بعضهم أنصار بعض وأعوانهم وقلوبهم متحدة في التواد والتحاب والتعاطف.

وعليه تكون هذه الموجبات متمثلة في النقاط الآتية:

أولًا: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ فإن الدين الذي اعتنقه هؤلاء المؤمنون، وتمسكوا به، يوجب لهم الولاية، فيصير بعضهم أولياء لبعض.

ثانيًا: ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي يأمرون الناس بالإيمان بالله تعالى وبرسوله صلى الله عليه وسلم، وبما جاء به من عند الله تعالى، والمعروف هو اسم جامع لكل ما عرف حسنه من بر وخير، من العقيدة الحسنة، والأعمال الصالحة، والأخلاق الفاضلة، وأول ما يأمرون به أنفسهم.

ثالثًا: ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ وهو كل ما خالف المعروف وناقضه من العقائد الباطلة المزيفة، والأعمال الخبيثة، والأخلاق الرذيلة، فهم أول ما ينهون أنفسهم عنه.

---

(١) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٥/ ٤٢٦.

(٢) المصدر السابق، ص٤٢٦.

رابعًا: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ فيؤدون الصلاة على أكمل وجه، ويخرجون زكاة أموالهم، ويعطونها لمستحقيها.

خامسًا: ﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: لا يزالون ملازمين لطاعة الله عز وجل، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم على الدوام[1].

يقول سيد قطب رحمه الله: «إن طبيعة المؤمن هي طبيعة الأمة المؤمنة، طبيعة الوحدة وطبيعة التكافل، وطبيعة التضامن، ولكنه التضامن في تحقيق الخير ودفع الشر. ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ وتحقيق الخير ودفع الشر يحتاج إلى الولاية والتضامن والتعاون، ومن هنا تقف الأمة المؤمنة صفًا واحدًا.

لا تدخل بينها عوامل الفرقة ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ يتجهون بهذه الولاية إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإعلاء كلمة الله، وتحقيق الوصاية لهذه الأمة في الأرض.

﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ الصلة التي تربطهم بالله.

﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ الفريضة التي تربط بين الجماعة المسلمة، وتحقق الصورة المادية والروحية للولاية والتضامن.

﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فلا يكون لهم هوى غير أمر الله وأمر رسوله، ولا يكون لهم دستور إلا شريعة الله ورسوله، ولا يكون لهم منهج إلا دين الله ورسوله، ولا يكون لهم الخيرة إذا قضى الله ورسوله، وبذلك يوحدون نهجهم ويوحدون هدفهم ويوحدون طريقتهم، فلا تتفرق بهم السبل عن الطريق الواحد الواصل المستقيم»[2].

وفي موضع آخر بين الله تعالى من هو الولي الذي تجب موالاته، فقال: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ [المائدة:٥٥].

أي: إن الولي الذي يجب على المؤمنين اتخاذه هو الله جل جلاله، ورسوله صلى الله عليه وسلم، والمؤمنون الذين من صفاتهم أنهم يقيمون الصلاة في أوقاتها المفروضة، ويؤدونها على أكمل وجه بكل خشوع وخضوع، وكذلك فهم يؤتون الزكاة ويؤدونها لمستحقيها غير متكبرين على الفقراء، ولا مترفعين عليهم[3].

ويروى في سبب نزول الآية أن عبد الله بن سلام جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله إن قومًا من قريظة والنضير قد هاجرونا وفارقونا وأقسموا أن

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٤/ ٣٤٧، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٣٤٣.
(٢) في ظلال القرآن، ٣/ ١٦٧٥.
(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٢/ ٥٩.

لا يجالسونا، ولا نستطيع مجالسة أصحابك لبعد المنازل، وشكى ما يلقى من اليهود، فنزلت هذه الآية، فقرأها عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: رضينا بالله وبرسوله وبالمؤمنين أولياء[1].

ونلحظ من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ﴾ أن هذا أسلوب حصر يفيد القصر، أي: حصر وقصر الولاية الحقة فقط في وجوب الولاية لله عز وجل، ولرسوله صلى الله عليه وسلم، وللمؤمنين فقط، وما عداها فالمؤمنون منهيون عن اتخاذهم أولياء بالمصادقة والمناصرة والمعاونة، ويجب التبرؤ منهم.

هذا وقد كانت الموالاة والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار في بداية الدعوة الإسلامية في العهد المدني على أساس التوارث بينهم؛ لتعزيز هذا المفهوم وترسيخه بينهم، حيث قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوا وَّنَصَرُوٓا أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال:٧٢].

والمعنى: إن الذين آمنوا وهاجروا من مكة حبًا لله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله تعالى، وهم الذين سموا بالمهاجرين، وكذلك الأنصار الذين آووا أولئك المهاجرين، ونصروهم على أعدائهم، فإنه يتولى بعضهم بعضًا في الميراث، فكان كل من المهاجرين والأنصار يتوارثون بالهجرة دون القرابة من الرحم والنسب، حتى نسخ ذلك بقوله: ﴿وَأُوْلُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا﴾ [الأحزاب:٦][2].

ثانيًا: آثار ولاية المؤمنين لبعضهم:

بعد أن ذكر الله عز وجل موجبات ولاية المؤمنين لبعضهم البعض، وصف آثار هذه الولاية الحقة للمؤمنين سواء كانت في الدنيا أم في الآخرة، وهي متمثلة في النقاط الآتية:

أولًا: رحمة الله عز وجل بهم: كما في قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:٧١].

فهؤلاء المؤمنون والمؤمنات المتصفون

(١) انظر: أسباب النزول، الواحدي، ص١٩٩.

(٢) انظر: مدارك التنزيل، النسفي، ١/ ٦٥٨.

بتلك الصفات الموجبة لولاية بعضهم البعض سيفيض الله تعالى عليهم من آثار رحمته، ويشملهم بإحسانه، فأي شيء يبتغيه المؤمنون فوق رحمة الله عز وجل، وأي شيء يطلبون بعد فوزهم بجنته؟ فقد جعل الله تعالى سبب الوصول إلى رحمته يسيرًا سهلًا، وليس عسيرًا شاقًا؛ بل هو طلب كل إنسان عاقل يتصف بالصفات الواردة في الآية[1].

يقول سيد قطب رحمه الله: «والرحمة لا تكون في الآخرة وحدها، إنما تكون في هذه الأرض أولًا، ورحمة الله تشمل الفرد الذي ينهض بتكاليف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وتشمل الجماعة المكونة من أمثال هذا الفرد الصالح. رحمة الله في اطمئنان القلب، وفي الاتصال بالله، وفي الرعاية والحماية من الفتن والأحداث، ورحمة الله في صلاح الجماعة، وتعاونها، وتضامنها واطمئنان كل فرد للحياة، واطمئنانه لرضاء الله»[2].

ثانيًا: الغلبة: كما في قول الله عز وجل: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة:٥٦].

قال الطبري: «وهذا إعلامٌ من الله -تعالى ذكره- عباده جميعًا الذين تبرؤوا من حلف اليهود وخلعوهم رضًا بولاية الله ورسوله والمؤمنين، والذين تمسكوا بحلفهم، وخافوا دوائر السوء تدور عليهم، فسارعوا إلى موالاتهم أن من وثق بالله وتولى الله ورسوله والمؤمنين، ومن كان على مثل حاله من أولياء الله من المؤمنين، لهم الغلبة والدوائر والدولة على من عاداهم وحادهم؛ لأنهم حزب الله، وحزب الله هم الغالبون، دون حزب الشيطان»[3].

ثالثًا: الفلاح في الدنيا والآخرة: كما في قوله عز وجل: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة:٢٢].

والمعنى: لا تجد قومًا يجمعون بين الإيمان بالله عز وجل واليوم الآخر، وبين مودة أعداء الله تعالى ورسله، فلا يجتمع هذان ولا يتحققان.

وفي هذا التوصية بمجانبة أعداء الله عز وجل ومباعدتهم، والاحتراس من

(١) انظر: أوضح التفاسير، محمد الخطيب، ص٢٣٤.

(٢) في ظلال القرآن، ٣/ ١٦٧٦.

(٣) جامع البيان، ١٠/ ٤٢٧.

مخالطتهم ومعاشرتهم حتى ولو كان آباء الموادين، أو أبناءهم، أو إخوانهم، أو عشيرتهم، فإن قضية الإيمان تستلزم هجر المحادين حتى ولو كانوا أقرباءهم، فأولئك الذين لا يوادون من حاد الله ورسوله، أثبت الله تعالى في قلوبهم الإيمان، وقواهم بنصرٍ منه على عدوهم في الدنيا، وسمى نصره لهم روحًا؛ لأن به يحيا أمرهم، وليس هذا فقط؛ بل يدخلهم يوم القيامة جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها إلى الأبد.

فرضي الله تعالى عنهم، وقبل أعمالهم، وأفاض عليهم آثار رحمته العاجلة في الدنيا والآجلة في الآخرة، كما أنهم رضوا عن الله عز وجل، ففرحوا بما أعطاهم عاجلًا وآجلًا، فأولئك حزب الله تعالى وجنده الذين يمتثلون أوامره، ويقاتلون أعداءه، وينصرون أولياءه، ألا إن حزب الله تعالى هم الفائزون بسعادة الدارين الدنيا والآخرة، وهم الكاملون في الفلاح[1].

وهكذا تتجلى آثار ولاية المؤمنين لبعضهم البعض في الدنيا والآخرة.

ثالثًا: ولاية المؤمنين للكافرين والظالمين:

لقد حذر الله تعالى المؤمنين وتوعدهم على سبيل التهديد من اتخاذهم الكافرين والظالمين أولياء من دون المؤمنين، وبينًّا سابقًا أن الولاية الحقة قد حصرها الله تعالى في ولاية المؤمنين لله عز وجل، ولرسوله صلى الله عليه وسلم، والمؤمنين أمثالهم، فتترتب على ولاية المؤمنين للكافرين والظالمين جملة من الآثار، ومنها:

أولًا: براءة الله تعالى منه: يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران:٢٨].

والمعنى أنَّ الله تعالى ينهى المؤمنين أن يتخذوا الكفار أعوانًا وأنصارًا يوالونهم على دينهم، ويظاهرونهم على المسلمين من دون المؤمنين، ويدلونهم على عوراتهم وأسرارهم، وتوعد الله تعالى أن من يفعل ذلك فقد برئ من الله تعالى، وبرئ الله تعالى منه، حيث ارتد عن دينه، ودخل في الكفر.

ثم استثنى من هذا الأمر حالة واحدة، وهي إذا كان المؤمنون تحت سلطان الكافرين، وكانوا في حالة ضعف يخافونهم على أنفسهم، فحينئذٍ يظهرون لهم الولاية باللسان فقط، ويضمرون لهم العداوة، فلا يعينونهم على مسلم، ولا يشايعونهم على ما هم عليه من كفر[2].

(١) انظر: فتح البيان، محمد صديق القنوجي، ١٤/ ٣٣.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ٦/ ٣١٣.

ثانيًا: وقوعهم في دائرة الكفر: حيث يقول جلَّ جلاله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

والمعنى أن الله تعالى ينهى المؤمنين عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء، بحيث يعاملونهم معاملة الأولياء في المصادقة والمعاشرة والمناصرة، وعلل الله تعالى هذا النهي بأن هؤلاء اليهود والنصارى بعضهم أولياء بعض، فكيف تتخذونهم أولياء؟

فبعض اليهود أولياء البعض الآخر منهم، وكذلك بعض النصارى أولياء البعض الآخر منهم، فهم يتعاضدون فيما بينهم، ويتناصرون على عداوة النبي صلى الله عليه وسلم وعداوة القرآن الذي جاء به من عند الله تعالى، ووجه تعليل هذا النهي أن هذه الموالاة هي شأن الكفار لا شأن المؤمنين، فلا يفعلوا ما هو من فعلهم، فيكونوا أمثالهم؛ لذلك عقب الله تعالى هذه الجملة التعليلية بما هو كالنتيجة لها فتوعدهم وعيدًا شديدًا أن من يتولاهم منكم، فإنه من جملتهم وفي عدادهم.

ثم علل الله تعالى ذلك بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: إن وقوع المؤمنين في الكفر إذا والوا الكفار هو بسبب عدم هداية الله تعالى لمن ظلم نفسه بما يوجب الكفر[1].

يقول السعدي رحمه الله في تفسيره لهذه الآية: «يرشد تعالى عباده المؤمنين حين بين لهم أحوال اليهود والنصارى وصفاتهم غير الحسنة، أن لا يتخذوهم أولياء. فإن بعضهم أولياء بعضٍ يتناصرون فيما بينهم ويكونون يدًا على من سواهم، فأنتم لا تتخذوهم أولياء، فإنهم الأعداء على الحقيقة ولا يبالون بضركم؛ بل لا يدخرون من مجهودهم شيئًا على إضلالكم، فلا يتولاهم إلا من هو مثلهم.

ولهذا قال: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ لأن التولي التام يوجب الانتقال إلى دينهم، والتولي القليل يدعو إلى الكثير، ثم يتدرج شيئًا فشيئًا، حتى يكون العبد منهم. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: الذين وَصْفُهُم الظلم، وإليه يرجعون، وعليه يعولون، فلو جئتهم بكل آية ما تبعوك، ولا انقادوا لك»[2].

ثالثًا: الحكم عليهم بالضلال: كما في قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٢/ ٥٧.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص٢٣٥.

﴿...أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ۝١ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ [الممتحنة:١-٢].

وكان سبب نزول هاتين الآيتين متمثلًا في قصة حاطب بن أبي بلتعة، وهو رجل من المهاجرين، وشهد غزوة بدر، وكان له في مكة مال وأولاد، ولم يكن حاطب من قريش نفسها؛ بل كان حليفًا لعثمان، فلمَّا عزم الرسول صلى الله عليه وسلم على فتح مكة بعدما نقضت قريش صلح الحديبية، أمر النبي صلى الله عليه وسلم بتجهيز الغزو، واستعان على ذلك بقوله صلى الله عليه وسلم: (اللهم عم عليهم خبرنا).

فذهب حاطب وكتب كتابًا إلى قريش يعلمهم بما عزم عليه النبي صلى الله عليه وسلم، وبعثه مع امرأة من قريش إلى أهل مكة، وفعل ذلك؛ ليتخذ به عندهم يدًا، فأطلع الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم على ذلك، وهذا من باب استجابة الله تعالى لدعاء النبي صلى الله عليه وسلم السابق.

فبعث النبي صلى الله عليه وسلم عليًّا ابن أبي طالب والزبير والمقداد في طلب المرأة وأخذ الكتاب منها، حتى وصلوا إلى روضة خاخ، فوجدوها وأمروها بإخراج الكتاب، فنفت وجوده معها، فهددوها إما أن تخرج الكتاب، وإما أن ينزعوا الثياب ليخرجوه بأنفسهم، فأخرجت الكتاب من عقاصها، وأتوا به إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فكلم النبي صلى الله عليه وسلم حاطبًا وسأله عن سبب ما فعل، فأجاب: لا تعجل عليَّ، إني كنت امرءًا ملصقًا في قريش، ولم أكن من أنفسهم، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهليهم بمكة، فأحببت إذ فاتني من ذلك النسب فيهم أن أتخذ فيهم يدًا يحمون بها قرابتي، وما فعلت ذلك كفرًا ولا ارتدادًا عن ديني، ولا رضًا بالكفر بعد الإسلام.

فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: (إنه صدقكم) واستأذن عمر بن الخطاب من النبي صلى الله عليه وسلم في ضرب عنقه، فنهاه النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك، وقال: (إنه قد شهد بدرًا، وما يدريك لعل الله اطلع إلى أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم) فأنزل الله تعالى الآيتين[1].

والمعنى أن الله تعالى ينهى المؤمنين عن اتخاذ المشركين والكفار الذين هم محاربون لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين، فهم الذين شرع الله تعالى عداوتهم ومجانبتهم، ونهى أن يُتَّخَذُوا أولياء وأصدقاء وأخلاء، فهم قد

(١) انظر: أسباب النزول، الواحدي، ص٤٢١.

أخرجوا الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه من بين أظهرهم؛ لما كرهوا منهم ما هم عليه من التوحيد وإخلاص العبادة لله عز وجل وحده، فلم يكن لكم ذنب عندهم إلا أنكم مؤمنون بالله رب العالمين، فإن كنتم خرجتم جهادًا في سبيل الله تعالى تبتغون مرضاتي، فلا توالوهم، فهم أعدائي وأعداؤكم، وقد أخرجوكم من دياركم وأموالكم؛ حنقًا عليكم، وسخطًا لدينكم، فإن أسررتم لهم بالمودة، فأنا أعلم بالسرائر والضمائر والظواهر، ومن يفعل ذلك فقد ضل الطريق المستقيم.

ولو قدر عليكم هؤلاء الكفار المشركون لما اتقوا منكم أذى ينالونكم به من القول والفعل، كما أنهم يحرصون على ألا تنالوا خيرًا، فعداوتهم لكم كامنة وظاهرة، فكيف توالون أمثال هؤلاء، ولا يخفى ما في هذا من تهييج للمؤمنين على عداوة الكافرين[1].

وخلاصة القول: أن من يوالي الكفار من المؤمنين دون عذر فهو منهم، وقد ارتد عن دينه، ورضي بالكفر بعد الإسلام، وقد ضل سواء السبيل، وقد ظلم نفسه بفعله هذا مما يعرضها لعقاب الله عز وجل في الدنيا والآخرة.

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٨/٨٥٨.

ولاية الشيطان

يتطلب الحديث عن ولاية الشيطان توضيح صفات أولياء الشيطان، ومن ثم توضيح آثار هذه الولاية على أصحابها، وبيان ذلك كما يأتي:

أولًا: صفات أولياء الشيطان:

إن أولياء الشيطان قد اتصفوا بصفات سبغت عليهم نتيجة ولايتهم للشيطان، حيث أكسبهم الشيطان هذه الصفات كي يقوموا بمهمتهم في مساعدته في إغواء الخلق، وقد تحدث القرآن الكريم عن تلك الصفات، فهي متمثلة فيما يأتي:

١. الشرك وعدم الإيمان.

يقول الله عز وجل: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف:٢٧].

ففي هذه الآية يحذر الله تعالى بني آدم أن يفعل بهم الشيطان كما فعل بأبيهم آدم عليه السلام، حين زين له المعصية، ودعاه إليها، ورغبه فيها، ومن ثم كانت النتيجة أن انقاد له، فأنزل آدم وحواء من مكانهما العالي المرموق، فكما فعل بأبيهم ما فعل، كذلك يريد أن يفعل ببنيه، وهو لا يألو جهدًا

عنهم حتى يفتنهم عن دينهم إن استطاع، فعلى جميع المؤمنين أخذ الحذر منه، ولا يغفلوا عن المداخل التي يدخل منها الشيطان إليهم، فإن الشيطان يراقبهم على الدوام، ويراهم هو وقبيله من شياطين الجن من حيث لا يرونهم، فالله عز وجل جعل الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون، فعدم الإيمان موجب لعقد الولاية بين الإنسان والشيطان[1].

أما المؤمنون فقد أخبر الله تعالى أنه لم يجعل للشيطان عليهم سلطانًا ولا سبيلًا، حيث قال جل جلاله: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ﴾ [النحل:٩٩-١٠٠].

فالمشركون الذين يتصفون بالشرك وعدم الإيمان هم أولياء الشيطان.

٢. الاغترار بالباطل.

تعد هذه الصفة مهمة في طريق اتباع الشيطان، ويكسبها الشيطان لأوليائه حتى يغويهم به، فالشيطان لا يحارب أهل الحق وحده؛ بل يحتاج إلى أتباع ومعاونين ومناصرين، ولا بد أن يكون هؤلاء الأتباع بعيدين كل البعد عن الحق والإيمان، ولا يتأتى هذا البعد إلا بزيادة اغترارهم بالباطل الذي هم عليه، فلا يرون الحق إلا فيما هم عليه، وغيره لا يكون صوابًا، فيدخل الشيطان إلى نفوس أتباعه من مدخل يتميز بضعفهم فيه، ألا هو حب الذات والظهور، فيبدأ الشيطان بالوسوسة لأتباعه، ويوحي إليهم أنه على حق، وأنهم هم الأقوى، وأن عليهم الآن محاربة المؤمنين بكل ما يتصفون به من كبر وغرور[2].

ويؤكد هذا الأمر قول الله عز وجل: ﴿يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء:١٢٠].

ولقد بين الله تعالى هذه الصفة للشيطان وأتباعه المتصفين بالغرور بما هم عليه من باطل، حيث قال: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٧٥].

أي: يخوفهم أولياءه، ويوهمكم أنهم ذوو بأس وشدة[3].

والمعنى: أيها المؤمنون، إنما الذي خوفكم بجموع عدوكم ومسيرهم إليكم هو الشيطان، فهو يخوفكم بأوليائه من المشركين؛ وذلك لترهبوهم، وتخافوهم، فنهاهم الله عز وجل عن خوف المشركين الذين هم أولياء الشيطان، وألا يعظم عليهم

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٢٨٦.

(٢) انظر: الشيطان خطواته وغاياته، وائل بشير، ص١٢٤.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢/ ١٧٢.

أمرهم، ولا يرهبوا جمعهم مع طاعتهم لله تعالى، واتباعهم أمره، فإنه جل جلاله متكفل للمؤمنين بالنصر والظفر، ثم وجههم إلى أن يكون هذا الخوف من الله -تعالى وحده-، فلا يعصوه ويخالفوا أمره إن كانوا مصدقين للرسول صلى الله عليه وسلم، وما جاءهم به من عند الله عز وجل [(١)].

وعليه فإن الشيطان يجعل أولياءه مغترين بالباطل الذي هم عليه، فيعظم صورة أوليائه في نظر المؤمنين، ويستعمل هؤلاء الأتباع والأولياء لتخويف المؤمنين.

٣. الخوف من الشيطان.

إذا كان الشيطان قد أغرى حب الذات والظهور في أوليائه، وهو من أشعل فيهم الكبر والغرور، وسخرهم الشيطان للحرب على الحق وأهله، فإن هؤلاء الأولياء يصبحون ضعفاء أمام سيدهم الشيطان فيخافون منه، وينفذون أوامره، ولا يعصون منها شيئًا.

يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ﴾ [النحل:٩٩-١٠٠].

والمعنى: أن الله تعالى يخاطب نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم والمؤمنين من بعده أنه إذا أراد الشروع في قراءة القرآن الكريم أن يستعيذ بالله تعالى من الشيطان الرجيم، ومن وساوسه، فإن الشيطان ليس له تسلط على إغواء المؤمنين المتوكلين على ربهم حيث يفوضون أمرهم إليه في كل قول وفعل.

وعليه فإن الإيمان بالله عز وجل والتوكل عليه يمنعان الشيطان من وسوسته لهم، وإن وسوس لأحد منهم، فإن وسوسته لا تؤثر فيهم، فهم الذين قال فيهم إبليس: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [الحجر:٤٠].

وقال الله تعالى فيهم: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾ [الحجر:٤٢].

ثم حصر الله عز وجل تسلط الشيطان على الإغواء على الذين يتخذونه وليًّا حيث يطيعونه في وساوسه، كما أنهم مشركون بالله تعالى، أو أنهم مشركون بالله بسبب وسوسة الشيطان لهم [(٢)].

٤. الجدال بالباطل.

إن الحق والباطل في سجال شديد إلى يوم الدين، فكما أن الحق يحتاج إلى أعوان ليظهر وينتصر، فكذلك الباطل يحتاج إلى أعوان ونصراء ليواجه به الحق وأهله، فيواجهونهم به مرة، ويكيدون لهم مرة أخرى، فيزينون لهم الباطل، وهذا السجال من أهل الباطل الذين هم أولياء الشيطان

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٧/ ٤١٦.

(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٣/ ٢٣١.

يحتاج إلى جدال، فيقول الله عز وجل: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ﴾ [الحج:٣].

والمعنى: أنه يوجد من الناس من يخاصم ويجادل في دين الله تعالى بغير حجة ولا علم، ويتمرد على الله عز وجل. وقد بين الله تعالى أن ما يقوله هؤلاء الأولياء من جدال، وما يفعلونه من عداء للحق وأهله، إنما هو وحي من الشيطان إليهم، فيقول الله عز وجل: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:١٢١].

روى أبو داود في سبب نزول هذه الآية أن اليهود جاؤوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقالوا: نأكل مما قتلنا، ولا نأكل مما قتل الله؟! فأنزل الله تعالى هذه الآية[1].

والمعنى: أن الأكل مما لم يذكر اسم الله تعالى عليه فسق ومعصية، وإن الشياطين يوحون إلى أوليائهم ليجادلوا أهل الحق بغير علم، ومعلومٌ أن المجادلة هي دف القول على طريق الحجة بالقوة.

وإن أطعتموهم أيها المؤمنون في تحليل ما لم يذكر اسم الله تعالى عليه فإنكم مشركون بالله جل جلاله[2].

يقول السعدي رحمه الله: « فإن المشركين -حين سمعوا تحريم الله ورسوله الميتة، وتحليله للمذكاة، وكانوا يستحلون أكل الميتة قالوا معاندةً لله ورسوله، ومجادلةً بغير حجة ولا برهان: أتأكلون ما قتلتم، ولا تأكلون ما قتل الله؟

يعنون بذلك: الميتة، وهذا رأي فاسد، لا يستند على حجة ولا دليل؛ بل يستند إلى آرائهم الفاسدة التي لو كان الحق تبعًا لها لفسدت السماوات والأرض، ومن فيهن.

فتبًّا لمن قدم هذه العقول على شرع الله وأحكامه، الموافقة للمصالح العامة والمنافع الخاصة، ولا يستغرب هذا منهم، فإن هذه الآراء وأشباهها، صادرة عن وحي أوليائهم من الشياطين، الذين يريدون أن يضلوا الخلق عن دينهم، ويدعوهم ليكونوا من أصحاب السعير.

﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ في شركهم وتحليلهم الحرام، وتحريمهم الحلال ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾، لأنكم اتخذتموهم أولياء من دون الله، ووافقتموهم على ما به فارقوا المسلمين، فلذلك كان طريقكم، طريقهم»[3].

(١) أخرجه أبو داود، رقم ٢٨٢١، كتاب الضحايا، باب ذبائح أهل الكتاب، عن ابن عباس، ٣/ ٥٩.
وصححه الألباني: صحيح.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٧/ ٧٧.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص٢٧١.

ثانيًا: آثار ولاية الشيطان:

بعد عرض صفات أولياء الشيطان التي ذكرها القرآن الكريم، بين الله تعالى ما يترتب على ولاية الشيطان من آثار، ومنها:

يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ [النساء: ١١٦-١٢١].

ومعنى هذه الآيات: أن فيها إخبارًا من الله عز وجل عن طعمة بن أبيرق الذي مات على الشرك بأنه تعالى لا يغفر له، أما غيره من الذين لم يموتوا مشركين، فإن أمرهم إلى الله تعالى إن شاء غفر لهم، وإن شاء عذبهم، ومن يشرك بالله تعالى فقد ضل عن طريق الهداية والصواب، وذلك بسبب بعده عن الحق، وإشراكه بربه عز وجل.

ثم أخبر الله تعالى أن هؤلاء المشركين ما يعبدون إلا أوثانًا لا تسمع، ولا تبصر، ولا تنطق، ولا تعقل، وفي حقيقة الأمر ما يعبدون إلا الشيطان الذي دعاهم إلى عبادة هذه الأوثان، فلعنه الله تعالى وطرده من رحمته بسبب إبائه لأمر الله عز وجل بالسجود لآدم، فقال الشيطان متوعدًا وحانقًا: لأتخذن من عبادك عددًا كبيرًا منهم يعبدونني، وهم معروفون بمعصيتهم لك، وطاعتهم لي.

ولم يقف هذا الشيطان عند هذا الحد؛ بل واصل قائلًا: ولأضلنهم عن طريق الهدى، ولأمنينهم بتعويقي إياهم عن طاعتك بالأماني الكاذبة المتمثلة في أنهم لا يلقون عذابًا، أو أن الله سوف يغفر لهم، ولآمرنهم فيطيعونني، فيجعلون لآلهتهم نصيبًا مما رزقهم الله، كما يعلمونها بقطع آذانها؛ لتعرف أنها للآلهة، ولآمرنهم أيضًا فيطيعونني في تغيير خلق الله بالبدع والمعاصي.

ثم قال الله جلَّ جلاله: إن من اتخذ الشيطان وليًّا من دونه تعالى، فقد عاداه، ومن عاداه، فقد تم له أعظم الخسران، فالشيطان لا يملك من الأمر شيئًا، فكيف يحقق لأوليائه النجاة والسعادة؟ وحينئذٍ يعلن الله عز وجل حكمه في قوة ووضوح أن أولئك الشياطين وأولياؤهم سوف يكون مصيرهم إلى النار، ومن ثم لا يجدون عنها

معدلًا أو مهربًا[1].

هذا وقد بين الله عز وجل أن من يتخذ الشيطان وليًا من دون الله تعالى، فبئس ما اختار لنفسه من ولاية الشيطان الذي لا يأمره إلا بالفحشاء والمنكر عن ولاية الرحمن الذي كل النجاة والسعادة والفلاح في ولايته[2].

يقول جلَّ جلاله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف:٥٠].

ويقول جلَّ جلاله في موضع آخر: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأعراف:٣٠].

أي: من أقبل على الله تعالى بإيمان، هداه الله عز وجل، وخفف عنه مؤنة الطاعة، وبغضه في المعصية، أما الفريق الآخر الذي تأبَّى على الله تعالى، ولم يستجب لهدايته، فكيف يعينه الله تعالى؟

فإنه يتركه في غيه ويخلي بينه وبين الضلالة، فالذين حقت عليهم الضلالة، إنما كان ذلك بسبب اتخاذهم الشياطين أولياء من دون الله عز وجل، ويحسبون أنهم على هداية في ارتكابهم للمعاصي، فهذا كفر وتبجح على الله تعالى[3].

وعليه فإن من ثبتت ولايته للشيطان، وامتاز بصفات أولياء الشيطان، فإن الله تعالى أمر أولياءه المؤمنين بقتال أولياء الشيطان؛ لأنه إما أن يكون القتال في سبيل الله عز وجلٍ، أو في سبيل الطاغوت، فوجب أن يكون كلُّ ما سوى الله تعالى طاغوتًا، كما بين الله عز وجل أن كيد الشيطان ضعيف، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٧٦].

فالله تعالى ينصر أولياءه، وكذلك الشيطان ينصر أولياءه، ولكنه بما أن كيد الشيطان ضعيف، فولايته ونصرته لأوليائه ضعيفة أيضًا، والله تعالى ناصرٌ أولياءه لا محالة[4].

وخلاصة القول: إن من آثار ولاية الشيطان، أن الضلالة قد حقت عليهم، فكذبوا الرسل، وزعموا أن ما هم عليه هو الحق المنجي من كل مكروه بخلاف دعوات الأنبياء والرسل، وزين لهم الشيطان

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٩/ ٢٠٦، أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري، ١/ ٥٤٣.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٤٧٩.
(٣) انظر: تفسير الشعراوي، ٧/ ٤١١١.
(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١٠/ ١٤٢.

أعمالهم، وصار وليهم في الدنيا فأطاعوه واتبعوا أوامره، فعرضوا أنفسهم للقتال من قبل أولياء الرحمن، فلهم عذاب أليم موجع في الآخرة؛ لأنهم رضوا بولاية الشيطان، فاستحقوا هذا العذاب، فيقول الله تعالى: ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النحل:٦٣].

ولاية الكافرين والمنافقين والظالمين

إن الحديث عن هذا الأمر يقتضي الحديث عن ولاية الكافرين لبعضهم البعض وآثارها، وكذلك الحديث عن ولاية المنافقين للكافرين وآثارها، وأيضًا الحديث عن ولاية الظالمين لبعضهم البعض وآثارها، وتفصيل ذلك فيما يأتي:

أولًا: ولاية الكافرين بعضهم البعض وآثارها:

تحدث القرآن الكريم عن اتخاذ الكافرين بعضهم البعض أولياء، حيث يقول الله تعالى: ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [المائدة:٧٨-٨١].

والمعنى: إن الذين كفروا من بني إسرائيل لعنهم الله تعالى في التوراة والإنجيل، وفي الزبور، وفي القرآن، وذلك بسبب عصيانهم لله عز وجل، واعتدائهم على خلقه، ثم بين

الله تعالى حالهم حين كان لا ينهى أحدٌ منهم الآخر عن فعله المعاصي وارتكابه الآثام، ثم ذمهم على ذلك؛ ليحذر ما كانوا يفعلونه ويرتكبونه، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أهم القواعد الإسلامية، ومن أَجَلِّ الفرائض الشرعية، ولهذا كان تاركه شريكًا لفاعل المعصية، ومستحقًّا لغضب الله عز وجل، وانتقامه، كما وقع لأهل السبت منهم، فإن الله تعالى مسخ الفاعلين، وكذلك الذين لم يشاركوهم في هذا الفعل، فصاروا جميعًا قردة وخنازير.

ثم ذكر الله تعالى أن من اليهود أمثال كعب بن الأشرف وأصحابه يتولون الذين كفروا من المشركين الذين ليسوا على دينهم بالمحبة والموالاة والنصرة، ثم ذم الله تعالى ما زينته وسولته لهم أنفسهم، أو بئس ما قدموه لأنفسهم حتى يعاقبوا عليه يوم القيامة، ففعلهم هذا موجب لسخط الله تعالى عليهم، وهذا واضحٌ أنه من آثار ولايتهم للمشركين أمثالهم.

ثم ذكر الله تعالى أنه لو كان هؤلاء اليهود يؤمنون بالله عز وجل، وبرسولهم الذي أرسله الله تعالى إليهم، وما أنزل عليهم من كتاب سماوي، ما اتخذوا المشركين أولياء؛ وذلك لأن الله تعالى ورسوله المرسل إليهم وكتابه المنزل عليهم قد نهوهم عن ذلك، ولكن أكثرهم خارجون عن ولاية الله تعالى، وعن الإيمان به وبرسوله وبكتابه[1].

يقول سيد قطب رحمه الله: «وهذا التقرير كما ينطبق على حال اليهود على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ينطبق على حالهم اليوم وغدًا، وفي كل حين، كذلك ينطبق على الفريق الآخر من أهل الكتاب في معظم أرجاء الأرض اليوم، مما يدعو إلى التدبر العميق في أسرار هذا القرآن، وفي عجائبه المدخرة للجماعة المسلمة في كل آنٍ.

لقد كان اليهود هم الذين يتولون المشركين ويؤلبونهم على المسلمين، ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾، كما حكى عنهم القرآن الكريم، وقد تجلى هذا كله على أتمه في غزوة الأحزاب، ومن قبلها ومن بعدها كذلك إلى اللحظة الحاضرة، وما قامت إسرائيل في أرض فلسطين أخيرًا إلا بالولاء والتعاون مع الكافرين الجدد من الماديين الملحدين!

فأما الفريق الآخر من أهل الكتاب، فهو يتعاون مع المادية الإلحادية كلما كان الأمر أمر المسلمين! وهم يتعاونون مع الوثنية المشركة كذلك، كلما كانت المعركة مع المسلمين! حتى و«المسلمون» لا يمثلون الإسلام في شيء. إلا في أنهم من ذراري

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٢/ ٧٥.

قوم كانوا مسلمين!

ولكنها الإحنة التي لا تهدأ على هذا الدين ومن ينتمون إليه، ولو كانوا في انتمائهم مدعين! وصدق الله العظيم: ﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾»[1].

ويقول الله جل جلاله: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ [الأنفال:٧٣].

والمعنى: إن الكفار بعضهم أولياء بعض في النصرة والتعاون على قتال المسلمين، فهم في جملتهم فريق واحد ضد الحق وأهله -وإن كان بعضهم يعادي بعضًا-، ولم يكن في الجزيرة العربية وقت نزول السورة إلا اليهود والمشركون، فكان اليهود يتولون المشركين، وينصرونهم على النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين معه، كما أن هؤلاء اليهود قد نقضوا العهود التي كانت بينه وبينهم حتى قاتلهم النبي صلى الله عليه وسلم، وأجلاهم عن خيبر.

ثم وجه الله تعالى خطابه إلى المؤمنين على سبيل التهديد والتوعد بأنهم إن لم يفعلوا ما شرع الله تعالى لهم من ولاية بعضهم البعض، ومن تعاونهم وتناصرهم تجاه ولاية الكفار لبعضهم البعض، فإن لم يفعلوا ذلك، فإنهم سوف يقعون في الفتنة والفساد في الأرض، وسيعود عليهم بالضرر بسبب تخاذلهم الذي يفضي إلى فشلهم وظفر الأعداء بهم، كما أنه يفضي إلى اضطهادهم في دينهم بصدهم عنه كما كان الحال مع ضعفاء المسلمين في بداية الدعوة الإسلامية في مكة قبل الهجرة[2].

ففي قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾«فيه تعريضٌ للمسلمين بأنهم لا يناصرون الكفار، ولا يتولونهم، وهذا بمفهومه مفيد لنفي الموارثة والمؤازرة بينهم وبين المسلمين، وإيجاب المباعدة والمصارمة وإن كانوا أقارب»[3].

ثانيًا: ولاية المنافقين للكافرين وآثارها:

كما تحدث القرآن الكريم عن ولاية الكافرين لبعضهم البعض، فإنه تحدث عن ولاية المنافقين للكافرين، ووضح آثار هذه الولاية، فقال جلَّ جلاله: ﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ

(١) في ظلال القرآن، ٢/ ٩٥٢.

(٢) انظر: نظم الدرر، البقاعي، ١٠/ ٤٣.

(٣) فتح البيان، صديق خان القنوجي، ٥/ ٢٢٠.

﴿قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ وَإِن كَانَ لِلۡكَٰفِرِينَ نَصِيبٞ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ عَلَيۡكُمۡ وَنَمۡنَعۡكُم مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ﴿١٤٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا﴾ [النساء:١٣٨-١٤٥].

ومعنى هذه الآيات: أن الله تعالى يبشر المنافقين -على سبيل التهكم-، وهم الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر، يبشرهم بأقبح بشارة، وهي العذاب الأليم الموجع، وذلك بسبب اتخاذهم الكافرين أولياء عن طريق محبتهم ومعاونتهم ونصرتهم، في حين أنهم تركوا ولاية المؤمنين، فما الذي دفعهم إلى هذا؟ هل يبتغون العزة ويطلبونها عندهم؟ فإن العزة الحقيقية لله عز وجل، وفي موالاته وموالاة المؤمنين.

يقول السعدي رحمه الله: «وهذا هو الواقع من أحوال المنافقين، ساء ظنهم بالله وضعف يقينهم بنصر الله لعباده المؤمنين، ولحظوا بعض الأسباب التي عند الكافرين، وقصر نظرهم عما وراء ذلك، فاتخذوا الكافرين أولياء يتعززون بهم ويستنصرون، والحال أن العزة لله جميعًا، فإن نواصي العباد بيده، ومشيئته نافذة فيهم، وقد تكفل بنصر دينه وعباده المؤمنين، ولو تخلل ذلك بعض الامتحان لعباده المؤمنين، وإدالة العدو عليهم إدالة غير مستمرة، فإن العاقبة والاستقرار للمؤمنين، وفي هذه الآية الترهيب العظيم من موالاة الكافرين، وترك موالاة المؤمنين، وأن ذلك من صفات المنافقين، وأن الإيمان يقتضي محبة المؤمنين وموالاتهم، وبغض الكافرين وعداوتهم»[١].

ثم يخاطب الله تعالى كلًّ من أظهر الإيمان سواء كان مؤمنًا حقيقيًّا أم منافقًا، أن الله تعالى نزل عليكم في القرآن العظيم أنه إذا سمعتم الكافرين يكفرون بآيات القرآن، ويستهزئون بها، فلا تجلسوا معهم حتى يتحدثوا بحديث آخر، ويتركوا الخوض في القرآن، فإنكم إن قعدتم معهم كنتم مثلهم في الكفر، ثم هددهم الله عز وجل بأنه سوف يجمع الفريقين: الكافرين والمنافقين في الآخرة في نار جهنم؛ وذلك لأن المرء يحشر مع من أحب، ولا يخفى ما في هذا من وعيد وتحذير من مخالطتهم ومجالستهم.

ثم ذكر الله تعالى تربص المنافقين

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص٢٠٩.

بالمؤمنين، فهم ينتظرون بهم الدوائر، فإن كان للمؤمنين غلبة على الأعداء، وحازوا الغنائم، قال المنافقون للمؤمنين: أعطونا مما غنمتموه من الكافرين، وإن كان للكافرين غلبة على المؤمنين، قال المنافقون للكافرين: ألم نكن قادرين على قتلكم وأسركم لصالح المسلمين؟ فأبقينا عليكم، وثبطنا عزائم المسلمين حتى انتصرتم عليهم، فهاتوا نصيبنا مما أخذتم، فإننا نواليكم، ولا ندع أحدًا يصيبكم بأذى.

ثم بين الله تعالى مصير الفريقين: المنافقين والمؤمنين، وهو أنه سوف يحكم ويفصل بينهم بالحق، ولن يمكن الكفرة من رقاب المؤمنين، فيبيدوهم ويستأصلوهم، فإن العاقبة للمؤمنين في الدنيا والآخرة[(١)].

وبعد ذلك أخبر الله تعالى عن سلوك المنافقين الخاصِّ، فهم يخادعون الله عز وجل إذ يظهرون الإيمان به، وبنبيه محمد صلى الله عليه وسلم وهم على خلاف ذلك، فالخداع هو أن تجعل من تخدعه يرى منك ما يحبه، وتستر عليه ما يكرهه، فعاملهم الله تعالى بالمثل، فأراهم ما يحبون، وستر عليهم ما يكرهونه منه وهو العذاب الذي أعده الله تعالى لهم في الدنيا والآخرة.

فإن الله جل جلاله لا يخادع، فهو العالم بالسرائر والضمائر، وبالإضافة إلى هذا أخبر الله تعالى أنهم إذا قاموا إلى الصلاة قاموا متباطئين متثاقلين؛ لأنهم لا يؤمنون بالثواب الأخروي، فهم يراءون المؤمنين بالأعمال الصالحة حتى لا يتهمونهم بالكفر، كما أنهم لا يذكرون الله تعالى إلا قليلًا؛ وذلك لعدم استقرار الإيمان في قلوبهم، وعدم حبهم لله عز وجل، فهم مذبذبون بين الإيمان والكفر، فهم فريق ليسوا بالمؤمنين الكاملين في إيمانهم، ولا بالكافرين الكاملين في كفرهم، فهم دائمًا في تردد وحيرة، وهذه هي حالة يجعل الله تعالى فيها من يضله الله عز وجل، فلا يوجد سبيل إلى اهتدائه[(٢)].

حينئذٍ حذر الله تعالى المؤمنين أن يفعلوا فعل المنافقين، ويوالوا الكافرين، فأمرهم ألا يتخذوا الكافرين نصراء وأعوانًا يصاحبونهم ويصادقونهم ويناصحونهم، ويسرون إليهم بالمودة، ويفشون سرائر المؤمنين وأحوالهم الداخلية، فإن موالاة الكافرين دليل على النفاق، ولا يصدر هذا إلا عن منافق، فهل يريد المؤمنون أن يجعلوا لله عز وجل على أعمالهم حجة بينة يستحقون بها عقابه إذا اتخذوهم أولياء.

ثم أوضح الله تعالى عقوبة المنافقين على أعمالهم، والتي كان من ضمنها موالاتهم للكافرين، فجعل مكانهم في

(١) انظر: صفوة التفاسير، الصابوني، ١/ ٢٨٧.

(٢) انظر: أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري، ١/ ٥٦٠.

الطبقة السفلى من النار، والنار سبع دركات، فهي متداركة بعضها فوق بعض، والسبب في هذه العقوبة دون غيرها وأنها أشد من عقوبة الكافر نفسه، هو أن المنافق مثل الكافر في الكفر، وضم إلى كفره الاستهزاء بالإسلام وأهله، وهذا العذاب لهم لن يجدوا أحدًا ينقذهم منه، أو يخففه عنهم[1].

ثالثًا: ولاية الظالمين لبعض وآثارها:

تحدث القرآن الكريم أيضًا عن ولاية الظالمين لبعضهم البعض، والآثار المترتبة على هذه الولاية.

يقول الله جل جلاله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٦-١٩].

والمعنى: أن الله عز وجل يبين في هذه الآيات مدى إنعامه على بني إسرائيل، فقد آتاهم التوراة، ومَنَّ عليهم بالحكم والنبوة في ذريتهم، ورزقهم الطيبات الحلالات، وفضلهم على عالمي زمانهم، فلم يكن أحد في زمانهم أكرم على الله تعالى منهم، كما أعلمهم وأخبرهم بمبعث النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ووضح لهم صفاته وزمانه وأمره، ولكنهم اختلفوا، وسيحكم الله تعالى ويقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون.

ثم وجه الله تعالى الخطاب إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فقد جعله الله عز وجل على سنة وطريقة من الدين بعد موسى عليه السلام، وأمره باتباعها وعدم الحيد عنها إلى أهواء الكافرين، وذلك أن الكافرين كانوا يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم: ارجع إلى دين آبائك، فإنهم كانوا أفضل منك، فذكر الله تعالى أنه إن اتبع النبي صلى الله عليه وسلم أهواءهم، فإن هؤلاء الكافرين لن يدفعوا عنك من عذاب الله تعالى شيئًا، وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض في المحبة والنصرة والموالاة، أما الله جلَّ جلاله فهو ولي المتقين وناصرهم ومؤيدهم، وما أشد الفرق بين الولايتين![2].

هذا وقد بيَّنَ الله تعالى الآثار المترتبة على ولاية الظالمين لبعضهم البعض، وذلك في الحوار سيدور بين الله تعالى، وبين الجن والإنس يوم القيامة ساعة الحشر،

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ٥/ ٣٢٩.

(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي، ٧/ ٢٤٣، مدارك التنزيل، النسفي، ٣/ ٣٠٢.

فيقول جلَّ جلاله: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام:١٢٨-١٢٩].

فيخاطب الله تعالى الجن أنكم أضللتم كثيرًا من الإنس، وجعلتموهم أتباعًا لكم في عبادة غير الله تعالى، ومخالفة أمره وتوحيده، فيقول أولياء الجن من الإنس: لقد تعاون بعضنا بعضًا في معصية الله عز وجل ومخالفة أمره، كما انتفع بعضهم ببعض بأنواع من المنافع، منها: أن الجني يستمتع بطاعة الإنسي له وعبادته وتعظيمه له، واستعانته به، والإنسي يستمتع بالجني أيضًا حين ينال أغراضه، ويبلغها بسبب خدمة الجني له بعض شهواته، فإن الإنسي يعبد الجني، فيخدمه الجني، ويحصل له منه بعض الحوائج الدنيوية.

وقول الإنسي: ﴿رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾ على معنى أنه قد حصل منا من الذنوب ما حصل، وبلغنا أجلنا الذي أجلته لنا من الموت والبعث، فافعل بنا الآن ما تشاء، فالأمر أمرك، والحكم حكمك، وكأنهم يتضرعون إلى الله عز وجل، ولكن ليس هذا وقته.

فيقول الله عز وجل: ﴿ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾، أي: إن النار مقامكم خالدين فيها، فقد وسع علمه تعالى الأشياء كلها، وكذلك حكمته وسعت الأشياء كلها، ثم نسب الله تعالى الولاية إلى نفسه.

فدل هذا على أنها من الله تعالى حيث خلق سبب الولاية منهم، فكما ولى الجن المردة، وسلطهم على إضلال أوليائهم من الإنس، وعقد بينهم عقد الموالاة والموافقة بسبب كسبهم وسعيهم في ذلك، فهذه سنة الله تعالى حيث يولي كلَّ ظالم ظالمًا مثله، يحثه على فعل الشر، ويحببه إليه، وينفره من فعل الخير، ويزهده فيه، فهذا يعد من عقوبات الله تعالى العظيمة التي لها أثر شنيع، وخطر بالغ؛ وذلك لأن العباد إذا كثر الظلم والفساد فيهم، ومنعوا الحقوق الواجبة بينهم، ولى الله تعالى عليهم ظلمة يسومونهم سوء العذاب، ويأخذون منهم بالظلم أضعاف ما منعوا من حقوق الله تعالى وحقوق عباده الواجبة فيهم، ويفهم من هذا بمفهوم المخالفة أنه إذا صلح أمر العباد، واستقاموا على دين الله عز وجل، أصلح الله تعالى لهم ولاة أمورهم، وجعلهم أئمة عدل وإنصاف، لا ولاة ظلم واعتساف[1].

(١) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي،

أساليب القرآن في الحديث عن الولاء

استخدم القرآن الكريم في حديثه عن الولاء مجموعة من الأساليب، و كان منها ما يأتي:

أولًا: النهي:

فقد استخدم القرآن الكريم (لا) الناهية للتعبير عن عدم اتخاذ الكافرين سواء كانوا مشركين أم يهودًا ونصارى، نهاهم أن يتخذوهم أولياء من دون المؤمنين، ومن الآيات القرآنية التي استخدمت هذا الأسلوب: قوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة:٥١].

قال الزمخشري: «لا تتخذوهم أولياء تنصرونهم وتستنصرونهم وتؤاخونهم وتصافونهم وتعاشرونهم معاشرة المؤمنين، ثم علل النهى بقوله ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ أي إنما يوالي بعضهم بعضًا؛ لاتحاد ملتهم واجتماعهم في الكفر»(١).

ومنه أيضًا قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ [الممتحنة:١٣].

وسورة الممتحنة كما بدئت بالنهي عن موالاة الكفار عمومًا، وعن اليهود خصوصًا -كما مر سابقًا- كذلك ختمت السورة بالنهي الوارد في هذه الآية، وهذا للتأكيد على عدم موالاتهم، وتنفيرًا للمسلمين عن هذه الولاية، فينهى الله عز وجل المؤمنين عن تولي هؤلاء القوم المغضوب عليهم، والملعونين، فإنهم قد يئسوا من ثواب الآخرة؛ لأنهم عاندوا النبي صلى الله عليه وسلم مع علمهم بصدقه وصدق نبوته، فهؤلاء قد يئسوا كما يئس الكفار من رجوع أصحاب القبور الذين ماتوا على الشرك إلى الدنيا واللقاء بهم(٢).

ثانيًا: الاستفهام:

كان لهذا الأسلوب النصيب الأكبر في الحديث عن الولاء، وهو أسلوب غرضه الإنكار؛ للتأكيد على نهي اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، والأمثلة عليه كثيرة، منها -على سبيل المثال لا الحصر-: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ [النساء:١٤٤].

أي ينهى الله تعالى عباده المؤمنين عن

(١) الكشاف، ١/ ٦٤٢.

(٢) انظر: التفسير الواضح، محمد حجازي، ٣/ ٦٦٣. ٤/ ٢٥٧، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٢٧٣.

مصاحبة الكافرين ومصادقتهم ومناصحتهم وإسرار المودة إليهم، وإفشاء أسرار المؤمنين وأمورهم الداخلية، ولهذا قال: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ أي أتريدون أن تجعلوا لله تعالى حجة ليعاقبكم بموالاتكم الكافرين؟[1].

ومثله قوله تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء:١٣٨-١٣٩].

وتقدم تفسيرهما، ومنه أيضًا قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الأنعام:١٤].

والمعنى: يأمر الله عز وجل النبي محمدًا صلى الله عليه وسلم أن يقول للمشركين: أيعقل أن أتخذ إلهًا يتولاني غير الله جلَّ جلاله، وهو الذي خلق السماوات والأرض وابتدأهما، كما أنه هو الذي يرزق خلقه ولا يخلق، وقد أمرني الله تعالى أن أكون أول من يسلم من خلقه[2].

ومنه أيضًا قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف:٥٠].

والمعنى: لقد كرم الله عز وجل آدم عليه السلام عندما خلقه، فأمر الملائكة بالسجود له، فسجدوا كلهم إلا إبليس، فتكبر على أمر الله تعالى، ولم ينفذه، فينكر الله تعالى على خلقه الذين اتخذوا الشيطان وذريته أولياء من دون المؤمنين، وكأنه يقول لهم: أفتطيعونه وتتركون أمر الله جلَّ جلاله وهم أعداء لكم؟! فبئس ما استبدلوا بولاية الله تعالى ولاية الشيطان[3].

وغير ذلك من الأمثلة القرآنية، فأسلوب الاستفهام كان واضحًا ومتمثلًا في همزة الاستفهام الذي كان غرضه إنكار اتخاذ الأولياء من الشياطين والكافرين والمنافقين واليهود والنصارى من دون المؤمنين.

ثالثًا: التحدي:

وهو أسلوبٌ يقصد من خلاله تعجيز الطرف الآخر، وإظهار كذبه فيما ادعاه، وقد استخدم القرآن الكريم هذا الأسلوب في حديثه عن الولاء، حيث تحدى الله عز وجل فيه اليهود حيث قال جل جلاله: ﴿قُلْ

(١) انظر: مختصر تفسير ابن كثير، الصابوني، ١/ ٤٥١.

(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي، ٢/ ٩٨.

(٣) انظر: تفسير السمرقندي، ٢/ ٣٥٠.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٦ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الجمعة:٦-٧].

فقد زعم اليهود أنهم أولياء لله تعالى من دون الناس جميعًا، فأمر الله عز وجل نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم أن يطلب من اليهود أنهم إن كانوا صادقين في زعمهم هذا فليتمنوا الموت؛ وذلك ليستريحوا من كربات الدنيا وهمومها وغمومها، وينتقلوا بالموت إلى روح الجنان ونعيمها، فإن الله تعالى لا يعذب أولياءه، ولكن الله جلَّ جلاله يعلم أن اليهود لن يتمنوا الموت أبدًا بسبب ما اقترفوا في هذه الدنيا من آثام، وما اجترحوا من سيئات، وكذلك فالله أعلم بمن ظلم نفسه، وجعلها تكفر بالله عز وجل[1]، فأسلوب التحدي في هذه الآية واضح وبارز.

رابعًا: التهديد:

وهو أسلوب يحمل معنى التخويف والتوعد للمؤمنين إن والوا الكافرين وناصروهم وصادقوهم، ومن هذه الآيات التي استخدمت هذا الأسلوب، قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة:٥١].

فبعد أن نهى الله عز وجل عن موالاة اليهود والنصارى؛ لأن بعضهم أولياء بعض، فكلهم يضمرون للمؤمنين البغضاء والشر، وهم وإن كانوا في الظاهر مختلفين إلا أنهم متفقون فيما بينهم على كراهية الإسلام والمسلمين والكيد لهم، ثم هدد المؤمنين أن من يوالي المشركين منهم، فإنه يعد من جملتهم، والحكم الذي يسري عليهم، يسري عليه كذلك، ولا يخفى أن في هذا تغليظًا من الله عز وجل، وتشديدًا في وجوب مجانبة المخالفين في الدين واعتزالهم[2].

ومن هذا الأسلوب أيضًا قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال:٧٣].

فقد أخبر الله عز وجل أن الكفار بما أنهم متفقون على الكفر، فبعضهم أولياء بعض، فلا يوالي هؤلاء الكفار إلا كافر مثلهم، ثم هدد المؤمنين أنهم إن لم يوالوا المؤمنين أمثالهم ويعادوا الكافرين، فإنه سوف يحصل من الفساد والشرِّ ما لا ينحصر من اختلاط الحقِّ بالباطل، والمؤمن بالكافر، وإلغاء بعض العبادات الكبرى مثل: الجهاد، والهجرة وغير ذلك من مقاصد الشرع

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٣/ ٣٧٩.

(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري، ١/ ٤٦٢.

والدين التي تفوت وتضيع إذا لم يتخذ المؤمنون بعضهم أولياء بعض[1].

ومن الآيات التي استخدمت هذا الأسلوب أيضًا قوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران:٢٨].

وقد تقدم تفسيرها، ومثله أيضًا قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [التوبة:٢٣].

الولاء في المثل القرآني

كان لموضوع الولاء نصيب في أمثال القرآن الكريم، ومعلومٌ أن من أغراض الأمثال القرآنية تقريب الصورة المعنوية إلى الذهن بتشبيهها بشيء مادي محسوس يدركه العقل البشري.

ومن الأمثلة على ذلك: قوله جل جلاله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤١-٤٣].

فيعد هذا مثلًا ضربه الله تعالى لمن عبد غيره من الأصنام والأوثان من أجل التعزز والتقوي وحصول المنفعة، ولكن الأمر في حقيقته غير ذلك. فمثل هذا كمثل العنكبوت التي هي من الحشرات الضعيفة، وبيتها من أضعف البيوت وأوهنها.

فهذه العنكبوت اتخذت لها بيتًا يقيها من الحر والبرد والآفات، ولكنها ما ازدادت باتخاذها هذا البيت إلا ضعفًا ووهنًا، فكذلك هؤلاء الذين يتخذون الأولياء من دون الله عز وجل، فهم فقراء ومحتاجون

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٢٧.

وعاجزون وضعفاء من جميع الجوانب، فحين اتخذوا الأولياء ما ازدادوا إلا ضعفًا إلى ضعفهم، وعجزًا إلى عجزهم، ووهنًا إلى وهنهم.

وذلك لأنهم اعتمدوا عليهم في كثير من المصالح والأمور من أجل أن يتعززوا بهم، ويستنصروهم، لكن هؤلاء الأولياء خذلوهم، ولم يحصلوا منهم على أدنى منفعة، فلم يغنوا عنهم من عذاب الله عز وجل شيئًا حين نزل بهم، ولم يدفعوا عنهم ما حل بهم عند سخط الله تعالى، ولو كانوا يعلمون حقيقة أمرهم ما اتخذوهم أولياء، وللجؤوا إلى الله جل جلاله الذي إذا تولاه عبدٌ وتوكل عليه، فإن الله عز وجل يكفيه مؤونة دينه ودنياه، ويزيده قوة في قلبه وبدنه وحاله وجميع أعماله.

فلما بين الله تعالى ضعف آلهة المشركين، وأنها ليست بشيء؛ بل هي أسماء سموها، وأوهام وتخيلات ظنوها واعتقدوها، فعبدوها من دون الله عز وجل، كما قال تعالى عنها: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم:٢٣].

وقال فيها أيضًا: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [يونس:٦٦].

وعند التحقق فيها يتبين للعاقل أنها ليست بآلهة، فالله تعالى هو الذي له القوة التي قهر بها جميع مخلوقاته، كما أنه هو الحكيم الذي يضع الشيء في محله، فهو الذي أحسن خلق كل شيء وأتقنه.

ثم بين الله عز وجل أنه لا يضرب هذه الأمثال إلا لأجل أن ينتفعوا ويتعلموا، فهي تقرب الأمر المعقول إلى الذهن بأمر محسوس، فيتضح المطلوب منها، ويقف العقل البشري أمامها عاجزًا عن الرد والجدال[1].

ويتجلى مثالٌ آخر على موضوع الولاء في المثل القرآني، فعندما قال الله جل جلاله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف:٥٠].

فقد أنكر الله عز وجل على المشركين في هذه الآية اتخاذهم الشياطين أولياء من دون المؤمنين، وبين في موضع آخر حال هذا الشيطان بعد أن يتخذه الإنسان وليًا، ويجعله يكفر بالله عز وجل، فقال تعالى: ﴿كَمَثَلِ

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٠/٣٨، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٦٣١.

﴿الشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الحشر: ١٦، ١٧].

فهذا مثلٌ ضربه الله تعالى؛ ليبين حال اليهود والمنافقين الذين لا يواجهون المسلمين بالمبارزة والمقابلة، وهذا لشدة جبنهم وهلعهم، فلا يقاتلونهم مجتمعين؛ بل يقاتلونهم من وراء الحصون والخنادق، ومن خلف الأسوار التي يستترون بها، وقد لمست الأمة الإسلامية والعربية هذا الأمر في حروب اليهود في فلسطين في عصرنا الحاضر، وقد عبر الله تعالى عن جبنهم هذا في قوله: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: ١٤].

فحروبهم وعداوتهم فيما بينهم شديدة وقوية وقاسية، والظاهر أنهم متوحدون ومتفقون، ولكنهم في حقيقة الأمر مختلفون ومتفرقون؛ لما بينهم من الأحقاد الشديدة والضغائن الكثيرة، فهم قوم لا يعقلون أمر الله عز وجل الذي فيه الحق، كما لا يدركون أن سر النجاح في هذه الحياة الدنيا هو الوحدة، ولو عقلوا هذا لعرفوا الحق واتبعوه، فتوحدوا ولم يختلفوا.

فحريٌّ بالمسلمين في هذا العصر، وجدير بهم أن يكونوا خلافهم، فيكونوا متوحدين متفقين، صفًا واحدًا على قلب رجل واحد كالبنيان المرصوص، وأن يعتمدوا في ذلك على أنفسهم، ولا يلتمسوا أية حلول واهية ضعيفة من هنا أو هناك، ثم ذكر الله تعالى أحوالًا مشابهة لهم، ومنها: أن هؤلاء المنافقين حين وعدوا اليهود بالمناصرة والمؤازرة في حرب المسلمين، كمثل الشيطان الذي سول للإنسان الشر، وأغراه بالكفر، وزينه له، وحمله عليه، فلما لبى الإنسان ما يريده الشيطان، وكفر بالله عز وجل، تبرأ الشيطان منه، وتنكر له يوم القيامة، وقال له على وجه التبري منه: إني أخاف عذاب الله رب العالمين إذا ناصرتك.

ولاشك أن هذا مثلًا في غاية السوء، وشديد الوقع على النفس؛ لذلك وضح الله تعالى بعد هذا المثل ما يوجبه من العقاب، وهو أن عاقبة الشيطان الآمر بالكفر، والإنسان الذي استجاب لطلب الشيطان وكفر، أنهما صائران معًا إلى نار جهنم خالدين فيها على الدوام، وهذا العقاب هو جزاء الكافرين جميعًا والذين منهم اليهود والمنافقين[(١)].

وبهذا يتبين أن ضرب الله عز وجل للأمثال في القرآن الكريم إنما هو للمسائل الجليلة، والمطالب العالية، والأمور العظيمة

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي، ٢٨/ ٩٨.

مثل موضوع الولاء في القرآن، وأهل العلم أحق بها من غيرهم؛ لأنهم وحدهم هم المنتفعون بها بعد تعقلها وتدبرها.

موضوعات ذات صلة:

الأخوة، البراء، الحرب، السلم، السماحة، السياسة، العلاقات الدولية



عناصر الموضوع

مفهوم الوهن

أولًا: المعنى اللغوي

قال ابن فارس: «الواو والهاء والنون كلمتان تدل إحداهما على ضعف، والأخرى على زمان»[(١)]. فالضعف نحو: وهن الشيء يهن وهنا: ضعف، والزمان الوهن والموهن: ساعة تمضي من الليل، وأوهن الرجل: صار أو سار في تلك الساعة.

ويطلق الوهن على ثلاثة معانٍ، هي: الضعف، وساعة من الليل، والفتور[(٢)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي

قال الخليل: «الوهن: الضعف في العمل، وفي الأشياء، وكذلك في العظم ونحوه»[(٣)].

وقال الراغب الأصفهاني: «الوهن: ضعف من حيث الخلق، أو الخلق»[(٤)].

وقال الفيومي: «وهن: ضعف، فهو واهن في الأمر والعمل والبدن»[(٥)].

وقيل: «ضعف تماسك البدن أو الشيء من اشتماله على رخاوة، ولذهاب الصلابة منه»[(٦)].

وقيل: «انكسار حد الشيء، بعد قوة متحققة أو ممكنة، مما يؤدي إلى عجزه»[(٧)].

---

(١) مقاييس اللغة، ٦/ ١٤٩.

(٢) العين، الفراهيدي، ٤/ ٩٢، تهذيب اللغة، الأزهري، ٦/ ٢٣٤.

(٣) العين، الفراهيدي ٤/ ٩٢.

(٤) المفردات، ص٨٨٧.
وانظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٥/ ٢٨٧.

(٥) المصباح المنير، ٢/ ٦٧٤.
وتابع المعاصرون الفيومي، انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ٢/ ١٠٦٠، معجم الرائد، جبران مسعود، ص٨٧٤.
وقد غلب الاستخدام المصطلحي للفظ (الوهن) في الطب والتشريح، وأطلق الأطباء العرب قديما مصطلح «الوهن» على حالة هي أقل من خلع المفصل. انظر: القانون في الطب، لابن سينا، ٣/ ٢٤٥.
واليوم كثر استخدام اللفظ مصطلحًا، في علوم عديدة، ومن ذلك: وهن الرحم، ووهن الصوت، ووهن البصر، والوهن العضلي، والوهن العصبي، والوهن النفسي.

(٦) المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم، محمد حسن جبل، ٤/ ٢٣٢٧.

(٧) من ألفاظ القوة ومقابلاتها في القرآن الكريم، عبد المجيد الغيلي ص١٥.



الوهن في الاستعمال القرآني

وردت مادة (وهن) في القرآن الكريم (٨) مرات[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١	﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ [مريم:٤]
الفعل المضارع	٣	﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ [آل عمران:١٣٩]
المصدر	٢	﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ [لقمان:١٤]
اسم فاعل	١	﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾﴾ [الأنفال:١٨]
اسم تفضيل	١	﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [العنكبوت:٤١]

وجاء الوهن في القرآن على معناه اللغوي وهو: الضعف[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم، عبد الله إبراهيم جلغوم، ص ١٤٣٣.
(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٦/ ١٤٩.

الألفاظ ذات الصلة

١ الضعف

الضعف لغةً

قال الجوهري: «الضعف خلاف القوة»[(١)].

الضعف اصطلاحًا

قال الراغب: «والضعف قد يكون في النفس، وفي البدن، وفي الحال»[(٢)].

الصلة بين الوهن والضعف

قال أبو هلال العسكري: «الوهن هو أن يفعل الإنسان فعل الضعيف وهو قوي في نفسه، فهو من فعل الإنسان. أما الضعف فهو من فعل الله تعالى بالإنسان، كما أن القوة من فعله، تقول: خلقه الله ضعيفًا أو خلقه قويًا»[(٣)].

وفرق بعضهم بينهما، فبين أن بينهما عمومًا وخصوصًا وجهيًا، فيجتمعان في الضعف إذا كان طارئًا، وينفرد الضعف في إطلاقه على الضعف الأصلي، وينفرد الوهن في صفات أخرى؛ إذ قد يكون الوهن جبنًا بعد شجاعة، أو فتورًا بعد عزيمة، أو توانيًا بعد همة، أو اختلالًا بعد إحكام إلخ[(٤)].

٢ القوة

القوة لغة

«القوة تدل على الشدة، وهي خلاف الضعف»[(٥)].

القوة اصطلاحًا

تستعمل تارة في معنى القدرة، وتارة للتهيؤ الموجود في الشيء، قد يكون في البدن أو في القلب أو المعاون أو القدرة الإلهية[(٦)]. وأطلقت القوة في القرآن الكريم على خمسة معانٍ: الشدة والبطش، والأنصار والأعوان، والجد والاجتهاد، والسلاح، والقدرة والطاقة[(٧)].

(١) الصحاح، ٤/ ١٣٩٠.
(٢) المفردات، ص٥٠٧.
(٣) الفروق اللغوية، ص١١٥.
(٤) من ألفاظ القوة ومقابلاتها في القرآن الكريم، عبد المجيد الغيلي ص٢٢.
(٥) مقاييس اللغة، ابن فارس، ٥/ ٣٦.
(٦) المفردات، الراغب ٦٩٤، بتصرف.
(٧) انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عمر، ص٣٨٣.



الصلة بين الوهن والقوة

الوهن: هو ضعف بعد قوة، فالعلاقة بينه وبين القوة علاقة تضاد.

وقيل: إن لفظ (القوة) هو المقابل التام للفظ (الوهن)، فالقوة: شدة، وجد، وشجاعة، وإحكام، واستطاعة. والوهن: ضعف، وفتور، وجبن، وخلل، وعجز[١].

٣ الكسل

الكسل لغة

«الكسل أصلٌ يدل على التثاقل عن الشيء والقعود عن إتمامه»[٢].

الكسل اصطلاحًا

«الفتور في الأفعال لسآمة أو كراهية»[٣].

الصلة بين الوهن والكسل

الكسل هو فتور مع إمكان العزم والجد، وهو بهذا المعنى أخص من الوهن.

١ السنة

العزم لغة

«عزم على الشيء: عقد ضميره على فعله، وعزم عزيمة: اجتهد وجد في أمره»[٤].

العزم اصطلاحًا

«العزم: عقد القلب على إمضاء الأمر»[٥].

الصلة بين الوهن والعزم

العزم يقابل الفتور، والفتور هو أحد معاني الوهن، ومن ثم فالعلاقة بين الوهن والعزم التضاد في المعنى.

---

(١) من ألفاظ القوة ومقابلاتها في القرآن الكريم، عبد المجيد الغيلي ص٢١.
(٢) مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ١٧٨.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/ ٢٣٩.
(٤) المصباح المنير، الفيومي، ٢/ ٤٠٨.
(٥) المفردات، الراغب، ص٥٦٥.

أنواع الوهن وأسبابه

يصنف (الوهن) في القرآن الكريم من حيث الشيء الواهن إلى ثلاثة أنواع: وهن الجسم، ووهن القلب، ووهن العمل. وفيما يأتي توضيح لها.

أولًا: وهن الجسم وأسبابه

ورد لفظ (وهن) للدلالة على وهن الجسم، مرتين في القرآن الكريم: الأولى للدلالة على وهن العظم.

والأخرى للدلالة على وهن الحامل.

وأما معنى الوهن وهو الدلالة على الضعف، فقد ورد في آيات عديدة كما في المرض أو مرحلة الشيخوخة.

تبين آيات الكتاب الكريم أن الجسم يصيبه الوهن إما بسبب الكبر، وإما بسبب العوارض الطارئة كالحمل والولادة.

١. الوهن بسبب الكبر.

يعرض للجسم الوهن بسبب الكبر، فيرق عظمه، ويشيب رأسه، ويرتعش صوته، وتزداد مخاوفه[(١)].

وقد اجتمعت هذه المظاهر في نداء زكريا عليه السلام: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥﴾ [مريم: ٢-٥].

قال الرازي: «واعلم أن زكريا عليه السلام قدم على السؤال أمورًا ثلاثة: أحدها: كونه ضعيفًا. والثاني: أن الله تعالى ما رد دعاءه البتة. والثالث: كون المطلوب بالدعاء سببًا للمنفعة في الدين، ثم بعد تقرير هذه الأمور الثلاثة صرح بالسؤال»[(٢)].

فزكريا يشكو من وهن جسمه بسبب الكبر، فذكر وهن عظمه، وشيب رأسه، ووهن العظم كما قال المفسرون: ضعفه، قال الطبري: «ضعف ورق من الكبر»[(٣)].

وقال ابن كثير: «ضعفت وخارت القوى»[(٤)].

وقد بين الزمخشري وجه إسناد الوهن إلى العظم؛ «لأنه عمود البدن وبه قوامه وهو أصل بنائه، فإذا وهن تداعى وتساقطت قوته، ولأنه أشد ما فيه وأصلبه، فإذا وهن كان ما وراءه أوهن»[(٥)].

---

(١) انظر: التناسق الهرموني في أوائل سورة مريم، مجلة الإعجاز العلمي.

(٢) مفاتيح الغيب ٢١/ ٥٠٨.

(٣) جامع البيان ١٨/ ١٤٣.

وانظر: الكشاف، الزمخشري ٣/ ٤، فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٣٧٩، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٨٩.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٢١١.

(٥) الكشاف ٣/ ٤.

وتابعه عامة المفسرين، انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٧٧، البحر المحيط، أبو حيان ٧/ ٢٣٩، نظم الدرر، البقاعي

فالمفسرون يرون أن وهن العظم يستلزم وهن الجسم، كما قال الشنقيطي: «فوهنه يستلزم وهن غيره من البدن»[1].

وقال ابن عاشور: «لأن العظم هو قوام البدن، وهو أصلب شيء فيه، فلا يبلغه الوهن إلا وقد بلغ ما فوقه»[2].

كما ربط الرازي بين وصف النداء بـ(الخفي)، وبين مظاهر الوهن في جسم زكريا، فذكر من الأوجه: «خفي صوته؛ لضعفه وهرمه، كما جاء في صفة الشيخ: صوته خفات وسمعه تارات. فإن قيل: من شرط النداء الجهر، فكيف الجمع بين كونه نداء وخفيًا؟ والجواب من وجهين، الأول: أنه أتى بأقصى ما قدر عليه من رفع الصوت إلا أن الصوت كان ضعيفًا؛ لنهاية الضعف بسبب الكبر، فكان ﴿نِدَآءً﴾ نظرًا إلى قصده، و﴿خَفِيًّا﴾ نظرًا إلى الواقع»[3].

وبين الرازي أن ﴿وَهَنَ ٱلْعَظْمُ﴾ هو استيلاء الضعف على باطن الجسم؛ لتداعي قوته، ثم قال: «وأما أثر الضعف في الظاهر فذلك استيلاء الشيب على الرأس. فثبت أن هذا الكلام يدل على استيلاء الضعف على الباطن والظاهر، وذلك مما يزيد الدعاء توكيدًا لما فيه من الارتكان على حول الله وقوته، والتبري عن الأسباب الظاهرة»[4].

وقال ابن كثير: «والمراد من هذا الإخبار عن الضعف والكبر، ودلائله الظاهرة والباطنة»[5].

وقال السعدي: «شكا إلى ربه ضعفه الظاهر والباطن»[6].

كما ورد وهن الجسم من الكبر في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾[الروم: ٥٤].

فالآية تبين أن الإنسان بعد أن يبلغ قوته يعود إلى مرحلة الضعف بسبب الكبر.

قال السعدي: «يخبر تعالى عن سعة علمه وعظيم اقتداره وكمال حكمته، ابتدأ خلق الآدميين من ضعف وهو الأطوار الأول من خلقه من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى أن صار حيوانًا في الأرحام إلى أن ولد، وهو في سن الطفولية وهو إذ ذاك في غاية الضعف وعدم القوة والقدرة. ثم ما زال الله يزيد في قوته شيئًا فشيئًا حتى بلغ سن الشباب واستوت قوته وكملت قواه الظاهرة والباطنة، ثم انتقل من هذا الطور ورجع إلى الضعف والشيبة والهرم»[7].

١٢/ ١٦٨، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٢٥٣، فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٣٧٩.

(١) أضواء البيان ٣/ ٣٦٠.
(٢) التحرير والتنوير ١٦/ ٦٤.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٥٠٧.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٥٠٩.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٢١٢.
(٦) تيسير الكريم الرحمن ص٤٨٩.
(٧) المصدر السابق ص٦٤٤.

ومن الآيات التي تصف وهن الإنسان في هذه المرحلة، قوله تعالى: ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ [يس: ٦٨].

قال أبو السعود: «أي: نقلبه فيه، ونخلقه على عكس ما خلقناه أولًا، فلا يزال يتزايد ضعفه وتتناقص قوته وتنتقص بنيته ويتغير شكله وصورته، حتى يعود إلى حالة شبيهة بحال الصبي في ضعف الجسد وقلة العقل، والخلو عن الفهم والإدراك»[١].

وقوله: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ﴾ [النحل: ٧٠].

قال النيسابوري: «أرذل العمر أخسه وأحقره. وقال السدي: هو حالة الخرف فيصير إلى حالة شبيهة بحال الطفل في النسيان وعدم التذكر، واعلم أن العقلاء ضبطوا مراتب عمر الإنسان في أربع:

أولها: سن النشوء.

وثانيها: سن الوقوف وهو سن الشباب.

وثالثها: الانحطاط الخفي اليسير، وهو سن الكهولة.

ورابعها: سن الانحطاط الظاهر، وهو سن الشيخوخة»[٢].

«إن أول من تنبه لظاهرة الشيخوخة كعلم مستقل هو الطبيب الفرنسي شاركوت عام ١٨٨١م، ولم يتبعه أغلب الباحثين إلا في القرن العشرين، ولذا نعجب أن يولي القرآن الكريم موضوع الشيخوخة عنايته قبل ذلك بأكثر من عشرة قرون، ولا تجد لهذا نظيرًا في أي كتاب آخر ينسب اليوم للوحي غير القرآن الكريم، وإن إدراك خفايا الشيخوخة في عصرنا حيث توفرت التقنيات إنما هو شهادة للقرآن»[٣].

٢. الوهن بسبب العوارض الطارئة.

تحدث القرآن الكريم عن وهن الجسم بسبب العوارض الطارئة، ومنها حمل الأم وولادتها.

وقد جاءت الإشارة إلى وهن الحمل في قوله تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾ [لقمان: ١٤].

فالآية تتحدث عن وصية الله للإنسان بوالديه، ثم تخص والدته بالذكر؛ حيث حملته وهنا على وهن، ثم وضعته، ثم كان فصاله في عامين.

وقد فسر الوهن في الآية بالضعف، وقيل: الجهد والمشقة التي تعانيها الأم[٤].

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/ ١٧٧.
(٢) غرائب القرآن، النيسابوري ٤/ ٢٨٢، بتصرف.
(٣) الشيخوخة تنكيس في الخلق، محمد دودح، مجلة الإعجاز العلمي.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ١٣٧، معاني القرآن، الزجاج ٤/ ١٩٦، الكشاف، الزمخشري ٣/ ٤٩٤.

وعامة المفسرين على أن الوهن في الآية يعود إلى الأم، فقوله: ﴿وَهْنًا﴾ حال من الفاعل ﴿أُمُّهُ﴾، والمعنى: حملته أمه في حال كونها واهنة وهنا على وهن. وذكر بعضهم أنه يُحتمل أن يكون حالًا من المفعول في ﴿حَمَلَتْهُ﴾، أي: الولد، فالواهن هو الجنين في بطن أمه إلا أن سياق الآية يدل على أن الوهن للأم؛ إذ الآية توصي الإنسان بوالديه، وتبين معاناة الأم في حمله، ثم في فصاله[1].

كما ذكر المفسرون أقوالًا عديدة في المراد بالتركيب: ﴿وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾، فقيل: ضعفًا بعد ضعف، وقال ابن عطية: «وقيل: إشارة إلى مشقة الحمل ومشقة الولادة بعده، وقيل: إشارة إلى ضعف الولد وضعف الأم معه، ويحتمل أن أشار إلى تدرج حالها في زيادة الضعف، فكأنه لم يعين ضعفين بل كأنه قال: حملته أمه والضعف يتزيد بعد الضعف إلى أن ينقضي أمره»[2].

وزاد أبو حيان في البحر المحيط: «وقيل: وهنا على وهن: نطفة ثم علقة، إلى آخر النشأة، فعلى هذا يكون حالًا من الضمير المنصوب في ﴿حَمَلَتْهُ﴾، وهو الولد»[3].

وقال السعدي: «أي: مشقة على مشقة، فلا تزال تلاقي المشاق، من حين يكون نطفة، من الوحم، والمرض، والضعف، والثقل، وتغير الحال، ثم وجع الولادة، ذلك الوجع الشديد»[4].

والآية تُذَكِّرُ الإنسان بحق والديه عليه، وخاصة الأم، التي حملته وهنا على وهن، ثم وضعته كرهًا، ثم أرضعته عامين، قال سيد قطب «وما يملك الوليد وما يبلغ أن يعوض الوالدين بعض ما بذلاه، ولو وقف عمره عليهما. وهذه الصورة الموحية: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ ترسم ظلال هذا البذل النبيل، والأم بطبيعة الحال تحتمل النصيب الأوفر وتجود به في انعطاف أشد وأعمق وأحنى وأرفق»[5].

وقد علل الشعراوي تذكير الإنسان بدور الأم دون الأب، مع أن الله وصاه بوالديه، وذلك أن دور الأم كان والإنسان جنين ثم رضيع لا يدرك، فالأم كانت «تصنع لك وأنت صغير لا تدرك صنعها، فهو مستور عنك لا تعرفه، أما أفعال الأب وصنعه لك فجاء حال كبرك وإدراكك للأمور من حولك، فالابن يعرف ما قدم أبوه من أجله»[6].

ومن الوهن بسبب العوارض الطارئة ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٣٤٨، البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ٤١٣ - ٤١٤.
(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٣٤٨.
(٣) البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ٤١٤.
(٤) تيسير الكريم الرحمن ص٦٤٨.
(٥) في ظلال القرآن ٥/ ٢٧٨٨.
(٦) تفسير الشعراوي ١٩/ ١١٦٤١.

﴿إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥].

وقال السعدي: «نبه على ذكر السبب الموجب لذلك فذكر ما تحملته الأم من ولدها وما قاسته من المكاره وقت حملها، ثم مشقة ولادتها المشقة الكبيرة ثم مشقة الرضاع وخدمة الحضانة، وليست المذكورات مدة يسيرة ساعة أو ساعتين، وإنما ذلك مدة طويلة قدرها ﴿ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ للحمل تسعة أشهر ونحوها، والباقي للرضاع هذا هو الغالب»[(١)].

٣. من الإعجاز العلمي في آيات وهن الجسم.

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم: ٤].

﴿وَهَنَ ٱلْعَظْمُ﴾ يشير إلى مظهر من مظاهر الجسم نتيجة الكبر، وبلوغ مرحلة الشيخوخة، حيث تتناقص كثافة العظام، وتضعف قوتها، وتلين صلابتها، ويصاب النسيج العظمي بالهشاشة؛ مما يجعله عرضة سهلة للكسر[(٢)].

ويقرر الأطباء أن الجسم يبلغ قوته في الأربعين، حيث إن «الكتلة العظمية تبلغ ذروتها من حيث القوة والكثافة في سن الثلاثين إلى الأربعين، ثم تبدأ تتناقص كثافتها وتضعف قوتها بعد الأربعين، ويزداد التناقص كلما تقدم الإنسان في العمر»[(٣)].

وإلى بلوغ ذروة الأشد يشير قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ [الأحقاف: ١٥].

ثم تبدأ مرحلة الضعف لقوى الجسم، وهي مرحلة مقترنة بالشيخوخة (الشيبة)، وجاء الحديث عنها في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم: ٥٤].

وتتبين دلالة الإعجاز في استخدام لفظ (الوهن) دون غيره من ألفاظ الضعف، أو اللين، فلفظ «الوهن يوحي بالتراكمية والتدرج في المقدار، وهو يتناسب مع حالة الهشاشة؛ فليس لها مقدار ثابت معين بل إنها تتزايد شدتها، ويمكن أن تحدث منها مضاعفات»[(٤)].

ويشير العلماء إلى أن سبب وهن العظم

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٧٨١.

(٢) لا للشيخوخة المبكرة، سامي محمود ص٦١.

(٣) التناسق الهرموني في أوائل سورة مريم، د. زهير رابح قرامي، موقع مجلة الإعجاز.

(٤) قراءة علمية وإعجازية في وهن العظام عند الرجال، د. محمد الديب، موقع هيئة الإعجاز العلمي.

عند الكبر يعود إلى نقص كفاءة خلايا البناء العظمي، مما يؤدي إلى نقص امتصاص الكالسيوم، ومن ثم زيادة هدم العظام؛ حيث تنفرد خلايا الهدم بالعمل على نخر العظام ولا تواجهها خلايا البناء بالتعويض[1].

وقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ [لقمان: ١٤].

تشير الآية إلى معاناة الأم أثناء حملها بولدها، ويقرر الأطباء أن الحامل تمر بمظاهر كثيرة من الوهن، خلال أشهر الحمل، وتعاني من آلام شديدة، سواء في منطقة الرحم أو المنطقة المحيطة به، أو في منطقة الثديين، أو في مناطق أخرى من جسمها، كالظهر والبطن والفخذين، ومجرى البول، والتهابات في العظام والأسنان. ويسهم الجنين أيضًا في وهن الأم؛ حيث يسحب ما يحتاج إليه من غذاء ودم من جسم أمه، مما يضاعف من وهنها. وفي الأشهر الأخيرة من الحمل تظهر أنواع أخرى من المتاعب الناتجة عن ضغط الرحم على المعدة والكبد، وتشكو الأم من ضيق في التنفس؛ لأن الرحم ملأ تجويف البطن. ومع اقتراب الوضع يزداد تقلص الرحم، وتتكرر الانقباضات، وتشتد آلامها، حتى تضع الحامل جنينها كرهًا.

قال تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ [الأحقاف: ١٥][2].

ثالثًا: وهن القلب وأسبابه

وهن القلب هو الضعف الذي يصيب قوته فيضعف ويفتر ويجبن، وقد جاء النهي عنه في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع ﴿فَلَا تَهِنُوا﴾، وجاء منفيًا في موضع رابع ﴿فَمَا وَهَنُوا﴾، فهو وصف ذميم، ينزه الله عباده المؤمنين عن الاتصاف به.

ويتبين من خلال آيات القرآن الكريم، أنَّ لوهن القلب سببين، هما: حبُّ الدنيا، وكراهية الموت. وقد جاء التصريح بهما في الحديث: (يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها)، فقال قائل: ومن قلةٍ نحن يومئذ؟ قال: (بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاءٌ كغثاء السيل، ولينزعنَّ الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفنَّ الله في قلوبكم الوهن)، فقال قائل: يا رسول الله، وما الوهن؟ قال: (حبُّ الدنيا، وكراهية الموت)[3].

(١) التناسق الهرموني في أوائل سورة مريم، زهير رابح قرامي، موقع مجلة الإعجاز.

(٢) انظر: حملته أمه وهنا على وهن، عبد المحسن صالح، ٨٨- ٩٥.

(٣) أخرجه أبو داوود في سننه، من حديث ثوبان، رقم ٤٢٩٧، كتاب الملاحم، باب في تداعي الأمم على الإسلام. وأخرجه أحمد، رقم ٨٦٩٨، وحسنه الشيخ أحمد شاكر في تحقيقه لمسند أحمد ٨/ ٣٩٦، وحسنه الشيخ الأرناءوط في تحقيقه لسنن أبي داوود ٦/ ٣٥٥. وصححه الألباني، انظر: صحيح

قال البيضاوي: «وأراد بـ(الوهن): ما يوجبه، ولذلك فُسِّرَ بحب الدنيا وكراهة الموت»[1].

١ . حب الدنيا.

قال تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ۝٣٥ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥-٣٦].

قال البيضاوي: «﴿فَلَا تَهِنُوا﴾ فلا تضعفوا، ﴿وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ﴾ ولا تدعوا إلى الصلح خورًا وتذللًا»[2].

وقال الشوكاني: «فلا تضعفوا عن القتال، ولا تدعوا الكفار إلى الصلح ابتداء منكم، فإنَّ ذلك لا يكون إلا عند الضعف»[3].

وقال سيد قطب «إنَّ هذا النهي يكشف عن وجود أفراد من المسلمين كانوا يستثقلون تكاليف الجهاد الطويل ومشقته الدائمة، وتهن عزائمهم دونه ويرغبون في السلم والمهادنة؛ ليستريحوا من مشقة الحروب»[4].

فالوهن المنهي عنه في الآية هو فتور القلب عن العزم في الجهاد، ومِنْ ثَمَّ يميلُ إلى الراحة والمهادنة؛ تجنبًا للقتال، ورغبة في الدنيا.

قال الرازي في تفسير قوله: ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾: «يعني: كيف تمنعك الدنيا من طلب الآخرة بالجهاد»[5].

وقال ابن عاشور: «هذه الآية تعليل لمضمون قوله: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ﴾»[6].

وهناك كثيرٌ من آيات القرآن الكريم تُبيِّنُ أن حبَّ الدنيا يوهن القلب، ويضعفه، ويملؤه بالجبن.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨].

قال الزمخشري: «أي: تباطأتم وتقاعستم، وضُمِّنَ معنى الميل والإخلاد فعدي بـ﴿إِلَى﴾، والمعنى: ملتم إلى الدنيا وشهواتها وكرهتم مشاقّ السفر ومتاعبه، ونحوه: ﴿أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ [الأعراف: ١٧٦]»[7].

وقال ابن كثير: «هذا شروع في عتاب من تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك، حين طابت الثمار

الجامع الصغير، رقم ٨١٨٣، ٢/ ١٣٥٩.
(١) تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة ٣/ ٣١٣.
(٢) أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ١٢٥.
(٣) فتح القدير ٥/ ٤٩.
(٤) في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٠٢.
(٥) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٨/ ٦٢.
(٦) التحرير والتنوير ٢٦/ ١٣٢.
(٧) الكشاف ٢/ ٢٧١.

والظلال في شدة الحرِّ ﴿اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ أي: تكاسلتم وملتم إلى المقام في الدعة والخفض وطيب الثمار، ﴿أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ أي: ما لكم فعلتم هكذا، أرضًا منكم بالدنيا بدلا من الآخرة؟!»[1].

كما أنَّ حبَّ الدنيا يؤدي إلى الفشل، وهو الجبن والتنازع، فتهن القلوب، وتنكسر الهمم.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

فقال لهم: منكم من يريد الدنيا، وهم الذين كانوا سببًا في هزيمة المسلمين في أحد، وهذه الهزيمة هي التي سببت وهنهم بعد ذلك، فنهاهم الله عنه، وقال: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٣٩ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾ [آل عمران: ١٣٩-١٤٠].

٢. كراهية الموت.

وقد تحدثت سورة آل عمران عن الوهن الذي أصاب المؤمنين، بعد هزيمتهم في أحد، وَبَيَّنَ لهم أنَّ القعود عن الجهاد كراهية للقتال لا يؤدي إلا إلى مزيد من الوهن، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٣٩ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾ [آل عمران: ١٣٩-١٤٠].

قال البغوي: «﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ أي: لا تضعفوا ولا تجبنوا عن جهاد أعدائكم بما نالكم من القتل والجرح، وكان قد قتل يومئذ من المهاجرين خمسة منهم: حمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير، وقتل من الأنصار سبعون رجلًا، ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ أي: على ما فاتكم»[2].

وكراهية القتال «تنشأ بسبب الهزائم والآلام والقروح التي تصيب المؤمنين، مما يؤدي إلى تسلل الوهن إلى قلوبهم، ويكون مظاهر هذا الوهن: ضعفًا بعد قوة، وجبنًا بعد شجاعة، وفتورًا بعد عزيمة، ويدفعهم ذلك إلى القعود عن الجهاد، وإلقاء السلاح، والتخلي عن نصرة الحق، والرضا بالذل والهوان»[3].

كما تحدث عن الربيين الذين قاتلوا مع النبيين، فلم يهنوا ولم يضعفوا، بل صبروا، قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران:

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٥٣.

(٢) معالم التنزيل، البغوي ١/ ٥١٣.

(٣) الوهن في القرآن الكريم، عبد المجيد الغيلي ٤٥.

[١٤٦].

أي: ما وهنوا لمصابهم، فاللام؛ للتعليل والسببية، وتفيد أن سبب الوهن هو ما أصابهم في سبيل الله. قال الطبري: «فما عجزوا لما نالهم من ألم الجراح الذي نالهم في سبيل الله، ولا لقتل من قتل منهم، عن حرب أعداء الله، ولا نكلوا عن جهادهم»[١].

وقال الماوردي: «فلم يهنوا بالخوف، ولا ضعفوا بنقصان القوة، ولا استكانوا بالخضوع». وقال ابن إسحاق: «فما وهنوا بقتل نبيهم، ولا ضعفوا عن عدوهم، ولا استكانوا لما أصابهم»[٢].

وقال الزمخشري: «وهذا تعريض بما أصابهم من الوهن والانكسار عند الإرجاف بقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم»[٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾ [النساء: ١٠٤].

فقال الواحدي في تفسيرها: «والمراد بالقوم ههنا: أبو سفيان وأصحابه، لمَّا انصرفوا عن أحد منهزمين، وقد قذف الله في قلوبهم الرعب، أمر الله تعالى نبيه عليه السلام أن يسير في آثارهم بعد الوقعة بأيام، فندب النبي صلى الله عليه وسلم الناس لذلك، فاشتكوا ما بهم من الجراحات، فأنزل الله هذه الآية»[٤].

وبهذا يتبين أن وهن القلب في هذه المشاهد كلها سببه الهزيمة التي لحقت بالمسلمين في أحد، وما خلفته فيهم من آلام وأسقام، وقروح وجروح، فوهنوا لذلك، وتجلى هذا الوهن في المشهد الأول: في تضعضع قلوبهم وحزنها، وفي المشهد الثاني: تجلى في جبنٍ وانصرافٍ عن القتال، وفي المشهد الثالث: تجلى في تثاقلٍ وفتورٍ. ومرد ذلك كله إلى كراهية القتال، سواء أكانت الكراهية عن حزن أو خوف أو إعياء.

أما الوهن الوارد في سورة محمد فمرده إلى حبِّ الدنيا والتعلق بها[٥].

٣. وهن القلب معنًى.

تحدث القرآن الكريم كثيرًا عن وهن القلب، وبين مظاهره المختلفة:

- الحزن، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].
- الغضب، كما في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧].
- الضيق، كما في قوله: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا

(١) جامع البيان، الطبري ٧/ ٢٦٩.
(٢) النكت والعيون، الماوردي ١/ ٤٢٨.
(٣) الكشاف ١/ ٤٢٤.
(٤) التفسير البسيط ٧/ ٦٥.
(٥) الوهن في القرآن الكريم، عبد المجيد الغيلي ٤٩.

تك في ضيق مما يمكرون﴾ [النحل: ١٢٧].

- التثاقل، كما في قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل﴾ [التوبة: ٣٨].
- الفشل، كقوله: ﴿وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين﴾ [الأنفال: ٤٦].
- الخوف، كما في قوله تعالى: ﴿أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحة على الخير﴾ [الأحزاب: ١٩]. قال ابن كثير: «﴿فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت﴾ أي: من شدة خوفه وجزعه، وهكذا خوف هؤلاء الجبناء من القتال، ﴿فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد﴾، أي: فإذا كان الأمن، تكلموا كلامًا بليغًا فصيحًا عاليًا، وادعوا لأنفسهم المقامات العالية في الشجاعة والنجدة، وهم يكذبون في ذلك»[(١)].
- الحسرة، كما في قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم﴾ [آل عمران: ١٥٦].

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعوذ من مظاهر وهن القلب، كما في الحديث: (اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والبخل والجبن، وضلع الدين، وغلبة الرجال)[(٢)].

ومن ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (المؤمن القويُّ خير وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خيرٌ. احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء، فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل؛ فإنَّ لو تفتح عمل الشيطان)[(٣)].

قال النووي: «والمراد بالقوة هنا: عزيمة النفس والقريحة في أمور الآخرة، فيكون صاحب هذا الوصف أكثر إقدامًا على العدو في الجهاد، وأسرع خروجًا إليه وذهابًا في

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣٩٠.

(٢) أخرجه البخاري من حديث أنس بن مالك، رقم ٦٣٦٣، كتاب الدعوات، باب التعوذ من غلبة الرجال. ومسلم، رقم ٢٧٠٦، كتاب الذكر والدعاء، باب التعوذ من العجز والكسل. واللفظ للبخاري.

(٣) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة، رقم ٢٦٦٤، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز.

طلبه، وأشد عزيمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر على الأذى في كلِّ ذلك، واحتمال المشاق في ذات الله تعالى، وأرغب في الصلاة والصوم والأذكار وسائر العبادات، وأنشط طلبًا لها ومحافظة عليها، ونحو ذلك»[1].

فالمؤمن الضعيف يراد به: من أصاب قلبه الوهن، كالفتور أو العجز أو الندم أو التحسر، ولذلك قابل بينه وبين المؤمن القوي الذي لا يعجز ولا يفتر، بل يستعين بالله ويرضى بقضائه. وصفات المؤمن الضعيف هي تلك الصفات التي استعاذ منها الرسول صلى الله عليه وسلم، من همٍّ وحزن، وعجز وكسل، وجبن وبخل.

ثالثًا: وهن العمل وأسبابه:

وهن العمل: هو ضعفه واختلاله وانعدام ثمرته، فلا يكون محكمًا، ولا مثمرًا، كبيت العنكبوت الذي لا يحمي من برد ولا حر. وقد تحدث القرآن الكريم كثيرًا عن وهن العمل، وفيما يأتي توضيح أمرين: صور وهن العمل، وتوهين الله كيد الكافرين.

١. صور وهن العمل.

من صور وهن العمل ما يلي:

- صرف العمل في غير محله.

كمن يدعو من لا يسمعه ولا يستجيب له، ويطلب ممن لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا.

قال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١-٤٣].

قال الطبري: «مثل الذين اتخذوا الآلهة والأوثان من دون الله أولياء يرجون نصرها ونفعها عند حاجتهم إليها في ضعف احتيالهم، وقبح رواياتهم، وسوء اختيارهم لأنفسهم، ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ في ضعفها، وقلة احتيالها لنفسها، ﴿ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ لنفسها، كيما يكنها، فلم يغن عنها شيئًا عند حاجتها إليه.

فكذلك هؤلاء المشركون لم يغن عنهم -حين نزل بهم أمر الله، وحَلَّ بهم سخطه- أولياؤهم الذين اتخذوهم من دون الله شيئًا، ولم يدفعوا عنهم ما أحلَّ الله بهم من سخطه بعبادتهم إياهم»، ونقل عن قتادة قوله: «هذا مثل ضربه الله للمشرك؛ مثل إلهه الذي يدعوه من دون الله كمثل بيت العنكبوت واهن ضعيف لا ينفعه»[2].

(١) شرح صحيح مسلم ١٦/ ٢١٥.

(٢) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٣٨.

وقال ابن كثير: «هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله، يرجون نصرهم ورزقهم، ويتمسكون بهم في الشدائد، فهم في ذلك كبيت العنكبوت في ضعفه ووهنه، فليس في أيدي هؤلاء من آلهتهم إلا كمن يتمسك ببيت العنكبوت، فإنه لا يجدي عنه شيئًا، فلو علموا هذا الحال لما اتخذوا من دون الله أولياء، وهذا بخلاف المسلم المؤمن قلبه لله، وهو مع ذلك يحسن العمل في اتباع الشرع، فإنه مستمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها؛ لقوتها وثباتها»[1].

فسبب وهن عمل المشرك أنه تعلق بغير الله، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ [التوبة: ١٠٩].

قال الزمخشري: «والمعنى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ﴾ دينه على قاعدة قوية محكمة، وهي الحقُّ الذي هو تقوى الله ورضوانه، ﴿خَيْرٌ أَم مَّنْ﴾ أسسه على قاعدة هي أضعف القواعد وأرخاها وأقلها بقاء، وهو الباطل والنفاق الذي مثله مثل شفا جرفٍ هارٍ في قلة الثبات والاستمساك»[2].

قال ابن القيم: «أعظم الناس خذلانًا من تعلق بغير الله، فإن ما فاته من مصالحه وسعادته وفلاحه أعظم مما حصل له ممن تعلق به، وهو معرض للزوال والفوات. ومثل المتعلق بغير الله كمثل المستظل من الحرِّ والبرد ببيت العنكبوت»[3].

❁ الإتيان بالعمل بغير طريقته الصحيحة.

قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝١٠٣ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٤].

قال الطبري: «﴿بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ يعني: بالذين أتعبوا أنفسهم في عمل يبتغون به ربحًا وفضلًا، فنالوا به عطبًا وهلاكًا ولم يدركوا طلبًا، كالمشتري سلعة يرجو بها فضلًا وربحًا، فخاب رجاؤه. وخسر بيعه، ووكس في الذي رجا فضله»[4].

وقال تعالى: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ [الغاشية: ٣].

قال ابن عباس: «يعني: الذين عملوا ونصبوا في الدنيا على غير دين الإسلام من عبدة الأوثان وكفار أهل الكتاب مثل الرهبان وغيرهم لا يقبل الله منهم اجتهادًا في ضلالة، يدخلون النار يوم القيامة»[5].

وقد يكون الوهن بسبب أنَّ العامل لم يتجه بعمله الوجهة الصحيحة، فالمؤمنون عليهم أن يطلبوا النصر من ربهم، ويستمدوا العون منه، فإذا فعلوا ذلك نصرهم وقوي

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٧٩.
(٢) الكشاف ٢/ ٣١٢.
(٣) مدارج السالكين ١/ ٤٥٥.
(٤) جامع البيان، الطبري ١٨/ ١٢٥.
(٥) معالم التنزيل، البغوي ٥/ ٢٤٤.

أمرهم، وإن والوا غير ربهم خذلهم الله، فوهن عملهم، وتشتت أمرهم. فمن ضعفت صلته بربه خذله ووكله إلى نفسه؛ فقوة عمل العامل تأتي من قوة صلته بربه، فإذا ضعفت تلك الصلة وارتخت، فقد وهن عمله وضعف.

قال تعالى: ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

فالخذلان إنما يكون بسبب وهن عملهم؛ إذ ضعفت صلتهم بربهم، فوهنوا فخذلهم الله.

قال الخطيب: «الذين يفوضون أمرهم إلى الله، ويشدون عزائمهم إليه، ويعلقون آمالهم به، هم الذين يحبهم الله ويتولاهم؛ لأنهم أحبوا الله وانتظموا في مجتمع أوليائه وإنهم إذ يلوذون بَحِمَى الله فإنما يستمسكون بالعروة الوثقى، ويعتصمون بأقوى معتصم، وهم بهذا في ضمان النصر، وعلى طريقه، ولن يغلبهم أحد. فإن تخلوا عن الله، ووكلوا أمرهم إلى حولهم وحيلتهم، فقد آذنوا الله أن يتخلى عنهم، وأن يَدَعَهُم إلى أنفسهم، وهذا خذلان مبين، ومن خذله الله فلا ناصر له»[1].

ولذلك كان الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو ربه حين يصبح وحين يمسي: **(أصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين)**[2].

فكانت النتيجة ذلك أن الله كفاه وحماه ونصره، قال تعالى: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [الزمر: ٣٦].

وتُبَيِّنُ آيات القرآن الكريم صورًا شتى لوهن عمل المؤمنين جراء ضعف صلتهم بالله.

منها: اتباع أهواء اليهود والنصارى، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

ومنها: الركون إلى الظالمين، قال تعالى: ﴿وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣].

ومنها: الوقوع في الذنوب والمعاصي، قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩].

- **الإتيان بما يبطل العمل.**

(١) التفسير القرآني للقرآن ٢/ ٦٢٩.

(٢) أخرجه أبو داوود عن أنس، رقم ٥٠٩٠، والنسائي، رقم ١٠٣٣٠، وحسنه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، رقم ٢٢٧، ١/ ٤٩٩.

ومن ذلك توهين الأمر بعد إبرامه، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا﴾ [النحل: ٩٢].

قال البيضاوي: «أي: نقضت غزلها من بعد إبرام وإحكام»[1].

وفي تفسير ابن كثير: «قال السدي: هذه امرأة خرقاء كانت بمكة، كلما غزلت شيئًا نقضته بعد إبرامه. وقال مجاهد، وقتادة، وابن زيد: هذا مثل لمن نقض عهده بعد توكيده. وهذا القول أرجح وأظهر، وسواء كان بمكة امرأة تنقض غزلها أم لا»[2].

وقال السعدي: «﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ في نقضكم للعهود بأسوأ الأمثال وأقبحها وأدلها على سفه متعاطيها، وذلك ﴿كَالَّتِي﴾ تغزل غزلًا قويًا، فإذا استحكم وتم ما أريد منه نقضته فجعلته ﴿أَنْكَاثًا﴾ فتعبت على الغزل ثم على النقض، ولم تستفد سوى الخيبة والعناء وسفاهة العقل ونقص الرأي، فكذلك من نقض ما عاهد عليه، فهو ظالم جاهل سفيه ناقص الدين والمروءة»[3].

ومن ذلك الشرك، فالمشرك تنقطع صلته بالله انقطاعًا تامًا، ولذلك فالله يحبط عمله، ويرده عليه، كما قال: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨].

ومن ذلك إبطال الصدقات بالمنّ والأذى، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ [البقرة: ٢٦٤].

قال الشوكاني «الإبطال للصدقات: إذهاب أثرها وإفساد منفعتها، أي: لا تبطلوها بالمنِّ والأذى أو بأحدهما»[4].

كما جاء الحديث عن هذا الوهن في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [النور: ٣٩].

وقوله: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

وقوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ١].

وقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ [إبراهيم: ١٨].

❁ حصول التنازع على العمل.

التنازع على العمل يوهنه، ويفرق أمر الجماعة، ويشتت شملها، ولذلك حذر الله المؤمنين من التفرق، كما حذرهم من التنازع.

قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

---

(١) أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ٢٣٨.
(٢) تفسير القرآن الكريم ابن كثير ٤/ ٥٩٩.
(٣) تيسير الكريم الرحمن ٤٤٧.
(٤) فتح القدير ١/ ٣٢٧.

وقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٤].

قال السعدي: «أمرهم تعالى بما يعينهم على التقوى وهو الاجتماع والاعتصام بدين الله، وكون دعوى المؤمنين واحدة، مؤتلفين غير مختلفين، فإن في اجتماع المسلمين على دينهم، وائتلاف قلوبهم يصلح دينهم وتصلح دنياهم، وبالاجتماع يتمكنون من كلِّ أمر من الأمور، ويحصل لهم من المصالح التي تتوقف على الائتلاف ما لا يمكن عدها، من التعاون على البر والتقوى، كما أن بالافتراق والتعادي يختل نظامهم وتنقطع روابطهم، ويصير كل واحد يعمل ويسعى في شهوة نفسه، ولو أدى إلى الضرر العام»[1].

وقال ناهيًا المؤمنين عن التنازع: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

قال ابن القيم: «أمر الله المجاهدين بخمسة أشياء، وذكر منها: اتفاق الكلمة وعدم التنازع الذي يوجب الفشل والوهن ،وهو جند يقوي به المتنازعون عدوهم عليهم، فإنهم في اجتماعهم كالحزمة من السهام لا يستطيع أحد كسرها، فإذا فرقها وصار كلٌّ منهم وحده كسرها، فإذا فرقها وصار كلٌّ منهم وحده كسرها كلها»[2].

٢. توهين الله كيد الكافرين.

قال تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١٧ ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾ [الأنفال: ١٧-١٨].

قال الزمخشري: «﴿ذَلِكُمْ﴾ إشارة إلى البلاء الحسن، ومحله الرفع: أي: الغرض ذلكم، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ﴾ معطوف على ذلك. يعني: إن الغرض إبلاء المؤمنين وتوهين ﴿كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾»[3].

ويبين القرآن الكريم أنَّ وهن كيد الكافرين سببه كفرهم بالله وآياته، ومحاربتهم لله ورسوله، ومشاقتهم، كما قال تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١].

وقال: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٢].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ١٤١.

(٢) الفروسية ٥٠٦.

(٣) الكشاف ٢/ ٢٠٨، وانظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٥١٢.

وقال: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ١٢-١٣].

ومن صور كيد الكافرين بالمؤمنين: السعي في فتنتهم إما بقتل أو حرق أو قتل أبنائهم، أو اضطهادهم وصرفهم عن دينهم، وخديعتهم إما بالتظاهر أنهم يريدون لهم الخير، أو بغير ذلك من صور الخداع التي يهدفون من ورائها إلى إيقاع الضرر وإرادة السوء بالمؤمنين، وخيانتهم بأي صورة من صور الخيانة. وهكذا كلُّ تدبير يجتهدون فيه لإيقاع الضرر بالمؤمنين[١].

والله تعالى بين في كتابه أنه موهن كيد الكافرين، ومبطل عملهم فقال: ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ۝ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٧-٨].

وقال: ﴿قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١].

وقال تعالى: ﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ [الزخرف: ٧٩].

قال الزجاج «أي: أم أحكموا عند أنفسهم أمرًا من كيد أو شر ﴿فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ محكمون مجازاتهم»[٢].

ومن صور توهين الله كيد الكافرين ما ذكره الواحدي: «وتوهينه كيدهم يكون بأشياء: بإطلاع المؤمنين على عوراتهم، وإلقاء الرعب في قلوبهم، وتفريق كلمتهم، ونقض ما أبرموا باختلاف عزائمهم»[٣].

ومنها أيضًا: «إغراء العداوة والبغضاء بينهم، وتفريق كلمتهم، وتسليط بعضهم على بعض، وكشف كيدهم للمؤمنين. وتوهين كيد الكائدين، يستلزم توهين قلوبهم، فيثبط عزائمهم، ويقذف الرعب في قلوبهم، ويضعف قوتهم، ومن إضعاف قوتهم: إلحاق الهزيمة بهم، وجعل الدائرة عليهم، وتمكين المؤمنين منهم»[٤].

ومن الصور التي بينتها سورة الأنفال في توهين الله كيد الكافرين[٥]:

دفع المشركين إلى المواجهة في بدر؛ لتحيق الهزيمة بهم، فَيَهِنْ أمرهم، قال تعالى: ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ۝ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٧-٨].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ

(١) انظر: الكيد في القرآن الكريم، يحيى محمد يحيى، ١١.

(٢) معاني القرآن ٤/ ٤٢٠.

(٣) التفسير البسيط ١٠/ ٧٤.

(٤) الوهن في القرآن الكريم، عبد المجيد الغيلي ص٦٥.

(٥) المصدر السابق ٦٣-٦٤.

فِي ٱلۡمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا ﴾ [الأنفال: ٤٢].

وإلقاء الرعب في قلوبهم، قال تعالى: ﴿ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ ﴾ [الأنفال: ١٢].

وإعجازهم عن أن يستأصلوا شأفة المسلمين رغم قلة عددهم وضعفهم أيام كانوا في مكة، قال تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٦].

وإعجازهم أن ينالوا من الرسول صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: ﴿ وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وتحسيرهم على ما ينفقونه من أموال في كيدهم، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيۡهِمۡ حَسۡرَةٗ ثُمَّ يُغۡلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٦].

أثر الوهن في الأفراد والأمم

للوهن كثير من الآثار في الأفراد وفي الأمم، ومن ذلك:

أولًا: ترك الجهاد والرضا بالذلِّ:

بينت الآيات التي نهى الله فيها المؤمنين عن الوقوع في الوهن، أنَّ أثر ذلك هو ترك الجهاد، والرضا بالقعود، والانقلاب على الأعقاب.

قال تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤ وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ كِتَٰبٗا مُّؤَجَّلٗاۗ وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلۡأٓخِرَةِ نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَاۚ وَسَنَجۡزِي ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٥ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيّٖ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤-١٤٦].

قال السعدي: «﴿ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ ﴾ بترك ما جاءكم من إيمان أو جهاد، أو غير ذلك»[1].

وفي التفسير القرآني للقرآن: «حين مال المشركون على المسلمين يوم أحد، وأخذوهم بسيوفهم وسهامهم، وسقط

(١) تيسير الكريم الرحمن ١٥٠.

شهداؤهم الذين كانوا إلى جوار رسول الله تنادى المشركون أن محمدًا قتل!! كان لهذا الخبر الكاذب وقعه على المسلمين، فاضطربت لذلك صفوفهم، ووقع كثير منهم تحت وطأة الحزن والكمد، فهام على وجهه يطلب الفرار من وجه هذا الهول الصاعق؛ إذ كانوا -وهم يعلمون أن محمدًا ميت وأنهم ميتون- غير مستعدين، نفسيًّا، وهم في معمعة المعركة، ووجودهم كله مستغرق فيها- كانوا غير مستعدين أن يتلقوا هذه الصدمة المزلزلة، وأن يصدقوها، وإن كانت حقًّا، لا يمترون فيه ولا يشكون!»[1].

وقوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يبين أن الربيين لم يصبهم الوهن بمصابهم في سبيل الله، بل صبروا وجاهدوا. قال الماوردي: «الوهن: الانكسار بالخوف، والضعف: نقصان القوة، والاستكانة: الخضوع، ومعناه: فلم يهنوا بالخوف، ولا ضعفوا بنقصان القوة، ولا استكانوا بالخضوع»[2].

وقال ابن كثير: «وقال ابن عباس ﴿وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟﴾ تخشعوا. وقال السدي وابن زيد: وما ذلوا لعدوهم»[3].

فهذا يبين أن أثر الوهن هو الاستكانة والخضوع والمذلة للأعداء، ولذلك نفت الآية عن الربيين هذا الأثر، وحذرت المؤمنين منه.

وجاء في الحديث بيان أن ترك الجهاد والتهاون في إقامة الدين يؤدي بالمسلمين إلى المذلة، وهي مظهر من مظاهر الغثائية: (لئن تركتم الجهاد، وأخذتم بأذناب البقر، وتبايعتم بالعينة، ليلزمنكم الله مذلةً في رقابكم، لا تنفك عنكم حتى تتوبوا إلى الله، وترجعوا على ما كنتم عليه)[4].

قال الشوكاني: «وسبب هذا الذل -والله أعلم- أنهم لما تركوا الجهاد في سبيل الله الذي فيه عز الإسلام وإظهاره على كلِّ دين، عاملهم الله بنقيضه، وهو إنزال الذلة، فصاروا يمشون خلف أذناب البقر بعد أن كانوا يركبون على ظهور الخيل التي هي أعز مكان»[5].

وهناك العديد من الآيات الكريمة التي تبين هذا الأثر، ومن ذلك قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا

(١) عبد الكريم الخطيب ٢/ ٦٠٦.
(٢) النكت والعيون، الماوردي ١/ ٤٢٨.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٣١.
(٤) أخرجه أبو داوود من حديث ابن عمر، رقم ٣٤٦٢، أبواب الإجارة، باب في النهي عن العينة، وأخرجه أحمد واللفظ له، رقم ٥٠٠٧، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، رقم ١١، ١/ ٤٢.
(٥) نيل الأوطار ٥/ ٢٤٦.

﴿قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨].

قال ابن عاشور: «التثاقل: تكلف الثقل، أي: إظهار أنه ثقيل لا يستطيع النهوض. والثقل حالة في الجسم تقتضي شدة تطلبه؛ للنزول إلى أسفل، وعسر انتقاله، وهو مستعمل هنا في البطء مجازًا مرسلًا، وفيه تعريض بأن بطأهم ليس عن عجز، ولكنه عن تعلق بالإقامة في بلادهم وأموالهم»[1].

وقوله عن المنافقين: ﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ [التوبة: ٨٧].

وقوله: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ [التوبة: ٨١].

وقوله: ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ [التوبة: ٨٣].

فكلُّ هذه تبين أثر الوهن الذي تمكن من القلوب، فثبطها عن النهوض إلى الطاعة، وحال بينها وبين المسارعة في الخيرات.

وقال تعالى: ﴿قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

«فالفئة الواهنة ادعت أنها لا تطيق مواجهة جالوت، فردت عليها الفئة المؤمنة مبينة لها أن ذلك وهن، وعليهم أن يؤمنوا بالله ويصبروا، فهم يطيقون المواجهة ولكنهم وهنوا»[2].

ثانيًا: الشح بالمال:

قال تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ [محمد: ٣٥-٣٨].

فالآيات تنهى المؤمنين عن الوهن ومسالمة الأعداء، فهم الأعلون والله معهم، وأجورهم غير منقوصة، فكيف يهنون؟! ثم بينت لهم أن الحياة الدنيا التي هي سبب وهن القلوب إنما هي لعب ولهو. ثم بينت لهم أن من يبخل بالنفقة في سبيل الله فإنما يبخل عن نفسه، فالبخل سببه حبُّ الدنيا والتعلق بها، وذلك يوهن القلب، ويجعله يشح بالإنفاق في سبيل الله.

وهذا ما بينته آيات التغابن: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ

(١) التحرير والتنوير ١٠/ ١٩٧.

(٢) من ألفاظ القوة ومقابلاتها في القرآن الكريم، عبد المجيد الغيلي ٤٩.

﴿عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٤ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۝١٥ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝١٦ إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١٤-١٧].

فبينت للمؤمنين أن الأموال والأولاد إذا أعاقوا الإنسان عن الإنفاق والطاعة، ففتر قلبه عن المسارعة في الخيرات، فإنما هم عدوٌّ له.

ثالثًا: الفتور عن الطاعة:

ومن آثار الوهن في الفرد هو فتوره عن الطاعة، وتأخره عنها، فالقرآن الكريم دعا المؤمنين إلى المسارعة في الخيرات، ومدحهم بذلك، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ [الأنبياء: ٩٩].

والواهن لا يسارع في الخيرات بل يتقاعس عنها، كما ورد في الحديث: (لا يزال قوم يتأخرون حتى يؤخرهم الله)[(١)].

قال ابن عثيمين: «ولا شك أن التأخر عن الصلاة أشد من التأخر عن الصف الأول، وعلى هذا فيخشى على الإنسان إذا عوَّد نفسه التأخر في العبادة أن يبتلى بأن يؤخره الله عز وجل في جميع مواطن الخير»[(٢)].

فواهن القلب لا يزال يدفعه ما في قلبه من وهن وضعف وفتور إلى التأخر عن الطاعات والتثاقل عنها، حتى يغلب عليه الكسل عن العبادة، وقد ذمَّ الله المنافقين بالتكاسل عن الصلاة فقال: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ﴾ [النساء: ١٤٢].

وقوله: ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾ [التوبة: ٥٤].

قال الواحدي: «أي: متثاقلين متباطئين»[(٣)].

وقال الخليل: «الكسل: التثاقل عما لا ينبغي»[(٤)].

وقال ابن عاشور: «الكسل: الفتور في الأفعال لسآمة أو كراهية، والكسل في الصلاة مؤذن بقلة اكتراث المصلي بها وزهده في فعلها، فلذلك كان من شيم المنافقين»[(٥)].

---

(١) أخرجه مسلم من حديث أبي سعيد الخدري، رقم ٤٣٨، كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف.

(٢) مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ ابن عثيمين ١٣/ ٥٤.

(٣) التفسير البسيط ٧/ ١٦٠.

(٤) العين، مادة: ك س ل ٥/ ٣١٠. وتابعه جمهور اللغويين، ولفظه عند الأزهري في تهذيب اللغة، مادة: ك س ل ١٠/ ٣٧: «الكسل: التثاقل عما لا ينبغي التثاقل عنه»، وانظر: المفردات، الراغب، مادة: ك س ل ٧١١، وبصائر ذوي التمييز، للفيروزآبادي ٤/ ٣٥٢.

(٥) التحرير والتنوير ٥/ ٢٣٩.

ثالثًا: غثائية الأمة:

يبين الرسول صلى الله عليه وسلم أثر الوهن في الأمم، فيقول: (يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها)، فقال قائل: ومن قلةٍ نحن يومئذ؟ قال: (بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاءٌ كغثاء السيل، ولينزعنَّ الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفنَّ الله في قلوبكم الوهن)، فقال قائل: يا رسول الله، وما الوهن؟ قال: (حبُّ الدنيا، وكراهية الموت)[(١)].

فذكر أهم آثار الوهن في الأمم، وهي: ضعف الأمة مما ينتج عنه تداعي الأمم عليها والغثائية التي تعيشها الأمة، ونزع مهابة الأمة من صدور أعدائها.

قال في عون المعبود: «غثاء السيل: ما يحمله السيل من زبد ووسخ، شبههم به؛ لقلة شجاعتهم ودناءة قدرهم»[(٢)].

وقال البيضاوي: «والمعنى: ولكنكم تكونون متفرقين، ضعيفي الحال، خفيفي العقل، دنيئي القدر، كغثاء السيل»[(٣)].

وقال الزجاج «الغثاء: الهالك البالي من ورق الشجر الذي إذا خرج السيل رأيته مخالطًا زبده»[(٤)].

وأبرز مظاهر غثائية الأمة: تفرقها وضعف أمرها، وهو ما جاء النهي عنه في قوله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾[آل عمران: ١٠٣].

«وعوامل القوة في الأمة تكمن في اجتماع كلمتها، ووحدة صفها، وإقامتها للدين، وأمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر، ونصرتها للحق، ودفاعها عن المظلوم، وأخذها على يد الظالم، واهتمامها بمعالي الأمور، ومسارعتها في الخيرات والطاعات، وشدة بأسها، وأخذهم بقوة لكل أسباب القوة.

وبهذه العوامل تكون الأمة قوية، مرفوعة الجبين، مرهوبة الجانب، يهابها أعداؤها، ويخضعون لها. فإذا دبَّ الوهن في أمة من الأمم، فإن الوهن ينخر في كل عوامل القوة، فيتبعثر الصف، وتتفرق الكلمة، وتتنافر القلوب، ويتثاقل الناس عن الجهاد، بل يعيبون المجاهدين فيهم، ويتخلون عن مقتضيات القيام بالدين، فيتقاعسون عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويفترون عن نصرة الحق وأهله؛ فيعود الدين غريبًا.

فالصلوات تضيع، والشهوات تتبع، والمنكرات تبتدع، وينتشر الظلم، ويضعف أهل الحق، ويستشري اليأس في النفوس،

(١) سبق تخريجه.
(٢) محمد أشرف بن أمير ١١/ ٢٧٣.
(٣) تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة ٣/ ٣١٣.
(٤) لسان العرب، ابن منظور، مادة: غ ث ا ١٥/ ١١٦.

ويستعذب الناس حياض الذل، ويرتعون في مستنقعات الهوان، ويغلب عليهم الاهتمام بسفاسف الأمور، ويغطون في ظلمات الجهل، ويتخلون عن حمل الأمانة، وتتمزق الأواصر، وتهتري الأخلاق. وبذلك تصبح أمة (غثائية)»[(١)].

وقد سمى القرآن الكريم هذه الحالة (ذهاب الريح)، فقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦].

قال ابن كثير في تفسير: ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾: «أي: قوتكم وحدتكم وما كنتم فيه من الإقبال»[(٢)].

وقال أبو السعود: «أي: تذهب دولتكم وشوكتكم، فإنها مستعارة للدولة من حيث إنها في تمشي أمرها ونفاذه مشبهة بها في هبوبها وجريانها»[(٣)].

وفي حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم السابق تفسير لذهاب الريح، (ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم).

رابعًا: تداعي الأمم عليها:

جاء في عون المعبود: «التداعي: الاجتماع، ودعاء البعض بعضًا، والمراد من الأمم: فرق الكفر والضلالة (إلى قصعتها) الضمير للأكلة، أي: التي يتناولون منها بلا مانع ولا منازع، فيأكلونها عفوًا وصفوًا، كذلك يأخذون ما في أيديكم بلا تعب ينالهم أو ضرر يلحقهم أو بأس يمنعهم، قاله القاري.

قال في المجمع: أي: يقرب أنَّ فرق الكفر وأمم الضلالة أن تداعى عليكم، أي: يدعو بعضهم بعضًا إلى الاجتماع؛ لقتالكم وكسر شوكتكم؛ ليغلبوا على ما ملكتموها من الديار، كما أن الفئة الأكلة يتداعى بعضهم بعضًا إلى قصعتهم التي يتناولونها من غير مانع، فيأكلونها صفوًا من غير تعب»[(٤)].

ويبين الحديث أنَّ الأمم لا تتداعى على الأمة إلا بعد وهن قلوبها، كما قال: (وليقذفنَّ الله في قلوبكم الوهن)، وسببه حبُّ الدنيا وكراهية الموت. وقد بيَّنَ القرآن الكريم أنَّ الكافرين لا يتمكنون من المؤمنين إلا في حال غفلتهم، كما قال تعالى: ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً﴾ [النساء: ١٠٢].

قال ابن عاشور: «وقوله: ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إلخ، ودهم هذا معروف؛ إذ هو شأن كلِّ محارب، فليس ذلك المعنى

(١) الوهن في القرآن الكريم، عبد المجيد الغيلي ٧٣.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٧٢.
(٣) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٤/ ٢٥.
(٤) محمد أشرف بن أمير ١١/ ٢٧٣.

المعروف هو المقصود من الآية، إنما المقصود أنهم ودوا ودًّا مستقربًا عندهم؛ لظنهم أنَّ اشتغال المسلمين بأمور دينهم يباعد بينهم وبين مصالح دنياهم؛ جهلًا من المشركين لحقيقة الدين، فطمعوا أن تلهيهم الصلاة عن الاستعداد لأعدائهم، فنبه الله المؤمنين إلى ذلك كيلا يكونوا عند ظنِّ المشركين، وليعودهم بالأخذ بالحزم في كل الأمور، وليريهم أنَّ صلاح الدين والدنيا صنوان»[1].

وهذا يوضحه قوله تعالى: ﴿أَوَلَمَّا أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

أي: «قلتم: من أين لنا هذا الخذلان ونحن مسلمون ورسول الله فينا؟ ﴿قُلۡ﴾ لهم ﴿هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡ﴾؛ لأنكم تركتم المركز فخذلتم»[2].

وقال السعدي: «﴿قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ﴾ أي: من أين أصابنا ما أصابنا وهزمنا؟ ﴿قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡ﴾ حين تنازعتم وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون، فعودوا على أنفسكم باللوم، واحذروا من الأسباب المردية»[3].

(١) التحرير والتنوير ٥/ ١٨٧.
(٢) تفسير الجلالين ٩٠.
(٣) تيسير الكريم الرحمن ١٥٦.

علاج الوهن

أرشد القرآن الكريم المؤمنين إلى العلاج الشافي من هذا الداء، وتبين الآيات الواردة في سورة آل عمران وغيرها من السور كثيرًا من مكونات هذا العلاج. ومن ذلك:

أولًا: الإيمان بالقدر:

قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤ وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ كِتَٰبٗا مُّؤَجَّلٗاۗ وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلۡأٓخِرَةِ نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَاۚ وَسَنَجۡزِي ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٥ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيّٖ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٦ وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٤٧ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤-١٤٨].

قال الواحدي: «﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ﴾ أي: ما كانت نفسٌ لتموت ﴿إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ بقضائه وقدره، كتب الله ذلك ﴿كِتَٰبٗا مُّؤَجَّلٗاۗ﴾ إلى أجله الذي قدر له فلم

انهزمتم؟ والهزيمة لا تزيد في الحياة»[1].

وجاء في التفسير البسيط[2]: «وقال ابن الأنباري: عاتب الله تعالى بهذا المنهزمين يوم أحد؛ رغبةً في الدنيا، وضنًّا بالحياة، وأخبرهم أن الحياة (لا تزيد) ولا تنقص، وأن الموت بأجلٍ عنده، لا يتقدم ولا يتأخر».

وقال ابن كثير[3]: «وهذه الآية فيها تشجيع للجبناء وترغيب لهم في القتال، فإن الإقدام والإحجام لا ينقص من العمر ولا يزيد فيه».

وهذا المعنى أكدته سورة آل عمران في أكثر من موضع، كقوله: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٦-١٥٨].

وفي سورة النساء: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

فالقتال لن يقدم في الأجل، وتركه لن يؤخر في الأجل، فالموت والحياة بإذن الله، ولن ينفع الفارَّ فراره، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ﴾ [الأحزاب: ١٦].

ثانيًا: فقه سنن الله:

قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧-١٤٢].

تبين هذه الآيات للمؤمنين أنَّ لله سننًا، كمداولة الأيام بين الناس، وابتلاء المؤمنين، وفتنة الكافرين، وعلى المسلمين السير في الأرض والتفقه في سنن الله، وعدم الاستسلام لعوامل الوهن، فإنَّ التبصر في سنن الله يساعدهم على تجاوز آثار الهزيمة، والتغلب على الحزن الذي استبد بهم، ويقوي عزائمهم، ويرفع من الهمم.

(١) التفسير الوجيز ٢٣٥.
(٢) الواحدي ٦/ ٤٢.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٢٩.

قال السعدي: «فما يصيبكم من الألم والتعب والجراح ونحو ذلك فإنه يصيب أعداءكم، فليس من المروءة الإنسانية والشهامة الإسلامية أن تكونوا أضعف منهم، وأنتم وإياهم قد تساويتم فيما يوجب ذلك»[1].

قال ابن القيم مبينًا سنن الله وحكمته التي تتحدث عنها هذه الآيات:

«فجمع لهم في هذا الخطاب بين تشجيعهم وتقوية نفوسهم وإحياء عزائمهم وهممهم، وبين حسن التسلية، وذكر الحكم الباهرة التي اقتضت إدالة الكفار عليهم فقال: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

فقد استويتم في القرح والألم، وتباينتم في الرجاء والثواب، كما قال: ﴿إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤].

فما بالكم تهنون وتضعفون عند القرح والألم، فقد أصابهم ذلك في سبيل الشيطان، وأنتم أصبتم في سبيلي وابتغاء مرضاتي.

ثم أخبر أنه يداول أيام هذه الحياة الدنيا بين الناس، وأنها عرض حاضر، يقسمها دولًا بين أوليائه وأعدائه، بخلاف الآخرة، فإن عزها ونصرها ورجاءها خالص للذين آمنوا. ثم ذكر حكمة أخرى، وهي أن يتميز المؤمنون من المنافقين، فيعلمهم علم رؤية ومشاهدة بعد أن كانوا معلومين في غيبه، وذلك العلم الغيبي لا يترتب عليه ثواب ولا عقاب، وإنما يترتب الثواب والعقاب على المعلوم إذا صار مشاهدًا واقعًا في الحسِّ.

ثم ذكر حكمة أخرى، وهي اتخاذه سبحانه منهم شهداء، فإنه يحب الشهداء من عباده، وقد أعد لهم أعلى المنازل وأفضلها، وقد اتخذهم لنفسه، فلا بد أن ينيلهم درجة الشهادة.

ثم ذكر حكمة أخرى فيما أصابهم ذلك اليوم، وهو تمحيص الذين آمنوا، وهو تنقيتهم وتخليصهم من الذنوب، ومن آفات النفوس، و أيضًا فإنه خلصهم، ومحَّصهم من المنافقين، فتميزوا منهم، فحصل لهم تمحيصان: تمحيص من نفوسهم، وتمحيص ممن كان يظهر أنه منهم وهو عدوهم.

ثم ذكر حكمة أخرى وهي محق الكافرين بطغيانهم وبغيهم وعدوانهم، ثم أنكر عليهم حسبانهم وظنهم أن يدخلوا الجنة بدون الجهاد في سبيله والصبر على أذى أعدائه، وإنَّ هذا ممتنع بحيث ينكر على من ظنه وحسبه، فقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢].

أي: ولما يقع ذلك منكم فيعلمه، فإنه

(١) تيسير الكريم الرحمن ١٩٩.

لو وقع لعلمه فجازاكم عليه بالجنة، فيكون الجزاء على الواقع المعلوم، لا على مجرد العلم، فإنَّ الله لا يجزي العبد على مجرد علمه فيه دون أن يقع معلومه.

ثمَّ ويخهم على هزيمتهم من أمر كانوا يتمنونه ويودون لقاءه. فقال: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٤٣].

قال ابن عباس: ولما أخبرهم الله تعالى على لسان نبيه بما فعل بشهداء بدر من الكرامة رغبوا في الشهادة، فتمنوا قتالًا يستشهدون فيه، فيلحقون إخوانهم، فأراهم الله ذلك يوم أحد وسببه لهم، فلم يلبثوا أن انهزموا إلا من شاء الله منهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [آل عمران ١٤٣]»[1].

ثالثًا: الصبر:

تربط الآيات التي تحذر المؤمنين من الوهن بينه وبين الصبر، حيث تبين لهم أن الصبر سلاح قوي يتسلح به المؤمن، فيعصمه الله من الوهن، قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

وقال تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩-٢٥٠].

وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥-٤٦].

قال سيد قطب «إن المؤمنين يحتملون الألم والقرح في المعركة، ولكنهم ليسوا وحدهم الذين يحتملونه، إنَّ أعداءهم كذلك يتألمون وينالهم القرح واللأواء، فإذا أصرَّ الكفار على المعركة، فما أجدر المؤمنين أن يكونوا هم أشد إصرارًا، وإذا احتمل الكفار آلامها، فما أجدر المؤمنين بالصبر على ما ينالهم من آلام!! وما أجدرهم كذلك أن لا يكفوا عن ابتغاء القوم ومتابعتهم بالقتال، وتعقب آثارهم، حتى لا تبقى لهم قوة، وحتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله. وإنَّ هذا لهو فضل العقيدة في الله في كلِّ كفاح.

فهناك اللحظات التي تعلو فيها المشقة على الطاقة، ويربو الألم على الاحتمال، ويحتاج القلب البشري إلى مدد فائض وإلى زاد»[2].

(١) زاد المعاد ٣/ ١٩٩، ٢٠١.

(٢) في ظلال القرآن ٢/ ٧٥٠.

وفي سورة آل عمران يبين الحقُّ تعالى أنَّ صبر المؤمنين وتقواهم يحقق لهم أربعة أمور[1]:

الأول: إبطال كيد أعدائهم، فقال: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٢٠].

قال القرطبي[2]: «﴿وَإِن تَصْبِرُوا﴾ أي: على أذاهم وعلى الطاعة وموالاة المؤمنين ﴿وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾، فشرط تعالى نفي ضررهم بالصبر والتقوى، فكان ذلك تسلية للمؤمنين وتقوية لنفوسهم».

الثاني: الفوز بنصر الله، فقال: ﴿بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥].

«قال الضحاك وعكرمة: كان هذا يوم أحد وعدهم الله المدد إن صبروا، فلم يصبروا فلم يمدوا»[3]. وقال السعدي: «وأما وعد النصر وقمع كيد الأعداء فشرط الله له الصبر والتقوى»[4].

الثالث: التغلب على آثار الهزيمة النفسية، فقال: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

فالتغلب على آثار البلاء، وعلى حرب المشركين الإعلامية، إنما يكون بالصبر والتقوى. قال ابن عثيمين: «أي: إن الذي يصبر على أذى الناس، ويحتملهم ويغفر لهم سيئاتهم التي يسيئون بها إليه؛ فإن ذلك ﴿لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣]. أي: من معزوماتها وشدائدها التي تحتاج إلى مقابلة ومصابرة. ولا سيما إذا كان الأذى الذي ينال الإنسان بسبب جهاده في الله عز وجل وبسبب طاعته؛ لأن أذية الناس لك لها أسباب متعددة متنوعة. فإذا كان سببها طاعة الله عز وجل، والجهاد في سبيله، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فإن الإنسان يثاب على ذلك من وجهين: الوجه الأول: من الأذية التي تحصل له. والوجه الثاني: صبره على هذه الطاعة التي أوذي في الله من أجلها»[5].

الرابع: الفلاح في الدنيا والآخرة، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

قال البقاعي: «أي: ليكون حالكم حال

(١) الوهن في القرآن الكريم، عبد المجيد الغيلي ١١٢.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ١٨٣.
(٣) معالم التنزيل، البغوي ١/ ٥٠٢.
(٤) تيسير الكريم الرحمن ١٤٦، بتصرف.
(٥) شرح رياض الصالحين ١/ ١٨٢.

من يرجى فلاحه وظفره بما يريد من النصر على الأعداء والفوز بعيش الشهداء»[1].

رابعًا: اجتناب الحزن والخوف:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

وقال: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٣].

«ولم يأت الحزن في القرآن إلا منهيًا عنه أو منفيًّا، وسر ذلك أن الحزن موقف غير مسر، ولا مصلحة فيه للقلب، وأحب شيء إلى الشيطان أن يحزن العبد؛ ليقطعه عن سيره، ويوقفه عن سلوكه، فالحزن ليس بمطلوب، ولا مقصود، ولا فيه فائدة، وقد استعاذ منه النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: (اللهم إني أعوذ بك من الهمِّ والحزن)[2].

فهو قرين الهمِّ، والفرق بينهما أنَّ المكروه الذي يرد على القلب، إن كان لما يستقبل أورثه الهمَّ، وإن كان لما مضى أورثه الحزن، وكلاهما مضعف للقلب عن السير، مفتر للعزم»[3].

و«الإيمان بالقدر فيه راحة النفس والقلب، وعدم الحزن على ما فات، وعدم الغمِّ والهمِّ لما يستقبل، قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٢-٢٣]. والذي لا يؤمن بالقدر لا شكَّ أنه سوف يتضجر عند المصائب ويندم، ويفتح الشيطان له كلَّ باب، وأنه سوف يفرح ويبطر ويغتر إذا أصابته السراء، لكن الإيمان بالقدر يمنع هذا كله»[4].

ويبين قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٩-١٧١].

أن طريق المؤمنين في اجتناب الحزن أن يحتسبوا تضحياتهم، ويثقوا أنها محفوظة لهم عند ربهم، ومن قتل منهم فلن يضيع عمله، وعليهم ألا يحسبوا أنَّ القتلى في سبيل الله أمواتًا، بل هم أحياء عند ربهم

(١) نظم الدرر ٥/ ١٦٩.
(٢) أخرجه البخاري من حديث أنس بن مالك، رقم ٢٨٩٣، كتاب الجهاد والسير، باب من غزا بصبي للخدمة.
(٣) مدارج السالكين ١/ ٥٠١.
(٤) مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد صالح العثيمين ٢/ ٨٦.

يرزقون، وأن يوقنوا أن ما عند الله خير لهم وأبقى[1].

ومن تدبير الإسلام في علاج الحزن والخوف:

«أولًا: هوَّنَ على المؤمنين خطب الموت، وذلك بإيمانهم بالحياة الآخرة إيمانًا يشعرون معه أنَّ الموت ليس إلا انتقالًا من عالم إلى عالم أرحب وأفسح، ومن هنا فلا ينظرون إلى الموت على أنه فناء أبدي للميت، وضياع لا نهائي لمن يموت، كما ينظر إلى ذلك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر.

وثانيًا: أنه وعد المؤمنين المجاهدين في سبيل الله درجات عالية عند الله سبحانه، حيث ينزلون منازل الأنبياء والصديقين، وإنما تتجلى طاعة الله ورسوله على أتمِّ وجه وأكمله في ميدان الجهاد في سبيل الله.

وثالثًا: أنه توعد الذين ينتظمون في صفوف المجاهدين، ثمَّ إذا التحم القتال، وتساقطت الرؤوس، وتناثرت الأشلاء، وسالت الدماء ركبهم الفزع، واستبدَّ بهم الجزع، والتمسوا وجوه النجاة في الفرار من الميدان، أو النكوص على الأعقاب، أو الدعوة إلى السلم والاستسلام، توعد الإسلام من كان في المجاهدين المقاتلين، ثم أخذ هذا الموقف المتخاذل توعده بغضب من الله، وبعذاب أليم في نار جهنم»[2].

خامسًا: التوكل على الله:

قال تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢-١٢٣].

تبين الآيات أنَّ التوكل على الله، يحول بين المؤمنين وأن يقعوا في الوهن، فولاية هاتين الطائفتين لله وتوكلهما عليه، جَنَّبَتْهُمَا الفشل، وهو الجبن والخور والرعب. قال البيضاوي: «﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: فليتوكلوا عليه ولا يتوكلوا على غيره؛ لينصرهم كما نصرهم ببدر»[3].

قال البغوي: «﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ أي: تجبنا وتضعفا وتتخلفا، والطائفتان بنو سلمة من الخزرج وبنو حارثة من الأوس، وكانا جناحي العسكر، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج إلى أحد في ألف رجل، وقيل: في تسعمائة وخمسين رجلًا، فلمَّا بلغوا الشوط انسحب عبد الله بن أبي بثلث الناس ورجع في ثلاثمائة، وقال: علام نقتل أنفسنا وأولادنا؟ فتبعهم أبو جابر

---

(١) الوهن في القرآن الكريم، عبد المجيد الغيلي ١٠٨.

(٢) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب ١٣/ ٣٨١، وما بعدها، بتصرف.

(٣) أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ٣٦.

السُّلَمي، فقال: أنشدكم الله في نبيكم وفي أنفسكم، فقال عبد الله بن أبي: لو نعلم قتالًا لاتبعناكم، وهمت بنو سلمة وبنو حارثة بالانصراف مع عبد الله بن أبي، فعصمهم الله، فلم ينصرفوا فذكرهم الله عظيم نعمته، فقال عز وجل: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ ناصرهما وحافظهما عن الانصراف من القتال، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾»[1].

وقال القرطبي: «والتوكل في اللغة: إظهار العجز والاعتماد على الغير. واختلف العلماء في حقيقة التوكُّلِ، فسئل عنه سهل بن عبد الله فقال: قالت فرقة: الرضا بالضمان، وقطع الطمع من المخلوقين. وقال قوم: التوكل ترك الأسباب والركون إلى مسبب الأسباب، فإذا شغله السبب عن المسبب زال عنه اسم التوكُّل. قال سهل: من قال: إن التوكل يكون بترك السبب فقد طعن في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأن الله عز وجل يقول: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [الأنفال: ٦٩]. فالغنيمة اكتساب. وقال تعالى: ﴿فَٱضْرِبُوا فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢]، فهذا عمل. وقال غيره: وهذا قول عامة الفقهاء، وأنَّ التوكُّلَ على الله هو الثقة بالله والإيقان بأن قضاءه ماضٍ، واتباع سنة نبيه صلى الله عليه وسلم في السعي فيما لا بد منه من الأسباب من مطعم ومشرب وتحرز من عدوٍّ وإعداد الأسلحة واستعمال ما تقتضيه سنة الله تعالى المعتادة. وإلى هذا ذهب محققو الصوفية، لكنه لا يستحق اسم التوكل عندهم مع الطمأنينة إلى تلك الأسباب والالتفات إليها بالقلوب، فإنها لا تجلب نفعًا ولا تدفع ضرًّا، بل السبب والمسبب فعل الله تعالى، والكلُّ منه وبمشيئته، ومتى وقع من المتوكل ركون إلى تلك الأسباب فقد انسلخ عن ذلك الاسم»[2].

قال ابن رجب: «وتحقيق التوكُّلِ لا ينافي السعي في الأسباب التي قدر الله سبحانه المقدورات بها، وجرت سنته في خلقه بذلك، فإنَّ الله تعالى أمر بتعاطي الأسباب مع أمره بالتوكل، فالسعي في الأسباب بالجوارح طاعة له، والتوكل بالقلب عليه إيمان به، كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: ٧١].

وقال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وقال: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠]»[3].

وقال تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ

(١) معالم التنزيل، البغوي ١/ ٥٠٠.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ١٩٠.

(٣) جامع العلوم والحكم ٢/ ٤٩٨.

﴿...لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

قال أبو السعود: «تقديم الجار والمجرور على الفعل؛ لإفادة قصره عليه تعالى، والفاء؛ لترتيبه أو ترتيب الأمر به على ما مرَّ من غلبة المخاطبين على تقدير نصرته تعالى لهم، ومغلوبيتهم على تقدير خذلانه تعالى إياهم، فإنَّ العلم بذلك مما يقتضي قصر التوكل عليه تعالى لا محالة، والمراد بالمؤمنين إما الجنس، والمخاطبون داخلون فيه دخولًا أوليًّا، وإما هم خاصة بطريق الالتفات. وأيا ما كان ففيه تشريف لهم بعنوان الإيمان اشتراكًا أو استقلالًا، وفيه تعليل لتحتم التوكل عليه تعالى، فإن وصف الإيمان مما يوجبه قطعًا»[1].

سادسًا: الجهاد بالنفس والمال:

جاء في الحديث: (لئن تركتم الجهاد، وأخذتم بأذناب البقر، وتبايعتم بالعينة، ليلزمنكم الله مذلةً في رقابكم، لا تنفك عنكم حتى تتوبوا إلى الله وترجعوا على ما كنتم عليه)[2].

فيبين أن التوبة إلى الله بالرجوع إلى الجهاد، وإقامة الدين، وعدم مخالفة الله ورسوله، هو الطريق لنزع الذلِّ من الرقاب.

قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦-٢١٧].

جاء في فتاوى الشيخ ابن باز: «الواجب على المسلمين أن يطالبوا بالقدس، وأن يردوها إلى أهلها، وأن يجتهدوا في ذلك؛ لأن أهلها مظلومون، ونصر المظلوم لازم وواجب، ولأن القدس للمسلمين وليست للكفار، فيجب أن ترد إلى أهلها، فالرسول عليه السلام يقول: (انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا)[3].

فهؤلاء مظلومون ونصرهم واجب، والظالم نصره منعه من الظلم، فالواجب

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢/ ١٠٥.
(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري من حديث أنس بن مالك، رقم ٢٤٤٣، كتاب المظالم والغصب، باب أعن أخاك ظالمًا أو مظلومًا، ومسلم من حديث جابر بن عبد الله، رقم ٢٥٨٤، كتاب البر والصلة، باب نصر الأخ ظالمًا أو مظلومًا.

على الدول الإسلامية أن ينصروا المظلوم، وأن يستعيدوا هذه البلاد، وأن يفعلوا مع ذلك ما يلزمهم من طاعة الله ورسوله، والاستقامة على دين الله ورسوله، حتى يعانوا، وحتى يوفقوا لما أرادوا من الخير، وحتى تحصل لهم النصرة من ربهم عز وجل، وتسهيل أمورهم وإجلاء الأعداء، وتمكين المسلمين من استرداد حقهم السليب»[1].

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ۝٥٩ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٥٩-٦٠].

قال السعدي: «﴿وَأَعِدُّوا﴾ لأعدائكم الكفار الساعين في هلاككم وإبطال دينكم. ﴿مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ أي: كل ما تقدرون عليه من القوة العقلية والبدنية وأنواع الأسلحة ونحو ذلك مما يعين على قتالهم، فدخل في ذلك أنواع الصناعات التي تعمل فيها أصناف الأسلحة، والآلات من المدافع والرشاشات، والبنادق، والطيارات الجوية، والمراكب البرية والبحرية، والحصون والقلاع والخنادق، وآلات الدفاع، والرأي والسياسة التي بها يتقدم المسلمون ويندفع عنهم به شرُّ أعدائهم، وتعلم الرمي، والشجاعة والتدبير.

ومن ذلك: الاستعداد بالمراكب المحتاج إليها عند القتال. وهذه العلة موجودة فيها في ذلك الزمان، وهي إرهاب الأعداء، والحكم يدور مع علته. فإذا كان شيء موجود أكثر إرهابًا منها، كالسيارات البرية والهوائية، المعدة للقتال التي تكون النكاية فيها أشد، كانت مأمورًا بالاستعداد بها، والسعي لتحصيلها، حتى إنها إذا لم توجد إلا بتعلم الصناعة، وجب ذلك؛ لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ ممن تعلمون أنهم أعداؤكم. ﴿وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾ ممن سيقاتلونكم بعد هذا الوقت الذي يخاطبهم الله به، ﴿اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ فلذلك أمرهم بالاستعداد لهم. ومن أعظم ما يعين على قتالهم بذلك النفقات المالية في جهاد الكفار.

ولهذا قال تعالى مرغبًا في ذلك: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قليلًا كان أو كثيرًا ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ أجره يوم القيامة مضاعفًا أضعافًا كثيرة، حتى إن النفقة في سبيل الله، تضاعف إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة. ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾، أي:

---

(١) فتاوى نور على الدرب ١٨/ ٢٥٢.

لا تنقصون من أجرها وثوابها شيئًا»[1].

وقد جعل الله الإنفاق في سبيل الله من الجهاد، وفي القرآن الكريم غالبًا ما يقترن الجهاد بالنفس مع المال، قال ابن باز: «قدم الله سبحانه الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس في غالب الآيات. فالمقصود أن الجهاد في سبيل الله له شأن عظيم، فهو بالمال أفضل في بعض الوجوه، وبالنفس أفضل في بعض الوجوه؛ فالنفس أغلى شيء عند الإنسان، فالجهاد بالنفس هذا أفضل الجهاد؛ لأنه مجاهد بنفسه، لكن قدم الله المال؛ لأن المال ينفع في جهات كثيرة، يستطاع أن يستأجر به المجاهد، ويستطاع أن يجهز به المجاهد، ويستطاع أن يشترى به السلاح، ويشترى به الطعام والشراب، وتشترى به الكسوة، وتشترى به المئونة والذخيرة، فنفع المال متنوع»[2].

ومن العلاج أيضًا: تعبئة الأمة بروح الجهاد، وبث حياة العزة والكرامة في أوصالها، حتى لا يدب إليها الوهن. وقد أمر الله رسوله بالتحريض على القتال، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٦٥-٦٦].

قال أبو السعود[3]: «أي: بالغ في حثهم عليه وترغيبهم فيه بكل ما أمكن من الأمور المرغبة، التي أعظمها تذكير وعده تعالى بالنصر وحكمه بكفايته تعالى أو بكفايتهم».

«ولا بد من إذكاء الروح الجهادية في النفوس، وتبصير القاصي والداني من أبناء الأمة بأهمية الجهاد في سبيل الله، وبأنه طريق العزة، وطريق الأمة في تحرير نفسها وأرضها ومقدساتها»[4].

سابعًا: طاعة الله ورسوله:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٥-٤٦].

فجعل طاعة الله ورسوله من العلاجات التي تقي المؤمنين من الانزلاق إلى الوهن، والتنازع، والفشل. قال السعدي: «﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في استعمال ما أمرا به، والمشي خلف ذلك في جميع الأحوال.

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٣٢٤.
(٢) فتاوى نور على الدرب ١٨/ ٢٦٤.
(٣) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٤/ ٣٤.
(٤) الوهن كما حددته السنة وأثره في تخلف الأمة، د. هاني طعيمات ص٦٣٠.

﴿وَلَا تَنَازَعُوا﴾ تنازعًا يوجب تشتت القلوب وتفرقها، ﴿فَتَفْشَلُوا﴾ أي: تجبنوا ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ أي: تنحل عزائمكم، وتفرق قوتكم، ويرفع ما وعدتم به من النصر على طاعة الله ورسوله»[(١)].

وفي التفسير الحديث: «في الآيات نداء موجه للمسلمين يؤمرون به بالثبات في القتال حينما يلتحمون مع فئة من أعدائهم ويلقونها، وبذكر الله كثيرًا آنذاك، حيث يضمن لهم ذلك الروحانية والتأييد والفلاح. ويحثون به على طاعة الله ورسوله في كل موقف ويحذرون به من التنازع والاختلاف؛ لأن فيهما فشلهم وإدبار أمرهم، ويؤمرون فيه بالصبر؛ لأن ذلك يضمن لهم نصر الله وتأييده، وينهون به عن أن يكونوا مثل الكفار الذين خرجوا من مكة يملؤهم الفخر والزهو والبطر وحبُّ التظاهر، وهم يصدون عن سبيل الله، والله محيط بهم ومحبط لأعمالهم»[(٢)].

وطاعة الله ورسوله هي عاصم الأمة من التفرق، وطريقها إلى الوحدة القائمة على هوية دينها، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٞ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

وقال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنٗا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

قال سيد قطب: «وأما طاعة الله ورسوله، فلكي يدخل المؤمنون المعركة مستسلمين لله ابتداء، فتبطل أسباب النزاع التي أعقبت الأمر بالطاعة: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ فما يتنازع الناس إلا حين تتعدد جهات القيادة والتوجيه، وإلا حين يكون الهوى المطاع هو الذي يوجه الآراء والأفكار.

فإذا استسلم الناس لله ورسوله انتفى السبب الأول الرئيسي للنزاع بينهم -مهما اختلفت وجهات النظر في المسألة المعروضة-، فليس الذي يثير النزاع هو اختلاف وجهات النظر، إنما هو الهوى الذي يجعل كلَّ صاحب وجهة يصر عليها مهما تبين له وجه الحق فيها! وإنما هو وضع (الذات) في كفة، والحق في كفة وترجيح الذات على الحق ابتداء! ومن ثم هذا التعليم بطاعة الله ورسوله عند المعركة إنه من عمليات (الضبط) التي لا بد منها في المعركة، إنها طاعة القيادة العليا فيها، التي تنبثق منها طاعة الأمير الذي يقودها. وهي طاعة قلبية عميقة لا مجرد الطاعة التنظيمية

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٣٢٢.
(٢) التفسير الحديث، محمد عزت ٧/ ٦٦.

في الجيوش التي لا تجاهد لله، ولا يقوم ولاؤها للقيادة على ولائها لله أصلًا والمسافة كبيرة كبيرة»[1].

فلن يوحد أمة الإسلام إلا طاعة الله ورسوله، والاعتصام بحبل الله، فتربطهم رابطة الدين، وينتمون إليه، وليس إلى عصبيات أو لغات أو أعراق، ويوالون بعضهم بعضًا، كما أمرهم ربهم فقال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ [التوبة: ٧١].

ويجتنبون موالاة اليهود والنصارى، التي تمزقهم وتفرقهم وتوهنهم، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٤٤].

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

موضوعات ذات صلة:

الحزن، الذل، الضعف، العزم، القوة

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٥٢٨.



عناصر الموضوع

مفهوم اليأس

أولًا: المعنى اللغوي

اليأس مصدر فعله يئس، قال ابن فارس: «الياء والهمزة والسين، كلمتان: إحداهما اليأس: قطع الرجاء، ويقال: إنه ليست ياء في صدر كلمة بعدها همزة إلا هذه، يقال منه: يئس ييأس وييئس، على يفعل ويفعل، والكلمة الأخرى: ألم تيأس، أي: ألم تعلم، أي: أفلم يعلم» [(١)].

واليأس: القنوط، وهو قطع الأمل عن الشيء، وقد يئس من الشيء ييأس من باب فهم، وفيه لغة أخرى: أيس يأيس، والتأييس: الاستقلال، يقال: ما أيسنا فلانا خيرًا، أي: ما استقللنا منه خيرا، أي: أردته لأستخرج منه شيئا فما قدرت عليه [(٢)].

وذكر ابن منظور في اللسان: أن مصدرها اليأس واليآسة واليأس، وقد استيأس وأيأسته، والجمع يؤوس، ويقال: يئست المرأة إذا عقمت فهي يائسٌ كما يقال: حائضٌ وطامثٌ فإن لم يذكر الموصوف قلت: يائسةٌ وأيئسها الله إياسًا [(٣)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي

قال ابن الجوزي: هو «القطع على أن المطلوب لا يتحصل لتحقيق فواته» [(٤)]، وأيضًا من خلال المعنى اللغوي السابق، ومعاني الآيات التي وردت فيها لفظة اليأس يمكن الخروج بتعريف اصطلاحي لكلمة اليأس وهو: قنوطٌ وإحباط يصيب الإنسان، فيفقد الأمل في إمكان تغير ما حوله.

---

(١) مقاييس اللغة، ٦/ ١٥٤.

(٢) انظر: الصحاح، الجوهري، ٣/ ٩٩٣، تهذيب اللغة، الأزهري، ١٣/ ٩٨، مختار الصحاح، الرازي، ١/ ٣٤٨.

(٣) لسان العرب، ٦/ ٢٦٠ بتصرف.
وانظر: المصباح المنير، الفيومي، ٢/ ٦٨٣، المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده، ٨/ ٦٣٢.

(٤) نزهة الأعين النواظر، ١/ ٦٣٣.



اليأس في الاستعمال القرآني

وردت مادة (يأس) في القرآن الكريم (١٣) مرة[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٧	﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ١٣﴾ [الممتحنة:١٣]
الفعل المضارع	٣	﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ٨٧﴾ [يوسف:٨٧]
صيغة المبالغة	٣	﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ٨٣﴾ [الإسراء:٨٣]

وجاء اليأس في القرآن على وجهين[٢]:

الأول: القنوط، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ٨٧﴾ [يوسف:٨٧]. يعني: لا تقنطوا.

الثاني: العلم، ومنه قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الرعد:٣١]. أي: أفلم يعلم.

---

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي ص ٧٦٩.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني ص ٤٨٤.

الألفاظ ذات الصلة

١ القنوط:

القنوط لغةً:

«القاف والنون والطاء كلمة صحيحة تدل على اليأس من الشيء»[(١)].

وقيل: القنوط: الإياس من الخير، ويقال: شر الناس الذين يقنطون الناس من رحمة الله، أي: يؤيسونهم[(٢)].

القنوط اصطلاحًا:

«اليأس من الرحمة»[(٣)].

الصلة بين اليأس والقنوط:

اليأس: انقطاع الطمع من الشيء، والقنوط: أخص منه، فهو أشد اليأس[(٤)].

وقال الراغب الأصفهاني القنوط: اليأس، وقيل هو من الخير، فهو أخص من مطلق اليأس[(٥)].

٢ الخيبة:

الخيبة لغة:

الخاء والياء والباء أصل واحد يدل على عدم فائدة وحرمان، وقالوا: سعى في أمر فخاب، وذلك إذا حرم فلم يفد خيرًا[(٦)].

وقال ابن منظور: والخيبة بمعنى: الخسران والكفر، أي: خاب إذا خسر، وخاب إذا كفر[(٧)].

الخيبة اصطلاحًا:

قال الراغب الأصفهاني الخيبة معناها: «فوت الطلب»[(٨)].

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس، ٥/ ٣٢.
(٢) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري، ٩/ ٢٥.
(٣) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي، ص٢٧٥.
(٤) انظر: الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، ص٤٣٦.
(٥) انظر: المفردات، ص٦٨٥.
(٦) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٢/ ٢٣٢، مجمل اللغة، ابن فارس، ١/ ٣٠٨.
(٧) انظر: لسان العرب، ١/ ٣٦٨، تاج العروس، محمد الزبيدي، ٢/ ٣٨٨.
(٨) المفردات، ص٣٠٠.



وقال أبو هلال العسكري إنها: «المنقطع عما أمل»[1].

الصلة بين اليأس و الخيبة:

اليأس: قد يكون قبل الأمل وقد يكون بعده، أما الخيبة: فلا تكون إلا بعد الأمل، لأنها امتناع نيل ما أمل[2].

٣ الحزن:

الحزن لغة:

بضم الحاء المهملة وسكون الزاي كما ذكر ابن فارس - الحاء والزاء والنون أصل واحد، وهو خشونة الشيء وشدةٌ فيه[3].

والحزن - بضم الحاء وسكون الزاء - والحزن - بفتح الحاء والزاء: خلاف السرور، الواحدة حزنة[4].

الحزن اصطلاحًا:

«عبارة عما يحصل لوقوع مكروه، أو فوات محبوب في الماضي»[5].

وقيل: انكسار الفؤاد لفوات المراد، وقيل: زوال قوة القلب لدوام وارد الكرب[6].

الصلة بين اليأس والحزن:

اليأس: وجود الغم والهم بشكل كبير في اليائس، الحزن: وجود الغم والهم ليس بكثرة ما هو موجود في اليأس، وذهابه أسرع مما لو كان في اليأس.

٤ الأمل:

الأمل لغة:

الهمزة والميم واللام أصلان: الأول التثبت والانتظار، والثاني الحبل من الرمل، والأمل: الرجاء[7].

(١) الفروق اللغوية، ص٤٣٦.
وانظر: الكليات، الكفوي، ص٤٣٨.
(٢) انظر: الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، ص٤٣٦.
(٣) انظر: مقاييس اللغة، ٢/ ٥٤.
(٤) انظر: الصحاح، الجوهري، ٥/ ٢٠٩٨.
(٥) التعريفات، الجرجاني، ص٨١.
(٦) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي، ص١٣٤.
(٧) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ١/ ١٤٠.

الأمل اصطلاحًا:

ذكر المناوي أنه: «توقع حصول الشيء، وأكثر ما يستعمل فيما يبعد حصوله»[1].

وقيل: «الأمل بفتح الميم هو ما يحدث به الإنسان نفسه مما يدركه من أمور الدنيا ويبلغه ويحرص عليه»[2].

الصلة بين اليأس والأمل:

اليأس: من كل شيء سواء أكان خيرًا أم شرًا، ويستبعد حصوله بالكلية، والأمل: ما يكون في الخير، وقد يحصل ما تأملناه، وقد لا يحصل.

(١) التوقيف على مهمات التعاريف، ص٦٢.
(٢) مشارق الأنوار، القاضي عياض ١/ ٣٨.



اليأس في النساء

اليأس في النساء أمر قدره الله سبحانه وتعالى على بنات حواء، وذلك يحصل عندما تصل المرأة إلى مرحلة تنقطع فيها الدورة الشهرية عنها، وتلك ظاهرة طبيعية تحدث لدى كل النساء عندما تصل في الغالب إلى عمر يتجاوز الأربعين سنة، وهن القواعد اللاتي لا يرجى حيضهن، أي يأسن من المحيض، ولا ينتظرونه بعد طول انقطاع، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى ذلك في كتابه العزيز لما يترتب عليه من أحكام لا بد من معرفتها؛ لتجنب الوقوع في المحذور الذي نهى الله عنه.

قال تعالى: ﴿وَالَّـٰٓئِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَـٰثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّـٰٓئِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَـٰتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ۝٤﴾ [الطلاق:٤].

قال مقاتلٌ: لما نزلت: ﴿وَالْمُطَلَّقَـٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾ [البقرة:٢٢٨].

قال خلاد بن النعمان بن قيسٍ الأنصاري: يا رسول الله فما عدة التي لا تحيض، وعدة التي لم تحض، وعدة الحبلى؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وفي رواية أخرى أخبرنا أبو إسحاق المقرئ، عن أبي عثمان عمرو بن سالم قال: **(لما نزلت عدة النساء في سورة البقرة في المطلقة والمتوفى عنها زوجها، قال أبي بن كعب: يا رسول الله، إن نساءً من أهل المدينة يقلن قد بقي من النساء من لم يذكر فيها شيءٌ، قال: (ما هو؟) قال: الصغار والكبار وذوات الحمل، فنزلت هذه الآية:** ﴿وَالَّـٰٓئِي يَئِسْنَ﴾ **إلى آخرها**[1].

والمعنى: ﴿وَالَّـٰٓئِي يَئِسْنَ﴾ أي: بلغن سن اليأس وذلك بأن تبلغ المرأة ستين سنة، ويقال خمسين، وقد ثبت إياسها وتيقن ذلك منها من دون شكٍ في إياسها، وقوله: ﴿إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ أي: إن شككتم في عدتهن، ﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَـٰثَةُ أَشْهُرٍ﴾، فقام رجل وسأل النبي صلى الله عليه وسلم فقال: لو كانت صغيرة، كيف عدتها؟

وقام آخر وقال: لو كانت حاملًا، كيف عدتها؟ فنزل قوله: ﴿وَالَّـٰٓئِي لَمْ يَحِضْنَ﴾ يعني: المرأة التي لم تحض، فعدتها ثلاثة أشهر مثل عدة الآيسة، وقوله: ﴿وَأُولَـٰتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ﴾ يعني: عدتهن أن يضعن حملهن وقال عمر رضي الله عنه: لو وضعت ما في بطنها وزوجها على سريره، قبل أن يدفن في حفرته، لانقضت عدتها وحلت للأزواج، وروى الزهري، عن عبد الله، عن أبيه: **(أن سبيعة بنت الحارث قد**

(١) انظر: أسباب نزول القرآن، الواحدي ص٤٣٦.

وضعت بعد وفاة زوجها بعشرين يومًا، فمر بها السنابل بن بعكك، فقال لها: أتريدين أن تتزوج؟ فقالت: نعم، قال: لا حتى يأتي عليك أربعة أشهر وعشر، فأتت النبي صلى الله عليه وسلم فقال لها: قد حللت للزواج يعني: انقضت عدتك)[1].

وذكر الجصاص في أحكام القرآن: أن معنى قوله: ﴿إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ﴾ لا يخلو من أحد وجوه ثلاثة:

الوجه الأول: إما أن يكون المراد الارتياب في أنها آيسةٌ وليست بآيسةٍ.

الوجه الثاني: الارتياب في أنها حاملٌ أو غير حاملٍ.

الوجه الثالث: ارتياب المخاطبين في عدة الآيسة والصغيرة.

أما بالنسبة للوجه الأول فهو غير جائزٍ؛ لأن الله سبحانه وتعالى قد أثبت من جعل الشهور عدتها أنها آيسةٌ، والمشكوك فيها لا تكون آيسةً لاستحالة مجامعة اليأس الرجاء إذ هما ضدان لا يجوز اجتماعهما[2].

وذكر في كتاب تأويلات أهل السنة: أنهم اختلفوا في قوله: ﴿إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ﴾ أي أنه أريد به إن ارتبتم في حيضهن أو في عدتهن، والصحيح الارتياب في عدتهن؛ لأنه لو كان المراد منه الارتياب في حيضهن، لقال الله عز وجل: (إن ارتبتن) أو يقول: (واللائي ارتبن) ليكون منسق مع قوله: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ﴾ فلما قال: ﴿ٱرۡتَبۡتُمۡ﴾ ثبت أن المراد: إن ارتبتم في عدة الآيسات والصغائر، فهي ثلاثة أشهر، والله أعلم، فيكون عدتهما بالأشهر[3].

وذكر الطبري في قوله: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ﴾ «اليائسة من المحيض هي التي لا ترجو محيضًا للكبر، ومحال أن يقال: واللائي يئسن، ثم يقال: ارتبتم بيأسهن، لأن اليأس: هو انقطاع الرجاء والمرتاب بيأسها مرجو لها، وغير جائز ارتفاع الرجاء ووجوده في وقت واحد، فإذا كان الصواب من القول في ذلك ما قلنا، فبين أن تأويل الآية: واللائي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم بالحكم فيهن، وفي عددهن، فلم تدروا ما هن، فإن حكم عددهن إذا طلقن، وهن ممن دخل بهن أزواجهن، فعدتهن ثلاثة أشهر، ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَ﴾ يقول: وكذلك عدد اللائي لم يحضن من الجواري لصغر إذا طلقهن أزواجهن بعد الدخول»[4].

وقوله: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ

(١) انظر: تفسير السمرقندي، ٣/ ٤٦٢، مفاتيح الغيب، الرازي، ٣٠/ ٥٦٣، أحكام القرآن، الكيا الهراسي، ٤/ ٤٢١.

(٢) انظر: أحكام القرآن، ٥/ ٣٥٣.

(٣) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ١٠/ ٦٠، إعراب القرآن، أبو جعفر النحاس، ٤/ ٢٩٨.

(٤) جامع البيان، ٢٣/ ٤٥٣.

﴿حَمْلَهُنَّ﴾ في انقضاء عدتهن أن يضعن حملهن، وذلك إجماع من جميع أهل العلم في المطلقة الحامل، فأما في المتوفى عنها ففيها اختلاف بين أهل العلم، وتم الإشارة إليه من قبل.

ذكر من قال: حكم قوله: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾ عام في المطلقات والمتوفى عنهن.

قال ابن مسعود: من شاء لاعنته، ما نزلت: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾ إلا بعد آية المتوفى عنها زوجها، وإذا وضعت المتوفي عنها فقد حلت؛ يريد بآية المتوفى عنها ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَعَشۡرٗاۖ﴾ [البقرة: ٢٣٤].

قال الشعبي: من شاء حالفته لأنزلت النساء القصرى بعد الأربعة الأشهر والعشر التي في سورة البقرة.

قال علي رضي الله عنه في قوله: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾ المطلقات، ثم قال الشعبي: إن عليًا وعبد الله رضي الله عنهما كانا يقولان في الطلاق بحلول أجلها إذا وضعت حملها.

وعن أبي بن كعب، قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾ قال: قلت: يا رسول الله، المتوفى عنها زوجها والمطلقة، قال: (نعم).

عن السدي، قوله: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾ قال: للمرأة الحبلى التي يطلقها زوجها وهي حامل، فعدتها أن تضع حملها.

وقال آخرون: ذلك خاص في المطلقات، وأما المتوفى عنها فإن عدتها آخر الأجلين، وذلك قول مروي عن علي وابن عباس رضي الله عنهما.

والصواب من القول في ذلك: أنه عام في المطلقات والمتوفى عنهن؛ لأن الله عز وجل عم ذلك بقوله: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾ ولم يخصص في هذه الآية مطلقةً ولا متوفى عنها بل شمل كل أولات الأحمال، فإن ظن ظان أن قوله: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾ في سياق الخبر عن أحكام المطلقات دون المتوفى عنهن، فالخبر عن حكم المطلقة أولى بالخبر عنهن، وعن المتوفى عنهن، فإن الأمر بخلاف ما ظن، وإن كان في سياق الخبر عن أحكام المطلقات، فإنه منقطع عن الخبر عنهن، بل هو خبر مبتدأ عن أحكام عدد جميع أولات الأحمال المطلقات منهن وغير المطلقات، ولا دلالة على أنه مراد به بعض الحوامل دون بعض، فهو على عمومه[1].

وقوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ يعني: يصبر

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٣ / ٤٥٣.

على طاعة الله تعالى، ﴿يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ يعني: ييسر له أمره، ويوفقه لطاعته ويعصمه عن معاصيه، ثم قال الله عز وجل: ﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ يعني: هذا الذي ذكر حكم الله وفريضته، ﴿أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ﴾ يعني: أنزله في القرآن على نبيكم، ومن يتق الله ويعمل بأحكامه وفريضته، يكفر عنه سيئاته في الدنيا، ويعظم له أجرًا يعني: ثوابًا في الجنة[١].

صور من اليأس

صور اليأس متعددة، وقد ذكرها الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز، للوقوف عليها لفهمها ومعرفتها، وبالتالي تجنب الوقوع فيها؛ لنهي الله عنها وتحريمها، وفي المقابل دعا إلى الأمل والتفاؤل والثقة بالله عز وجل.

أولًا: اليأس من نصر الله:

نجد في القرآن الكريم أن الله سبحانه وتعالى قد وعد عباده المؤمنين بالنصر والنجاة والدفاع والولاية على وجه العموم، لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم:٤٧].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [غافر:٥١].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٠٣﴾ [يونس:١٠٣].

وقوله تعالى أيضًا: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ [الحج:٣٨].

عن تميم بن أوس الداري رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل عزا يعز

(١) انظر: تفسير السمرقندي، ٣/ ٤٦٢.

الله به الإسلام وذلا يذل الله به الكفر)[1]، والمسلمون مهما حل بهم من الضيق فإنهم يقون المخاطبين بقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران:١٣٩].

ولكن ما يراه المسلمون من انتشار الباطل والبطش بهم، وسيطرة وتحكم أعداء الدين في كثير من أمور الاسلام والمسلمين، قد توجد مكانًا لليأس والقنوط و الحزن في نفوسهم من نصر الله عز وجل لهم على أعدائهم، وبيان ذلك على النحو الآتي:

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾ [يوسف:١١٠].

المعنى: «استيأس الرسل: أي: يئسوا من إيمان قومهم، وظنوا أنهم قد كذبوا أي: ظن الأمم المرسل إليهم أن الرسل قد أخلفوا ما وعدوا به من النصر، ولا يرد بأسنا أي: عذابنا الشديد، عن القوم المجرمين أي: الذين أجرموا على أنفسهم بالشرك والمعاصي وأجرموا على غيرهم بصرفهم عن الإيمان»[2].

وقرئ: (فننجي)، بالتخفيف والتشديد، من أنجاه ونجاه، على لفظ الماضي المبنى للمفعول.

وقرأ ابن محيصن: فنجا، والمراد فننجي من نشاء أي: المؤمنون؛ لأنهم الذين يستأهلون أن يشاء نجاتهم. وقد بين ذلك بقوله ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾[3].

«يبشر الله عز وجل نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم بالنصر ويخبره بسنة إلهية دائمة: وهي مجيء النصر الإلهي للرسل عليهم السلام، عند اشتداد الأزمة وانتظار الفرج الرباني، وتيقن الرسل أن المشركين كذبوهم تكذيبًا لا إيمان بعده، وصمموا على ذلك، ولا انحراف عنه، وتكون العاقبة هي الإتيان بنصر الله فجأة، فينجي الله من يشاء، وهم النبي والمؤمنون معه، ويحل العقاب بالمكذبين الكافرين، ولا يرد بأس الله، أي: لا يمنع عقاب الله وبطشه عن القوم الذين أجرموا، فكفروا بالله، وكذبوا رسله.

وفي هذا تهديد ووعيد لكفار قريش وأمثالهم، لإعراضهم عن الإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم وبدعوته، وبما أنزل الله من القرآن المجيد لأن في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا﴾ أي: عذابنا وعيدًا بينا، وتهديدًا صريحًا لمعاصري محمد عليه

(١) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ١٦٩٥٧، ٢٨/ ١٥٤.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ١/ ٣٢، رقم ٣.

(٢) أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري، ٢/ ٦٥٥.

(٣) انظر: الكشاف، الزمخشري، ٢/ ٥١٠.

الصلاة والسلام»[1].

وذكر محمد حجازي أن معنى الآية هو: ظن القوم أن الرسل قد كذبوا فيما جاءوا به من الوعد والوعيد، حتى إذا يئسوا وظنوا الظنون جاءهم نصرنا وأمرنا، ولا راد لقضاء الله ولا معقب لحكمه، فنجا المؤمنون الذين أراد الله لهم النجاة فآمنوا، أما الكافرون فحاق بهم البأس والعذاب من كل جانب، ولا يرد بأس الله عن القوم المجرمين[2].

ومنطلقًا من ذلك ينبغي أن لا نجعل اليأس يتغلغل في أنفسنا، وإنما علينا أن نتذكر أمرًا مهمًا وهو أنه بين لنا في كتابه العزيز أيضًا كيد أعداء الإسلام ومكرهم وعمق حقدهم وبطشهم بالمسلمين لأخذ الحيطة والحذر منهم، لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾ [إبراهيم: ٤٦].

أي: «مكرهم العظيم الذي استفرغوا فيه جهدهم وعند الله مكرهم لا يخلوا إما أن يكون مضافا إلى الفاعل على معنى: ومكتوب عند الله مكرهم، فهو مجازيهم عليه بمكر هو أعظم منه، أو يكون مضافا إلى المفعول على معنى: وعند الله مكرهم الذي يمكرهم به، وهو عذابهم الذي يستحقونه يأتيهم به من حيث لا يشعرون ولا يحتسبون، ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ وإن عظم مكرهم وتبالغ في الشدة، فضرب زوال الجبال منه مثلًا لتفاقمه وشدته»[3].

وأعقب ذلك مباشرةً بوعده لأوليائه المؤمنين، بالنصر والعلو والظهور عليهم: لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾ [إبراهيم: ٤٧].

أي: «﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ﴾ يا محمد ﴿مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾ ما وعدهم من الفتح والنصر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ منيع ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ من الكفار يجازيهم بما كان من سيئاتهم»[4].

فكيف إذًا نتذكر كيد العدو وبطشه فنخشاه، وننسى أو نهمل وعد الله لنا بالعز والنصر والتمكين؟

ويستفاد من ذلك: أن المؤمنين حقًا هم الذين لا يجعلون لليأس مكان في قلوبهم مهما حصل معهم في المعارك، وما رأوه على أرض الواقع، وإنما يستفيدون من ذلك، ويتخذون الأسباب المؤدية بهم إلى النصر والفتح والظهور على الدين كله، من تربيةٍ وإعدادٍ، وأخوةٍ إيمانيةٍ، وصفٍ موحدٍ

(١) التفسير الوسيط، الزحيلي، ٢/ ١١٤٣.
(٢) انظر: التفسير الواضح، ٢/ ٢١١.
(٣) الكشاف، الزمخشري، ٢/ ٥٦٥.
(٤) الوجيز، الواحدي، ص٤٨٦.

بينهم، مع الثقة الكبيرة بنصر الله سبحانه وتعالى لهم، وإلا فإن نصر الله للمسلمين وهم على ما هم عليه من الفرقة والشتات والرخاوة والضعف، لن يتحقق فيضيعون بذلك، ويضيعون معهم الأمة، ويقضى على الإسلام، والله المستعان.

ثانيًا: اليأس من رحمة الله:

قد يعتري الإنسان جهلٌ بربه سبحانه وتعالى وبحقيقة سننه في تعامله مع عباده، القائمة على أساس الرحمة والعفو والتسامح، وفتح باب التوبة والإنابة إليه، وجهله بذلك يجعله يسيء الظن بربه.

وقد ذكر الله ذلك في كتابه، في قوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١٦].

كيف وإن وجدت أسباب تدفعه للوصول إلى مرحلة اليأس من رحمة الله سبحانه وتعالى؟ وتلك الأسباب هي:

١. اقتراف الذنوب.

حينما يدرك الانسان أن ذنوبه كثيرة، كما يقال مثل زبد البحر، نتيجة فعله المعاصي والآثام والإكثار منها، فيصل إلى مرحلة يظن فيها أن الله سبحانه وتعالى لن يسامحه ولن يكفر عنه ذنوبه، وبالتالي لن يرحمه دنيا وآخرة، وهذا غير صحيح بدليل قوله تعالى: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٣﴾ [الزمر:٥٣].

قال ابن عباسٍ: نزلت في أهل مكة قالوا: يزعم محمدٌ أن من عبد الأوثان وقتل النفس التي حرم الله لم يغفر له، فكيف نهاجر ونسلم وقد عبدنا مع الله إلهًا آخر وقتلنا النفس التي حرم الله؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقال ابن عمر: نزلت هذه الآية في عياش بن أبي ربيعة والوليد بن الوليد ونفرٍ من المسلمين كانوا أسلموا ثم فتنوا وعذبوا فافتتنوا، فكنا نقول: لا يقبل الله من هؤلاء صرفًا ولا عدلًا أبدًا، قومٌ أسلموا ثم تركوا دينهم بعذابٍ عذبوا به، فنزلت هذه الآيات، وكان عمر كاتبًا، فكتبها إلى عياش بن أبي ربيعة والوليد بن الوليد وأولئك النفر فأسلموا وهاجروا.

وعن ابن جريجٍ قال: حدثني يعلى بن مسلمٍ أنه سمع سعيد بن جبير يحدث عن ابن عباسٍ أن ناسًا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا، ثم أتوا محمدًا صلى الله عليه وسلم فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحسنٌ لو تخبرنا أن لما عملناه كفارةً، فنزلت هذه الآية [1].

---

(١) انظر: أسباب نزول القرآن، الواحدي ص٣٧٠.

والمقصود من هذه الآية الكريمة:

دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة، وإخبار بأن الله يغفر الذنوب جميعا لمن تاب منها ورجع عنها، وإن كانت مهما كانت وإن كثرت وكانت مثل زبد البحر، ولا يصح حمل هذه الآية على غير توبة؛ لأن الشرك لا يغفر لمن لم يتب منه، ولا يقنطن عبد من رحمة الله، وإن عظمت ذنوبه وكثرت؛ فإن باب التوبة والرحمة واسع، لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [التوبة: ١٠٤].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [النساء: ١١٠].

وقوله تعالى في حق المنافقين: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ﴾ [النساء: ١٤٥-١٤٦][(١)].

فها هي رحمته الواسعة التي تسع كل معصية أيا كانت، فتدعوا العصاة المسرفين الشاردين المبعدين في تيه الضلال، إلى الأمل والرجاء والثقة بعفو الله، فإنه رحيم بعباده، يعلم ضعفهم وعجزهم، ويعلم العوامل المسلطة عليهم من داخل كيانهم ومن خارجه، ويعلم أن الشيطان يقعد لهم كل مرصد، ويأخذ عليهم كل طريق، فسرعان ما يسقط إذا أفلت من يده الحبل الذي يربطه والعروة التي تشده، فينحرف ويقع في المعاصي.

فالله سبحانه وتعالى يعلم كل هذا فيمد له في العون ويوسع له في الرحمة ولا يأخذه بمعصيته حتى يهيئ له جميع الوسائل ليصلح خطأه ويقيم خطاه على الصراط، وبعد أن يلج في المعصية، ويسرف في الذنب، ويحسب أنه قد طرد وانتهى أمره، ولم يعد يقبل ولا يستقبل، في هذه اللحظة لحظة اليأس والقنوط، يسمع نداء الرحمة الندي اللطيف، الذي يدعوه إلا التوبة وحدها، وهو الباب المفتوح الذي ليس عليه بواب يمنع، والذي لا يحتاج من يلج فيه إلى استئذان[(٢)].

وذكر الخازن في تفسيره: «أن الآية فيها تنبيه على أنه لا يجوز أن يظن العاصي أنه لا مخلص له من العذاب، فإن اعتقد ذلك فهو قانط من رحمة الله إذ لا أحد من العصاة إلا ومتى تاب زال عقابه وصار من أهل المغفرة والرحمة، ومعنى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ أي: إذا تاب وصحت التوبة غفرت ذنوبه، ومن مات قبل أن يتوب فهو موكول إلى مشيئة الله تعالى فإن شاء غفر له وعفا

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/ ١٠٧.

(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ٥/ ٣٠٥٨.

عنه وإن شاء عذبه بقدر ذنوبه ثم يدخله الجنة بفضله ورحمته، فالتوبة واجبة على كل أحد، وخوف العقاب مطلوب فلعل الله تعالى يغفر مطلقا ولعله يعذب ثم يعفو بعد ذلك والله أعلم» [(١)].

٢. وقوع الكرب.

الله سبحانه وتعالى يبتلي المؤمنين بالكرب ومختلف أنواع الابتلاءات؛ لاختبارهم واختبار قوة إيمانهم وثباتهم على منهجه ودينه وطريقه، فالدنيا دار ابتلاء وامتحان، وأشد الناس ابتلاءً الأنبياء، بدليل سئل النبي صلى الله عليه وسلم: أي الناس أشد بلاء؟، قال: (الأنبياء فالأمثل ثم الأمثل، ثم يبتلى المؤمن على قدر إيمانه فإن كان إيمانه) [(٢)].

ومن أمثلة ما تعرض له الأنبياء من البلاء الشديد ما حصل مع نبي الله إبراهيم مع ولده يؤكد ذلك حين خضع كلاهما لمحنة، حينما أمر الله -عز وجل- إبراهيم -عليه السلام- بذبح ابنه -عليه السلام- في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الصافات:١٠٢].

فكيف سيكون موقف كلًا منهما، فما كان إلا أن أطاعوا أمر الله عز وجل لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾ [الصافات:١٠٣ - ١٠٧].

إذًا الله سبحانه وتعالى وحده الذي يفرج الكروب، وهو بذلك كريم مع عباده، رحيم بهم، وما حصل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حين تأخر الوحي، فقال المشركون: إن محمدًا ودعه ربه وقلاه، فأنزل الله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ [الضحى:١ - ٨].

أي: ما تركك ربك يا محمد منذ اختارك، ولا أبغضك منذ أحبك، وهذا ردٌ على المشركين حين قالوا: هجره ربه [(٣)].

وأسباب ذلك عن جندبٍ قال: قالت امرأةٌ من قريشٍ للنبي صلى الله عليه وسلم

(١) لباب التأويل، ٤/ ٦١.
(٢) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء، رقم ٢٣٩٨، ٤/ ٦٠١.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٢٣٠، رقم ٩٩٢.
(٣) انظر: معالم التنزيل، البغوي، ٥/ ٢٦٦، صفوة التفاسير، الصابوني، ٣/ ٥٤٥.

ما أرى شيطانك إلا قد ودعك، فأنزل الله هذه الآية.

وعن هشام بن عروة، عن أبيه قال: أبطأ جبريل عليه السلام على النبي صلى الله عليه وسلم فجزع جزعًا شديدًا، فقالت له خديجة: قد قلاك ربك لما يرى من جزعك، فأنزل الله هذه الآية [١].

فهل من المعقول أن يترك الله - سبحانه وتعالى - نبيه صلى الله عليه وسلم في أوقات الشدة والكرب والمواجهة مع المشركين؟

وما حصل مع سيدنا إبراهيم عليه السلام أيضًا عندما جاءته البشرى بالولد في سنٍ كبير أبدى تعجبه فقال: ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [الحجر: ٥٤].

فردت عليه الملائكة في قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ بَشَّرْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَـٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الحجر: ٥٥].

فرد عليهم في قوله تعالى: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الحجر: ٥٦].

ومعنى قوله: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَـٰنِطِينَ﴾ أي: من الآيسين من ذلك، فإنه تعالى قادر على أن يخلق بشرًا من غير أبوين فكيف من شيخ فان وعجوز عاقر، وكان استعجاب إبراهيم عليه السلام باعتبار العادة دون القدرة [٢].

ومن فهم من الآية أو ظن أن نبيه إبراهيم عليه السلام يئس من رحمة ربه، فنرد على ذلك بما يأتي:

قولهم: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَـٰنِطِينَ﴾ لا يدل على أنه كان كذلك، واثبات ذلك يكون بالأدلة الآتية:

أولًا: بدليل أنه صرح في جوابهم بما يدل على أنه ليس كذلك فقال: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦].

ثانيًا: الإنسان إذا كان عظيم الرغبة في شيءٍ وفاته الوقت الذي يغلب على ظنه حصول ذلك المراد فيه، فإذا بشر بعد ذلك بحصوله عظم فرحه وسروره ويصير ذلك الفرح القوي كالمدهش له والمزيل لقوة فهمه وذكائه فلعله يتكلم بكلماتٍ مضطربةٍ في ذلك الفرح في ذلك الوقت.

ثالثًا: إنه يستطيب تلك البشارة فربما يعيد السؤال ليسمع تلك البشارة مرةً أخرى ومرتين وأكثر طلبًا للالتذاذ بسماع تلك البشارة، وطلبًا لزيادة الطمأنينة والوثوق مثل قوله تعالى: ﴿وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة: ٢٦٠].

رابعًا: استفهم أبأمر الله تبشرون أم من

(١) انظر: أسباب نزول القرآن، الواحدي، ص٤٥٨.

(٢) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي، ٣/ ٢١٣.

عند أنفسكم واجتهادكم؟[1]

وما حصل مع نبي الله يعقوب عليه السلام من فقدان ابنه يوسف عليه السلام وما فعله إخواته به، فطلب منهم البحث عنه وخاصة عندما حدثوه عن سيرة الملك في مصر، ومن ثم تيقن منهم أنه حي، وأوصاهم بعدم اليأس من رحمة الله عز وجل لقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ﴾ [يوسف:٨٧].

والمعنى: أن يعقوب عليه السلام طمع في يوسف، فأمرهم بالرجوع إلى الموضع الذي أتوا منه يلتمسون يوسف، وأخاه: يعني: بنيامين شقيق يوسف، ﴿وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ﴾ أي: «لا تقنطوا من أن يروح الله عنا ما نحن فيه من الحزن، ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ﴾: أي: لا يقنط من فرجه، ولا يقطع رجاءه منه إلا الكافرون، وقيل: إنه أمرهم أن يرجعوا إلى الذي احتال عليهم في أخيهم، وأخذ منهم، فيسألوا عنه، وعن مذهبه»[2].

وذكر أن معنى: ﴿وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ﴾ «فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: من رحمة الله، قاله ابن عباس، والضحاك.

والثاني: من فرج الله، قاله ابن زيد.

والثالث: من توسعة الله، حكاه ابن القاسم.

قال الأصمعي: الروح: الاستراحة من غم القلب»[3].

وذكر الثعلبي في كتابه أن معناها: سيروا واطلبوا الخبر، من يوسف وأخيه: وهو تفعلوا من الحس يعني: تتبعوا، قال ابن عباس: التمسوا، ﴿وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ﴾ أي: لا تقنطوا، ﴿مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ﴾ أي: من فرج الله.

وذكر الحسن وقتادة: أن نبي الله يعقوب لم ينزل به بلاء قط إلا أتى حسن ظنه بالله من ورائه، وما ساء ظنه بالله ساعة قط من ليل أو نهار[4].

فالمؤمن بالله عز وجل يرجوه في الشدائد، ويشكره ويحمده في الرخاء، فما عليه إلا أن يتوجه بالدعاء إلى الله سبحانه وتعالى ومن رحمته يلبي لهم ما يرغبون، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ١٨٦﴾ [البقرة:١٨٦].

والمعنى: «يقول الله جل جلاله: في جواب رجل سأل: هل قريب ربنا فنناجيه، أو بعيد فنناديه؟ فنزل: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي

(١) مفاتيح الغيب، الرازي، ١٩/ ١٥١ بتصرف.
(٢) الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب، ٥/ ٣٦٢٢.
(٣) زاد المسير، ابن الجوزي، ٢/ ٤٦٦.
(٤) الكشف والبيان، ٥/ ٢٥١ باختصار.

عَنِّ﴾ فقل لهم: فإني قريبٌ إليهم من أرواحهم لأشباحهم، ومن وسواس قلوبهم لقلوبهم، علمًا وقدرة وإحاطة، أجيب دعوة الداعي إذا دعان، سرًا أو جهرًا، ليلًا أو نهارًا، على ما يليق بحاله في الوقت الذي نريد، لا في الوقت الذي يريد، فليستجيبوا لي إذا دعوتهم للإيمان والطاعة، أسلك بهم طريق المعرفة، وليؤمنوا بي إني قريب منهم فيستحيوا مني، حياء من يرى أني معه حيث كان، لعلهم يرشدون إلى سلوك طريقتي ودوام محبتي»[(١)].

فالله رحيم بعباده ينشر رحمته عليهم، لقوله تعالى: ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الشورى:٢٨].

فعلى المؤمن أن يدرك ذلك ولا يجعل اليأس يتمكن من نفسه، فكيف يتطرق اليأس إلى النفس وهي تطالع قوله تعالى: ﴿وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧].

أم كيف يتمكن منها الإحباط وهي تعلم أن كل شيء في هذا الكون إنما هو بقدر الله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ [الحديد:٢٢-٢٣].

وقوله تعالى أيضًا: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤].

ولذلك لابد أن يظن العبد بربه الظن الخير، ويثق برحمته الواسعة، كما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه: (أنا عند ظن عبدي بي، فليظن بي ما يشاء)[(٢)].

فإذا أيقن بهذا فكيف ييأس؟ إنه عندئذٍ يتلقى الأمور بإرادة قوية ورضىً تام، وعزم صادق على الأخذ بأسباب النجاح.

ويستفاد من ذلك: أن المؤمن حقًا هو من يثق بالله سبحانه وتعالى ثقة كبيرة بأنه لن يضيعه ولن يظلمه بما ابتلاه به، وإنما يمتحنه ويكتب له الخير في الدنيا والآخرة، ومن أدرك ذلك لن ييأس أبدًا من رحمة الله.

ثالثًا: اليأس من حصول النعم وزوال النقم:

الله سبحانه وتعالى يقدر أرزاق العباد، فكل دابة على الأرض فعلى الله رزقها، وهذا من لطف الله بعباده، لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ [الشورى:١٩].

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ

---

(١) البحر المديد، ابن عجيبة، ١/ ٢١٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: (ويحذركم الله نفسه)، رقم ٧٤٠٥، ٩/ ١٢١.

حِسَابٍ﴾ [البقرة:٢١٢].

وقوله أيضًا: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الروم:٣٧].

وكل ذلك لحكمة يقضيها الله سبحانه وتعالى لاختبار من يصبر ويشكر، ولكن الجهل بهذا يدفع الناس إلى اليأس والقنوط من حصول النعم لهم، وإزالة النقم عنهم.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الروم:٣٦].

والمعنى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً﴾ أي: الخصب وكثرة المطر فرحوا بها أي: فرحوا وبطروا، ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ أي: جدب وقلة مطر، وقيل: خوف وبلاء بما قدمت أيديهم من السيئات، ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ أي: ييأسون من رحمة الله [(١)].

وذكر الماوردي في كتابه أن قوله: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً﴾ فيها وجهان: أحدهما: أنها العافية والسعة، والثاني: النعمة والمطر، ويحتمل ثالثًا: أنها الأمن والدعة، ﴿فَرِحُوا بِهَا﴾ أي: بالرحمة، ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ فيها وجهان: أحدهما: بلاء وعقوبة، والثاني: قحط المطر، ويحتمل ثالثًا: أنها الخوف والحذر، ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: بذنوبهم، ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ فيها وجهان: أحدهما: أن القنوط اليأس من الرحمة والفرج، قاله الجمهور، والثاني: أن القنوط ترك فرائض الله في اليسر، قاله الحسن، وهذا علامة غير المؤمنين، فأما علامة المؤمنين فهو شكر الله عند النعمة، ورجاء الكشف عند الشدة [(٢)].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ [يونس:٢١].

والمعنى: «أصبنا الناس رحمةً، يعني: المطر، ويقال: العافية من بعد ضراء مستهم من بعد القحط، ويقال: من بعد الشدة والبلاء أصابتهم، ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾ يعني: تكذيبًا بالقرآن، ويقال: تكذيبًا بنعمة الله تعالى، ويقولون: سقينا بنوء كذا ولا يقولون: هذا من رزق الله تعالى، ويقال يعني: قولهم بالطعن والحيلة ليجعلوا لتلك الرحمة سببًا آخر، ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ يعني: أشد عذابًا وأشد أخذًا» [(٣)].

وقوله تعالى أيضًا: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الروم:٣٣].

والمعنى: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ﴾ سوء حال من الجوع والقحط واحتباس المطر

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن، ٣/ ٣٩٢، مدارك التنزيل، النسفي، ٢/ ٧٠١.

(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي، ٤/ ٣١٥، تفسير القرآن، السمعاني، ٤/ ٢١٤.

(٣) تفسير السمرقندي، ٢/ ١١٠.

والمرض والفقر وغير ذلك من أنواع البلاء، ﴿دَعَوۡاْ رَبَّهُم﴾ أي: حال كونهم منيبين إليه راجعين اليه من دعاء غيره لعلمهم أنه لا فرج عند الأصنام ولا يقدر على كشف ذلك عنهم غير الله، ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ﴾ من عنده ﴿رَحۡمَةً﴾ خلاصًا وعافيةً من الضر النازل بهم؛ وذلك بالسعة والغنى والصحة ونحوها، ﴿إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ﴾ أي: فاجأ فريق منهم بالعود الى الإشراك بربهم الذي عافاهم، وتخصيص هذا الفعل ببعضهم لما ان بعضهم ليسوا كذلك كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ فَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ﴾ [لقمان:٣٢] أي: مقيم على الطريق القصد أو متوسط في الكفر لانجراره في الجملة [(١)].

وقال تعالى أيضًا: ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٖ ۝٥١﴾ [فصلت:٥١].

وهذا كله خلاف وصف المؤمن فانه يشكر عند النعمة، ويرجو عند الشدة، لقوله تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ ۝١٠ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ۝١١﴾ [هود:١٠-١١].

ذكر الطبري في تفسيره: أن معناها ولئن نحن بسطنا للإنسان في دنياه، ورزقناه رخاءً في عيشه، ووسعنا عليه في رزقه، وذلك هي النعم التي ذكرها في قوله: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ﴾، وقوله: ﴿بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ﴾، يقول: بعد ضيق من العيش كان فيه، وعسرة كان يعالجها، ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ﴾ ليقولن عند ذلك: ذهب الضيق والعسرة عني، وزالت الشدائد والمكاره، ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ﴾ أي: إن الانسان لفرح بالنعم التي يعطاها مسرور بها، ﴿فَخُورٌ﴾ أي: ذو فخر بما نال من السعة في الدنيا، وما بسط له فيها من العيش، ويدع طلب النعيم الذي يبقى، والسرور الذي يدوم فلا يزول.

ثم استثنى الله جل ثناؤه من الإنسان الذي وصفه بهاتين الصفتين: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فإنهم إن تأتهم شدة من الدنيا وعسرة فيها، لم يثنهم ذلك عن طاعة الله، ولكنهم صبروا لأمره وقضائه، فإن نالوا فيها رخاء وسعةً، شكروه وأدوا حقوقه بما آتاهم منها، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾ يغفرها لهم، ولا يفضحهم بها في معادهم، ﴿وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ ولهم من الله مع مغفرة ذنوبهم، ثوابٌ على أعمالهم الصالحة التي عملوها في دار الدنيا، جزيلٌ، وجزاءٌ عظيم [(٢)].

وذكر ابن عجيبة في كتابه أن معنى

(١) انظر: روح البيان، إسماعيل حقي، ٧/ ٣٧، إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٧/ ٦١.

(٢) جامع البيان، ١٥/ ٢٥٥-٢٥٨ باختصار.

قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾: على الضراء إيمانًا بالله، واستسلامًا لقضائه، ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ شكرًا لآلائه، سابقها ولاحقها، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم، ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ أقله الجنة، وغايته النظرة.

و يستفاد من ذلك: الإشارة إلى أنه ينبغي للعبد أن يكون شاكرًا للنعم، صابرًا عند النقم، واقفًا مع المنعم دون النعم، إن ذهبت من يده نعمة رجى رجوعها، وإن أصابته نقمة انتظر انصرافها، والحاصل أنه يكون عبد الله في جميع الحالات.

وروي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: (ثلاث من رزقهن رزق خير الدنيا والآخرة: الرضا بالقضاء، والصبر على الأذى، والدعاء في الرخاء)(١).

رابعًا: اليأس من الهداية:

الله سبحانه وتعالى من رحمته بعباده أن أعطاهم العقل، وأرسل إليهم الرسل لهدايتهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وتعليمهم وإرشادهم.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ۝٧﴾ [الشورى:٧].

فمن أطاع نفع نفسه ومن عصى ضر نفسه، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ۝١٠٨﴾ [يونس:١٠٨].

وقال أيضًا: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝٤٦﴾ [فصلت:٤٦].

ودعاهم أيضًا إلى الحق وحذرهم من الباطل ثم تركهم يختارون ما يريدون، لقوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف:٢٩].

والهداية بيد الله سبحانه وتعالى فضل من الله ومنة، والضلالة عدلًا منه، لم يظلم خلقه فيها، للأسباب التي ذكرت آنفًا، لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝١١٧﴾ [الأنعام:١١٧].

وقال تعالى أيضًا: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝٧٣ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٤﴾ [آل عمران:٧٣-٧٤].

ولو شاء الله لهدى الناس جميعًا، فلا يعجزه شيء في الأرض، ولا في السماء، لقوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ

(١) انظر: البحر المديد، ٢/ ٥١٥.

﴿لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ۝١٤٩﴾ [الأنعام:١٤٩].

وقال أيضًا: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأنعام:٣٥].

ولكن جعلهم مختلفين لحكمة، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۝١١٩﴾ [هود:١١٨-١١٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٩٣﴾ [النحل:٩٣].

والنبي صلى الله عليه وسلم كان حريصًا كل الحرص على هداية البشرية، ولكن الله سبحانه وتعالى بين له ولغيره من المسلمين أنهم ليس عليهم إلا البيان والبلاغ والدلالة على الهدي وعدم الإكراه عليه، لقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النور:٥٤].

وما عداها كله بيد الله سبحانه وتعالى لقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ۝٥٦﴾ [القصص:٥٦].

فيهدي من أطاعه، وأقبل عليه، لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ۝١٧﴾ [محمد:١٧].

ولا يهدي من عصاه، وأعرض عنه، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر:٣].

وقوله أيضًا: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ ۚ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩﴾ [النحل:٩].

إذًا منح الانسان ما يعينه على الاختيار دون اجبار، لقوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ [الإنسان:٣].

فيتحمل نتيجة ذلك، أما بالنسبة للموانع التي تمنع الناس من الدخول في الدين الاسلامي فهي كثيرة مثل الأنفة وحب الذات، التمسك بدين الآباء والأجداد، حب الأموال والشهوات، وحب الرئاسة والسيطرة كل ذلك أدى إلى عدم الوصول إلى طريق الهداية، وبالتالي فقدان الأمل لتحقيق ذلك، مما جعلهم يبقوا على ما هم عليه، رغم الجهود الحثيثة لهدايتهم وتنفيذ كل ما يطلبونه.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ۝٣١﴾ [الرعد:٣١].

عن عبد الله بن عطاءٍ، عن جدته أم عطاءٍ مولاة الزبير قالت: سمعت الزبير بن العوام يقول: قالت قريشٌ للنبي صلى الله عليه وسلم تزعم أنك نبيٌّ يوحى إليك، وأن سليمان سخر له الريح والجبال، وأن موسى سخر له البحر، وأن عيسى كان يحيي الموتى فادع الله تعالى أن يسير عنا هذه الجبال ويفجر لنا الأرض أنهارًا فنتخذها محارث فنزرع ونأكل، وإلا فادع الله أن يحيي لنا موتانا فنكلمهم ويكلمونا، وإلا فادع الله تعالى أن يصير هذه الصخرة التي تحتك ذهبًا فننحت منها وتغنينا عن رحلة الشتاء والصيف، فإنك تزعم أنك كهيئتهم، فبينا نحن حوله إذ نزل عليه الوحي، فلما سري عنه قال: (والذي نفسي بيده لقد أعطاني ما سألتم ولو شئت لكان، ولكنه خيرني بين أن تدخلوا من باب الرحمة فيؤمن مؤمنكم، وبين أن يكلكم إلى ما اخترتم لأنفسكم فتضلوا عن باب الرحمة ولا يؤمن مؤمنكم فاخترت باب الرحمة وأن يؤمن مؤمنكم، وأخبرني إن أعطاكم ذلك، ثم كفرتم أنه معذبكم عذابًا لا يعذبه أحدًا من العالمين)، فنزلت: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ﴾ [الإسراء:٥٩].

حتى قرأ ثلاث آياتٍ ونزلت: ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ﴾[1].

ونزل لما قالوا له إن كنت نبيًا فسير عنا جبال مكة واجعل لنا فيها أنهارًا وعيونًا لنغرس ونزرع، وابعث لنا آباءنا الموتى يكلمونا أنك نبي، ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ﴾ نقلت عن أماكنها ﴿أَوۡ قُطِّعَتۡ﴾ شققت ﴿بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ بأن يحيوا لما آمنوا ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًا﴾ لا لغيره فلا يؤمن إلا من شاء إيمانه دون غيره إن أوتوا ما اقترحوا[2].

وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سمعوا هذا من المشركين طمعوا في أن يفعل الله ما سألوا فيؤمنوا فنزل: ﴿أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ يعني: الصحابة - رضي الله عنهم أجمعين- من إيمان هؤلاء، أي: ألم ييأسوا علمًا وكل من علم شيئًا يئس من خلافه، يقول: ألم ييئسهم العلم، ﴿أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ﴾، من كفرهم وأعمالهم الخبيثة ﴿قَارِعَةٌ﴾ أي: نازلة وداهيةٌ تقرعهم من أنواع البلاء أحيانًا بالجدب، وأحيانًا بالسلب، وأحيانًا بالقتل والأسر.

وقال ابن عباسٍ: أراد بالقارعة: السرايا التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعثهم إليهم، ﴿أَوۡ تَحُلُّ﴾ يعني: السرية أو

---

(١) انظر: أسباب نزول القرآن، الواحدي، ص٢٧٤.

(٢) انظر: تفسير الجلالين، المحلي و السيوطي، ١/ ٣٢٧.

القارعة، ﴿قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾، وقيل: ﴿أَوْ تَحُلُّ﴾ أي: تنزل أنت يا محمد بنفسك ﴿قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾، ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾، قيل: يوم القيامة. وقيل: الفتح والنصر وظهور رسول الله صلى الله عليه وسلم ودينه، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾، وكان الكفار يسألون هذه الأشياء على سبيل الاستهزاء فأنزل الله تسليةً لنبيه صلى الله عليه وسلم[1].

وذكر في تفسير اللباب في علوم الكتاب أن معنى: ﴿أَفَلَمْ يَايْـَٔسِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: «ألم ييأس هؤلاء من إيمان الكفار من قريش، وذلك أنهم لما سألوا هذه الآيات طمعوا في إيمانهم وطلبوا نزول هذه الآيات ليؤمن الكفار، وعلم الله أنهم لا يؤمنون فقال: أفلم ييأس الذين آمنوا من آيات الكفار، أي: ييأسوا من إيمانهم»[2].

وذكر في زاد المسير في علم التفسير أن معنى: ﴿أَفَلَمْ يَايْـَٔسِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فيه أربعة أقوال:

الأول: أفلم يتبين، وهذا قول مجاهد، وعكرمة، وغيرهم.

والثاني: أفلم يعلم، روي عن ابن عباس. وقال ابن قتيبة: هي لغة للنخع (ييأس) بمعنى (يعلم).

والثالث: أن المعنى: قد يئس الذين آمنوا أن يهدوا واحدًا، ولو شاء الله لهدى الناس جميعًا، قاله أبو العالية.

والرابع: أفلم ييأس الذين آمنوا أن يؤمن هؤلاء المشركون، قاله الكسائي، والمعنى: أفلم ييأس الذين آمنوا من إيمان هؤلاء الذين وصفهم الله بأنهم لا يؤمنون؛ لأنه لو شاء لهدى الناس جميعًا[3].

فبعد كل ذلك يخاطب الله عز وجل نبيه في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنعام:٣٥].

والمعنى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ﴾ أي: عظم ﴿عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ تكذيبهم ﴿فَإِنِ اسْتَطَعْتَ﴾ قدرت ﴿أَن تَبْتَغِيَ﴾ أي: أن تطلب ﴿نَفَقًا﴾ سربًا ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ فتدخل فيه ﴿أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ﴾ أو سببا وطريقًا تصعد فيه إلى السماء ﴿فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ﴾ يقول تنزل بالآية التي طلبوها فلتفعل، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ على التوحيد ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ بمقدوري عليهم بالكفر[4].

ورغم ما طلبوه من المعجزات والأدلة والبراهين التي أظهرها الله عز وجل إلا أنهم

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي، ٣/ ٢٤.
(٢) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل، ١١/ ٣٠٦.
(٣) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي، ٢/ ٤٩٦.
(٤) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، الفيروزآبادي ص١٠٨.

بقوا على كفرهم ولم يهتدوا وإنما استمروا بالمماطلة والاستهزاء، لقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾﴾ [الرعد:٢٧].

والمعنى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: ستروا ما دعتهم إليه عقولهم من الخير وما لله من الآيات عنادًا ﴿لَوْلَآ﴾ أي: هلا ولم لا.

ولما كان ما تحقق أنه من عند الملك لا يحتاج إلى السؤال عن الآتي به، بني للمفعول قوله: ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ﴾ أي: هذا الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ءَايَةٌ﴾ أي: علامة بينة ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي: المحسن إليه بالإجابة لما يسأله لنهتدي بها فنؤمن به، وأمره بالجواب عن ذلك بقوله: ﴿قُلْ﴾ أي: لهؤلاء المعاندين: ما أشد عنادكم حيث قلتم هذا القول الذي تضمن إنكاركم لأن يكون نزل إلي آية مع أنه لم يؤت أحد من الآيات مثل ما أوتيت، فعلم قطعًا أنه ليس إنزال الآيات سببًا للإيمان بل أمره إلى الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ أي: الذي لا أمر لأحد معه ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ إضلاله ممن لم يتب، بل أعرض عن دلالة العقل، ونقض ما أحكمه من ميثاق القاطعة بأحقية ما دعت إليه الرسل لما جبل عليه قلبه من الغلظة، فصار بحيث لا يؤمن ولو نزلت عليه كل آية؛ لأنها كلها متساوية الأقدام في الدعوة إلى ما دعا إليه العقل لمن له عقل، ﴿وَيَهْدِيٓ﴾ عند دعاء الداعين ﴿إِلَيْهِ﴾ أي: طاعته، ﴿مَنْ أَنَابَ﴾ أي: من كان قلبه ميالًا مع الأدلة راجعًا إليها[(١)].

وذكرت نعمة الله النخجواني أن الآية بينت خبث طينتهم ورداءة فطرتهم وذلك كالتالي: «يقول الذين كفروا بك وبكتابك ودينك لولا أنزل عليه آيةٌ ملتجئة لنا بالإيمان من ربه مع أنه يدعى التأييد من لدنه، ومع شدة شغفه وحرصه لأن نؤمن له، قل لهم يا أكمل الرسل ما علي إلا البلاغ، إن الله المطلع لضمائر عباده يضل من يشاء بمقتضى علمه وعدله لمن أراد إضلاله وانتقامه، ويهدي إليه على مقتضى جوده من أناب إليه عن ظهر القلب إذ كل ميسر لما خلق له»[(٢)].

ويستفاد من ذلك: عدل الله سبحانه وتعالى ورحمته الواسعة بعباده، فقد أقام الحجة عليهم بتقديم كل ما يعينهم ويرشدهم إلى طريق الهداية والرشاد، وتحذيرهم من طريق الضلال والضياع، والخيار بأيديكم أيها العباد.

(١) انظر: نظم الدرر، البقاعي، ١٠ / ٣٣٦.
(٢) الفواتح الإلهية، النخجواني ١/ ٣٩٥.

خامسًا: يأس الكافرين من ارتداد المسلمين عن دينهم:

الكافرين بالله سبحانه وتعالى وبرسوله صلى الله عليه وسلم بذلوا كل الجهود الجبارة، وأنفقوا كل غالٍ ورخيص، واستعملوا مختلف الوسائل والأساليب لصد الناس عن دين الله، بمنعهم من الدخول فيه، أو رجوعهم عن دينهم، إلا أنهم لم يتمكنوا من ذلك لقوة إيمان المؤمنين، وتقواهم، وثقتهم الكبيرة بالله سبحانه وتعالى بحمايتهم ونصرهم على أعدائهم، مما وصل الحال بالكافرين إلى اليأس والقنوط من ارتدادهم عن دينهم.

قال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِ﴾ [المائدة:٣].

والمعنى: كانت قريش تزعم أنها تملك من القوة ما تجعل دين الإسلام لا يظهر وأنها قادرة على أن ترد محمدا صلى الله عليه وسلم ومن آمن به عما هم عليه، ولهذا جلبوا الجيوش وجيشوا الأحزاب عبر سنين طويلة حتى قال أبو سفيان يوم أحد: «أعلو هبل لنا العزى ولا عزى لكم»، ولما سأله هرقل عن الحال قال: الحرب بيننا وبينه سجال، وما زالت قريش تجلب بخيلها ورجلها وخيلائها تريد أن توقف ظهور الإسلام، ولما كان فتح مكة أيقن القريشيون أن ما يبتغونه من عدم إظهار الدين قد انقطع بالكلية فيئسوا من أن يجعلوا الإسلام يتوقف عن الظهور، هذا هو معنى قوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ﴾ أي: يئسوا أن يمنعوا دينكم من الظهور؛ لأن دخول النبي صلى الله عليه وسلم مكة كان شأنًا عظيمًا فقد خرج منها صلوات الله وسلامه عليه بعد أن ائتمروا عليه ثم بعد ثمانية أعوام من خروجه عاد عليه الصلاة والسلام.

فظاهر أمر النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وظهور دينه يقتضي أن يأس الكفار عن الرجوع إلى دينهم قد كان وقع منذ زمان، وإنما هذا اليأس من اضمحلال أمر الإسلام وفساد جمعه لأن هذا أمر كان يترجاه من بقي من الكفار ألا ترى إلى قول أخي صفوان بن أمية في يوم هوازن حين انكشف المسلمون وظنها هزيمة ألا بطل السحر اليوم، إلى غير هذا من الأمثلة، و﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يعم مشركي العرب وغيرهم من الروم والفرس وغير ذلك، وقوله: ﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِ﴾ فإنما نهى المؤمنين عن خشية جميع أنواع الكفار وأمر بخشيته تعالى التي هي رأس كل عبادة[(١)].

وقال الطبري أن معنى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ﴾ أي: الآن انقطع طمع الأحزاب وأهل الكفر والجحود، أيها المؤمنون، من دينكم أي: أن تتركوه فترتدوا

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، ٢/ ١٥٤.

عنه راجعين إلى الشرك [١].

وقوله: ﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِ﴾ يعني: فلا تخشوا الكفار في عبادتي واخشوني في اتباعهم، فقال: أعجز الناس من خشي من لا ينفعه ولا يضره، والذي بيده النفع والضر يخاطبه بهذه الآية [٢].

وقوله تعالى أيضًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ ١٣﴾ [الممتحنة:١٣].

«نزلت في ناسٍ من فقراء المسلمين كانوا يخبرون اليهود بأخبار المسلمين ويواصلونهم فيصيبون بذلك من ثمارهم، فنهاهم الله تبارك وتعالى عن ذلك» [٣].

والمعنى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: لا تصادقوا يا معشر المؤمنين الكفرة أعداء الدين، ولا تتخذوهم أحباء وأصدقاء توالونهم وتأخذون بآرائهم، فإنهم قوم غضب الله عليهم ولعنهم، قال الحسن البصري: هم اليهود.

وقال ابن عباس: هم كفار قريش، والظاهر أن الآية عامة كما قال ابن كثير: يعني اليهود والنصارى وسائر الكفار، ممن غضب الله عليه ولعنه، ﴿قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي: أولئك الفجار الذين يئسوا من ثواب الآخرة ونعيمها، كما يئس الكفار المكذبون بالبعث والنشور، من أمواتهم أن يعودوا إلى الحياة مرة ثانية بعد أن يموتوا، فقد كانوا يقولون إذا مات لهم قريب أو صديق: هذا آخر العهد به، ولن يبعث أبدًا [٤].

وذكر الزحيلي في تفسيره أن معنى الآية هو: أي يا أيها المؤمنون برسالة الإسلام لا تتخذوا اليهود والنصارى وسائر الكفار ممن غضب الله عليهم ولعنهم واستحقوا الطرد والإبعاد من رحمته، أولياء وأنصارا وأصدقاء، وقد يئسوا من ثواب الآخرة ونعيمها في حكم الله عز وجل وأصبحوا لا يوقنون بالآخرة بسبب كفرهم وعنادهم، بالرغم من قيام الأدلة والبينات والمعجزات على الإيمان بالله واليوم الأخر، كيأسهم من بعث موتاهم، لاعتقادهم عدم البعث، وسبب يأسهم من الآخرة تكذيبهم بصحة نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم [٥].

ويستفاد من ذلك: أن المؤمن لا بد أن يكون قوي في إيمانه لا يسمح لأي ضغوطات سواء أكانت داخلية أم خارجية أن تؤثر به، وتزعزعه عن دينه، الذي هو بمثابة نجاة لهم في الدنيا والآخرة، وتفقده الثقة الكبيرة بالله - سبحانه وتعالى.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٩/ ٥١٦، تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٣/ ٤٤٦.
(٢) انظر: تفسير التستري ١/ ٥٨.
(٣) أسباب نزول القرآن، الواحدي، ص ٤٢٥.
(٤) انظر: صفوة التفاسير، الصابوني، ٣/ ٣٤٧، التفسير الواضح، محمد الحجازي، ٣/ ٦٦٣.
(٥) التفسير المنير، ٢٨ / ١٥٥ باختصار.

أسباب اليأس

اليأس صفة مذمومة، وأسبابها كثيرة، فلا بد من الإشارة إلى هذه الأسباب بالشرح والبيان والتفصيل، ليعي أصحاب الأفهام والعقول، لتجنب محصول اليأس المذموم، والنجاة من الوصول إليها بالمعقول سواء كانت أي سبب من الأسباب.

أولًا: الكفر والمعاصي:

نعم الله سبحانه وتعالى على العباد كثيرة وأعظم هذه النعم نعمة الاسلام، التي هي نجاة العبد في الدنيا والآخرة، وإذا أراد الله عز وجل بالإنسان خيرًا توفاه على الإسلام، وكان النبي صلى الله عليه وسلم عندما يدعو يقول: (اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك)[1].

ولكن من العباد من أراد أن يختار طريقًا آخرًا غير طريق الاسلام، فضاعوا وخسروا في الدنيا والآخرة، لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران:٨٥].

وقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨].

واختيارهم هذا الطريق أي- طريق الكفر والضلال- وانغماسهم فيه وعدم قيامهم بأي عمل يقربهم من الله عز وجل ويرجو رحمته؛ ولذلك كان سببًا من الأسباب الموصلة بهم إلى اليأس من رحمة الله عز وجل وقد وصفهم الله بذلك في كتابه العزيز فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الحجر:٥٦].

والمعنى: أي قال إبراهيم عليه السلام للضيف: لا ييأس من رحمة الله إلا من أخطأ سبيل الصواب، وغفل عن رجاء الله الذي لا يخيب من رجاه، فضل بذلك عن الرأي القيم، وهذا كقول يعقوب: ﴿لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ وخلاصة مقاله: إنه نفى القنوط عن نفسه على أتم وجه، وتم الإشارة إلى ذلك سابقًا ، فكأنه قال: ليس بي قنوط من رحمته تعالى، لكن حالي تنافي فيض تلك النعم الجليلة التي غمرني بها، وتوالي المكرمات التي شملت آل هذا البيت[2].

وقوله تعالى أيضًا: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [العنكبوت:٢٣].

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الدعوات، ٥/ ٥٣٨، رقم ٣٥٢٢.
قال الترمذي: حديث حسن.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٨٧١، رقم ٤٨٠١.

(٢) انظر: نظم الدرر، البقاعي، ١٤/ ٣٤.

والمعنى: يخبر الله سبحانه وتعالى من هم الذين زال عنهم الخير، وحصل لهم الشر، هم الذين كفروا به وبرسله، وبما جاءوهم به، وكذبوا بلقاء الله، فليس عندهم إلا الدنيا، فلذلك قدموا على ما أقدموا عليه من الشرك والمعاصي؛ لأنه ليس في قلوبهم ما يخوفهم من عاقبة ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحۡمَتِي﴾ أي: فلذلك لم يعلموا سببًا واحدًا يحصلون به على الرحمة، وإلا لو طمعوا في رحمته، لعملوا لذلك أعمالًا، والإياس من رحمة الله من أعظم المحاذير، وهو نوعان: إياس الكفار منها، وتركهم جميع سبب يقربهم منها، وإياس العصاة، بسبب كثرة جناياتهم، فملكت قلوبهم، فأحدث لها الإياس، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ أي: مؤلم موجع[1].

وذكر محمد الشعراوي في تفسيره: أنه إن أصر الكافر على كفره وعبادته للأصنام التي لا تنفع ولا تضر، ولم تجد معه موعظة ولا تذكير فلا ملجأ له ولا منفذ له إلى رحمة الله؛ لأنه عبد أولياء لا ينفعونه بشيء وكفر بي، فليس له من يحميه مني، ولا من ينصره من الأصنام التي عبدها، فليس له إلا اليأس.

واليأس: قطع الرجاء من الأمر، وقد قطع رجاء الكافرين؛ لأنهم عبدوا ما لا ينفع ولا يضر، وكفروا بمن بيده النفع، وبيده الضر.

فكفروا بآيات القرآن الحاملة للأحكام، فلم يصدقوا منها شيئًا، وما داموا قد كفروا بهذه الآيات، وكفروا أيضًا بلقاء الله في الآخرة؛ فرحمة الله بعيدة عنهم، وهم يائسون منها، لذلك كانت عاقبتهم ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾[2].

ويستفاد من ذلك: مجاهدة النفس للكفر والعصيان بالطاعة والذكر والعمل الصالح؛ لنيل رحمته ومغفرته، وإلا فاليأس والقنوط مسيطره.

ثانيًا: فقدان النعم ونزول البلاء:

كثير من الناس ينغمسون في النعم الكثيرة التي أنعماها الله سبحانه وتعالى عليهم، فينسون أنفسهم وآخرتهم، ويتمتعون بغير حساب لأي شيء يتوقعونه؛ لأن مع كثرت النعم اغتر الانسان، ونسي أن كل ذلك فضل من الله سبحانه وتعالى وبالتالي لم يشكره ويحمده على ذلك، وهذا يجلب سخط الله وغضبه عليهم، ونزع النعمة عنهم، وإنزال البلاء بهم، فما كان منهم إلا أن صدموا لفقدانها وزوالها؛ لاستبعادهم حصول ذلك، والحاصل بهم سببًا عندهم من الأسباب الموصلة بهم إلى اليأس والقنوط، ويتم بيان ذلك على النحو التالي:

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٦٢٩ بتصرف.

(٢) تفسير الشعراوي، ١٨ / ١١١٢٤ باختصار.

قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ۝٩﴾ [هود:٩].

في هذه الآية صورة صادقة لهذا الإنسان العجول القاصر، الذي يعيش في لحظته الحاضرة، ويطغى عليه ما يلابسه فلا يتذكر ما مضى ولا يفكر فيما يلي، فهو يؤوس وكفور بالنعمة بمجرد أن تنزع منه، مع أنها كانت هبة من الله له، فلا يحتمل في الشدة ويصبر ويؤمل في رحمة الله ويرجو فرجه فعجبًا لهذا الانسان[(١)].

وقال أبو زهرة: في هذا النص بيان لطبيعة النفس التي تخضع للحس دون العقل المدرك الذي يوازن بين الماضي والحاضر ويضبط نفسه ووجدانه، بل يكون هلوعًا عندما يصيبه ما يسوؤه، وطموعًا أشرًا بطرًا عندما ينال خيرًا ويذهب عنه ما يسوؤه، فإذا أصابه خير بطر، وإذا أصابه سوء جزع، على غير المؤمن المدرك صبور لا تبطره النعمة، ولا تؤنسه النقمة، وهو يضبط نفسه، وضبط النفس والصبر متلازمان لا يفترقان.

ومعنى قوله: ﴿أَذَقْنَا الْإِنسَانَ﴾ أي: جعله يذوق ويحس متنعما، وأضاف سبحانه وتعالى ذلك إليه لبيان عظمها وأنها منحة جليلة، وسماها سبحانه: ﴿رَحْمَةً﴾ لوجوب شكرها وبيان أنه أعطاها لتكون مصدر خير للناس تعم ولا تخص، فهي ليست له خاصة ولكن ليكون شكرها نفعًا للناس.

وقوله: ﴿ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ﴾ يشير إلى التفاوت بين العطاء الكريم والنزع الحكيم، وفيه تفاوت بين العطاء والنزع، وكل ذلك بتقدير العزيز العليم، وفيه بيان أن نعيم الدنيا ليس بدائم بل فيها العطاء والمنع، ونعيم الآخرة دائم غير مجذوذ.

ثم بعد ذلك الانتقال إلى حال شديدة مؤكدة في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ﴾ بصيغة المبالغة الدالة على الهلع والجزع واليأس من رحمة الله التي لا ييأس منها إلا القوم الكافرون، وكان القول: ﴿كَفُورٌ﴾؛ لأنه لا يرجو الله ولا يؤمن بما عنده.

وجواب القسم فيها تأكيد لعمق يأسه واستيلائه عليه وكفره؛ وكل ذلك لأنه مادي لا يؤمن إلا بالمادة ولا يرجو ما عند الله الذي يعطي ويمنع ويعز ويذل، وهذا حال الإنسان الذي لا يؤمن إلا بالدنيا، إذا كان المنع بعد العطاء[(٢)].

وقال الطبري في تفسيره أن معنى قوله: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا﴾ أي: رخاء وسعةً في الرزق والعيش، فبسطنا عليه من الدنيا

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ٤/ ١٨٦٠.

(٢) انظر: زهرة التفاسير، ٧/ ٣٦٧٣ بتصرف.

وهي: (الرحمة) التي ذكرها الله سبحانه وتعالى في هذا الموضع، ﴿ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ﴾ أي: ثم سلبناه ذلك، فأصابته مصائب أجاحته فذهبت به، ﴿إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ﴾، أي: يظل قنطًا من رحمة الله، آيسًا من الخير.

وقوله: ﴿لَيَئُوسٌ﴾، من قول القائل: «يئس فلان من كذا، فهو يئوس، إذا كان ذلك صفة له.

وقوله: ﴿كَفُورٌ﴾ يقول: هو كفور لمن أنعم عليه، قليل الشكر لربه المتفضل عليه، بما كان وهب له من نعمته (١).

وقوله تعالى أيضًا: ﴿وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾ [فصلت:٤٩].

والمعنى: «أي وإن مسه البلاء، والشدة، والفقر، والمرض فيؤوس من روح الله قنوطٌ من رحمته، وقيل: يؤوس من إجابة دعائه قنوطٌ بسوء الظن بربه، وقيل: يؤوس من زوال ما به من المكروه، قنوطٌ بما يحصل له من ظن دوامه، وهما صيغتا مبالغةٍ يدلان على أنه شديد اليأس عظيم القنوط» (٢).

ويستفاد من ذلك: شكر الله سبحانه وتعالى وحمده على نعمه الكثيرة، والاقتناع بحكمته وعدله في كل ما يقدره، وتحمل البلاء بالصبر والمثابرة وقهر اليأس بالإيمان.

(١) انظر: جامع البيان، ١٥/ ٢٥٦.
(٢) فتح القدير، الشوكاني، ٤/ ٥٩٨.

ثالثًا: الجهل بسنن الله:

إن الجهل بسنن الله آفة خطيرة، وداء عظيم، فهو يحجب الانسان عن إدراك الحق ومعرفته، ويبعده عن سنن الهدى، ويؤدي به إلى طريق الضلال والضياع، ويوقع في قلبه اليأس من رحمة الله سبحانه وتعالى مع البيان أن الله سبحانه وتعالى عندما خلق هذا الكون، وضع فيه نواميس، وأوجد له عادات في خلقه، وسنن لا تتخلف، وكل هذه السنن تدلل على حكمة الله عز وجل وعلمه الواسع، لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [الأنعام:١٨].

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٢١].

وأيضًا دالة على قدرة الله عز وجل الجارية النافذة، لقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر:٤٩].

وسنن الله عز وجل كثيرة سواء أكانت سننٌ في الدنيا، أم سننٌ في الآخرة، أم سننٌ مشتركة في الدنيا والآخرة وهذه السنن تتصف بصفات تضبطها كالثبات، والشمول، وأنها متحققة، وإجبارية التنفيذ، قائمة على العدل والحكمة، ليس هنالك فوضى، ولا اضطراب في سننه سبحانه وتعالى والمسلم لا بد أن يتفطن لسنن الله حتى لا تكون مفاجئة له عند وقوعها، وعند

علمه بها تطمئن نفسه؛ لأنه يدرك بأن هناك لله قواعد يسير العالم وفقها، والخلق بناءً عليها.

فمثلًا من سنن الله تعالى في هذه الأرض الهداية بواسطة الأنبياء والأولياء، وعدم الوعي بها، يطلق لنفسه العنان لتفعل ما شاءت من الآثام والمعاصي والكفر بالله، ومع كثرة ذنوبه ييأس من تكفيرها وإزالتها، وقد أشرنا إلى ذلك آنفًا.

ومن سننه عز وجل في عباده سنة ابتلائهم، ويشترك في ذلك جميع الأمم والأفراد، على حد سواء، للامتحان والتمحيص، لقوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢﴾ [العنكبوت:٢].

ومن سننه أيضًا سنة التدافع، والله تعالى لا يبقي الناس على ما هم عليه، ولا يبقي الدنيا على حال واحدة، وإنما يدفع بعض الناس ببعضهم الآخر، يعني: يدفع أهل الباطل بأهل الحق وهكذا، لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة:٢٥١].

ولله سنن في الظالمين والمظلومين، وسنن في الترف والمترفين، وسنن في الطغاة والطاغين، وسنن في الاستدراج، وسنن في المكر، وسنن في الرزق، وسنن في الاصلاح، وسنن التغير والتدافع، وغيرها الكثير.

والجاهل بهذا كله يسهل على الشيطان الطريق لقذف الشك في قلبه، والوسوسة إليه، وما دام وجد ذلك في نفسه يولد عنده اليأس من كل سنة من سنن الله سبحانه وتعالى وبالتالي القنوط من رحمة ربه.

وسائل الوقاية من اليأس وعلاجه

إن اليأس مرض من الأمراض التي تصيب النفوس فتقف عاجزة عن إدراك المعالي، وهي آفة الصبر الكبرى؛ لأنها تطفئ سراج الأمل لدى العبد، فيترك العمل، ويخلد إلى الكسل، فما من داءٍ إلا وله دواء، ولهذا حرص القرآن الكريم والسنة المطهرة على القضاء على هذا الداء المتفشي في نفس العبد والمسيطر عليه، ولهذا فهو بحاجة ماسة إلى مجموعة من الوسائل التي تقيه من ذلك والتي نرجو أن تكون نافعة في علاج هذه الآفة، وإلى جانب الوسائل نشير إلى العلاج للقضاء على الداء، ومنعًا لعودته مرة أخرى.

أولًا: وسائل الوقاية من اليأس

١. الإيمان بأسماء الله وصفاته.

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر: ٢٤].

ومعنى: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ يعني: الرحمن الرحيم العزيز الجبار المتكبر ونحوها من الأسماء، وهذه الأسماء ذكرت في هذه السورة، لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الحشر: ٢٢-٢٣].

وقوله: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يعني: يذكره ويوحده ما في السموات والأرض وما فيهما من الخلق وغيره، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ في ملكه، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في أمره[1].

فالعبد الذي يؤمن بأسماء الله وصفاته، ويفهم ما تنطوي عليه هذه الأسماء والصفات فقلبه يدرك من معاني الأسماء والصفات ما يدل على عظمة الله وجبروته وسرعة عقابه وشدة انتقامه، وأما من حجب قلبه عن الأسماء الدالة على الرحمة واللطف والتوبة والمغفرة الخ، فيسيطر عليه الخوف ويسلمه إلى اليأس من روح الله والقنوط من رحمته، وهذه طامة كبرى وكبيرة من كبائر الذنوب، تخرج القلب عن سكينته وأنسه إلى انزعاجه وقلقه وهمه، فعليه أن يتجنب ذلك فمثلًا من أراد من الله عز وجل إجابته على دعوة ما عليه سؤال الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يجيب الدعوة مع الإلحاح وتكرار الدعاء، فالإلحاح في ذلك وحسن الظن بالله وعدم اليأس من أعظم أسباب الإجابة، فعليه أن يعلم أنه حكيم عليم قد يعجل الإجابة لحكمة وقد يؤخرها

(١) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان ٤/ ٢٨٦.

لحكمة وقد يعطي السائل خيرًا مما سأل، كما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (ما من مسلم يدعو الله بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن تعجل له دعوته في الدنيا، وإما أن يدخرها له في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها. قالوا: يا رسول الله إذا نكثر؟ قال: الله أكثر)[1].

وعليه أن يرجو من ربه الإجابة ويكثر من توسله بأسمائه وصفاته سبحانه وتعالى[2].

٢. حسن الظن بالله ورجاء رحمته.

العبد لابد أن يحسن الظن بالله عز وجل في كل شيء؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم عد سوء الظن من الكبائر، وأن يرجو رحمته في كل الظروف والأحوال، فعن أنس رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (قال الله تعالى: يا ابن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم، لو بلغت ذنوبك عنان السماء، ثم استغفرتني، غفرت لك ولا أبالي، يا ابن آدم، إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا، لأتيتك بقرابها مغفرة)[3].

وقوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ﴾ [فصلت:٢٣].

هذه الآية تبين سوء ظن الكافرين بالله عز وجل أي: أنه لا يعلم بأفعالهم، ولكن الله عز وجل فضحهم، لقوله: ﴿ظَنَنتُم﴾ بسبب إنكاركم البعث جهلًا منكم ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ الذي له جميع الكمال ﴿لَا يَعْلَمُ﴾ أي: في وقت من الأوقات ﴿كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي: تجددون عمله مستمرين عليه، وهو ما كنتم تعدونه خفيًا فهذا هو الذي جرأكم على ما فعلتم، فإن كان هذا ظنكم فهو كفر، والمؤمن حقًا من علم أن الله مطلع على سره وجهره، فلم يزل مراقبًا خائفًا هائبًا[4]، وهذا يعطيه دافعية ويزيد من إيمانه بالله عز وجل ولا يترك مجالًا لنفسه بأن تيأس وتقنط من رحمته.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٣٧﴾ [آل عمران:٣٧].

أي: قال زكريا عليه السلام: ﴿يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ من أي وجه لك هذا الذي أرى

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ١٧/ ٢١٣، رقم ١١١٣٣.

(٢) انظر: أثر الإيمان في تحصين الأمة الإسلامية ضد الأفكار الهدامة، عبد الله الجربوع، ٢/ ٤٨٠.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الدعوات، ٥/ ٥٤٨، رقم ٣٥٤٠.
قال الترمذي: حديث حسن غريب.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٧٩٩، رقم ٤٣٣٨.

(٤) انظر: نظم الدرر، البقاعي، ١٧/ ١٧٢.

عندك من الرزق؟ قالت مريم مجيبة له: ﴿هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾ تعني: أن الله هو الذي رزقها ذلك فساقه إليها وأعطاها، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾ فخبرٌ من الله أنه يسوق إلى من يشاء من خلقه رزقه، بغير إحصاء ولا عدد يحاسب عليه عبده؛ لأنه جل ثناؤه لا ينقص سوقه ذلك إليه، ولا يزيد إعطاؤه إياه، ومحاسبته عليه في ملكه، وفيما لديه شيئًا، ولا يعزب عنه علم ما يرزقه، وإنما يحاسب من يعطي ما يعطيه، من يخشى النقصان من ملكه، ودخول النفاد عليه بخروج ما خرج من عنده بغير حساب معروف[(١)].

فهذه مريم العذراء تظن بالله الظن الحسن فهو لن يتركها دون رعاية واهتمام، وهذه الحالة التي يجب أن يكون عليها المؤمن.

٣. تعلق القلب بالله والثقة به.

يجب على المرء أن يعلق قلبه بالله، ويجعل الثقة به سبحانه وتعالى في كل أحواله، فمن غير اللائق بالمسلم أن ييأس من روح الله، لأنها صفة لا يتصف بها إلا الكفرة والفاسقين كما بينا آنفًا، وعليه أن يثق بأن الله سيجعل بعد العسر يسرًا، لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا ۝٦﴾ [الشرح:٥-٦].

والمعنى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا﴾ يعني: «مع الشدة سعة، أي: بعد الشدة سعة في الدنيا، ويقال: بعد شدة الدنيا سعة في الآخرة، يعني: إذا احتمل المشقة في الدنيا، ينال الجنة في الآخرة، ثم قال: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا﴾ على وجه التأكيد»[(٢)].

٤. أن يكون العبد بين الخوف والرجاء

يجب أن يكون العبد خائفًا راجيًا، فإن الخوف المحمود الصادق: ما حال بين صاحبه وبين محارم الله، فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط، والرجاء المحمود: رجاء رجل عمل بطاعة الله على نور من الله، فهو راج لثوابه، أو رجل أذنب ذنبا ثم تاب منه إلى الله عز وجل فهو راج لمغفرته، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٢١٨﴾ [البقرة:٢١٨].

أما إذا كان الرجل متماديا في التفريط والخطايا، يرجو رحمة الله بلا عمل، فهذا هو الغرور والتمني والرجاء الكاذب، وقد مدح الله عز وجل أهل الخوف والرجاء بقوله: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ﴾ [الزمر:٩].

وقال أيضًا: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا﴾

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٦/ ٣٥٩.

(٢) تفسير السمرقندي، ٣/ ٥٩٤.

[السجدة:١٦].

فالرجاء يستلزم الخوف، ولولا ذلك لكان أمنًا، والخوف يستلزم الرجاء، ولولا ذلك لكان قنوطًا ويأسًا، فالخائف هارب من ربه إلى ربه.

والرجاء له أسباب أهمها:

- أن الله كتب على نفسه الرحمة.
- وأن رحمته سبقت غضبه.
- وأنه يقبل التوبة عن عباده.
- وأنه يكفر السيئات ويرفع الدرجات، ويجازي على الحسنة بعشر أمثالها، وعلى السيئة بمثلها، ويحب توبة التائبين.

والواجب على الإنسان أن يجمع بين الخوف والرجاء لأنه إذا غلب جانب الخوف وقع في اليأس والقنوط، وإذا غلب جانب الرجاء وقع في الأمن من مكر الله[1].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن الكبائر، فقال: (الشرك بالله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله)[2].

ومن هذين الحديثين يجب التنبيه على الجمع بين الرجاء والخوف، فإذا خاف فلا يقنط ولا ييأس بل يرجو رحمة الله[3].

٥. الإيمان بالقضاء والقدر.

على المسلم أن يعلم علم اليقين أن قدر الله نافذ لا محالة، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، جفت الأقلام وطويت الصحف، فلا يخاف مما سوى الله، ولا يرهب أعداءه، معتقدًا أنه بقدر الله يستعد لقدر الله أيضًا، لقوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الحديد:٢٢-٢٣].

وقوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [التغابن:١١][4].

إن الركون للصبر في مثل هذا المقام أمر محمود بل واجب لأن مقادير الله نافذة سواء رضي العبد أم سخط، صبر أم جزع، إن التسليم بالقدر هو مقتضى العقل والدين معًا، ولن يغير من الواقع شيئًا، ولن يبدل سنن الله في الكون[5].

---

(١) انظر: فوائد من شرح كتاب التوحيد، عبدالعزيز السدحان، ص٩٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب عقوق الوالدين من الكبائر، رقم ٥٩٧٧، ٨/ ٤.

(٣) انظر: شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز الحنفي، ٢/ ٤٧٥، فقه الدعوة في صحيح الإمام البخاري، سعيد القحطاني، ١/ ٤٤٠.

(٤) انظر: الأجوبة المفيدة لمهمات العقيدة، عبدالرحمن الدوسري، ١/ ٣٧.

(٥) انظر: مقومات الداعية الناجح في ضوء الكتاب والسنة، د. سعيد القحطاني، ١/ ٢٥٧

٦. الإيمان بالغيب.

فالإيمان بالغيب دعامة كل دين، وأساس كل ملة وشريعة، وهو الفيصل بين المؤمن والكافر، والمتدين والملحد، وهو المميز للإنسان عن سائر المخلوقات التي تشاركه الحياة على ظهر هذه الأرض، فهو يسمو بالإنسان عن الحيوان، ويغرس في نفسه الأمل، فلا يتسرب اليأس إلى قلبه والقنوط في نفسه، إن أخفقت آماله في الدنيا، وتعثرت خطى أمانيه في الحياة؛ لاعتقاده الصادق ويقينه القاطع أن ما عند الله في الآخرة خير وأبقى، ويحثه على الصمود في مواجهة ما يعتريه خلال مسيرة حياته، من مصائب أو شدائد أو محن؛ لأنه موقنٌ ومعتقدٌ تمام الاعتقاد في الجزاء العادل والنعيم المقيم يوم القيامة[1].

لقوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل:٦٥].

وقوله أيضًا: ﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝١٨٨﴾ [الأعراف:١٨٨].

٧. الصبر عند حدوث البلاء.

الله تعالى بديع حكمته، ولطيف رحمته، قضى أن يبتلي النوع الإنساني بالأوامر والنواهي والمصائب التي قدرها عليهم، وافترضها تسلية لهم وتقوية لعزائمهم، فأمرهم على ذلك بالصبر والثبات، ووعدهم الثواب الجزيل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:١٠][2].

في المقابل الله سبحانه وتعالى ذم اليائسين من رحمته عند حصول البلاء، واستثنى من الذم الصابرين على البلاء، وجعل لهم الثواب العظيم لقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١١﴾ [هود:١٠-١١].

ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عن تمني الموت بسبب البلاء، فعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يتمنين أحدكم الموت لضرر أصابه، فإن كان لا بد فاعلًا، فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرًا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرًا لي)[3].

لابد أن يكون الانسان متيقنًا بفرج الله القريب، وهذا اليقين بالفرج جدير أن يبدد

باختصار.

(١) انظر: أصول الدعوة وطرقها ٢، مناهج جامعة المدينة العالمية، ١/ ٢٤٥.

(٢) تيسير العزيز الحميد، سليمان بن عبد الله، ص٤٤٠ بتصرف.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المرض، باب تمني المريض الموت، رقم ٥٦٧١، ٧/ ١٢١.

ظلمة القلق، ويقهر شبح اليأس، ويضيء نفس المؤمن بنور الصبر الذي لا يخبو.

ولذلك ورد الصبر في كتاب الله مقرونًا بأن وعد الله حق كما في قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الروم:٦٠][1].

٨. الأخذ بالأسباب.

التوكل على الله لا ينافي السعي في الأسباب والأخذ بها فإن الله تعالى قدر مقدورات مربوطة بأسبابها وقد أمر الله بتعاطي الأسباب مع أمره بالتوكل، فالأخذ بالأسباب طاعة لله وهو من عمل الجوارح، والتوكل على الله طاعة له سبحانه وهو من عمل القلب وهو إيمان بالله، وعلى هذا فلا يضر مباشرة العبد للأسباب مع خلو القلب من الاعتماد عليها والركون إليها، والأسباب تذهب وتأتي، ومسبب الأسباب باقٍ موجود سبحانه وتعالى ويجب أن يكون الأخذ بالأسباب الجائزة شرعًا فإن من توكل على الله حق توكله لم يرتكب ما يخالف شرعه[2].

ومن يأخذ بالأسباب مع التوكل على الله المؤمنون حقًا فهي صفة من صفاتهم كما ذكر الله تعالى ذلك في كتابه العزيز: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنفال:٢].

ويظهر لنا ذلك جليًا أيضًا في قصة يوسف عليه السلام بإبراز أهمية الأخذ بالأسباب، وترك الاستسلام لليأس، فقد قال نبي الله يعقوب عليه السلام لأولاده لما أبلغوه فقد ابنه الثاني: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف:٨٧].

٩. الزهد في الدنيا.

الطريق المؤدي إلى اليأس والقنوط، تعلق القلب بالدنيا والفرح بأخذها، والحزن والتأسف على فواتها بكل ما فيها، من جاه، وسلطان، وزوجة، وأولاد، ومال، وعافية إلخ.

فإذا أكثر العبد ذكر الآخرة، وكانت منه دائمًا على بالٍ، فإن الزهد في الدنيا والحذر منها ومن فتنتها سيحلان في القلب، وحينئذٍ لا يكترث بزهرتها، ولا يحزن على فواتها، ولا يمدن عينيه إلى ما متع الله به بعض عباده من نعم ليفتنهم فيها، قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ [طه:١٣١].

وهذه الثمرة يتولد عنها بدورها ثمارٌ

---

(١) انظر: مقومات الداعية الناجح في ضوء الكتاب والسنة، د. سعيد القحطاني، ١/ ٢٥٦.

(٢) شفاء الضرر بفهم التوكل والقضاء والقدر، أبو فيصل البدراني، ١/ ٣٣.

أخرى مباركةٌ طيبةٌ منها: القناعة، وسلامة القلب من الحرص والحسد والغل والشحناء؛ لأن الذي يعيش بتفكيره في الآخرة وأنبائها العظيمة لا تهمه الدنيا الضيقة المحدودة، مع ملاحظة أن إيمان المسلم باليوم الآخر وزهده في الدنيا لا يعني انقطاعه عنها وعدم ابتغاء الرزق في أكنافها؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [القصص:٧٧].

كما يتولد أيضًا من هذا الشعور، الراحة النفسية والسعادة القلبية، وقوة الاحتمال والصبر على الشدائد والابتلاءات، لِمَا للرجاء فيما عند الله عز وجل من الأجر والثواب.

ثانيًا: علاج اليأس:

وكما ذكرنا آنفًا أن اليأس داء وكل داء لابد له من علاج، وسنشير إلى مجموعة من الخطوات التي تعالج الانسان من حالة اليأس التي يعيشها حتى لا تنتهي حياته بطريقة شنيعة، ويتم بيان ذلك على النحو التالي:

القرآن الكريم اهتم اهتمامًا كبيرًا بمعالجة اليأس وتم ذلك من خلال محورين رئيسين:

المحور الأول: الآيات التي تدعو إلى التوحيد مما يبعث الأمل والأمان في القلوب، ويقضي على اليأس والقنوط، لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [الزمر:٦٢-٦٣].

وقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب:٤٨].

المحور الثاني: استنهاض الهمة إلى أقصى مدى.

إن إحساس الإنسان باليأس ينتج من انحطاط الهمة، والانشغال بسفاسف الأمور، حيث يستغل الشيطان حب الراحة والدعة لدى الإنسان؛ فيصرفه عن الإيمان بدسائس ومكائد خبيثة، تصيبه بالغفلة وانحطاط الهمة، فيقعده عن معالي الأمور.

لذلك فقد جعل القرآن الكريم للعمل منزلة مقدسة سامية، وحث الانسان أن يسعى في الأرض لاستخراج خيراتها؛ لأن إعلاء كلمة الله في الأرض، يتوقف على الرقي المادي، فقال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة:١٠٥].

وقوله تعالى أيضًا: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النجم:٣٩].

ونضيف أيضًا مجموعة من الخطوات لمعالجة اليأس، منها:

- تعميق الإيمان بالقضاء والقدر وبمفهومهما الصحيح، وتربية النفس على التوكل على الله، وبذل الجهد الممكن للوصول إلى الأهداف، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف:٦٧].
- تنمية الثقة بالنفس، والاعتماد على الذات في القيام بالأعمال بعد الثقة بالله عز وجل والتوكل عليه، وتحمل المسؤولية عن نتائجها بغير تردد ولا وجل، لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير:٢٩]. وقوله أيضًا: ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [هود:٨٨].
- اليقين بالقدرة على التغيير إلى الأفضل في كل جوانب الحياة ومطالعة تجارب الناجحين في شتى الميادين.
- قراءة قصص الأنبياء والصالحين الذين غير الله بهم وجه الحياة والتعرف على الصعاب والمشاق التي واجهوها، حتى أدركوا مناهم، قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ [يوسف:٣]. وقوله أيضًا: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف:١١١].
- اليقين بأن الاستسلام لحالة اليأس لن يجني صاحبها من ورائها إلا مزيدًا من الفشل والتعب والمرض، وأن البديل هو السعي والجد وتلمح الأمل، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ [طه:١٣١].
- التأسي بأهل الصبر والعزائم، والحث على لزوم الرضا بالشدائد والصبر عليها، لقوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [محمد:٣١]. وقوله: ﴿يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ [لقمان:١٧].
- استمرار مقاومة المسلم للمنكرات، وعدم السماح لتسرب اليأس والقنوط في نفسه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [البقرة:١٦٨-١٦٩][1].

موضوعات ذات صلة:

التوكل، الحزن، الذل، الضعف، العزم، القوة، الوهن

(١) انظر: روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، ابن حبان ص١٥٧، الخطابة، مناهج جامعة المدينة العالمية، ص٨٣.



عناصر الموضوع

مفهوم اليتيم

أولًا: المعنى اللغوي:

اليتيم لغة هو: الذي مات أبوه حتى يبلغ، فإذا بلغ زال عنه اسم اليتيم[1].

قال أبو السعادات ابن الأثير: «قد تكرر في الحديث ذكر (اليتم، واليتيم، واليتيمة، والأيتام، واليتامى) وما تصرف منه، واليتيم في الناس: فقد الصبي أباه قبل البلوغ، وفي الدواب: فقد الأم، وأصل اليتم بالضم والفتح: الانفراد، وقيل: الغفلة، وقد يتم الصبي، بالكسر، ييتم فهو يتيم، والأنثى يتيمة، وجمعها: أيتام، ويتامى، وقد يجمع اليتيم على يتامى، كأسير وأسارى، وإذا بلغا زال عنهما اسم اليتم حقيقة، وقد يطلق عليهما مجازًا بعد البلوغ، كما كانوا يسمون النبي صلى الله عليه وسلم وهو كبير: يتيم أبي طالب؛ لأنه رباه بعد موت أبيه»[2].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

اليتيم اصطلاحًا: الصغير الذي فقد أباه وهو دون سن البلوغ حقيقة[3].

وهذا الاسم يزول عن اليتيم بمجرد البلوغ، ولا يطلق عليه بعد البلوغ إلا باعتبار ما كان[4].

ولم يعتبر الشرع من فقد أمه يتيمًا إنما قصر صفة اليتم على من فقد أباه؛ لأن الأب هو الذي يعول الصغير ويرعى شؤونه ويقوم بتأديبه وتعليمه[5].

---

(١) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ١٤/ ٢٤١، مقاييس اللغة، ابن فارس ٦/ ١٥٤، لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ٦٤٥، تاج العروس، الزبيدي ٣٤/ ١٣٤.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر ٥/ ٢٩١.

(٣) انظر: المفردات ص ٨٨٩، الكشاف، الزمخشري ١/ ٤٦٣، مفاتيح الغيب، الرازي ٣/ ٥٨٧، لباب التأويل، الخازن ١/ ٥٨، أحكام القرآن، الجصاص ٣/ ٨٥.

(٤) انظر: أحكام القرآن، الجصاص ٣/ ٨٥، التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص٣٤٦.

(٥) انظر: أحكام القرآن ٣/ ٨٥، مفاتيح الغيب، الرازي ٣/ ٥٨٧، لباب التأويل، الخازن ١/ ٥٨.

اليتيم في الاستعمال القرآني

وردت (اليتيم) في القرآن الكريم (٢٣) مرة[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الإفراد	٨	﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨﴾ [الإنسان:٨]
التثنية	١	﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ [الكهف:٨٢]
الجمع	١٤	﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ [البقرة:٢٢٠]

واليتم في أصله بمعنى الانفراد، وورد اليتيم في الاستعمال القرآني بمعناه الشرعي المعروف، وهو: من فقد أباه قبل بلوغ الحنث ذكرًا كان أو أنثى[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٧٧٠، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب الياء ص ١٤٥٣.

(٢) انظر: عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ٤/ ٣٥٠-٣٥١، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٥/ ٣٨٠.

الألفاظ ذات الصلة

١ اللقيط:

اللقيط لغة وهو:

ما يلقط، أي: يرفع من الأرض، وقد غلب على الصبي المنبوذ وهو: الصبي الذي تلقيه أمه في الطريق[(١)].

اللقيط اصطلاحًا:

هو اسم لمولود طرحه أهله؛ خوفًا من الفقر أو احترازًا عن تهمة الزنا، وكذلك كل صبي، أو مجنون، ضائع، لا كافل له[(٢)].

الصلة بين اللقيط واليتيم:

اللقيط قد يكون يتيمًا حقيقةً وقد لا يكون، أما حكمًا فهو كذلك؛ لأنه فقد معيله وراعيه، ويمكن أن يقاس عليه الأطفال الذين لهم آباء أحياء ولكنهم في حكم الأموات، فهؤلاء يحتاجون للرعاية والعطف والحنان، ويكون لهم حكم الأيتام من حيث الكفالة والرعاية والحنان[(٣)].

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٧/ ٣٩٢.
(٢) انظر: التعريفات، الجرجاني ص ١٩٣، أنيس الفقهاء، القونوي ص ٦٧، التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٢٩١، معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم، السيوطي ص ٥٥.
(٣) انظر: حقوق اليتيم في الفقه الإسلامي، تسنيم استيتي ص١٥.

اليتم والقدر

إن من قدر الله تعالى على الصبي الصغير الذي يموت والده أن يعيش وحيدًا ضعيفًا، بغير أب يقوم بحفظه ورعايته والنفقة عليه، فيعيش الطفل اليتيم منكسر القلب، متألم الضمير، يخشى من الأيام، ومن عدم قدرته على مصارعة تقلبات الحياة.

كما أن من له أطفال صغار قد يخشى من القدر بأن يفاجئه الموت فيضيع أولاده الصغار، وربما يجد اليتيم من أقاربه من لا يقوم برعايته والإحسان إليه، بل ربما من يأكل ماله إن كان له مال.

وكذلك على المجتمع الذي فيه أيتام صغار أن يقدروا المصيبة والكارثة التي حلت بهذا الصغير، من فقده للكافل له، والقائم بشؤونه فيعملوا من أجل جبر مصاب هذا الصغير بكل الوسائل التي من شأنها التخفيف من مصابه والأخذ بيده؛ لأن يصبح فردًا فاعلًا في المجتمع، ويمكن الحديث في هذا المبحث عن اليتيم والقدر من ثلاث زوايا:

أولًا: اليتيم والقدر:

أن موت الأقارب أو أحد الوالدين وخاصة الأب له تأثيرات شديدة على الطفل، فيشعر الطفل المميز بالأسى والحزن العميق، ويصل به الأمر إلى الشعور باليأس والإحباط، أو قد يصل به الأمر إلى الرغبة في الانتقام ويكون حزنه بمستوى سنه واعتقاده، ومدى ارتباطه بوالديه، ويؤثر عليه الموت سلبًا، ويظهر ذلك جليًّا إما بشعور كبير بالنقص لضعف الموارد، وعدم تلبية الرغبات، وإما بالإفراط بالتدليل لتعويضه عمن فقد، وبالتالي تدمير حياة الطفل واضطراب وضعه بشكل عام.

ويعتبر موت الأب - خاصة- خسارة للطفل، ويختلف حجم هذه الخسارة باختلاف السن والإدراك والفهم والذكاء والجنس، مع العلم بأن المحيطين بالطفل قد يكون لهم أكبر الأثر في التخفيف من هذا الشعور[1]، وهناك بعض الأعراض التي تظهر على الطفل بسبب موت أحد أحبته منها:

الأعراض الحياتية: ومنها: فقدان الشهية والنشاط، سوء التغذية، ذبول الجسم، التوتر، اصفرار البشرة الكآبة، القلق وعدم النوم، التعرض للإصابة بالأمراض.

والأعراض الذهنية والنفسية: والموت له تأثير على ذهن الطفل وذكائه وإمكانية حدوث انخفاض مستوى الذكاء، وهبوط المستوى الدراسي، وتغير في الرؤية والأهداف، ويصاب الطفل بالسلوك

(١) انظر: دور الأب في التربية، علي القائمي ص ٣١١، حل مشكلة الأيتام ضمن تعاليم الإسلام، فايزة أحمد يوسف ص٣-٤.

غير المتزن، والاختلال النفسي، وظهور أعراض أخرى: كقضم الأظافر ومص الإبهام والتبول اللاإرادي والحسد والخوف والخجل والشعور بعقدة الحقارة والكذب والإحساس بالقلق إلى غير ذلك[١].

والأعراض العاطفية وأهمها: الاضطراب، والشعور بانعدام الأمن، الهيجان الشديد، والحساسية المفرطة، وسرعة الغضب، والانطواء على النفس والشعور بالكآبة، والعنف والعدوان.

والأعراض السلوكية: ويظهر ذلك من خلال: عدم الانسجام مع المحيطين به وأفراد أسرته، والعصيان والتمرد، والاضطراب في التعامل والعلاقات، والتكبر والرياء لكي يلفت أنظار الآخرين ويكسب دعمهم، وربما إهمال النظافة وعدم الاهتمام بالشكل والمظهر[٢].

يقول عبد الله ناصح علوان: «ومن العوامل الأساسية في انحراف الولد: مصيبة اليتم التي تعتري الصغار وهم في زهرة العمر، ومقتبل الحياة، وهذا اليتيم الذي مات أبوه وهو صغير، إذا لم يجد اليد الحانية التي تحنو إليه، والقلب الرحيم الذي يعطف عليه، وإذا لم يجد من الأوصياء المعاملة الحسنة التي ترفق به، والرعاية الكاملة التي ترفع من مستواه، والمعونة التامة التي تسد جوعته، فلا شك أن هذا اليتيم سيدرج نحو الانحراف، ويخطو شيئًا فشيئًا نحو الإجرام، بل سيصبح في المستقبل أداة هدم وتخريب لكيان الأمة، وتمزيقًا لوحدتها وإشاعة الفوضى والانحلال بين أبنائها»[٣].

ثانيًا: القدر والأب الذي يخشى الموت:

يجب على من له صغار وذرية ضعاف يخشى من ضياعهم بعد موته، أن يعمل على تأمين حياة هؤلاء الصغار بوسائل إلهية، تؤدي إلى حفظ حياة الصغار والضعفاء من الذرية، وهذه الوسائل هي:

١ . تقوى الله تعالى والقول السديد.

إن تقوى الله تعالى والقول السديد من وسائل التأمين على حياة الصغار والضعفاء من الذرية بعد موت الأب، مما يؤدي إلى عدم الخوف من القدر عليهم.

قال تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝٩﴾ [النساء:٩].

فالخطاب في الآية جاء مُذكّرًا الأحياء بالذي هم صائرون إليه هم وأموالهم، عارضًا عليهم في هذا الموقف ما يهز

(١) انظر: حل مشكلة الأيتام ضمن تعاليم الإسلام، فايزة أحمد يوسف ص٣-٤.

(٢) انظر: دور الأب في التربية، علي القائمي ص ٣١١.

(٣) تربية الأولاد في الإسلام، عبدالله ناصح علوان ص١٣٦.

مشاعرهم، ويثير أشجانهم أنهم سيموتون، كما مات هذا الميت الذي تقاسموا تركته، أو تقاسمها ورثته، وهم يشهدون، وأنهم سيتركون من بعدهم أطفالهم، الذين سينضمون إلى موكب الأيتام، كما ترك هذا الميت أطفاله، فانضموا إلى جماعة الأيتام، ممن مات آباؤهم قبله، فهؤلاء عليهم أن يرعوا حق الله وليخشوه فى هؤلاء اليتامى الذين فى أيديهم، وليصونوهم ويصونوا أموالهم، وليعاملوهم كما يرجون أن يعامل أبناؤهم من بعدهم[1].

وقد ذكر المفسرون في معنى الآية أربعة أقوال:

أحدها: أن معناه: وليحذر الذين يحضرون ميتًا يوصي في ماله أن يأمروه بتفريق ماله وصية فيمن لا يرثه، ولكن ليأمروه أن يبقى ماله لولده، كما لو كان هو الموصي لآثر أن يبقي ماله لولده، وأن لا يدعهم عالة مع ضعفهم وعجزهم عن التصرف والاحتيال، وهذا قول ابن عباس رضي الله عنه ومجاهد، والسدي[2].

والثاني: أن معناه: وليخش الذين يحضرون الموصي وهو يوصي أن ينهوه عن الوصية لأقربائه، وأن يأمروه بإمساك ماله والتحفظ به لولده، وهم لو كانوا من أقرباء الموصي لسرهم أن يوصي لهم، وهو قول مقسم مولى ابن عباس، وسليمان بن المعتمر، وسعيد بن جبير.

والثالث: أن ذلك أمر من الله تعالى لولاة الأيتام، أن يلوهم بالإحسان إليهم في أنفسهم وأموالهم، كما يحبون أن يكون ولاة أولادهم الصغار من بعدهم في الإحسان إليهم، لو ماتوا وتركوا أولادهم يتامى صغارًا، وهو مروي عن ابن عباس رضي الله عنه[3].

والرابع: أن من خشي على ذريته من بعده، وأحب أن يكف الله عنهم الأذى بعد موته، فليتق الله وليقل قولًا سديدًا، وهو قول أبي بشر بن الديلمي[4].

وقال الإمام الرازي: «يحتمل أن تكون الآية خطابًا لمن قرب أجله، ويكون المقصود نهيه عن تكثير الوصية؛ لئلا تبقى ورثته ضائعين جائعين بعد موته، ثم إن كانت هذه الآية إنما نزلت قبل تقدير الوصية بالثلث كان المراد منها أن لا يجعل التركة مستغرقة بالوصية، وإن كانت نزلت بعد تقدير الوصية بالثلث، كان المراد منها أن يوصي أيضًا بالثلث بل ينقص إذا خاف على

(١) انظر: التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ٢/ ٧٠٧.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ١٩.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ٢٢، مفاتيح الغيب، الرازي ٩/ ٥٠٥.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ٢٤، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢/ ١٧، النكت والعيون، الماوردي ١/ ٤٥٧.

ذريته، والمروي عن كثير من الصحابة أنهم وصوا بالقليل لأجل ذلك، وكانوا يقولون: الخمس أفضل من الربع، والربع أفضل من الثلث، وخبر سعد يدل عليه، وهو قوله صلى الله عليه وسلم عن عامر بن سعد، عن أبيه، قال: (عادني رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع من وجع أشفيت منه على الموت، فقلت: يا رسول الله، بلغني ما ترى من الوجع، وأنا ذو مال، ولا يرثني إلا ابنة لي واحدة، أفأتصدق بثلثي مالي؟ قال: (لا)، قال: قلت: أفأتصدق بشطره؟ قال: (لا، الثلث، والثلث كثير، إنك أن تذر ورثتك أغنياء، خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس)»[1][2].

والقول السديد الذي تدعو إليه الآية هو: القول العدل والصواب الذي يحمل النصح والتوجيه والتسديد لليتامى، وإعدادهم إعدادا صالحًا للحياة تمامًا، كما يفعل الأب مع أبنائه، وإلا فهو قول غير سديد، وخيانة للأمانة التي اؤتمن الأوصياء عليها في حق اليتامى[3].

ويحتمل أن الأمر بالتقوى والقول السديد يكون على عمومه في الوصية، وفي اليتامى، وفي جميع الأقوال، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٧١﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

قال الإمام ابن عاشور: «والسديد: الذي يوافق السداد، والسداد: الصواب والحق، فشمل القول السديد: الأقوال الواجبة والأقوال الصالحة النافعة مثل: ابتداء السلام وقول المؤمن للمؤمن الذي يحبه: إني أحبك، ويشمل القول السديد: ما هو تعبير عن إرشاد من أقوال الأنبياء والعلماء والحكماء، وما هو تبليغ لإرشاد غيره من مأثور أقوال الأنبياء والعلماء، فقراءة القرآن على الناس من القول السديد، ورواية حديث الرسول صلى الله عليه وسلم من القول السديد»[4].

٢. العمل الصالح.

إن العمل الصالح من وسائل التأمين الإلهي على حياة الصغار والضعفاء التي دل عليها قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٢٧٤٤، ٤/ ٣ كتاب الوصايا، باب الوصية بالثلث، ومسلم في صحيحه، رقم ١٦٢٨، ٣/ ١٢٥٠ كتاب الهبات، باب الوصية بالثلث.

(٢) مفاتيح الغيب ٩/ ٥٠٥.

(٣) انظر: تفسير السمعاني ١/ ٤٠٠، تفسير الراغب الأصفهاني ٣/ ١١١٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٥١، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٩٥، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٦٥.

(٤) انظر: التحرير والتنوير ٢٢/ ١٢٢.

﴿وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾ [الكهف:٨٢].

فقد بين القرآن الكريم أن الله تعالى يبعث من يقوم بحقوق اليتامى إن كان آباؤهم صالحين، كما بعث الرجل الصالح في استخراج كنز اليتيمين، فهذا قدر الله في ذلك، فينبغي على من يكون صالحًا أن لا يحزن بعد أن عرف قدر الله تعالى، وقد ذكر المفسرون في معنى الكنز المذكور في الآية أقوال هي:

أحدها: صحف علم وحكم، قال ابن عباس رضي الله عنه، وسعيد بن جبير، ومجاهد والحسن: «كان لوحًا من ذهب مكتوبًا فيه: عجبًا لمن أيقن بالموت كيف يفرح! عجبًا لمن أيقن بالقدر كيف يغضب! عجبًا لمن أيقن بالرزق كيف يتعب! عجبًا لمن أيقن بالحساب كيف يغفل! عجبًا لمن أيقن بزوال الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها! لا إله إلا الله محمد رسول الله»[1].

وروى الحاكم عن ابن عباس رضي الله عنه: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ قال: «ما كان ذهبا ولا فضة، كان صحفًا علمًا»[2].

وروى البيهقي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في قول الله عز وجل: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ قال: «كان لوح من ذهب مكتوب فيه: لا إله إلا الله محمد رسول الله، عجبا لمن يذكر أن الموت حق كيف يفرح! وعجبا لمن يذكر أن النار حق كيف يضحك! وعجبا لمن يذكر أن القدر حق كيف يحزن! وعجبا لمن يرى الدنيا وتصرفها بأهلها حالًا بعد حال كيف يطمئن إليها!»[3].

وفي مجمع الزوائد عن أبي ذر رضي الله عنه رفعه قال: «الكنز الذي ذكر الله في كتابه لوح من ذهب مصمت، عجبت لمن أيقن بالقدر ثم نصب! وعجبت لمن ذكر النار ثم ضحك! وعجبت لمن ذكر الموت ثم غفل! لا إله إلا الله محمد رسول الله»[4].

وهذا قول أكثر المفسرين في تفسير الآية بدليل أنه قال: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ والرجل الصالح يكون كنزه العلم لا المال؛ إذ أن كنز المال لا يليق بالصلاح بدليل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٣/ ١٧٤.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك، رقم ٣٣٩٦، ٢/ ٤٠٠
قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ولم يتعقبه الذهبي.

(٣) شعب الإيمان، البيهقي رقم ٢٠٩، ١/ ٣٨٦.

(٤) مجمع الزوائد، الهيثمي، رقم ١١١٥١، ٧/ ٥٣.
قال الهيثمي: أخرجه البزار من طريق بشر بن المنذر عن الحارث بن عبد الله اليحصبي، ولم أعرفهما، وبقية رجاله ثقات.

﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة:٣٤](١).

الثاني: أن الكنز مال مذخور من ذهب وفضة، قاله عكرمة وقتادة. وقال الزجاج: المعروف في اللغة أن الكنز إذا أفرد فمعناه المال المدفون(٢).

ورجح هذا القول الإمام الرازي بقوله: «اختلفوا في هذا الكنز فقيل: إنه كان مالًا، وهذا هو الصحيح لوجهين، الأول: أن المفهوم من لفظ الكنز هو المال، والثاني: أن قوله: ﴿وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾ يدل على أن ذلك الكنز هو المال»(٣).

قال الإمام ابن كثير معلقًا على هذين القولين المذكورين في تفسير الكنز المذكور في الآية: «وهذا الذي ذكره هؤلاء الأئمة، وورد به الحديث المتقدم وإن صح لا ينافي قول عكرمة أنه كان مالًا؛ لأنهم ذكروا أنه كان لوحًا من ذهب، وفيه مال جزيل أكثر ما زادوا أنه كان مودعًا فيه علم، وهو حكم ومواعظ، والله أعلم»(٤).

وعلى كل حال فإن صلاح الآباء من وسائل تأمين حياة اليتامى، فلا يخش الرجل الصالح من قدر الله تعالى إذا ترك ذرية ضعافًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ يدل على أن صلاح الآباء يفيد العناية بأحوال الأبناء(٥).

قال ابن عباس رضي الله عنه: «حفظا بصلاح أبيهما، وقيل: كان بينهما وبين الأب الصالح سبعة آباء، قال محمد بن المنكدر: «إن الله سبحانه وتعالى يحفظ بصلاح العبد ولده وولد ولده وعشيرته وأهل دويرات حوله، فلا يزالون في حفظ الله ما دام فيهم، وقال سعيد بن المسيب: إني لأصلي فأذكر ولدي فأزيد في صلاتي»(٦).

وفي الآية دلالة على أن صلاح الآباء يفيد العناية بالأبناء، وأن الرجل الصالح يحفظ في ذريته، وتشمل بركة عبادته لهم في الدنيا والآخرة بشفاعته فيهم، ورفع درجتهم إلى أعلى درجة في الجنة، لتقر عينه بهم، كما جاء في القرآن ووردت به السنة(٧).

٣. **الدعاء بحفظ الذرية.**

وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ

(١) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ١٦٢، الكشف والبيان، الثعلبي ٦/ ١٨٨، لباب التأويل، الخازن ٣/ ١٧٤، اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٢/ ٥٤٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٦٧.

(٢) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٦/ ١٨٨، لباب التأويل، الخازن ٣/ ١٧٤، اللباب في علوم الكتاب ١٢/ ٥٤٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٦٧.

(٣) مفاتيح الغيب ٢١/ ٤٩٢.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٦٨.

(٥) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٤٩٢، أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ٢٩٠.

(٦) انظر: لباب التأويل، الخازن ٣/ ١٧٤.

(٧) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٣/ ٣٣٦، الكشاف، الزمخشري ٢/ ٧٤٢، روح المعاني، الألوسي ٨/ ٣٣٦، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٦٨.

﴿أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ۝٣٧﴾ [إبراهيم:٣٧].

وهذا كقوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ۝٣٨﴾ [آل عمران:٣٨].

وقد بين الله تعالى أن على الإنسان أن يدعو إذا بلغ أربعين سنة بأن يصلح الله له في ذريته.

قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۝١٥﴾ [الأحقاف:١٥].

والمعنى: أي اجعل الصلاح ساريًا في ذريتي راسخًا فيهم، وعبر بـ﴿فِي﴾ في قوله: ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ ليفيد سريان الصلاح فيهم وكونهم كالظرف له لتمكنه فيهم، وإلا فكان الظاهر وأصلح لي ذريتي[(١)].

(١) روح المعاني، الألوسي ١٣/ ١٧٦، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/ ٤٤٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢٥٩، محاسن التأويل، القاسمي ٨/ ٤٤٥، التفسير الوسيط، طنطاوي ١٣/ ١٩٢.

وقد روى أبو داود في سننه عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعلمهم أن يقولوا في التشهد: (اللهم ألف بين قلوبنا وأصلح ذات بيننا، واهدنا سبل السلام، ونجنا من الظلمات إلى النور، وجنبنا الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وبارك لنا في أسماعنا وأبصارنا وقلوبنا وأزواجنا وذرياتنا، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم، واجعلنا شاكرين لنعمتك مثنين بها عليك قابليها وأتممها علينا)[(٢)].

ويدل على أن الدعاء من وسائل تأمين حياة اليتامى ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: **(ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن: دعوة الوالد على ولده، ودعوة المسافر، ودعوة المظلوم)** وفي رواية: **(ودعوة الوالد لولده)**[(٣)].

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، رقم ٩٦٩، ١/ ٢٥٤، كتاب الصلاة، باب التشهد.
وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري رقم ٦٣٠، ص ٢٣٥.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، رقم ١٥٣٦، ٢/ ٨٩، كتاب الصلاة، باب الدعاء بظهر الغيب، وابن ماجه في سننه، رقم ٣٨٦٢، ٢/ ١٢٧٠، كتاب الدعاء، باب دعوة الوالد ودعوة المظلوم، والترمذي في سننه، رقم ١٩٠٥، ٤/ ٣١٤، أبواب البر والصلة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في دعوة الوالدين.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٣٠٣١، ١/ ٥٨٢.

ثالثًا: اليتيم والقدر والمجتمع:

إن المصيبة التي حلت بالصبي الصغير هي من قدر الله تعالى الذي لا مفر منه؛ ولهذا اهتمت الشرائع السماوية باليتيم، وبحسن رعايته والمحافظة عليه وعلى حقوقه، ورغبت في إحاطته بالرعاية النفسية والاجتماعية، والتلطف به، وإشعاره بالمودة والرحمة، وجاء في القرآن الكريم أن الله تعالى أخذ الميثاق على بني إسرائيل بالإحسان إلى اليتيم: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ٨٣﴾ [البقرة:٨٣].

وتوضح الآية أنه من جملة بنود الميثاق الإحسان باليتيم.

ومنطلق الشرائع السماوية في الاهتمام باليتيم: هو أن هؤلاء الصغار الأبرياء الذين شاءت الحكمة الإلهية أن يختطف الموت اليد الكفيلة والراعية لهم، فتعوضهم بأيد أخرى محسنة تحوطهم بكل معنى الرعاية والمحبة، فجعلت الرحمة والعناية من جملة القواعد التي يتركز عليها دين الله القويم.

والشريعة الإسلامية هي الأكثر رعاية وعناية باليتيم، والأكثر حرصًا على حماية حقوقه، بل لا يوجد كتاب سماوي اهتم باليتيم وحذر من المساس بحقوقه وتوعد على إيذائه كالقرآن الكريم.

والسبب في ذلك أن المجتمع الجاهلي كان مجتمعًا ظالمًا يهضم فيه حقوق الضعفاء والنساء والعجزة القاصرين؛ بسبب طبيعة المجتمع القائمة على الغزو والغصب، فقد كان الضعيف عرضة للعدوان واغتصاب الحقوق، فكيف باليتيم الذي لا حامي له؟! وهو غرض لكل طامع وخبيث.

ولأن الإنسان عندما يكون شابا فذاتيته تكون هي الموجودة، لكن كلما تقدم الإنسان في السن تقدمت ذاتية أولاده عنده، ويحرم نفسه ليعطي أولاده، وعندما يرى أن عياله ما زالوا ضعافًا، وجاءت له مقدمات الموت، فهو يحزن على مفارقة هؤلاء الضعاف، فيوضح الحق لكل عبد طريق الأمان: إنك تستطيع وأنت موجود أن تعطي للضعاف قوة، قوة مستمدة من الالتحام بمنهج الله وخاصة رعاية ما تحت يدك من يتامى، بذلك تؤمن حياة أولادك من بعدك وتموت وأنت مطمئن عليهم[(١)].

ولأن الله يريد من خلقه أن يستقبلوا قدر الله فيمن يحبون وفي من يحتاجون إليهم برضا، فإذا كان الطفل صغيرًا يرى أباه يسعى في شأنه ويقدم له كل جميل في الحياة وبعد ذلك يموت، فإن كان هذا الصغير قد رأى

(١) انظر: تفسير الشعراوي ٤/ ٢٠٢١.

واحدًا مات أبوه، وكفله المجتمع الإيماني الذي يعيش في كفالة عوضته عن أب واحد بآباء إيمانيين متعددين، فإذا مات والد هذا الطفل فإنه يستقبل قدر الله وخَطْبِهِ بدون فزع.

فالذي يجعل الناس تستقبل الخطوب بالفزع والجزع والهلع أنهم يرون أن الطفل إذا ما مات أبوه وصار يتيمًا فإنه يضيع، ويقول الطفل لنفسه: إنَّ أبي عندما يموت سأصير مضيعًا، لكن لو أن المجتمع حمي حق اليتيم، وصار كلُّ مؤمن أبًا لليتيم، وكلُّ مؤمنة أمًّا لليتيم، لاختلف الأمر، فإذا ما نزل قضاء الله في أبيه، فإنه يستقبل القضاء برضا وتسليم[1].

ويقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾﴾ [النساء:٩].

إنَّ عليهم بالإحسان إلى اليتيم، فلو رأى الواحد منا يتيمًا يكرم في بيئة إيوائية إيمانية لما شغل نفسه، ولما خاف أن يموت ويترك ولدًا صغيرًا، بل يقول الإنسان لنفسه: إنَّ المجتمع فيه خير كثير، وبذلك يستقبل الإنسان قدر الله بنفس راضية، ولا يؤرق نفسه؛ لأنك إن رأيت المجتمع الإيماني قد رعى أيتام غيرك، فستكون على ثقة من أنه يرعى أيتامك، فإن جاء الموت أو لم يأت فلا تشغل نفسك به، لكن إذا رأى الإنسان يتيمًا مضيعًا، فهو يعض على أسباب الحياة ويريد أن يأتي بالدنيا كلها لولده، ونقول لمثل هذا الأب: اعمل لابنك بأن تضع ما تريد أن تدخره له في يد الله؛ لأنَّ الذي خلق آمنُ مِنَ المخلوق[2].

وحقيقة التشريع الإلهي الحكيم منذ أربعة عشر قرنًا، تأتي فوق كلِّ ما تتطلع إليه آمال الحضارات الإنسانية كلها، فاهتمام الشخص باليتامى الصغار الذين خاف عليهم من قبله من الضياع يؤدي إلى أن يأتي من يحفظ أولاده الصغار من بعده ،كذلك مما يحقق كمال التكامل الاجتماعي بأبهى معانيه، المنوه عنه في الآية الكريمة: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾﴾ [النساء:٩].

فجعل كافل اليتيم اليوم، إنما يعمل حتى يكفل أيتامه فيما بعد لو ترك ذرية ضعافًا، كما يحبون أن يعامل غيرهم أيتامهم من بعدهم[3].

وصارت قضية اليتم والضعف والفقر بهذا القدر قضية إسلامية عظيمة من حيث إنها أوسع أبواب رحمة الله تعالى وأعظم

(١) انظر: المصدر السابق ٤/ ٢٠٢١.

(٢) انظر: المصدر السابق ٤/ ٢٠٢١.

(٣) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٥٦٩.

فضائل العبادة، وأرجاها ولا أعظمها من إعانة اليتيم والضعيف والأرملة والمسكين، والنبي صلى الله عليه وسلم جعل قضية اليتيم شريعة وبابًا واسعًا من أبواب العبادة في هذا الدين، من هنا نقول: النبي صلى الله عليه وسلم أمرنا بأن نتحمل البلاء، وأمرنا أن نشكر الله على النعم.

وبهذا القدر النصر والرزق، فقد روى مصعب بن سعد، قال: رأى سعد رضي الله عنه أنَّ له فضلًا على من دونه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: **(هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم)**[(١)].

وبهذا القدر لين للقلوب وإدراك للحاجات، فعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال أتى النبي صلى الله عليه وسلم رجل يشكو قسوة قلبه قال: **(أتحب أن يلين قلبك وتدرك حاجتك ارحم اليتيم، وامسح رأسه، وأطعمه من طعامك يلن قلبك وتدرك حاجتك)**[(٢)].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٢٨٩٦، ٤/ ٣٦، كتاب الجهاد والسير، باب من استعان بالضعفاء والصالحين في الحرب.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٩٠١٨، ١٤/ ٥٥٨.
وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب رقم ٢٥٤٤، ٢/ ٣٤١.

يتم النبي صلى الله عليه وسلم

لقد شاء الله عز وجل أن ينشأ الرسول صلى الله عليه وسلم يتيمًا بعيدًا عن تربية أبيه وأمه وجده؛ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد فقد أبويه، وهو صغير؛ لأن أباه توفي وهو حمل، وقيل: بعد ولادته بشهرين، وتوفيت أمه، وهو ابن ست سنين، وكفله جده عبد المطلب، ثم مات جده، وهو ابن ثمان سنين، ثم كفله عمه أبو طالب، وقضى معظم فترة طفولته الأولى ببادية بني سعد بعيدًا عن أسرته كلها[(٣)].

ولقد مَنَّ الله تعالى على نبيه بنعمة الإيواء من اليتم، قال سبحانه: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦﴾ [الضحى:٦].

أي: يتيمًا ليس له أبٌ يرحمه، ولا أمٌّ ترأمه، أي: تحبه وتحنو وتعطف عليه، فجعل لك مأوى، تأوي إليه عند عمك أبي طالب، فكفلك[(٤)].

وبعبارة أخرى: ألم يجدك يتيمًا صغيرًا فقيرًا ضعيفًا حين مات أبواك، ولم يخلفا لك مالًا، ولا مأوى، فجعل لك مأوى تأوي إليه، ومنزلًا تنزله، وضمك إلى عمك أبي طالب

(٣) انظر: جوامع السيرة، ابن حزم ص ٦، الروض الأنف، السهيلي ٢/ ١١٨.

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٠/ ٩٦، فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٥٥٨.

حتى أحسن تربيتك، وكفاك المؤونة[1]، فهو لك مأوى لتربيتك، وقيِّمًا يحنو عليك ويكفلك، ثم جعلك مأوى الأيتام بعد أن كنت يتيمًا، وكفيل الأنام بعد أن كنت مكفولًا، تذكيرًا بنعمه عليه[2].

وعن مجاهد في معنى الآية: ألم يجدك واحدا في شرفك لا نظير لك، فآواك الله بأصحاب يحفظونك ويحوطونك، فجعل يتيمًا من قولهم: درة يتيمة، وهو بعيد جدًّا[3].

قالت الدكتورة عائشة بنت الشاطىء: «وأمام هذا التتبع، لا نملك إلا أن نستبعد تفسير اليتم بغير ذاك الذي في القرآن، وقد ولد محمد يتيمًا، ثم تضاعف يتمه بموت أمه وجده، لكنه تعالى نجاه من آثار اليتم التي هي بشواهد من آيات الكتاب الكريم: الدع والقهر، والانكسار والجور، مما كان مظنة أنْ يكسر نفسه، فذلك هو قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦﴾ [الضحى:٦].

ترشيحا بهذا الإيواء الإلهي - غير المقيد بمتعلق - إلى ما بعده من نعمة الهداية بعد حيرة وضلال، وتهيئة لحمل الرسالة الكبرى»[4].

الحكمة من يتم النبي صلى الله عليه وسلم:

إن في يتمه صلى الله عليه وسلم حكمًا كبيرة وكثيرة، منها على سبيل المثال:

١. من أبرز الحكم أن لا يكون للمبطلين سبيل إلى إدخال الريبة في قلوب اليتامى، ولعل في يتمه صلى الله عليه وسلم أسوة للأيتام في كل زمان ومكان؛ ليعرفوا أن اليتم ليس نقمة، بل تكريمًا لليتامى فقد شاء الله تعالى أن يكون نبيه ومصطفاه محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم يتيمًا.

٢. تقوية عزيمته على فضيلة التوكل على مولاه سبحانه، فإذا حزبه أمر لا يقول: أبي ولا أمي ولكن يقول: ربي الله تعالى.

٣. أن يكرم اليتامى في شخصه، فإن الطفل من أطفال المسلمين إذا نشأ يتيمًا ورأى الأطفال ينعمون بآبائهم، فإن سلوته في أن الرسول صلى الله عليه وسلم نشأ يتيمًا، ومن هنا يهون عليه يتمه ما دام فيه شبه بالنبي صلى الله عليه وسلم[5].

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٤٨٧، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٥/ ٣٣٩، الكشف والبيان، الثعلبي ١٠/ ٢٢٥.

(٢) النكت والعيون الماوردي ٦/ ٢٩٣.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٤٨٧، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٥/ ٣٣٩، الكشف والبيان، الثعلبي ١٠/ ٢٢٥، المفردات، الراغب ص ٨٨٩، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٥/ ٣٨٠.

(٤) التفسير البياني للقرآن الكريم ١/ ٤٣.

(٥) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٤٠١، أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٥٥٩، التفسير

٤. حتى لا يكون لأحد كائن من كان فضل عليه فيما هو فيه من نعمة؛ لأن فضله مستمد من الله تعالى مباشرة، وليس من إنسان؛ ولذلك قيل لمحمد بن جعفر الصادق: لم أوتم النبي صلى الله عليه وسلم من أبويه؟ فقال: لئلا يكون لمخلوق عليه حق.

٥. الوصية باليتامى؛ لأنه نشأ يتيمًا وقاسى آلام اليتم، والحكمة في يتم النبي صلى الله عليه وسلم أن يعرف قدر الأيتام، فيقوم بأمرهم، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كافل اليتيم له أو لغيره أنا وهو كهاتين في الجنة) وأشار مالك بالسبابة والوسطى [(١)].

والناظر في ابتلاءاته صلى الله عليه وسلم باليتم بفقد أبويه، يجد أن فيه تعليمًا وتوجيهًا لأولئك الأيتام من أمة محمد صلى الله عليه وسلم إلى قيام الساعة؛ بأن يحتمل أولئك ابتلاء اليتم ويصبروا عليه، وأن يتذكروا أنهم ليسوا هم الأيتام فقط، فقد كان خير الناس وسيد ولد آدم محمد صلى الله عليه وسلم يتيمًا.

وفي تذكر هذا والنظر فيه ما يخفف الآلام الكثيرة التي يجدها اليتيم في حياته، وما تجده أم اليتامى التي تقوم عليهم في حياتها قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦﴾ [الضحى:٦].

إن يتم رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا اليتم الذي كان مركبًا ومتعددًا ومتواصلًا، وكان مقصودًا من رب العالمين، لأنه حلقة مهمة في سبيل إعداد النبي صلى الله عليه وسلم للرسالة، وكل الأحداث والحوادث التي مر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو التي مرت به منذ ولادته إلى بعثته كانت جميعًا تصب في خانة إعداده لذلك النبأ العظيم.

هذا اليتم بعد أن رأى ألمه صلى الله عليه وسلم أصبحت له باليتم قاعدة أساسية فطرية جبلية في سجاياه، من حيث تعامله مع الضعفاء والمساكين والأيتام والأرامل والمذنبين وأهل الخطايا، وما من نبي عليه السلام تعامل مع الخطائين والضعفاء كما تعامل معهم صلى الله عليه وسلم بشهادة الله عز وجل في قوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ۝١٥٩﴾ [آل عمران:١٥٩].

القرآني للقرآن، الخطيب ١٦/ ١٦٠٨.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، رقم ٢٩٨٣، ٤/ ٢٢٨٧، كتاب الزهد والرقائق، باب الإحسان إلى الأرملة والمسكين واليتيم.

الإحسان إلى اليتيم

في هذا العنوان سيتم الحديث عن الحث على الإحسان إلى اليتامى، وعن مخالطة اليتامى، والتحذير من الإساءة إليهم وذلك فيما يلي:

أولًا: الحث على الإحسان إلى اليتامى:

إن الله تعالى جعل الإحسان إلى اليتيم من بنود المواثيق والعهود التي أخذها الله تعالى على الأمم والشعوب، وألزمهم بها، وحرم عليهم نقضها، فقال في بني إسرائيل: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [البقرة:٨٣].

والآية تشير إلى أن الإحسان حق لليتامى، وليس تفضلا من الناس لأمر الله تعالى بذلك، والإحسان هو فعل ما ينبغي أن يفعل من الخير، والإحسان أعم من الإنعام، والإحسان فوق العدل وذاك أن العدل أن يعطي ما عليه ويأخذ ماله، أما الإحسان فإنه يعطي أكثر مما عليه، ويأخذ أقل مما له.

فتحري العدل لليتيم واجب، وتحري الإحسان ثواب وتطوع، ولكن في هذه الآية الإحسان إلى اليتيم واجب كوجوب العدل معه كما قال تعالى: ﴿وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا﴾ [النساء:١٢٧].

والقسط أن يعطى كل ذي حق منهم حقه، ذكرًا كان أو أنثى، الصغير منهم بمنزلة الكبير، قال ابن عباس رضي الله عنه: يريد بالعدل في مهورهن وفي مواريثهن[١].

قال الشنقيطي في قوله تعالى: ﴿وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا﴾ [النساء:١٢٧].

«القسط: العدل، ولم يبين هنا هذا القسط الذي أمر به لليتامى، ولكنه أشار له في مواضع أخر كقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ [الأنعام:١٥٢].

وقوله: ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾ [البقرة:٢٢٠].

وقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾﴾ [الضحى:٩].

وقوله: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ [البقرة:١٧٧].

ونحو ذلك من الآيات، فكل ذلك فيه القيام بالقسط لليتامى»[٢].

والإحسان إلى اليتامى يعم كل إحسان

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٩/ ٢٦٥، التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ١٢٤.
(٢) أضواء البيان ١/ ٣١٦.

قولي وفعلي مما هو إحسان إليهم، وفيه النهي عن الإساءة إليهم، وللإحسان ضدان: الإساءة، وهي أعظم جرمًا، وترك الإحسان بدون إساءة، وهذا محرم، لكن لا يجب أن يلحق بالأول، وكذا يقال في صلة الأقارب واليتامى والمساكين[1].

والإحسان إلي اليتيم يكون كما يحسن الرجل لوالديه ولذي القربى منه، فقد أمر الله تعالى بذلك وقرنه مع الإحسان للوالدين ولذي القربى.

قال تعالى: ﴿۞ وَٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾ [النساء:٣٦].

وأمر تعالى كذلك بالإحسان إليهم كما يحسن الرجل لأخيه في حال المخالطة.

قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾﴾ [البقرة:٢٢٠].

وأمر سبحانه تعالى أن ينزلهم الرجل منزلة أولاده في الخشية عليهم من الضياع والاحتياط لهم.

قال تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾﴾ [النساء:٩][2].

فالإحسان إلى اليتيم بحسن تربيته وحفظ حقوقه من الضياع، والسر في هذا أن اليتيم لا يجد في الغالب من تبعثه العاطفة على تربيته والقيام بشئونه وحفظ أمواله، والأم وإن وجدت تكون في الغالب عاجزة عن تنشئته وتربيته التربية المثلى، إلى أن الأيتام أعضاء في جسم الأمة، فإذا فسددت أخلاقهم وساءت أحوالهم، تسرب الفساد إلى الأمة جمعاء؛ إذ يصبحون قدوة سيئة بين نشئها، فيدب فيها الفساد ويتطرق إليها الانحلال، وتأخذ في الفناء[3].

كما ربط الله تعالى بين الإحسان إلى اليتيم وبين الأمر بتوحيده.

قال تعالى: ﴿۞ وَٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾ [النساء:٣٦].

وفي هذا دليل على أن عقيدة الأمة لا تكون كاملة وتحت عيونهم يتيم قد أهملوه

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٥٨٣، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٧.

(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٥٦٧.

(٣) انظر: نظم الدرر، البقاعي ١/ ١٥٧، محاسن التأويل، القاسمي ١/ ٣٤٢.

وحرموه العطف والحنان، وهذا التصرف لا يكون إلا حين نقص العقيدة وضعف الإيمان، وذلك يؤدي إلى نشر الأنانية في الأمة، ويجعل كل فرد يهتم بمصالحه الشخصية دون النظر إلى حقوق الآخرين، فلا يوجد دين عند أمة أساءت معاملة اليتيم وأخذت حقوقه وقهرت قلبه وفؤاده[1].

كما أمر الله بالإحسان إلى اليتيم في قربان ماله، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الأنعام:١٥٢].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾﴾ [الإسراء:٣٤][2].

قال عن ابن عباس رضي الله عنه: «يريد: إن كنت وصيًّا فأصلحت ماله، وقمت لله في ضيعته أكلت بالمعروف إن احتجت إليه، وإن كنت غنيًّا عنه فَعُفَّ عن أكله. وقال الزجاج التي هي أحسن: هو حفظ ماله عليه، وتثميره بما يوجد السبيل إليه»[3].

وقال السمعاني في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ «معناه: إلا بالعفة التي هي أحسن، واختلفوا في معناه على أقاويل: أحدها: أن القربان بالأحسن هو حفظ الأصول، وتثمير الفروع، والآخر: أن القربان بالأحسن هو التجارة في ماله، وهذا قريب من الأول، والقول الثالث: أن القربان بالأحسن هو أن لا يخالط مال اليتيم بمال نفسه»[4].

ومن أفضل الإحسان إلى اليتيم إطعامه والإنفاق عليه.

قال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الإنسان:٨].

فقد بين الله تعالى أن من صفات الأبرار إطعام اليتيم، كما تشير الآية إلى أن إطعام اليتيم من واجب المواساة، قال الإمام الرازي: «إنه تعالى ذكر أصناف من تجب مواساتهم، وهم ثلاثة أحدهم: المسكين وهو العاجز عن الاكتساب بنفسه، والثاني: اليتيم وهو الذي مات كاسبه فيبقى عاجزًا عن الكسب لصغره مع أنه مات كسبه، والثالث: الأسير وهو المأخوذ من قومه المملوكة رقبته الذي لا يملك لنفسه نصرًا ولا حيلة، وهؤلاء الذين ذكرهم الله تعالى هاهنا هم

(١) آداب معاملة اليتيم، محمد مجاهد طبل، وإبراهيم بن محمد ص١٤.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٥٨٣، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢٦١، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٧٨.
(٣) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣/ ٢٣٨، التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٣٣٧.
(٤) تفسير السمعاني ٣/ ٢٣٩.

الذين ذكرهم في قوله: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ﴿١٤﴾ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ ﴿١٦﴾﴾ [البلد:١١-١٦][1].

كما أن الإنفاق عليهم من خير ما ينفقه المنفق، قال تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلۡ مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ فَلِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ﴿٢١٥﴾﴾ [البقرة:٢١٥][2].

قال الواحدي: «إن الإنفاق في هذه الآية لا يراد به الصدقة عند الموت، إنما يراد به النفع في الدنيا، والإيثار بما يتقرب به الإنسان إلى الله تعالى، فأخبر الله تعالى أن من قصد ذلك ينبغي له أن يبر بذلك المذكورين في هذه الآية»[3].

وأن ذلك من البر قال تعالى: ﴿۞لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة:١٧٧].

والمراد بالبر في اليتامى هو معاملتهم بالإحسان، وبفعل الواجبات والمندوبات وجميع الطاعات الظاهرة والباطنة، وكل ما يتقرب به إلى الله من الإيمان به وصالح الأعمال؛ لأن اليتامى لا كاسب لهم، وليس لهم قوة يستغنون بها، وهذا من رحمته تعالى بالعباد، الدالة على أنه تعالى أرحم بهم من الوالد بولده، فالله قد أوصى العباد، وفرض عليهم في أموالهم الإحسان إلى من فقد آباؤهم؛ ليصيروا كمن لم يفقد والديه؛ ولأن الجزاء من جنس العمل فمن رحم يتيم غيره، رحم يتيمه[4].

ثانيًا: مخالطة اليتامى:

بين الله تعالى حكم مخالطة اليتيم، بقوله تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعۡنَتَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٢٢٠﴾﴾ [البقرة:٢٢٠].

وكان أهل الجاهلية قد اعتادوا الانتفاع بأموال اليتامى، وربما تزوجوا باليتيمة طمعًا في مالها، أو يزوجها من ابن له؛ لئلا يخرج مالها من يده، ثم إن الله تعالى أنزل قوله:

(١) انظر: مفاتيح الغيب ٣٠/ ٧٤٧.
(٢) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢/ ٤١٦، أضواء البيان ٨/ ٥٦٧.
(٣) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ١/ ٣١٨.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٤/ ٧، نظم الدرر، البقاعي ٢/ ٥٣، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٣.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ۝١٠﴾ [النساء:١٠].

وأنزل في آيات أخرى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ۝٣﴾ [النساء:٣].

وقوله: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ۝١٢٧﴾ [النساء:١٢٧].

وقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ [الأنعام:١٥٢].

فعند ذلك ترك القوم مخالطة اليتامى، والمقاربة من أموالهم، والقيام بأمورهم، فعند ذلك اختلت مصالح اليتامى وساءت معيشتهم، فثقل ذلك على الناس، وبقوا متحيرين إن خالطوهم وتولوا أمر أموالهم استعدوا للوعيد الشديد، وإن تركوا وأعرضوا عنهم اختلت معيشة اليتامى، فتحير القوم عند ذلك فأنزل الله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٢٢٠﴾ [البقرة:٢٢٠].

فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم.

وهذا هو سبب نزول الآية كما رواه ابن عباس، قال: (لما نزلت: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ۝٣٤﴾ [الإسراء:٣٤]. وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ۝١٠﴾ [النساء:١٠].

انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه، فجعل يفضل له الشيء من طعامه فيحبس له حتى يأكله أو يفسد، فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٢٢٠﴾ [البقرة:٢٢٠]. فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم)[1].

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه رقم ٢٨٧١، ٣/ ١١٤ كتاب الوصايا، باب مخالطة اليتيم في الطعام، والنسائي في سننه رقم ٣٦٦٩، ٦/ ٢٥٦ كتاب الوصايا، باب ما للوصي من مال اليتيم إذا قام عليه، والحاكم في المستدرك، رقم ٢٤٩٩، ٢/ ١١٣.

قال الحاكم: هذا حديث صحيح ولم يخرجاه. ولم يتعقبه الذهبي.

وقد ذكر المفسرون في المراد بمخالطة اليتيم وجوه:

أحدها: المراد: وإن تخالطوهم في الطعام والشراب والمسكن والخدم فإخوانكم، والمعنى: أن القوم ميزوا طعامه عن طعام أنفسهم، وشرابه عن شراب أنفسهم ومسكنه عن مسكن أنفسهم، فالله تعالى أباح لهم خلط الطعامين والشرابين، والاجتماع في المسكن الواحد كما يفعله المرء بمال ولده، فإن هذا أدخل في حسن العشرة والمؤالفة، والمعنى وإن تخالطوهم بما لا يتضمن إفساد أموالهم فذلك جائز.

وثانيها: أن يكون المراد بهذه المخالطة أن ينتفعوا بأموالهم بقدر ما يكون أجره مثل ذلك العمل؛ والقائلون بهذا القول منهم من جوز ذلك سواء كان القيم غنيًّا أو فقيرًا، ومنهم من قال: إذا كان القيم غنيا لم يأكل من ماله لأن ذلك فرض عليه وطلب الأجرة على العمل الواجب لا يجوز، واحتجوا عليه بقوله تعالى: ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف، وأما إن كان القيم فقيرًا فقالوا: إنه يأكل بقدر الحاجة ويرده إذا أيسر، فإن لم يوسر تحلله من اليتيم[1].

القول الثالث: أن يكون معنى الآية أن يخلطوا أموال اليتامى بأموال أنفسهم على سبيل الشركة بشرط رعاية جهات المصلحة والغبطة للصبي.

والقول الرابع: أن المراد بالخلط المصاهرة في النكاح، على نحو قوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا﴾ [النساء:٣] وقوله عز من قائل: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ﴾ [النساء:١٢٧].

وفي هذه الآية دليل على جواز أنواع المخالطات، في المآكل والمشارب، والعقود وغيرها، وهذه الرخصة لطف من الله تعالى وإحسان، وتوسعة على المؤمنين[2].

ويمكن القول بأن الأقوال الأربعة مرادة من تفسير الآية، ولا مانع من العمل بها أو بأحدها بشرط نية الإصلاح والعمل بمقتضى الأخوة في النظر في مصالح اليتيم بالتقويم والتأديب وغيرهما؛ لكي ينشأ على علم وأدب وفضل؛ لأن هذا الصنع أعظم تأثيرًا فيه من إصلاح حاله بالتجارة، ويدخل فيه أيضًا إصلاح ماله كي لا تأكله النفقة من جهة التجارة، ويدخل فيه أيضًا معنى قوله تعالى: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ

(١) انظر: تفسير السمعاني ١/ ٢٢١، تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ٤٥٣، معالم التنزيل، البغوي ١/ ٢٨٣، الكشاف، الزمخشري ١/ ٢٦٣، مفاتيح الغيب، الرازي ٦/ ٤٠٤

تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٣٥.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٦/ ٤٠٥.

﴿بِالطَّيِّبِ﴾ [النساء:٢].

ومعنى قوله: ﴿خَيْرٌ﴾ يتناول حال المتكفل، أي: هذا العمل خير له من أن يكون مقصرًا في حق اليتيم، ويتناول حال اليتيم أيضًا، أي: هذا العمل خير لليتيم من حيث إنه يتضمن صلاح نفسه، وصلاح ماله، فهذه الكلمة جامعة لجميع مصالح اليتيم والولي[(١)].

ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ أي: يعلم من قصده ونيته الإفساد أو الإصلاح، وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: ولو شاء الله لضيق عليكم وأحرجكم، ولكنه وسع عليكم، وخفف عنكم، وأباح لكم مخالطتهم بالتي هي أحسن، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام:١٥٢].

بل جوز الأكل منه للفقير بالمعروف، إما بشرط ضمان البدل لمن أيسر، أو مجانا[(٢)].

ثالثًا: التحذير من الإساءة لليتامى:

نهى الله سبحانه وتعالى صراحة عن الإساءة إليهم كما في قوله جل شأنه: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩﴾ [الضحى:٩].

والمعنى: قال مجاهد: «لا تحقر اليتيم، فقد كنت يتيما. فلا تظلمه ولا تأخذ حقه وتتقوى به، وقال الفراء والزجاج: لا تقهره على ماله، فتذهب بحقه لضعفه، وكذا كانت العرب تفعل في أمر اليتامى: تأخذ أموالهم، وتظلمهم حقوقهم، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحسن إلى اليتيم ويبره، ويوصي باليتامى»[(٣)].

ودلت الآية على اللطف باليتيم، وبره والإحسان إليه، حتى قال قتادة: «كن لليتيم كالأب الرحيم»[(٤)].

قالت عائشة بنت الشاطىء: «ونرى الإيحاء النفسي للكلمة القرآنية ﴿فَلَا تَقْهَرْ﴾ أعمق وأدق من أن يضبط بهذه التفسيرات المحدودة، فلا الظالم، ولا التسلط بما يؤذى، ولا منع الحق، ببالغ في التأثير ما يبلغه قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقْهَرْ﴾ إذ يجوز أن يقع القهر مع إنصاف اليتم، وإعطائه ماله، وعدم التسلط عليه بالأذى؛ لأن حساسية اليتم بحيث تتأثر بالكلمة العابرة، واللفتة الجارحة عن غير قصد، والنبرة المؤلمة بلا تنبه، وإن لم يصحبها تسلط بالأذى أو غلبة

(١) انظر: المصدر السابق ٦/ ٤٠٦.

(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي ١/ ٢٨٠، أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ٢١٥، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ٣٥٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٣٥، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٩٩.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٤٨٨، التفسير الوسيط، الواحدي ٤/ ٥١١.

(٤) انظر: تفسير السمعاني ٦/ ٢٤٦ مفاتيح الغيب الرازي ٣١/ ٢٠٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٠/ ١٠٠، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٤١٣.

على ماله وحقه»[1].

ويبين لنا الله سبحانه وتعالى حقيقة مزعجة للغاية تغيب عن بعض الناس، حيث أخبرنا بأن إذلال اليتيم والاشتداد عليه من الكفر والتكذيب بالدين؛ لقوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢﴾ [الماعون:١-٢]. يدفعه عن حقه دفعًا بعنف وجفوة[2].

أي: إن الذي يكذب بالدين هو الذي يدفع اليتيم دفعًا بعنف أي: الذي يهين اليتيم ويؤذيه. والذي لا يحض على طعام المسكين ولا يوصي برعايته. فلو صدق بالدين حقًا، ولو استقرت حقيقة التصديق في قلبه ما كان ليدع اليتيم، وما كان ليقعد عن الحض على طعام المسكين[3].

وقد أخبر تعالى أنه يهين من لم يكرم اليتيم.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۝١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ۝١٦ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ۝١٧﴾ [الفجر:١٥-١٧].

قال الإمام ابن جرير الطبري في تفسير الآية: «يقول تعالى ذكره: بل إنما أهنت من أهنت من أجل أنه لا يكرم اليتيم، فأخرج الكلام على الخطاب، فقال: بل لستم تكرمون اليتيم، فلذلك أهنتكم»[4].

فأخبر أن الإكرام والإهانة لا تدور على المال وسعة الرزق، ولكن الفقر والغنى بتقديره فيوسع على الكافر لا لكرامته، ويقدر على المؤمن لا لهوانه، إنما يكرم المرء بطاعته ويهينه بمعصيته، وأن سبب ذلك عدم إكرام اليتيم[5].

قال الإمام الرازي: «واعلم أن ترك إكرام اليتيم على وجوه أحدها: ترك بره، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ والثاني: دفعه عن حقه الثابت له في الميراث وأكل ماله، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا﴾ والثالث: أخذ ماله منه وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ أي: تأخذون أموال اليتامى وتضمونها إلى أموالكم»[6].

يمكن القول بأن النهي عن الإساءة إلى اليتامى يفهم بطريق غير مباشر من كل ما سبق ذكره بشأنهم: من الأمر برحمتهم والإحسان إليهم، وكفالتهم، وإعطائهم من الصدقة، وإصلاحهم ومخالطتهم، وكذلك صون أموالهم والاتجار فيها وتزكيتها.

(١) انظر: التفسير البياني للقرآن الكريم ١/ ٥٢.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/٦٢٩، التفسير الوسيط، الواحدي ٤/٥٥٨، أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ٣٤١.
(٣) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٩٨٥.
(٤) انظر: جامع البيان ٢٤/ ٤١٣.
(٥) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٥/ ٢٥١.
(٦) انظر: مفاتيح الغيب ٣١/ ١٥٧.

مال اليتيم

سيتناول هذا العنوان أمورًا تتعلق بمال اليتيم وهي: حق اليتيم في التملك، ومصادر أموال اليتامى، وحفظ ماله، التحذير من أكل ماله، اختبار اليتامى في حسن التصرف وإيتاؤهم أموالهم، وذلك فيما يأتي:

أولًا: حق اليتيم في التملك:

قرر القرآن الكريم حق اليتيم في تملك المال، وبين وشدد في أحكام هذا المال في عدد من الآيات الكريمة.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۖ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الأنعام:١٥٢].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۚ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ۖ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾﴾ [الإسراء:٣٤].

وقال عز وجل: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾﴾ [النساء:٦].

وفي تفسير هذه الآيات تعرض المفسرون لمال اليتيم وأحكامه من وجوب حفظه وصونه، وتثميره ودفعه لليتيم عند بلوغه، وتحريم أكله، مما يدل على أن اليتيم له حق تملك مال[١].

ثانيًا: مصادر أموال اليتامى:

هناك مصادر متعددة لأموال اليتيم أهمها:

١. الميراث.

وهذا أكثر أسباب التملك للمال عند اليتيم، وأوسعها انتشارًا، وأساس ذلك قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء:١١].

وقوله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾﴾ [النساء:٧].

وهذه الآيات تبين أن لليتيم نصيبه في ميراث من مات وخلف ورثة منهم اليتيم، وأخبر الله تعالى أن ما خلفه الميت بين ورثته، على حد سواء صغار ولد الميت وكبارهم وإناثهم، إذا لم يكن له وارث غيرهم، للذكر مثل حظ الأنثيين[٢].

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٢٢٤، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣/ ٢٣٨، التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٣٣٧، تفسير الراغب الأصفهاني ٣/ ١١٠٨، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٣٦٢.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ٣١، معاني

٢. الصدقات والتبرعات.

وتعتبر الصدقة على اليتيم من أفضل وجوه البر.

قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾﴾ [البقرة:٢١٥][1].

وكذلك الهبات والوصايا والوقف تعتبر من مصادر اليتيم المالية، سواء أكان ذلك من الأفراد أو المؤسسات أو الجمعيات أو الدولة.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُولُوا ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾﴾ [النساء:٨][2].

٣. الزكاة.

إن اليتامى يدخلون في الفقراء دخولا أوليا، بل هم الفقراء الصغار الذين يقدمون على الفقراء البالغين؛ لكونهم عاجزين عن التكسب والعمل، فيكون نصيب اليتامى داخلًا في سهم الفقراء والمساكين.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾ [التوبة:٦٠][3].

٤. الفيء والغنيمة.

فلليتامى نصيبهم من الفيء، وهو عند الفقهاء: هو ما يحل أخذه من أموال الكفار بلا قتال كالخراج والجزية وهو لكافة المسلمين ولا يخمس.

قال تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾ [الحشر:٧][4].

وكذلك نصيبهم من الغنيمة بعد تخميسها وهي المال الذي يناله المسلمون من عدوهم بالسعي وإيجاف الخيل والركاب.

قال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

القرآن وإعرابه، الزجاج ٢/ ١٥، النكت والعيون، الماوردي ١/ ٤٥٨، مفاتيح الغيب، الرازي ٩/ ٥٠٨.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٤/ ٢٩١، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢/ ٤١٦، الكشاف، الزمخشري ١/ ٢٥٧، المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٢٨٨. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٢٨.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣٠/ ٧٤٧، تفسير السمعاني ٦/ ٢٣٠، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٣٥٥.

(٣) انظر: أحكام القرآن، الجصاص ٣/ ٨٣، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ١٣١.

(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٥/ ٤٨٥.

﴿٤١﴾ [الأنفال:٤١].

أي: أن الخمس الذي للإمام يكون خمسه لليتامى بنص هذه الآية[1].

٥. الكفالة المالية لليتيم.

وذلك بأن ينفق قريب على اليتيم، أو شخص متبرع على اليتيم، ومن الصور المعاصرة كفالة اليتيم من الأشخاص أو المؤسسات، وتعتبر هذه الكفالة من مصادر اليتيم المالية.

وتعتبر كفالة اليتيم من مسؤوليات المجتمع المسلم كله في أي مكان وأي زمان، وهو فرض كفاية على الأمة فإن تركت الأمة كفالة اليتيم أثمت جميعها[2].

وتعتبر كفالة اليتامى من المسلمين وغير المسلمين في البلاد الفقيرة نوعًا من التعاون على البر والتقوى، الذي أمر به الله تعالى في كتابه العزيز.

قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة:٢][3].

[انظر: التبني: كفالة اليتامى]

ثالثًا: حفظ مال اليتيم:

أمر الله تعالى بحفظ مال اليتيم، وصيانته وتنميته وتكثيره، بكل الوسائل التي تؤدي إلى حفظ ماله وتمنع من هلاكه بمرور الزمن عليه.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ [الأنعام:١٥٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾﴾ [الإسراء:٣٤].

فقد نهى الله سبحانه وتعالى عن قربان مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن، وهي بالعفة، واختلفوا في معناه على أقاويل:

أحدها: أن القربان بالأحسن هو حفظ الأصول، وتثمير الفروع، قال القرطبي: «أي: بما فيه صلاحه وتثميره، وذلك بحفظ أصوله وتثمير فروعه، وهذا أحسن الأقوال في هذا»[4].

والثاني: أن التي هي أحسن التجارة له بماله، وهذا قريب من الأول.

والقول الثالث: أن القربان بالأحسن هو أن لا يخالط مال اليتيم بمال نفسه إلا على سبيل الإصلاح[5].

وهذا نهي عن القرب الذي يعم وجوه التصرف، وفيه سد الذريعة، ثم استثنى ما يحسن وهو التثمير والسعي في نمائه، بالتجارة فيه[6].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ١.

(٢) القواعد، ابن رجب الحنبلي ص٢٢٨.

(٣) انظر: حقوق اليتيم في الفقه الإسلامي، تسنيم جمال استيتي ص٦٥.

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ١٣٤.

(٥) انظر: النكت والعيون الماوردي ٣/ ٢٤١.

(٦) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٣٣٧،

رابعًا: التحذير من أكل مال اليتيم:

إن أكل مال اليتيم جريمة من أرذل الجرائم، لا يتجرأ عليها إلا الأنذال الذين قست قلوبهم، ونزعت منها عاطفة الرحمة والإنسانية؛ لما يترتب عليها من الأضرار البالغة بحق اليتيم الذي لا ناصر ولا كافي له؛ ولذلك حرم القرآن أكل مال اليتيم، وتوعد من يأكله بالعذاب الأليم، ليس في الآخرة فحسب، بل هم يتجرعون نارًا محرقة في بطونهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [النساء: ١٠].

أي: إن الذي أكلوه نارا تتأجج في أجوافهم، وهم الذين أدخلوها في بطونهم، ﴿وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ أي: نارًا محرقة متوقدة، وهذا أعظم وعيد ورد في الذنوب، يدل على شناعة أكل أموال اليتامى وقبحها، وأنها موجبة لدخول النار، فدل ذلك أنها من أكبر الكبائر[(١)].

والآية تشير إلى أن مال اليتيم نار تحرق كل من يمد إليه يدًا خائنة، أو يدسه في بطن شرهة، فمن أكل منه احترق به في الدنيا، وصَلَى به عذاب جهنم في الآخرة[(٢)].

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٦٦.

(٢) انظر: التفسير القرآني للقرآن، الخطيب

المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٣٦٢.

وأكل مال اليتيم كبيرة من الكبائر، وموبقة من الموبقات فقد جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (اجتنبوا السبع الموبقات) قيل: يا رسول الله، وما هن؟ قال: (الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات)[(٣)].

وقد اتفق العلماء أن الآية شملت في النهي عن أكل أموال اليتامى كل ما فيه إتلاف أو تفويت، سواء كان بأكل حقيقة، أو باختلاس، أو بإحراق، أو إغراق، إذ لا فرق في ضياع مال اليتيم عليه بين كونه بأكل أو إحراق بنار أو إغراق في ماء حتى الإهمال فيه، فهو تفويت عليه وكل ذلك حفظًا لماله[(٤)].

وفي آية أخرى بين سبحانه أن أكل مال اليتيم إثم عظيم ووزر جسيم، وأن ذلك استبدال للطيب بالخبيث قال تعالى:

٢/ ٧٠٨.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوصايا، باب قول الله تعالى: (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما، إنما يأكلون في بطونهم نارًا وسيصلون سعيرًا)، رقم ٢٧٦٦، ٤/ ١٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، رقم ٨٩، ١/ ٩٢.

(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٩/ ٥٠٦، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢/ ٧، أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٥٦٥.

﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾﴾ [النساء:٢].

قال ابن عباس: «أي: إثمًا كبيرًا عظيمًا»[1].

قال الماوردي: ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ﴾ «فيه أربعة تأويلات:

أحدها: الحرام بالحلال، وهو قول مجاهد.

والثاني: هو أن يجعل الزائف بدل الجيد، والمهزول بدل السمين وهو قول ابن المسيب والزهري والضحاك والسدي.

والثالث: هو استعجال أكل الحرام قبل إتيان الحلال، وهو معنى قول مجاهد.

والرابع: أن أهل الجاهلية كانوا لا يورثون الصغار والنساء ويأخذه الرجل»[2].

وينهى تعالى عن أكل أموال اليتامى من غير حاجة ضرورية إسرافًا وبدارًا، أي: مبادرة قبل بلوغهم.

قال تعالى: ﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾﴾ [النساء:٦][3].

وأصل الإسراف: تجاوز الحد المباح إلى ما ليس بمباح، وأما البدار فهو: أكل مال اليتيم قبل أن يكبر، فيحول بين الآكل وبين ماله[4]، والمعنى: لا تأكلوا أموال اليتامى أكل إسراف وأكل مبادرة لكبرهم، أو: لا تأكلوا لأجل السرف، ولأجل المبادرة، أو: لا تأكلوها مسرفين ومبادرين لكبرهم، وتقولوا: ننفق أموال اليتامى فيما نشتهي قبل أن يبلغوا فينتزعوها من أيدينا[5].

وفي الجملة ففي الآية نهي للأغنياء من الأولياء أن لا يأخذوا لأنفسهم من أموال اليتامى شيئًا، وللفقراء منهم أن لا يأخذوا منها شيئًا بغير المعروف، كما أن قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟﴾ يدل على أنه نهي للفريقين عن أكلها إسرافًا ومبادرة لكبرهم.

وقد رخص القرآن الكريم للوصي أن يأكل من مال اليتيم من غير إسراف ولا تبذير، إن كان فقيرًا وقيد هذا الأكل بالمعروف، فيجوز في حال الحاجة والاعتدال بمثابة أجر له بقدر عمله وخدمته، فإن كان الوصي غنيًّا فلا يأكل منه، وعليه أن يتعفف، وإن كان فقيرًا محتاجًا فليأكل الوصي بالمعروف شرعًا وعرفًا بلا إسراف ولا تبذير، قال عمر

(١) انظر: تفسير السمعاني ١/ ٣٩٥، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٨٢، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٦٣.
(٢) النكت والعيون ١/ ٤٤٧.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٨٩.
(٤) انظر: النكت والعيون، الماوردي ١/ ٤٥٣.
(٥) انظر: فتح القدير، الشوكاني ١/ ٤٩١.

رضي الله عنه: «إني أنزلت نفسي من مال الله (أي: مال الأمة) منزلة والي اليتيم، إن استغنيت استعففت، وإن احتجت أكلت بالمعروف، فإذا أيسرت قضيت»[1].

وهذا القول رجحه الإمام ابن جرير، حيث قال: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قول من قال: المعروف الذي عناه الله تبارك وتعالى في قوله: ﴿وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾، أكل مال اليتيم عند الضرورة والحاجة إليه، على وجه الاستقراض منه فأما على غير ذلك الوجه، فغير جائز له أكله»[2].

وقال الإمام الشوكاني: «واختلف أهل العلم في الأكل بالمعروف ما هو؟ فقال قوم: هو القرض إذا احتاج إليه ويقضي متى أيسر الله عليه، وبه قال عمر بن الخطاب، وابن عباس، وعبيدة السلماني، وابن جبير، والشعبي، ومجاهد، وأبو العالية، والأوزاعي، وقال النخعي وعطاء والحسن وقتادة: لا قضاء على الفقير فيما يأكل بالمعروف، وبه قال جمهور الفقهاء، وهذا بالنظم القرآني ألصق فإن إباحة الأكل للفقير مشعرة بجواز ذلك له من غير قرض.

والمراد بالمعروف: المتعارف به بين الناس، فلا يترفه بأموال اليتامى، ويبالغ في التنعم بالمأكول، والمشروب، والملبوس، ولا يدع نفسه عن سد الفاقة وستر العورة، والخطاب في هذه الآية لأولياء الأيتام القائمين بما يصلحهم، كالأب والجد ووصيهما. وقال بعض أهل العلم: المراد بالآية: اليتيم إن كان غنيًّا وَسَّعَ عليه وَعُفَّ من ماله، وإن كان فقيرًا كان الإنفاق عليه بقدر ما يحصل له»[3].

﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ أي: فليستعفف بماله عن مال اليتيم فإذا كان الولي فقيرًا يأكل من مال اليتيم بقدر الحاجة، وإلى هذا ذهب قوم من العلماء، أن له أن يأكل بقدر ما يسد به الخلة، وقال الشعبي وجماعة: يأكل من مال اليتيم على سبيل القرض، وقال مجاهد: لا يأكل أصلًا، لا قرضًا، ولا غير قرض[4].

والراجح: أن للولي أو الوصي إن كان فقيرا أن يأكل بالمعروف بحسب العرف والعادة في ذلك، أو على قدر نفعه ومثل أجرته[5].

---

(1) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، رقم ٣٢٩١٤، ٦/ ٤٦٠، والبيهقي في السنن الكبرى، رقم ١١٠٠١، ٦/ ٧.
(2) جامع البيان ٧/ ٥٩٣.
(3) انظر: فتح القدير، الشوكاني ١/ ٤٩١.
(4) انظر: تفسير السمعاني ١/ ٣٩٨.
(5) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ٢٦، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢/ ١٧، النكت والعيون، الماوردي ١/ ٤٥٧.

خامسًا: اختبار اليتامى في حسن التصرف وإيتاؤهم أموالهم:

أمر الله تعالى الأولياء باختبار اليتامى في حسن التصرف وإيتاؤهم أموالهم.

قال تعالى: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾﴾ [النساء:٦].

والمعنى: أيها الأولياء ابتلوا اليتامى إلى ابتداء البلوغ وهو الحد الذي يبلغون فيه سن النكاح، فإن آنستم منهم بعد البلوغ رشدا فادفعوا إليهم أموالهم، وإلا فاستمروا على الابتلاء حتى تأنسوه منهم[1].

والابتلاء: هو الاختبار والامتحان، وذلك بأن يدفع لليتيم المقارب للرشد، الممكن رشده شيئًا من ماله، ويتصرف فيه التصرف اللائق بحاله، فيتبين بذلك رشده من سفهه، فإن استمر غير محسن للتصرف لم يدفع إليه ماله، بل هو باق على سفهه، ولو بلغ عمرًا كثيرًا، فإن تبين رشده وصلاحه في ماله ويبلغ النكاح ﴿فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ كاملة موفرة وأشهدوا على ذلك أهل الثقة والأمانة.

وقوله: ﴿آنَسْتُم﴾ أي: تبينتم وشاهدتم وأحسستم ووجدتم بمعنى واحد.

وفي هذه الآية يدعو سبحانه القومة على اليتامى من أولياء وأوصياء أن يضعوهم دائمًا تحت التجربة والاختبار؛ لسياسة أموالهم، وتدبيرها بأنفسهم، وذلك بأن يشركوهم معهم في بعض التصرفات، ويطلعوهم على طرق الأخذ والعطاء بين الناس، وذلك بتتبع أحوالهم في الاهتداء إلى ضبط الأمور، وحسن التصرف في الأموال وبتمرينهم على ما يليق بأحوالهم حتى لا يجيء وقت بلوغهم إلا وقد صار في قدرتهم أن يصرفوا أموالهم تصريفًا حسنًا، فإن شاهدتم وأحسستم منهم رشدًا أي: صلاحًا في عقولهم، وحفظًا لأموالهم، فادفعوها إليهم من غير تأخير أو مماطلة[2].

وفي آيات أخرى حتى يبلغ اليتيم الأشد.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ [الأنعام:١٥٢].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ [الإسراء:٣٤].

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الكهف:٨٢].

---

(١) انظر: نظم الدرر ٤/ ١٨٨.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٦٤، التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ٢/ ٧٠٣، التفسير الوسيط، طنطاوي ٣/ ٤٣.

والمراد بالأشد في شأن اليتيم في هذه الآيات هو: بلوغ الحلم مع حسن التصرف، وهو المبين في قوله تعالى: ﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ [النساء:٦].

وبلوغ الحلم هو بلوغ النكاح، لكنه مشروط بإيناس الرشد، فكم من كبير غير رشيد ولا يحسن التصرف.

وهذا ما رجحه الإمام الشوكاني حيث قال: «والأولى في تحقيق بلوغ الأشد أنه البلوغ إلى سن التكليف مع إيناس الرشد، وهو أن يكون في تصرفاته بماله سالكًا مسلك العقلاء، لا مسلك أهل السفه والتبذير، ويدل على هذا قوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ فجعل بلوغ النكاح، وهو بلوغ سن التكليف مقيدا بإيناس الرشد»[1].

وقال الإمام ابن العربي في أحكام قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ [الإسراء:٣٤] «يعني: قوته، والأشد كما قلنا في القوة، وقد تكون في البدن، وقد تكون في المعرفة والتجربة، ولا بد من حصول الوجهين، فإن الأشد هاهنا وقعت مطلقة، وجاء بيان اليتيم في سورة النساء مقيدًا، قال تعالى: ﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ۝٦﴾ [النساء:٦].

فجمع بين قوة البدن ببلوغ النكاح، وبين قوة المعرفة بإيناس الرشد، وعضد ذلك المعنى فإنه لو اقتضت الآية تمكين اليتيم من ماله قبل حصول المعرفة له وبعد حصول قوة البدن لأذهبه في شهواته، وبقي صعلوكا لا مال له، وخص اليتيم بهذا الشرط في هذا الذكر لغفلة الناس عنه، وافتقاد الآباء لبنيهم، فكان الإهمال لفقيد الأب أولى»[2].

سادسًا: البلوغ في حق اليتيم:

البلوغ في حق اليتيم يكون بأحد الأمور الآتية:

١. بلوغ الاحتلام، وهو أن يرى في منامه ما ينزل به الماء الدافق الذي يكون منه الولد، وهذا النوع من البلوغ متفق عليه بين العلماء ويشترك فيها الرجال والنساء، وبهذا الاحتلام وبلوغه يزول اسم اليتم عن اليتيم حقيقة، وذلك لما رواه علي رضي الله عنه قال: حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يتم بعد احتلام ولا صمات يوم إلى

(١) فتح القدير ٢/ ٢٠٢.

(٢) أحكام القرآن، ابن العربي ٣/ ١٩٨- ١٩٩.

الليل)[١]. وفي الحديث الآخر عن عائشة وغيرها من الصحابة رضي الله عنهم عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (رفع القلم عن ثلاثة: عن الصبي حتى يحتلم، وعن النائم حتى يستيقظ، وعن المجنون حتى يفيق)[٢].

٢. الحيض والحبل ويختصان بالنساء، فلم يختلف العلماء في أنه بلوغ، وأن الفرائض والأحكام تجب بهما[٣].

٣. السن الذي يعتبر في البلوغ: فهو أن يستكمل خمس عشرة سنة عند جمهور العلماء، وأخذوا ذلك من الحديث الثابت في الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنه، قال: عرضت على النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد وأنا ابن أربع عشرة فلم يجزني، وعرضت عليه يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة فأجازني، فقال عمر بن عبد العزيز لما بلغه هذا الحديث: إن هذا الفرق بين الصغير والكبير[٤]. وذهب الحنفية والمالكية إلى أنه السن المعتبر في البلوغ هو بلوغ ثماني عشر سنة للذكور وسبعة عشرة للإناث[٥].

والراجح من هذه الأقوال هو: ما ذهب إليه جمهور الفقهاء من أن البلوغ يكون بمضي خمس عشرة سنة، وهو الوقت الذي يجب فيه على الأولياء أن يدفعوا إلى اليتيم ماله، إلا أن يشعر الولي بأن اليتيم غير مؤهل لتسلم المال بعد مضي خمس عشرة سنة، فيمكن الانتظار به حتى يبلغ ثماني عشرة سنة؛ عملًا بقول الحنفية والمالكية.

وقد أمر الله تعالى بتوثيق دفع مال اليتيم إليه، قال تعالى: ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ۝٦﴾ [النساء:٦][٦].

أي: فإذا دفعتم أيها الأولياء والأوصياء إلى اليتامى أموالهم فأشهدوا عليهم بقبضها وبراءة ذممكم منها، كي لا يكون بينكم نزاع.

(١) أخرجه أبو داود في سننه، رقم ٢٨٧٣، ٣/ ١١٥، كتاب الوصايا، باب ما جاء متى ينقطع اليتم.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٧٦٠٩، ٢/ ١٢٦١.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، رقم ٤٣٩٨، ٤/ ١٣٩، كتاب الحدود، باب في المجنون يسرق أو يصيب حدًا، والترمذي في سننه، ١٤٢٣، ٤/ ٣٢، أبواب الحدود، باب ما جاء فيمن لا يجب عليه الحد.
وصححه ابن الملقن في البدر المنير ٣/ ٢٢٦، والألباني في صحيح الجامع، رقم ٣٥١٣، ١/ ٦٥٩.

(٣) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢/ ١٤، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ١٠، مفاتيح الغيب، الرازي ٩/ ٤٩٧، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٣٤.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٨٨.

(٥) انظر: أحكام القرآن، ابن العربي ٣/ ١٩٨، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٣٥. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٨٩.

(٦) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٨٩.

وهذا الإشهاد واجب عند الشافعية والمالكية، إذ أن تركه يؤدى إلى التخاصم والتقاضي كما هو مشاهد، وجعله الحنفية مندوبًا لا واجبًا[1].

والراجح من هذه الأقوال: إن الإشهاد عند دفع مال اليتيم إليه واجب، ويمكن كذلك توثيق هذا الدفع بكلِّ الوسائل الممكنة وخاصة بالكتابة من خلال تحرير اليتيم سندات استلام للمال وبحضور الشهود؛ لأن ذلك أدعى لقطع الخصومات والشكوك والدعاوى في المستقبل.

قال الإمام الرازي: «واعلم أنَّ الأمة مجمعة على أنَّ الوصي إذا دفع المال إلى اليتيم بعد صيرورته بالغًا، فإنَّ الأولى والأحوط أن يشهد عليه لوجوه:

أحدها: أن اليتيم إذا كان عليه بينة بقبض المال كان أبعد من أنْ يدعي ما ليس له.

وثانيها: أن اليتيم إذا أقدم على الدعوى الكاذبة أقام الوصي الشهادة على أنه دفع ماله إليه.

ثالثها: أن تظهر أمانة الوصي وبراءة ساحته، فأمره بالإشهاد لتظهر أمانته وتزول التهمة عنه، فثبت بما ذكرنا من الإجماع والمعقول أنَّ الأحوط هو الإشهاد»[2].

ثم ختم الله تعالى هذه الآية بقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾: أي: وكفى الله رقيبًا وشهيدًا عليكم يحاسبكم على ما تسرون وما تعلنون، وقد جاء هذا بعد الأمر بالإشهاد ليرشد المسلمين إلى أنَّ الإشهاد وإنْ أسقط الدعوى بالمال عند القاضي فهو لا يسقط الحقَّ عند الله إذا كان الولي خائنًا، فإنَّ الله لا يخفى عليه ما يخفى على الشهود والحكام[3].

---

(١) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ١٤، النكت والعيون الماوردي ١/ ٤٥٥، تفسير السمعاني ١/ ٣٩٩، الكشاف، الزمخشري ١/ ٤٧٦، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ١١.

(٢) مفاتيح الغيب ٩/ ٥٠٠

(٣) انظر: نظم الدرر ٤/ ١٨٩، أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٥٦٤.

نكاح يتامى النساء

بيَّنَ القرآن الكريم أحكام نكاح يتامى النساء في آيتين وهما:

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ [النساء:٣].

وقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ ۖ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾﴾ [النساء:١٢٧].

ومعنى الآية: وإن خفتم يا أولياء اليتامى أن لا تعدلوا فيهن إذا نكحتموهن، بإساءة العشرة أو بنقص الصداق، فانكحوا غيرهن من الغريبات، فإنهن كثير، ولم يضيق الله عليكم، فالآية للتحذير من التورط في الجور والأمر بالاحتياط، وإنَّ في غيرهن متسعًا إلى الأربع[١].

وقد ورد في تفسير هذه الآيات أحاديث صحيحة منها ما رواه الإمام البخاري بسنده عن عروة بن الزبير أنه سأل عائشة عن قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾، قالت:(يا ابن أختي هذه اليتيمة تكون في حجر وليها تشركه في ماله، ويعجبه مالها وجمالها، فيريد وليها أن يتزوجها بغير أنْ يقسط في صداقها فيعطيها مثل ما يعطيها غيره، فنهوا أن ينكحوهنَّ إلَّا أنْ يقسطوا إليهن. ويبلغوا بهن أعلى سنتهن في الصداق، وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن، قال عروة: قالت عائشة: وإنَّ الناس استفتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية فأنزل الله ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾، قالت عائشة: وقول الله في الآية الأخرى ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ رغبة أحدكم عن يتيمته إذا كانت قليلة المال والجمال، فنهوا أن ينكحوا من رغبوا في ماله وجماله من يتامى النساء إلا بالقسط من أجل رغبتهم عنهنَّ إذا كنَّ قليلات المال والجمال)[٢][٣].

قال الإمام ابن كثير: «والمقصود أن الرجل إذا كان في حجره يتيمة يحل له تزويجها، فتارة يرغب في أن يتزوجها، فأمره الله أن يمهرها أسوة بأمثالها من النساء، فإن لم يفعل فليعدل إلى غيرها من النساء، فقد وسَّعَ الله عز وجل، وهذا المعنى في الآية

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ٥٣١، محاسن التأويل، القاسمي ٣/ ١٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٤٥٧٤، ٦/ ٤٣، كتاب تفسير القرآن، باب (وإن خفتم أن لا تقسطوا في اليتامى)، ومسلم في صحيحه، رقم ٣٠١٨، ٤/ ٢٣١٣، كتاب التفسير، باب (وإن خفتم أن لا تقسطوا في اليتامى).

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٨٣.

الأولى التي في أول السورة، وتارة لا يكون له فيها رغبة لدمامتها عنده أو في نفس الأمر، فنهاه الله عز وجل أن يعضلها عن الأزواج خشية أن يشركوه في ماله الذي بينه وبينها، كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية، وهي قوله: ﴿فِي يَتَامَى النِّسَاءِ﴾ الآية، كان الرجل في الجاهلية تكون عنده اليتيمة فيلقي عليها ثوبه، فإذا فعل ذلك لم يقدر أحد أن يتزوجها أبدًا فإن كانت جميلة وهويها، تزوجها وأكل مالها، وإن كانت دميمة منعها الرجال أبدا حتى تموت، فإذا ماتت ورثها، فحرم الله ذلك ونهى عنه»[1].

فبين الله تعالى في هذه الآية أن اليتيمة إذا كانت ذات جمال أو مال، رغبوا في نكاحها ولم يلحقوها بسنتها بإكمال الصداق، وإذا كانت مرغوبة عنها في قلة المال والجمال تركوها والتمسوا غيرها من النساء، قال: فكما يتركونها حين يرغبون عنها فليس لهم أن ينكحوها إذا رغبوا فيها، إلا أن يقسطوا لها الأوفى من الصداق ويعطوها حقها، فنهوا أنْ ينكحوهنَّ إلا أنْ يقسطوا لهن، ويبلغوا بهن أعلى سنتهن في الصداق، وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن[2].

قال الحسن البصري: «كان الرجل من أهل الجاهلية يكون عنده الأيتام وفيهن من يحل له نكاحها، فيتزوجها لأجل مالها وهي لا تعجبه كراهية أن يدخل غريب فيشاركه في مالها، ثم يسيء صحبتها ويتربص أن تموت ويرثها، فعاب الله تعالى ذلك، وأنزل الله هذه الآية»[3].

ومن خلال ما سبق من الآيات والأحاديث وأقوال المفسرين يمكن تلخيص أحكام نكاح يتامى النساء فيما يأتي:

١. لا يجوز نكاح اليتامى عند خوف عدم العدل، بإجماع الفقهاء والمفسرين.

٢. يجوز نكاح يتامى النساء من وليها بمهر مثلها وبأوفى صداقها مع العدل.

٣. لا يجوز عضل يتامى النساء من الزواج بغير وليها إن كانت دميمة من أجل ألا يخرج ميراثها لغير وليها.

٤. يعتبر في نكاح يتامى النساء ما يعتبر في ذوات الأب من البلوغ والرضا على الراجح من أقوال الفقهاء، ذهب مالك والشافعي وجمهور العلماء إلى أن ذلك لا يجوز حتى تبلغ وتستأمر، لقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾،

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٧٦.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ٥٣١، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٧٦.

(٣) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٧، تفسير السمعاني ١/ ٣٩٥، معالم التنزيل، البغوي ١/ ٥٦٣، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٦، مفاتيح الغيب، الرازي ٦/ ٤٠٤، البحر المحيط، أبو حيان ٣/ ٥٠٣، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٧٦، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/ ٢١٣، أضواء البيان، الشنقيطي ١/ ٢٢١.

والنساء اسم ينطلق على الكبار كالرجال في الذكور، واسم الرجل لا يتناول الصغير، فكذلك اسم النساء والمرأة لا يتناول الصغيرة. وقد قال: ﴿فِي يَتَمَى ٱلنِّسَآءِ﴾ والمراد به هناك: اليتامى هنا، كما قالت عائشة رضي الله عنها، فقد دخلت اليتيمة الكبيرة في الآية، فلا تزوج إلا بإذنها، ولا تنكح الصغيرة إذ لا إذن لها، فإذا بلغت جاز نكاحها، لكن لا تزوج إلا بإذنها[1].

٥. وإذا جاز له أن يتزوجها، فإما أن يلي هو النكاح بنفسه، وإما أن يزوجه إياها أخوها مثلًا إذا بلغت اليتيمة وأقسط الولي في صداقها، جاز له أن يتزوجها، ويكون هو الناكح والمنكح، على ما فسرته عائشة، وبه قال أبو حنيفة، أي أنه يمكن انعقاد الزواج بعاقد واحد. وقال زفر من الحنفية والشافعي: لا يجوز له أن يتزوجها إلا بإذن السلطان، أو يزوجها منه ولي لها غيره؛ لأن الولاية شرط من شروط العقد، لقوله عليه صلى الله عليه وسلم فيما رواه البيهقي عن عمران وعن عائشة: «لا نكاح إلا بولي وشاهدي عدل» فتعديد الناكح والمنكح والشهود واجب، أي: لا بد من تعدد العاقد[2]. ويكون الراجح من أقوال الفقهاء هو قول زفر من الحنفية والشافعي؛ لوجاهة أدلتهما ولمصلحة اليتيمة، فلا بد من تعدد العاقد في نكاح اليتيمة من أجل أن لا تقع في ظلم أو نقص في المهر.

(١) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٧، تفسير السمعاني ١/ ٣٩٥، معالم التنزيل، البغوي ١/ ٥٦٣، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٦، مفاتيح الغيب، الرازي ٦/ ٤٠٤، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٧٦، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/ ٢١٣.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ٥٣١، التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٧، تفسير السمعاني ١/ ٣٩٥، معالم التنزيل، البغوي ١/ ٥٦٣، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٦، مفاتيح الغيب، الرازي ٦/ ٤٠٤، البحر المحيط، أبو حيان ٣/ ٥٠٣، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/ ٢١٣.

حقوق اليتيم على المجتمع والدولة

إنَّ الإسلام بمنهجه القويم وتشريعاته الغراء وتوجيهاته السديدة، اعتنى عناية فائقة باليتيم، فأمر بإكرامه ورعايته، وكفالته والقيام بشؤونه، فأعاد له إنسانيته وكرامته، وأمر بإيصال حقوقه من غير مَنٍّ ولا أذىً، كما أمر بالقسط معه وعدم ظلمه، فحفظ له حقوقه الشخصية مثل: حقوقه المتعلقة بالولادة، وحقه في الحياة، وحقه في النسب والرضاعة والوصاية، وحقه في الرحمة والحب والإشباع العاطفي، وحقه في التربية والتأديب والتعليم واللعب واللهو وغيرها من الحقوق[1].

وكذلك حقوقه المدنية والمالية، كحقه في النفقة والرعاية الصحية والعلاج، وحقه في الجنسية الوطنية، وحقه في حمايته في الحروب والكوارث وغيرها.

وقد اعتنى المسلمون أفرادًا وجماعات بالأيتام، وقامت في بلاد المسلمين مؤسسات ترعى شؤونهم عامة وتحضنهم، وأمر من يقوم عليه بتربيته وتعليمه وإشباعه بالحب والعطف والحنان، كلُّ هذا أعاد لليتيم وضعه اللائق به إنسانيًا[2].

(١) انظر: حقوق اليتيم، تسنيم جمال استيتي ص١.

(٢) انظر: حقوق اليتيم، تسنيم جمال استيتي ص١.

وهذه الحقوق تتوزع بين المجتمع المسلم والدولة على التفصيل الآتي:

أولًا: حقوق اليتيم على المجتمع:

يعتبر القيام برعاية اليتيم والمحافظة على حقوقه وتوفيته إياها من مسؤوليات المجتمع المسلم كله في أي زمان وفي أي مكان، وهو فرض كفاية على الأمة، فإن تركت الأمة كفالة اليتامى أثمت جميعها.

ولقد جند الإسلام المسلمين جميعًا للقيام بحقوق اليتامى والتقرب إلى الله تعالى بالعطف عليهم.

قال تعالى: ﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [النساء:٣٦].

وقوله تعالى: ﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا ۖ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾

[البقرة:١٧٧].

وقوله تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ ﴾ [البقرة:٢١٥].

وقوله عز وجل: ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ ﴾ [الإنسان:٨]وقوله جل شأنه: ﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٨﴾ ﴾ [النساء:٨].

ويلاحظ من خلال الآيات السابقات أن الخطاب للجماعة والمجتمع المسلم بلفظ الجمع بالقيام بحقوق اليتيم، مما يدلُّ على المسؤولية الجماعية في الإسلام، فالمجتمع كله مسؤول عن حقوق اليتامى والضعفاء[١].

والأساس الذي يقوم عليه وجوب حق الأيتام هو الإجماع، وقال إمام الحرمين:«وأجمع المسلمون أجمعون على أنه إذا اتفق في الزمان مضيعون فقراء مملقون تعين على الأغنياء أن يسعوا في كفايتهم»[٢].

وقال الإمام أحمد بن تيمية: «فعلى المسلمين جميعًا أن يطعموا الجائع ويكسوا العاري ولا يَدَعوا بينهم محتاجًا»[٣].

ثانيًا: حقوق اليتيم على الدولة:

إنَّ رعاية الدولة الإسلامية لليتامى من الواجبات الشرعية التي تقوم من أجلها الدول، فيجب على الدول القيام بحقوق اليتامى ورعايتهم والإحسان إليهم ودمجهم في المجتمع، وتوفير فرص العمل لهم بعد تأهيلهم في جميع جوانب الحياة، ويدلُّ على هذا أن المولى جلت قدرته جعل للأيتام نصيبًا في الخمس من الغنائم.

قال تعالى: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ ﴾ [الأنفال:٤١].

أما حصتهم من الفيء فهو عام، فتؤخذ من مجمله لا من خمس الله ورسوله.

قال تعالى: ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾ ﴾ [الحشر:٧].

والغنائم والفيء لا يحصلان إلا بوجود

(١) انظر: آداب معاملة اليتيم، محمد مجاهد طبل، ومحمد بن إبراهيم ص١٥.

(٢) غياث الأمم في التياث الظلم، الجويني ص٢٥٩.

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٨/ ٥٧٦.

دولة، ولهذا كان الواجب عليها القيام بحقوقهم ورعايتهم وتنشئتهم وإعدادهم إعدادًا جيدًا؛ ليخوضوا غمار الحياة بشجاعة وقوة، مثلهم مثل بقية المواطنين.

فإنَّ الدولة معنية بإقامة مؤسسات عامة لكفالة الأيتام، مزودة بأفضل وأحدث وسائل الرعاية والحضانة والتربية والتعليم، يشرف عليها مربون ومربيات متخصصون من الحائزين على المؤهلات التعليمية والتربوية العالية، وذلك لتهيئة وسط اجتماعي وتعليمي وتربوي مليء بالدفء والحنان في جوٍّ أسريٍّ تعويضيٍّ مناسب.

وينبغي على المجتمعات والدول الإسلامية أن لا تترك اليتامى حتى تأتي المؤسسات الأجنبية التي ترعى وتقدم الدعم لرعاية الأيتام؛ لأن تلك المؤسسات قد تحمل في طياتها غايات كثيرة قد تكون منها ما لا ينسجم مع أصولنا الإسلامية، واليتيم طفل من أبناء المسلمين يحتاج إلى من يتحدث إليه ويشكو إليه مشكلاته، وما يدور في مشاعره وآماله وآلامه، متأملًا أنْ يجد صدورًا رحيمة وقلوبًا عامرة برحمة الله والإيمان به؛ ولأن في ذلك ضررًا على هؤلاء اليتامى فيتربوا على المبادئ الغربية ويشعروا بأن الغرب يقدم لهم الرعاية أفضل من المسلمين، مما قد يؤدي بهم إلى اعتناق المبادئ والأفكار الغربية المتعارضة مع الدين الإسلاميِّ الحنيف.

إنَّ الأساس الذي قام عليه وجوب حقِّ اليتامى على الدولة الإسلامية هو ما رواه البخاريُّ عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: (**ما من مؤمن إلا وأنا أولى به في الدنيا والآخرة، اقرؤوا إن شئتم: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾** [الأحزاب:٦]. **فأيما مؤمن مات وترك مالا فليرثه عصبته من كانوا، ومن ترك دينا أو ضياعا، فليأتني فأنا مولاه**)[١].

وكذلك ما أخرجه مسلم عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (**والذي نفس محمد بيده، إنْ على الأرض من مؤمن إلا أنا أولى الناس به، فأيكم ما ترك دينا، أو ضياعا فأنا مولاه، وأيكم ترك مالا، فإلى العصبة من كان**)[٢].

والمراد: بمن ترك(ضياعًا)، أي: عيالًا محتاجين يضيعون إن تركوا[٣].

قال الإمام النووي معناه: «أنا قائم بمصالحكم في حياة أحدكم وموته، وأنا وليه في الحالين، فإن كان عليه دين قضيته

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٢٣٩٩، ٣/ ١١٨، كتاب في الاستقراض وأداء الديون والحجر والتفليس، باب الصلاة على من ترك دينا.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، رقم ١٦١٩، ٣/ ١٢٣٧، كتاب المساقاة، باب من ترك مالا فلورثته.

(٣) فتح الباري، ابن حجر ٥/ ٦١.

من عندي إن لم يخلف وفاء، وإن كان له مال فهو لورثته لا آخذ منه شيئًا، وإن خلف عيالا محتاجين ضائعين فعلي نفقتهم ومؤنتهم»[(1)].

والذي يقوم بمهام النبي في كل وقت وحين هو الحاكم المسلم والدولة المسلمة بمختلف مؤسساتها، فيجب عليها القيام بكفالة ورعاية اليتيم.

وأهم حقوق اليتيم التي يجب أن يقوم بها المجتمع والدولة لليتيم على حد سواء هي:

1. حفظ المال ودفعه لهم.

قال تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ۝٢﴾ [النساء:2].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝١٥٢﴾ [الأنعام:152].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ۝٣٤﴾ [الإسراء:34].

2. الإكرام.

قال تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ۝١٧﴾ [الفجر:17].

3. الإطعام.

يقول تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨﴾ [الإنسان:8].

وقال تعالى: ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝١٥﴾ [البلد:15].

4. الإيواء.

يقول تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦﴾ [الضحى:6].

5. الإحسان.

قال تعالى: ﴿۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ۝٣٦﴾ [النساء:36].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ۝٨٣﴾ [البقرة:83].

6. العدل.

قال تعالى: ﴿وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَـٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا﴾ [النساء:127].

(1) شرح صحيح مسلم، النووي 11/ 61.

اليتامى بين القرآن والقوانين الدولية

تميزت الشريعة الإسلامية بإعطاء اليتامى عناية ورعاية خاصة، ورغبت القادرين من أهل الخير والبر والإصلاح في كفالة اليتامى والإحسان إليهم والعطف والحنان بهم، والعمل على إعدادهم جسميًا ونفسيًا وعقليًا حتى يصيروا رجالًا صالحين يقدمون الخير والنفع لبلدهم وأمتهم.

ولقد اهتم القرآن الكريم مكيُّه ومدنيُّه باليتامى من حيث الإحسان إليهم ورعايتهم والقيام بحقوقهم والمحافظة على أموالهم، والأمر بإكرامهم ومراعاة نفسياتهم، والحث على إطعامهم والإنفاق عليهم، والتحذير من أكل أموالهم، وكذلك جاءت السنة النبوية مؤكدة ومفصلة لما جاء في القرآن الكريم.

فالقرآن الكريم والسنة النبوية لم يتركا شيئًا يتعلق باليتيم في جميع الجوانب إلا وتعرضًا له بالبيان والتفصيل، حتى إنهما لم يتركا شيئا لمستدرك أو معقب.

ولقد سبق القرآن الكريم بذلك الاتفاقيات الدولية التي لم تأت إلا بقليل من كثير، وفيض من غيظ، وقاصر من عام وشامل، مما جاء به القرآن.

واليتيم في الإسلام يتمتع بكافة الحقوق الممنوحة للطفل العاديِّ من غير نقصان، بل إنَّ القرآن أولى اليتامى مزيدًا من الاهتمام في الرعاية والكفالة والإحسان.

ونصَّ القرآن الكريم على حقوق اليتيم في أربع وعشرين موضعًا منه بين فيها حقوق اليتيم وأوجب الإحسان إليه.

قال تعالى: ﴿۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾ [النساء:٣٦].

وأخذ بذلك العهود والمواثيق قبل أن تقرر في الاتفاقيات والمعاهدات الدولية بآلاف السنين.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [البقرة:٨٣].

وقد سبقت تلك الآيات المبينة حقوق اليتيم بما يغني عن إعادتها في هذا المقام والاتفاقيات الدولية الخاصَّة بالطفل اقتصر النصُّ صراحة على حقوق اليتيم على إعلان جنيف لعام (١٩٢٤م)، وذلك في المادة الثانية منه، حيث نصَّ على وجوب إيواء وانقاذ اليتامى، أما إعلان حقوق الطفل

لعام (١٩٥٩م) فلم ينصَّ صراحة على حقوق اليتامى، واكتفى بنصوص مجملة يفهم منها أنها تشمل حقوق الأطفال اليتامى.

ولم تنصَّ اتفاقيات حقوق الطفل على حقوق اللقطاء واليتامى، كما نصت على ذلك الشريعة الإسلامية [١].

كما أن الاتفاقيات الدولية رغم أنها صدَّعَت الرؤوس بكثرة الإعلانات والمواثيق المتعلقة بحقوق الطفولة لم تول عناية كبيرة باليتيم، ولم يذكر حقه إلا في إعلان جنيف، حيث نصَّ في مادته الثانية على وجوب إيواء وإنقاذ اليتامى، وأما إعلانات حقوق الطفل فليس فيها شيء يختصُّ باليتامى، مع أن هذه الإعلانات والمواثيق عُدِّلَتْ وطُوِّرتْ وأقرت في أوج تطور الحضارة والمدنية واهتمامها بتدوين الحقوق، ووضع القوانين.

في مقابل ذلك؛ نجد عشرات النصوص من الكتاب والسنة تعرض لليتامى، وتبين حقوقهم، وتلزم المجتمع برعايتهم، وتأتي على الدقيق مما يجب لهم، وفي القرآن فقط ذكر اليتيم وحقه في أربعة وعشرين موضعًا، عدا ما في السنة من عشرات الأحاديث في ذلك.

ولقد كانت الأديان السماوية وبخاصة الإسلام سباقة إلى إقرار حقوق الأطفال، وتميزت الشريعة الإسلامية وبخاصة الإسلام سباقة إلى إقرار حقوق الطفل، وتميزت الشريعة الإسلامية بالاهتمام بحقوق الطفل من قبل أن يولد، وقبل أن يكون جنينًا في بطن أمه عندما أرشد الزوجين إلى إحسان الاختيار، كما تميزت بفكرة وجوبية هذه الحقوق على الوالدين ثم المجتمع ثم الدولة [٢].

موضوعات ذات صلة

الأبوة، الأسرة، الأمومة، البنوة، التبني، الحقوق، المال، النساء

(١) انظر: حقوق الطفل في الاسلام والاتفاقيات الدولية، سمير خليل محمود ص٢٠١.

(٢) انظر: حقوق اليتيم، تسنيم جمال استيتي ص٨.



عناصر الموضوع

مفهوم اليسر

أولًا: المعنى اللغوي:

تدلُّ كلمة اليسر في اللغة على السهولة واللين والانقياد، والغنى.

ويدلُّ أيضًا على العضو، وهي اليد اليسرى أخت اليمين.

قال في المغرب:«(اليسر) خلاف العسر، (واليسار) اسم من أيسر إيسارًا إذا استغنى»[1].

قال في القاموس المحيط: «اليسر، بالفتح ويحرك: اللين، والانقياد، ويَسَرَ يَيْسَرُ، وياسَرَهُ: لاينه»[2].

قال الجوهري: «يقال يَسَّرَهُ الله لليسرى: أي وفقه لها»[3].

ويقال: قد أَيْسَرْتَ ويَسَرْتَ،ويسر الرجل تيسيرا: سهلت ولادة إبله وغنمه، وأيسر إيسارًا ويُسْرًا: صار ذا غنى، فهو موسر[4].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

لا يختلف المعنى الاصطلاحي عن المعنى اللغوي ، الدال على لينٍ وسهولةٍ وانقيادٍ، أو هو رفع المشقة والحرج عن المكلف بأمر من الأمور لا يجهد النفس ولا يثقل الجسم[5].

---

(١) المغرب في ترتيب المعرب ٢/ ٣٦٩.
(٢) القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص ٤٩٩ .
(٣) الصحاح ٢/ ٤٢٢ .
(٤) المصدر السابق.
(٥) تاج العروس، الزبيدي ٦/ ٤٨٤، محاسن التأويل ٣/ ٤٢٧ .



اليسر في الاستعمال القرآني

ورد الجذر (ي س ر) في القرآن الكريم (٤٤) مرة، يخص موضوع البحث منها (٤١) مرة[1].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١١	﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ١٧﴾ [القمر:١٧]
الفعل المضارع	٣	﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ٧﴾ [الليل:٧]
فعل الأمر	١	﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ٢٦﴾ [طه:٢٦]
المصدر	٧	﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥]
مصدر ميمي	١	﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة:٢٨٠]
الصفة المشبهة	١٥	﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ٧٠﴾ [الحج:٧٠]
اسم	٢	﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ٨﴾ [الأعلى:٨]
اسم المفعول	١	﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ٢٨﴾ [الإسراء:٢٨]

وجاء اليسر في القرآن على وجهين[2]:

الأول: السهل: ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ﴾ [مريم: ٩٧]. أي: سهلناه وهوناه.

الثاني: الرخاء: ومنه قوله تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧]. أي: بعد الفقر غنىً.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٧٧٢.
(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٤٧٩.

الألفاظ ذات الصلة

١ التخفيف:

التخفيف لغة:

وهو في اللغة ضد الثقل والرزانة. قال ابن منظور: «التخفيف ضد التثقيل، واستخفه خلاف استثقله»[(١)].

التخفيف اصطلاحًا:

رفع مشقة الحكم الشرعي بنسخ، أو تسهيل، أو إزالة بعضه أو نحو ذلك، أي: إن كان فيه في الأصل حرج أو مشقة. والتخفيف أخصُّ من التيسير إذ هو تيسير ما كان فيه عسر في الأصل، ولا يدخل فيه ما كان في الأصل ميسرًا[(٢)].

الصلة بين اليسر والتخفيف:

التخفيف في حقيقته صورة من صور اليسر في الشريعة، كما قال الله جلَّ وعلا: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾[الأنفال:٦٦].

٢ الوسع:

الوسع لغةً:

و س ع: (وَسِعَهُ) الشيء بالكسر يَسَعُهُ (سِعَةً) بالفتح، و (الوسع) و(السعة) بالفتح: الجدة والطاقة، جدة الرجل، أي: على قدر سعته، لا يدخر وسعًا: يفعل أقصى ما يقدر عليه[(٣)].

الوسع اصطلاحًا:

الوسع وهو «قدر ما تسع له القوة، وهو بمنزلة الطاقة، وهو نهاية مقدور القادر، ولا يصحُّ ذلك إلا لله تعالى»[(٤)].

الصلة بين اليسر والوسع:

الوسع من صور اليسر، وقد ورد في القرآن الكريم بمعان عدة، منها: الرخاء والطاقة والاستطاعة، والغنى.

---

(١) لسان العرب ٩/ ٨١.
(٢) الموسوعة الفقهية الكويتية ١٤/ ٢١١.
(٣) انظر: مختار الصحاح، الرازي، ص ٣٣٨، العين، الفراهيدي ٢/ ٢٠٣، معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد عمر ٣/ ٢٤٤٠.
(٤) الفروق اللغوية، العسكري، ص ٥٦٧.



٣ العسر:

العسر لغة:

وهو: ما دلَّ على صعوبة وشدة. فالعسر: نقيض اليسر، وأعسر الرجل، إذا صار من ميسرة إلى عسرة، وعسرته أنا أعسره، إذا طالبته بدينك وهو معسر، ولم تنظره إلى ميسرته[1].

العسر اصطلاحًا:

المعنى الاصطلاحي للعسر لا يخرج عن المعنى اللغوي له.

الصلة بين اليسر والعسر:

وقد جاء العسر في القرآن الكريم بمعنى: الشدة، والفقر وضيق الحال.

(١) مقاييس اللغة ٤/ ٣٢٠.

اقتران العسر باليسر

سبق القول بأن العسر كثيرًا ما يأتي مقترنا باليسر، وجاء اليسر أكثر منه، وجاء العسر منفردًا واليسر منفردًا.

وفي اقتران اليسر بالعسر في كثير من الآيات حكم بالغة ذكرها أهل العلم، وقد التمسوا ذلك فذكر كلٌّ منهم بما تيسر له.

قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥].

وقال جل وعلا: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق:٧].

وقال الله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح:٦].

ويوضح هذا الاقتران لبيان هذه الحكمة آيات أخر، منها:

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة:٢١٤].

وقال جل وعلا: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف:١١٠].

قال الزمخشري في تفسير سورة الشرح: «فإن قلت: كيف تعلق قوله: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ بما قبله؟ قلت: كان المشركون يعيرون رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بالفقر والضيقة، حتى سبق إلى وهمه أنهم رغبوا عن الإسلام لافتقار أهله واحتقارهم، فذكَّرَهُ ما أنعم به عليه من جلائل النعم ثم قال: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ كأنه قال: خولناك ما خولناك فلا تيأس من فضل الله، فإن مع العسر الذي أنتم فيه يسرا. فإن قلت: إن (مع) للصحبة، فما معنى اصطحاب اليسر والعسر؟ قلت: أراد أن الله يصيبهم بيسر بعد العسر الذي كانوا فيه بزمان قريب، فَقَرَّبَ اليسر المترقب حتى جعله كالمقارن للعسر، زيادة في التسلية وتقوية القلوب»[1].

قال القرطبي: «والذي في الخبر: (لن يغلب عسر يسرين)[2] يعني: العسر الواحد لن يغلبهما، وإنما يغلب أحدهما إن غلب، وهو يسر الدنيا، فأما يسر الآخرة فكائن لا محالة، ولن يغلبه شيء. أو يقال: إن مع العسر وهو إخراج أهل مكة النبي صلى الله عليه وسلم من مكة يسرًا، وهو دخوله يوم فتح مكة مع عشرة آلاف رجل، مع عزٍّ

---

(١) الكشاف ٤/ ٧٧٢.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره، ٣/ ٤٣٨، رقم ٣٦٤٤ عن إبراهيم النخعي، يقول: قال ابن مسعود: «لو كان العسر في جحر لتبعه اليسر، حتى يستخرجه، لن يغلب عسر يسرين، لن يغلب عسر يسرين. وهو موقوف على ابن مسعود.

وشرف»[1].

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أنه بلغه أن أبا عبيدة حصر بالشام وقد تألب عليه القوم، فكتب إليه عمر: «سلام عليك، أما بعد، فإنه ما ينزل بعبد مؤمن من منزلة شدة إلا يجعل الله له بعدها فرجًا ولن يغلب عسر يسرين ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[آل عمران:٢٠٠]»[2].

وخلاصة ما تقدم: إن الحكمة من اقتران اليسر بالعسر هو لطف من الله تعالى بالمؤمن وإشعاره بقرب اليسر بعد وقوعه في العسر، وأنَّ اليسر لا بد له بعد العسر، وذلك بضمان الله ذلك بقوله: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ وجاءت أحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم تؤيد ذلك من واقع من سلف من المؤمنين. والله أعلم.

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/١٠٨.

(٢) أخرجه مالك في الموطأ، ٢/٤٤٦، رقم ٦، كتاب الجهاد، باب الترغيب في الجهاد، والحاكم في المستدرك، ٢/٣٢٩، رقم ٣١٧٦.

اليسر في حق الله تعالى

أولًا: يسر القدرة:

إن الله تعالى بقدرته الظاهرة التي ليس بعدها شيء، ييسر كلَّ ما يراه العبد صعبًا مهما صعب، سواء كانت هذه الصعوبة في البعد فيوجده الله، أو في العدم فَيُنْشِئَهُ الله، أو في البعث بعد الموت أو الحشر، فهما يسران على الله، أو كان في حساب المخلوقات وجزائها فهين على الله تعالى، فهو لا يعزبه شيء في الأرض ولا في السماء سبحانه وتعالى.

ومن هذه الهينات على الله مما هو في ركن المستحيل عند الخلق ما يلي:

١. أمره تعالى بين الكاف والنون، حين يقول للشيء كن فيكون.

إنَّ كلَّ شيء في هذا الكون يسير وهين على الله تعالى، وذلك أن قدرته تعالى الخارقة واضحة ثابتة بأدنى تأمل، في هذا الكون الذي كان يسيرًا على الله تعالى في إيجاده من العدم، وما من أمر من الأمور في السموات والأرض يقول الله له كن إلا ويكون، وقد دلَّ على ذلك آيات كثيرة، ومن ذلك:

قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[النحل:٤٠].

وقول الله عز وجل ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ

﴿شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[يس:٨٢].

وقال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾[القمر:٥٠].

الله سبحانه وتعالى لا يعجزه شيء، بل كلُّ شيء عليه هيِّنٌ ويسير، وإذ يقول للشيء: (كن)، فيكون بلا تأخير[1].

قال ابن كثير: «يبين بذلك تعالى كمال قدرته وعظيم سلطانه، وأنه إذا قَدَّرَ أمرًا وأراد كونه، فإنما يقول له: كن. أي: مرة واحدة، فيكون، أي: فيوجد على وفق ما أراد؛ ليسره عليه كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، وقوله: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾[القمر:٥٠]»[2].

٢. بدء الخلق من عدم.

لقد جاءت آيات كثيرة في القرآن الكريم يذكر الله تعالى فيها بدء الخلق وإعادته، وكثيرًا ما تأتي هذه الآيات في معرض الردِّ على المنكرين لذلك وغالبًا ما تختم تلك الآيات بكون ذلك على الله يسرًا.

ومعنى بدء الخلق هو: إيجاده من العدم، وهو مصدر مفعول معناه مخلوق[3].

ومن أمثلة ما ذكر الله تعالى فيه سهولة بدء الخلق وإعادته: قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾[مريم:٩].

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره وليس خلق ما وعدتك أن أهبه لك من الغلام الذي ذكرت لك أمره منك مع كبر سنك، وعقم زوجتك بأعجب من خلقك، فإني قد خلقتك، فأنشأتك بشرًا سويًّا من قبل خلقي ما بشرتك بأني واهب لك من الولد، ولم تك شيئًا، فكذلك أخلق لك الولد الذي بشرتك به من زوجتك العاقر، مع عتيك ووهن عظامك، واشتعال شيب رأسك»[4].

وقوله: ﴿هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ﴾أي: سهل ويسير.

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [العنكبوت:١٩].

قال الطبري: يقول تعالى ذكره: أولم يروا كيف يستأنف الله خلق الأشياء طفلًا صغيرًا، ثمَّ غلامًا يافعًا، ثمَّ رجلًا مجتمعًا، ثمَّ كهلًا يقال منه: أبدأ وأعاد وبدأ وعاد، لغتان بمعنى واحد. وقوله: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾ يقول: ثم هو يعيده من بعد فنائه وبلاه، كما بدأه أول مرة خلقًا جديدًا، لا يتعذر عليه ذلك ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ سهل كما كان يسيرًا عليه إبداؤه[5].

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ

(١) أضواء البيان ٢/ ٣٧٧.
(٢) تفسير القرآن العظيم ١/ ٣٩٩.
(٣) انظر: التحرير والتنوير ٢٠/ ٢٢٨.
(٤) جامع البيان ١٨/ ١٥١.
(٥) جامع البيان ٢٠/ ٢٠.

﴿مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾[فاطر:١١].

قال السعدي: «أي: إحاطة علمه بتلك المعلومات الكثيرة، وإحاطة كتابه فيها، فهذه ثلاثة أدلة من أدلة البعث والنشور، كلها عقلية، نبه الله عليها في هذه الآيات: إحياء الأرض بعد موتها، وأن الذي أحياها سيحيي الموتى، وتنقل الآدمي في تلك الأطوار، فالذي أوجده ونقله، طبقًا بعد طبق، وحالًا بعد حال، حتى بلغ ما قدر له، فهو على إعادته وإنشائه النشأة الأخرى أقدر، فإعادته للأموات أيسر وأيسر. فتبارك من كثر خيره، ونبه عباده على ما فيه صلاحهم، في معاشهم ومعادهم»[1].

وبهذا ينتهي الكلام على بدء الخلق، ونبدأ في الكلام على البعث والنشور، وهو الإعادة الذي ذكر في أكثر آيات بدء الخلق حيث يقول الله تعالى: ﴿يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾.

٣. البعث بعد الموت.

إن الله سبحانه وتعالى أخبر أن بعث الناس بعد الموت وإعادتهم أمر في غاية السهولة عليه، وكيف لا يكون عليه سهلًا هينًا، وهو بدأ خلقهم، والإعادة أهون من البدء. وقد ضرب الله على ذلك أمثلة عدة، وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يقسم على ذلك، فقال تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾[التغابن:٧].

قال الشنقيطي: «وقوله: ﴿وَرَبِّي﴾ قسم بالرب على البعث الذي هو الإحياء بعد الموت، وقد أقسم به عليه في القرآن ثلاث مرات، الأول هذا.

والثاني قوله: ﴿وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ ۖ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [يونس:٥٣].

الثالث قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾[سبأ:٣].

وقوله: ﴿وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ اسم الإشارة راجع إلى البعث ويُسْرُهُ أمرٌ مُسَلَّمٌ؛ لأنَّ الإعادة أهون من البدء»[2].

وقال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم:٢٧].

عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ قال: أيسر.

وعن مجاهد قال: «الإعادة أهون عليه من البداءة، والبداءة عليه هين»[3].

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٦٨٦.

(٢) أضواء البيان ٨/ ٢٠٠.
وانظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ١٣٥.

(٣) انظر: الدر المنثور، السيوطي ٦/ ٤٩١.

أخرج البخاري عند تفسير قوله تعالى ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ من حديث الأعرج، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أراه قال: قال الله تعالى: (يشتمني ابن آدم، وما ينبغي له أن يشتمني، ويكذبني وما ينبغي له، أمّا شتمه فقوله: إنَّ لي ولدًا، وأما تكذيبه فقوله: ليس يعيدني كما بدأني)[(١)].

وأخرج عند قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾[البقرة:١١٦].

من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: (قال الله: كذبني ابن آدم، ولم يكن له ذلك، وشتمني، ولم يكن له ذلك، فأمّا تكذيبه إياي، فزعم أني لا أقدر أن أعيده كما كان، وأما شتمه إياي، فقوله: لي ولد، فسبحاني أن أتخذ صاحبة أو ولدًا)[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ كقوله: ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾[مريم:٩].

أي: الأمر مستغرب في العادة، وفي سنة الله في الخليقة، ولكنَّ قدرة الله تعالى صالحة لإيجاد الأشياء بدون أسبابها، فذلك هين عليه، ليس بأصعب من إيجاده قبل ولم يكن شيئًا[(٣)].

وقال الله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾[الأنبياء:١٠٤].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾[يس:٨١].

٤. الحشر.

الحشر هو: الجمع، وحشر الناس جمعهم؛ ومنه يوم المحشر[(٤)].

والحشر: يقوم الناس من قبورهم على صفة بينها الرسول صلى الله عليه وسلم، ففي الصحيحين عن عائشة قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلا) أي غير مختونين، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾[الأنبياء:١٠٤][(٥)].

فحشر العباد ونشرهم في ذلك اليوم أمر

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، ٤/١٠٦، رقم ٣١٩٣، كتاب بدء الخلق، باب قول الله تعالى: (وهو أهون عليه).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب (وقالوا اتخذ الله ولدا)، ٦/١٩، رقم ٤٤٨٢.
(٣) تيسير الكريم الرحمن ص ٤٩٠.
(٤) لسان العرب ٤/ ١٩٠.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، ٤/ ١٣٩، رقم ٣٣٤٩، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله: (واتخذ الله أبراهيم خليلا)، ومسلم في صحيحه، ٤/ ٢١٥٠، رقم ٢٧٩٠، كتاب صفة القيامة.

سهل على الله تعالى، بل إنه سبحانه كما خلقهم أول مرة فسهل أن يعيدهم، وقوله جلَّ وعلا: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾[ق:٤٤].

قال ابن كثير: «أي تلك إعادة سهلة علينا، يسيرة لدينا كما قال جلَّ جلاله: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾[القمر:٥٠].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان:٢٨]»[(١)].

٥. العرض والحساب.

قال تعالى: ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[الكهف:٤٨].

قال ابن جرير: «يقول عزَّ ذِكْرُهُ: يقال لهم إذ عرضوا على الله: لقد جتتمونا أيها الناس أحياء كهيئتكم حين خلقناكم أول مرة، وحذف يقال من الكلام لمعرفة السامعين بأنه مراد في الكلام»[(٢)].

وقال جلَّ وعلا: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾[الحاقة:١٨].

وقد أخرج الإمام أحمد من حديث أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «(**يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات: فأمّا عرضتان فجدال ومعاذير، وأمّا الثالثة فعند ذلك تطير الصحف في الأيدي فآخِذٌ بيمينه وآخِذٌ بشماله**)»[(٣)].

قال الدارقطني: «يرويه وكيع عن علي بن رفاعة عن الحسن، عن أبي موسى، عن النبي صلى الله عليه وسلم مرفوعًا، وغيره يرويه موقوفًا، والموقوف هو الصحيح»[(٤)].

والحساب: تعريف الله عز وجل الخلائق بأعمالهم خيرًا أو شرًّا، وتذكيرهم ما قد نسوه. قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ۚ أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾[المجادلة:٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾[الغاشية:٢٦].

ودلت آيات أخرى بطريق الإشارة على يسر الحساب على الله تعالى يوم يعرض عليه الخلق، كقول الله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا ۚ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [البقرة:٢٠٢].

وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران:١٩٩].

وقوله جلَّ وعز: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[الأنعام:١٦٥].

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٧/ ٣٨٥.
(٢) جامع البيان ١٨/ ٣٧.
(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٢/ ٤٨٦، رقم ١٩٧١٥.
(٤) علل الدارقطني ٧/ ٢٥١.
قال محققو المسند: وتبقى علة الانقطاع بين الحسن وأبي موسى، وعلي بن علي بن رفاعة، قال أحمد: لا بأس به، إلا أنه رفع أحاديث.

وقول الله جل وعلا: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾[غافر:١٧].

قال ابن عطية: «لأنه لا يحتاج إلى عقد ولا إلى إعمال فكر، وقيل لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: كيف يحاسب الله الخلائق في يوم؟ فقال «كما يرزقهم في يوم»، وقيل: الحساب هنا المجازاة، كأن المجازي يعد أجزاء العمل ثم يجازي بمثلها، وقيل معنى الآية: سريع مجيء يوم الحساب، فالمقصد بالآية الإنذار بيوم القيامة»[1].

وقال البغوي: ﴿سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ أي: «حسابه واقع لا محالة، وكل ما هو واقع لا محالة، فهو سريع، وقيل: سرعة حسابه أنه لا يشغله حساب واحد عن حساب الآخر، ولا يشغله سمع عن سمع، فهو أسرع الحاسبين»[2].

ثانيًا: يسر العلم:

بعد أن ذكرنا في المطلب السابق، من يسر بعث الناس وحسابهم على الله عز وجل، فإن الحديث في هذا المطلب يكون عن يسر العلم في حق الله تعالى، وإحاطته بجميع المخلوقات، وذلك من خلال ما يأتي:

١. يسر علم ما في السموات وما في الأرض على الله عز وجل.

سهل على الله تعالى أن يعلم ما في السموات وما في الأرض؛ لأن العلم من صفاته تعالى الذاتية، فهي لا تنفك عنه جل وعلا.

قال الله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾[الحج:٧٠].

دلت هذه الآية على أمرين:

الأول: كمال علم الله بخلقه، وأنه محيط بما في السموات وما في الأرض، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وقد علم الكائنات كلها قبل وجودها، وقد ثبت في صحيح مسلم، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(إن الله قدر مقادير الخلائق قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء)**[3].

فالله سبحانه وتعالى لا تخفى عليه خافية من ظواهر الأمور وبواطنها، خفيها وجليها، متقدمها أو متأخرها، وأنَّ علمه هذا سهلٌ عليه ويسيرٌ لديه، وإن رآه بعض العباد مستحيلًا أو مستبعدًا، أو كان تصور العباد أن ذلك لا يحاط به، فإنَّ ذلك لعجزهم ومحدودية قدراتهم[4].

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٢٧٧.
(٢) شرح السنة ١٥/ ١٣١.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، ٤/ ٢٠٤٤، رقم ٢٦٥٣، كتاب القدر.
(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص ٣٣٥.

وقال تعالى: ﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ۝٢٨﴾ [الجن:٢٨].

وبهذا يعلم أنه حتى الأنبياء والرسل لا يعلمون إلا ما علمهم الله تعالى وأطلعهم عليه من علم الغيب، وهذا يعم الرسول الملكي والرسول البشري[(١)].

ومن علم ما في السموات والأرض أنَّ الله يعلم السرَّ وأخفى، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه:٧].

والسرُّ ما تحدث به نفسك، وأخفى ما لم تحدث به نفسك، وقيل: السرُّ: ما تسره اليوم، وأما ما تُسِرُّ غدا فلا تعلمه، ولكن الله يعلم ما تُسِرُّ اليوم وما تُسِرُّ غدا[(٢)].

وهو سبحانه وتعالى يعلم المخبوء في السموات والأرض، كما قال تعالى: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۝٢٥﴾ [النمل:٢٥].

ولديه سبحانه مفاتيح العلوم كلها، كما قال تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩].

فقد أحاط علمه بجميع ما خلق في السموات العلا، وما في الأرضين السبع وما بينهما وما تحت الثرى، يعلم السِّرَّ وأخفى، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ويعلم الخطرة والهمة، ويعلم جميع ما توسوس النفوس به، يسمع ويرى، وهو بالنظر الأعلى لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات والأرضين إلا وقد أحاط علمه به[(٣)].

وقد روى البخاري في صحيحه من حديث ابن شهاب الزهري، عن سالم بن عبد الله، عن أبيه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (مفاتيح الغيب خمس: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان:٣٤])[(٤)].

الأمر الثاني: أن ذلك العلم المحيط بما في السموات والأرض قد أثبته الله تعالى في كتاب، وهو اللوح المحفوظ، وقد جاء في الحديث: (إنَّ أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب فجرى بما هو كائن إلى

(١) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٤٣٤.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٣/ ١٤٤.
(٣) الإبانة الكبرى، ابن بطة ٧/ ١٤١.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ٩/ ١١٦، رقم ٧٣٧٩، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا).

الأبد)[1].

فالله سبحانه وتعالى يسير عليه أنْ يحيط علمًا بجميع الأشياء، وأن يكتب ذلك في كتاب مطابق للواقع[2].

وقال الله جل وعلا: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[المجادلة:٧].

قال ابن كثير: أي: يطلع عليهم يسمع كلامهم وسرهم ونجواهم، مع ذلك تكتب ما يتناجون به، مع علم الله وسمعه لهم، كما قال: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [التوبة: ٧٨].

ولهذا حكى غير واحد الإجماع على أن المراد بهذه الآية معية علم الله تعالى ولا شكَّ في إرادة ذلك، ولكن سمعه أيضًا مع علمه محيط بهم، وبصره نافذ فيهم، فهو، سبحانه، مطلع على خلقه، لا يغيب عنه من أمورهم شيء[3].

٢. علم الكائنات كلها قبل وجودها.

الله سبحانه وتعالى قد إحاط بالأشياء وعلمها قبل كونها، ثم كتبها في اللوح المحفوظ، فكلُّ ما يقع في هذا الكون فهو داخل في علم الله سبحانه وتعالى الأزليِّ وفيما كتبه في اللوح المحفوظ، كما قال الله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾[الحديد:٢٢].

فكلُّ شيء بقضاء الله وقدره ومشيئته وإرادته، لا يخرج عن ذلك شيء من الأشياء، وهو أيضًا مكتوب في اللوح المحفوظ[4].

قال الحافظ ابن كثير: «هذه الآية الكريمة من أدلِّ دليل على القدرية نفاة العلم السابق قبحهم الله»، وقال في قوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾؛ «أي: إن علمه تعالى الأشياء قبل كونها وكتابته لها طبق ما يوجد في حينها سهل على الله عز وجل؛ لأنه يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون»[5].

وقال الله عز وجل: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾[فاطر:١١].

وقال جل في علاه: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ

(١) أخرجه الترمذي في سننه، ٥/ ٣٩٤، رقم ٣٣١٩، كتاب التفسير، باب ومن سورة القلم..
وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي ٣/ ١٢٣، رقم ٢٦٤٥.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص ٢٣٥.
(٣) تفسير القرآن العظيم ٦/ ٤٢.
(٤) انظر: إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد ٢/ ٢٤٨.
(٥) تفسير القرآن العظيم ٨/ ٥٩.

﴿مِن أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾

[فصلت:٤٧].

قال ابن كثير: أي: لا يعلم ذلك أحد سواه كما قال محمد صلى الله عليه وسلم وهو سيد البشر لجبريل عليه الصلاة والسلام وهو من سادات الملائكة، حين سأله عن الساعة فقال: (ما المسؤول عنها بأعلم من السائل)[1]. وكما قال عز وجل: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾[النازعات:٤٤][2]. والله تعالى أعلم.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، ٦/ ١١٥، رقم ٤٧٧٧، كتاب التفسير، باب قول الله تعالى: (إن الله عنده علم الساعة)، ومسلم في صحيحه، ١/ ٣٦ رقم ٨، كتاب الإيمان.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ١٦٩.

أسباب جلب اليسر

أولًا: التقوى:

مما جاء من الآيات الدالة على أنَّ التقوى تجلب التيسير: قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[الطلاق:٣].

وقول الله جل وعلا: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾[الطلاق:٤].

وقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾[الطلاق:٧].

وكلُّ ما جاء في هذه الآيات أفاد التسهيل والتيسير ونفى الضيق والحرج لمن اتقاه، وأن عاقبتهم دائمًا للفرج والمخرج والخفة والتيسير.

قال ابن كثير: «أي: يسهل له أمره، وييسره عليه، ويجعل له فرجًا قريبًا ومخرجًا عاجلًا».

ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ﴾

[الطلاق:٥].

أي: «حكمه وشرعه أنزله إليكم بواسطة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ أي: يذهب عنه المحذور، ويجزل له الثواب على العمل اليسير»[3].

وقال السعدي: «أي: من اتقى الله تعالى،

(٣) تفسير القرآن العظيم ٨/ ١٥٢.

يسر له الأمور، وسهل عليه كلَّ عسيرٍ»[1].

ثانيًا: البذل والعطاء:

البذل والعطاء سبب لجلب اليسر، ومن اليسر الخُلْفُ لما أنفق، وذلك بصريح القرآن.قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ:٣٩].

ومن الآيات الدالة على تيسير أمور الباذل في سبيل الله تعالى: قوله جل وعلا: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل:٧].

قال ابن سعدي رحمه الله: «أي: نسهل عليه أمره، ونجعله ميسرًا له كل خير، ميسرًا له ترك كلِّ شرٍّ، لأنه أتى بأسباب التيسير، فيسرَّ الله له ذلك. ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ﴾ بما أمر به، فترك الإنفاق الواجب والمستحبَّ، ولم تسمح نفسه بأداء ما وجب لله، ﴿وَٱسْتَغْنَىٰ﴾ عن الله، فترك عبوديته جانبًا، ولم ير نفسه مفتقرة غاية الافتقار إلى ربها، الذي لا نجاة لها ولا فوز ولا فلاح، إلا بأن يكون هو محبوبها ومعبودها، الذي تقصده وتتوجه إليه»[2].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدًا بعفو، إلا عزًّا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله)[3].

وقد ذكر أهل العلم في معنى النقص والزيادة في الحديث على وجهين:

أحدهما: معناه أنه يبارك فيه ويدفع عنه المضرات فينجبر نقص الصورة بالبركة الخفية، وهذا مدرك بالحس والعادة.

والثاني: أنه وإن نقصت صورته كان في الثواب المرتب عليه جبر لنقصه وزيادة إلى أضعاف كثيرة[4].

ثالثًا: الدعاء:

الدعاء هو العبادة، وقد ندب الله تعالى عباده إلى الدعاء، وأخبر أنه قريب منهم يفرج كرباتهم وييسر أمورهم، ويجيب المضطر إذا دعاه.

ومن الآيات الدالة على ذلك قول الله تعالى عن دعاء موسى عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه:٣٦].

فموسى عليه السلام دعا بهذه الدعوات

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٨٧١.

(٢) تيسر الكريم الرحمن ص ٩٢٦.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، ٤/ ٢٠٠١، رقم ٢٥٨٨، كتاب البر والصلة، من حديث أبي هريرة.

(٤) انظر: دليل الفالحين ٤/ ٥٣٨.

الطيبات وكان مما دعا به تيسير أمره، وقد أجابه الله تعالى فيسر أمره بقوله: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ حيث أرسل معه أخاه هارون ليساعده في نشر الدعوة وتبليغ رسالة الله تعالى.

قال ابن سعدي: فقال الله ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ أي: أعطيت جميع ما طلبت فسنشرح صدرك، ونيسر أمرك، ونحل عقدة من لسانك يفقهوا قولك، ونشد عضدك بأخيك هارون، وهذا السؤال من موسى عليه السلام يدلُّ على كمال معرفته بالله وكمال فطنته، ومعرفته للأمور وكمال نصحه، ويحتاج مع ذلك أيضًا أن يتيسر له أمره فيأتي البيوت من أبوابها، ويدعو إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، يعامل الناس كلًا بحسب حاله، وتمام ذلك أن يكون لمن هذه صفته أعوان ووزراء يساعدونه على مطلوبه؛ لأن الأصوات إذا كثرت لا بد أن تؤثر؛ فلذلك سأل عليه الصلاة والسلام هذه الأمور فأعطيها[(١)].

وبهذا يعلم أن الدعاء بالتيسير مما يجلبه، وسؤال الله ذلك قد يكون مباشرة أو غير مباشر فالمباشر مثل ما فعل موسى هنا في هذه الآية، وغير المباشر سؤاله ربه لما خرج إلى مدين وخدمته ابنتي الرجل الصالح ثم توليه إلى الظل. وهذا سيأتي في المبحث الذي يليه. والله أعلم.

رابعًا: مساعدة الخلق:

ورفع المشقة عن العباد، أي: مساعدتهم ومساندتهم والوقوف معهم وخدمتهم فيما يحتاجون إليه. وهذا مما يجلب التيسير لصاحبه، ذلك أن الجزاء من جنس العمل.

قال الله تعالى عن موسى عليه السلام حين خرج إلى مدين وخدم المرأتين ثم تولى إلى الظل، حيث قال: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾[القصص:٢٤].

قال ابن سعدي: رحمه الله: «أي: إني مفتقر للخير الذي تسوقه إلي وتيسره لي. وهذا سؤال منه بحاله، والسؤال بالحال أبلغ من السؤال بلسان المقال، فلم يزل في هذه الحالة داعيًا ربه متملقًا. وأمَّا المرأتان، فذهبتا إلى أبيهما، وأخبرتاه بما جرى. فأرسل أبوهما إحداهما إلى موسى، فجاءته ﴿تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ وهذا يدلُّ على كرم عنصرها، وخلقها الحسن، فإن الحياء من الأخلاق الفاضلة، وخصوصًا في النساء»[(٢)].

فموسى عليه السلام لما قام بخدمة المرأتين ومساعدتهما، قيظ الله له ويسر له

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٥٠٤.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص ٦١٤.

الأمن والمأوى والزواج، وهكذا وعد الله كلَّ من أعان أخاه أن الله تعالى ييسر أمره ويعينه.

فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا، نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يَسَّرَ على معسر، يَسَّرَ الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلمًا، ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه)[1].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، ٤/ ٢٠٧٤، رقم ٢٦٩٩، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار.

اليسر في التشريع

أولًا: اليسر من مقاصد التشريع:

ما أنزله الله تعالى من الأحكام إلى عباده كله سهل ميسر، لا عسر فيه ولا شدة، ولا يمكننا حصر الآيات الدالة على ذلك لكثرتها، لكن نذكر بعضا منها:

قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[البقرة:١٨٥].

وهذه الآية وإن كانت نزلت في سياق قضية خاصة، وهي الرخصة في الصيام، إلا أنها عامة في الشريعة الإسلامية؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وكلّ الآيات التي وردت في شأن خاصٍّ فإنها تكون عامة، إلا إذا ورد ما يخصصها.

وقال جل وعلا: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الأعلى:٨].

قال ابن كثير: «أي: نسهل عليك يا محمد أعمال الخير، ونشرع لك شرعًا سهلًا سمحًا»[2].

وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾[النساء:٢٨].

قال القرطبي: «يريد الله أن ييسر عليكم بإذنه لكم في نكاح الفتيات المؤمنات إذا لم

(٢) تفسير القرآن العظيم، ٨/ ٣٨٠.



تستطيعوا طولًا لحرة». ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ يقول: «يَسَّرَ ذلك عليكم إذا كنتم غير مستطيعي الطول للحرائر، لأنكم خلقتم ضعفاء عجزة عن ترك جماع النساء، قليلي الصبر عنه، فأذن لكم في نكاح فتياتكم المؤمنات، عند خوفكم العنت على أنفسكم، ولم تجدوا طولًا لحرة؛ لئلا تزنوا، لقلة صبركم على ترك جماع النساء»[1].

وقال جل وعز: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[الحج:٧٨].

فقد أفادت هذه الآيات أن الله تعالى أراد بهذه الأمة اليسر والتخفيف، ونفي إرادة العسر والحرج.

ونفى سبحانه وتعالى أن يكون كلف عباده ما لا يطيقون، فقال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[البقرة:٢٨٦].

وقال جل وعلا: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[الأنعام:١٥٢].

قال الزمخشري:الوُسْعُ هو ما يَسَعُ الإنسان ولا يضيق عليه ولا يحرج فيه، أي: لا يكلفها إلا ما يتسع فيه طوقها، ويتيسر عليها، دون مدى الطاقة والمجهود[2].

ومن هنا قرر الفقهاء أنَّ ما عجز عن أدائه سقط وجوبه، كما صرَّحَ شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في غير موضع من كتبه بأنَّ الواجبات كلَّها تسقط بالعجز عن أدائها[3].

وقد وردت أحاديث كثيرة لا يمكن حصرها في هذا المبحث تصرح بيسر الدين ورفع الحرج عن المسلمين، ومن ذلك: قوله صلى الله عليه وسلم: (إنَّ الدين يُسْرٌ، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا، وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة)[4].

والمعنى: لا يتعمق أحد في الأعمال الدينية ويترك الرفق إلا عجز، وانقطع فيغلب، وقوله: فسددوا، أي: الزموا السداد، وهو الصواب من غير إفراط ولا تفريط، قال أهل اللغه: السداد التوسط في العمل[5].

وقال عليه الصلاة والسلام: (إن خير دينكم أيسره، إن خير دينكم أيسره، إن خير دينكم أيسره)[6].

وفي حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه: (إنَّ الله لم يبعثني معنتًا ولا متعنتًا، ولكن بعثني معلمًا ميسرًا)[7].

(١) الأنوار الساطعات لآيات جامعات ١/ ٣٤٨.
(٢) الكشاف، الزمخشري ١/ ١٧٢.

(٣) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٦/ ٢٠٣-٢٠٤.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ١/ ١٦، رقم ٣٩، كتاب الإيمان، باب الدين يسر.
(٥) فتح الباري، ابن حجر ١/ ٩٥.
(٦) أخرجه أحمد في مسنده، ٣/ ٤٧٩، رقم ١٥٩٣٦، والبخاري في الأدب المفرد، ١/ ١٢٤، رقم ٣٤١.
وحسنه الألباني.
(٧) أخرجه مسلم في صحيحه، ٢/ ١١٠٤، رقم

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: (أنَّ أعرابيًّا بال في المسجد، فثار إليه الناس ليقعوا به، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: (دعوه، وأهريقوا على بوله ذنوبًا من ماء، أو سَجْلًا من ماء، فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين)[1].

فاليسر من سمات الشريعة الإسلامية، فإنَّ الله تعالى نفى عن هذه الأمة الحرج والعنت وما يشق عليها.

ثانيًا: اليسر في العبادات:

إنَّ هذا الدين يُسْرٌ، وليس فيه حرج ولا عسر، وذلك بإرادة الله له ذلك؛تخفيفا على عباد الله، وهناك آيات عدة، وأحاديث كثيرة تفيد بأنَّ هذا الدين مبنيٌّ على التيسير، وعدم التشديد والتعسير، ومن ذلك:

قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾[النساء:٢٨].

وقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[الحج:٧٨].

وقد روى البخاري ومسلم وغيرهما من حديث عائشة رضي الله تعالى عنهما أنه قال لها: (ياعائشة! إنَّ الله رفيقٌ يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على ما سواه)[2].

وعن عائشة أيضًا عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إنَّ الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه)[3].

وقال عليه الصلاة والسلام: (يسِّروا ولا تعسِّروا، وبشروا ولا تنفروا)[4].

ففي هذه الآيات والأحاديث يحثُّ الله سبحانه وتعالى عباده على الرفق، واللين، وأخبر أنه إنما يريد الله أن يخفف على عباده، وأنه لا يريد أن يجعل عليهم من حرج؛ لأن الله تعالى يعلم ضعفهم لذلك خفف عنهم.

والله سبحانه وتعالى يسر للناس عباداتهم، وقد سبق قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[الحج:٧٨].

وكل العبادات إنما هي مبنية على التيسير والتسهيل ورفع الحرج، ومن ذلك:

١. اليسر في الطهارة.

فإن الله سبحانه وتعالى قد وجَّهَ عباده إلى أنْ يطهروا قلوبهم وأبدانهم، وأوجب

١٤٧٨، كتاب الطلاق.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، ١/ ٦٥، رقم ٢٢٠، كتاب الإيمان، باب الدين يسر.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، ٨/ ١٤، رقم ٦٠٢٤، كتاب الأدب، باب الرفق في الأمر كله، ومسلم في صحيحه، ٤/ ٢٠٠٣، رقم ٢٥٩٣، كتاب البر والصلة والأدب.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، ٤/ ٢٠٠٤، رقم ٢٥٩٤، كتاب البر والصلة والأدب.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، ١/ ٢٧، رقم ٦٩، كتاب الإيمان، باب الدين يسر، ومسلم في صحيحه، ٣/ ١٣٥٨، رقم ١٧٣٢، كتاب الجهاد والسير.



على من أراد الصلاة أن يتطهر لها قبل الدخول فيها، ومع ذلك فإنَّ من يُسْرِ الإسلام أنه يسهل ويخفف أو يعفي من هذه الطهارة، فَشَرَعَ الله تعالى التيمم، وهو العدول عن الماء إلى ضربة أو ضربتين على تراب أو ما صعد على وجه الأرض، وذلك في عدة حالات، منها:

حالة العجز عن استعمال الماء لمرض وغيره، ومنها: حالة فقدان الماء. وقد رخَّصَ الله سبحانه وتعالى لمن لم يجد الماء أن يتيمم ولو لم يجد الماء عشرين سنة، فإذا وجد الماء فإنه يلزم أن يتوضأ بالماء.

قال الله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[المائدة:٦].

وقد سبق أنَّ نفيَ الحرج من مرادفات اليسر، وهنا في آية التيمم ينفي الله تعالى أنْ يكون جعل في الدين أدنى حرج، ومن اليسر في الطهارة أنه أباح المسح على الخفين، والجوارب، وذلك بأنْ يتوضأ لليدين والوجه، ويمسح على الرأس، فإذا وصل إلى الرجلين فإنه يمسح عليهما إذا كان لابسًا خفين أو جوربين، وذلك للمشقة التي يجدها لابس الخفين والجوربين، وخفف الله سبحانه وتعالى على الناس كلٌّ بحسبه، فالذي يقيم في بلده رخَّصَ الله له أن يمسح على الخفين والجوربين أربعًا وعشرين ساعة(يوم وليلة) ولكن إذا كان مسافرًا فإنه رخَّص له أن يمسح اثنين وسبعين ساعة(ثلاثة أيام بلياليها).

أخرج البخاري ومسلم من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه أنه قال: كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر فأهويت لأنزع خفيه فقال: (دعهما فإني أدخلتهما طاهرتين، فمسح عليهما)[1].

٢. اليسر في الصلاة.

قال الله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾[الإسراء:٧٨].

وقال جل وعلا: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾[هود:١١٤].

فهذان آيتان ذكر الله تعالى أنه فرض على الناس الصلاة فقط في طرفي النهار وزلفًا من الليل، يعني: وباقي الأوقات لمعاشهم وراحتهم.

قال الشنقيطي رحمه الله: «فأشار بقوله: ﴿لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ وهو زوالها عن كبد السماء على التحقيق إلى صلاة الظهر والعصر وأشار بقوله: ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، ١/ ٦٢، رقم ٢٠٦، كتاب الوضوء، باب إذا أدخل رجليه وهما طاهرتان، ومسلم في صحيحه، ١/ ٢٢٨، رقم ٢٧٤، كتاب الطهارة.

وهو ظلامه إلى صلاة المغرب والعشاء، وأشار بقوله: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ إلى صلاة الصبح، وعبر عنها بالقرآن بمعنى القراءة؛ لأنها ركن فيها، من التعبير عن الشيء باسم بعضه»[1].

وتظهر سماحة الإسلام ويسره في الصلاة من عدة أوجه، منها:

❁ أصل تشريعها.

حيث شُرِعَتْ خمسون صلاة في اليوم والليلة، ثم خففت حتى صارت خمسًا، ولكن أداؤها خمس وأجرها خمسون.

ففي حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: (مررت[ليلة المعراج]على موسى فقال: ما فرض الله لك على أمتك؟ قلت: فرض خمسين صلاة، قال: فارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك، فراجعت فوضع شطرها، فرجعت إلى موسى قلت: وضع شطرها، فقال: راجع ربك فإن أمتك لا تطيق، فراجعت، فوضع شطرها، فرجعت إليه فقال: ارجع إلى ربك، فإن أمتك لا تطيق ذلك، فراجعته فقال: هي خمس، [يعني في الأداء]. وهي خمسون[يعني في الأجر]لا يبدل القول لديَّ)[2].

❁ مشروعية الجمع والقصر فيها.

وذلك أثناء السفر أو المطر أو المرض، مراعاة للظروف التي يمر بها الإنسان في هذه الحالات من قلة في الماء أو البرد أو خوف من الطريق أو زيادة في المرض، لذلك جعل الإسلام فيه الصلاة بشكل آخر يتناسب مع هذه الظروف، فأجاز له الجمع والقصر، حيث قصرت الصلوات الرباعية إلى ركعتين فقط.

عن عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنه قال: (**سافر رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة والمدينة لا يخاف إلا الله يقصر الصلاة**)[3].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: (**أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بتبوك عشرين يومًا يقصر الصلاة**)[4].

❁ في حال الخوف.

فإنَّ وضع الصلاة وكيفيتها يتغير في حالة الخوف في الحرب أو هجوم سبع أو سيل أو نحوه، ويسهل أمرها وتقصر، لما في ذلك من مصلحة على المسلمين وحماية لهم من عدوهم الذين قد يغدرون بهم أثناء الصلاة،

(١) أضواء البيان ١/ ٢٨٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، ١/ ٩٨، رقم ٣٤٩، كتاب الصلاة، باب كيف فرضت الصلاة في الإسراء، ومسلم في صحيحه، ١/ ١٤، رقم ١٦٣، كتاب الإيمان.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ١/ ٣٥٥، رقم ٣٣٣٤.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده، ٣/ ٢٩٥، رقم ١٤١٧٢، وأبو داود في سننه، ٢/ ١١، رقم ١٢٣٥.
وصححه الألباني في الإرواء، ٣/ ٢٣، رقم ٥٧٤.

وتسمى هذه الصلاة بصلاة الخوف، قال تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾﴾ [النساء:١٠١]. ثم ذكرت في الآية الآتية كيفية أداء هذه الصلاة على دفعتين [(١)].

❁ إمكانية أدائها على كلِّ حال في كلِّ مكان وزمان بما يتناسب مع وضع المصلي.

إنَّ من يسر الإسلام أنه شرع للمصلي أنْ يصلي على أي بقعة طاهرة من الأرض، فقال عليه الصلاة والسلام: (وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل)[(٢)].

ويمكنه أن يصلي جالسًا أو مستلقيًا على ظهره أو جنبه، فإن استطاع أن يرفع بيديه وإلا يكفي أن يشير ويومئ برأسه، بل إذا لم يستطع الإيماء، فإنه يومئ بعينيه. قال عليه الصلاة والسلام: (صلِّ قائمًا فإن لم تستطع فقاعدًا، فإن لم تستطع فعلى جنب)، [(٣)]

فالقيام في الصلاة والقعود فيها ركنان من أركان الصلاة أي من الأصول والواجبات، ولكن إذا لم تسمح ظروف المصلي لمرض أو نحوه من أنواع العجز، فإن الله تعالى خفف عنه بأن يصلي على الحال التي تناسبه.

❁ تخفيف الصلاة وعدم الإطالة فيها.

لأن صلاة الجماعة تجمع بين الصغير والكبير والمريض، وذي الحاجة، فكان الرسول عليه الصلاة والسلام يحذر أصحابه من التطويل في الصلاة، وقد قال عليه الصلاة والسلام: (إذا أمَّ أحدكم الناس فليخفف؛ فإن فيهم الصغير والكبير والضعيف والمريض، فإذا صلى وحده فليصل كيف شاء)[(٤)]، وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنَ النبي صلى الله عليه و سلم قال: (إني لأقوم في الصلاة أريد أن أطول فيها فأسمع بكاء الصبي فأتجوز في صلاتي، كراهية أن أشق على أمه)[(٥)].

❁ إسقاط الصلاة على الحائض والنفساء حال نفاسهما، دون أن تقضي بعد الطهر.

وهذا يسر ولطف على المرأة، حيث تعاني في فترة الحيض والنفاس آلامًا ودماء،

(١) انظر: اليسر والسماحة، فالح ص ٢٨.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، ١/ ٩٥، رقم ٤٣٨، كتاب الصلاة، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: (جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا)، ومسلم في صحيحه، ١/ ٣٧٠، رقم ٥٢١، كتاب المساجد ومواضع الصلاة.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، ٢/ ٦٠، رقم ١١١٧، أبواب تقصير الصلاة، باب إذا لم يطق قاعدا صلى على جنب.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، ١/ ٣٤١، رقم ٤٦٧، كتاب الصلاة.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، ١/ ١٨١، رقم ٧٠٧، كتاب الصلاة، باب من أخف الصلاة عند بكاء الصبي.

يصعب معها أداء الصلاة، وقد تطول هذه المدة فيشق القضاء، فجاءت الرحمة الربانية على المرأة بهذا التيسير، ولم يطلب منها قضاء تلك الصلوات الفائتة عنها بعد ذلك.

- مشروعية سجود السهو لجبر الخلل الذي يحصل في الصلاة، ولم تطلب إعادتها.

كلُّ هذا اليسر وهذه السماحة جاءت في الركن الثاني من أركان الإسلام بعد الشهادتين وهي الصلاة التي هي أعظم الأعمال العملية، وفي هذا شاهد كبير ودليل ناصع على يسر هذا الدين وسماحته في العبادات(١). والله تعالى أعلم.

٣. اليسر في الزكاة.

إنَّ الله سبحانه وتعالى لما طلب من الأغنياء جزءًا يسيرًا من أموالهم يعطونه للفقراء لم يكن ذلك على وجه يضر بالأغنياء ولا لتبديد أموالهم، ولا بالطريقة التي يفعلها أهل الضرائب، وإنما كان ذلك بطريقة سهلة وميسرة ومريحة للغني والفقير معًا.

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[البقرة:٢٦١].

وقال تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾[الحديد:١١].

قال ابن سعدي: «وتأمل هذا الحثَّ اللطيف على النفقة، وأن المنفق قد أقرض الله المليء الكريم، ووعده المضاعفة الكثيرة، كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾».

ولما كان المانع الأكبر من الإنفاق خوف الإملاق، أخبر تعالى أنَّ الغنى والفقر بيد الله، وأنه يقبض الرزق على من يشاء، ويبسطه على من يشاء، فلا يتأخر من يريد الإنفاق خوف الفقر، ولا يظن أنه ضائع، بل مرجع العباد كلهم إلى الله، فيجد المنفقون والعاملون أجرهم عنده مدخرًا، أحوج ما يكونون إليه، ويكون له من الوقع العظيم ما لا يمكن التعبير عنه(٢).

ولا شكَّ أنَّ تضعيف المال والأجر للمتصدق أنه من تيسير الله تعالى له، وكذلك تطهيره وتنميته كما سبق، كما في قول الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمْۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[التوبة:١٠٣].

وقد سبق ذكر قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾[الليل:٧].

قال ابن سعدي رحمه الله: أي: نسهل

(١) انظر: اليسر والسماحة، فالح ص ٣٠.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص ٩٥٢.

عليه أمره، ونجعله ميسرًا له كلَّ خير، ميسرًا له ترك كلِّ شرٍّ، لأنه أتى بأسباب التيسير، فيسر الله له ذلك.

﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ﴾ بما أمر به، فترك الإنفاق الواجب والمستحبَّ، ولم تسمح نفسه بأداء ما وجب لله، ﴿وَٱسْتَغْنَىٰ﴾ عن الله، فترك عبوديته جانبًا، ولم ير نفسه مفتقرة غاية الافتقار إلى ربها، الذي لا نجاة لها ولا فوز ولا فلاح، إلا بأن يكون هو محبوبها ومعبودها، الذي تقصده وتتوجه إليه[1].

ومن أبرز مواضيع تيسير الزكاة:

أولًا: أنها لم تأت على جميع الممتلكات والعقارات والأموال، وإنما اقتصرت على بعض الأصناف مثل: بهيمة الأنعام، والأثمان، والزروع، وعروض التجارة.

ثانيًا: أنه يشترط في الأصناف التي تجب فيها الزكاة أن تبلغ النصاب، وهي في الفضة مائتي درهم، وفي الذهب عشرين مثقالا، وسائمة الإبل عن خمس، والبقر عن ثلاثين، والغنم عن أربعين، والحبوب والزروع والثمار عن خمسة أوسق.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(ليس فيما دون خمس ذود صدقة من الإبل، وليس فيما دون خمس أواقٍ صدقة، وليس فيما دون خمسة أوسق صدقة)**[2].

ثالثًا: أنه لم يجعل الله تعالى دفع الزكاة إلا مرة واحدة في السنة، وذلك بعد أن يحول عليه الحول.

رابعًا: أنَّ مقدار المال الواجب دفعه للزكاة قليل جدًّا بالنسبة للمال الذي يوجب فيه الزكاة، بحيث لا يؤثر فيه كثيرًا، ولا يتأثر بذلك صاحبه. والله أعلم.

٤. يسر الصيام.

قال الله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة:١٨٥].

قال أبو جعفر الطبري رحمه الله تعالى: يعني تعالى ذكره بذلك: يريد الله بكم، أيها المؤمنون -بترخيصه لكم في حال مرضكم وسفركم في الإفطار، وقضاء عدة أيام أخر من الأيام التي أفطرتموها بعد إقامتكم وبعد برئكم من مرضكم- التخفيف عليكم، والتسهيل عليكم، لعلمه بمشقة ذلك عليكم في هذه الأحوال ولا يريد بكم العسر يقول: ولا يريد بكم الشدة والمشقة عليكم،

(١) المصدر السابق ص ٩٢٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، ١/١٤٩، رقم ١٤٤٧، كتاب الزكاة، باب زكاة الورق، ومسلم في صحيحه، ٢/٦٧٤، رقم ٩٧٩، كتاب الزكاة.

فيكلفكم صوم الشهر في هذه الأحوال، مع علمه شدة ذلك عليكم، وثقل حمله عليكم لو حملكم صومه[1].

إنَّ الله سبحانه وتعالى أراد من تشريعاته التخفيف على للناس، وعدم إحراجهم، وأنه سبحانه وتعالى لم يشرع لهم إلا ما ينفعهم في الدنيا أو في الآخرة، وغالبًا ما يكون النفع فيهما، فكان مما شرعه الله تعالى لعباده فريضة الصوم، وهو الإمساك عن الأكل والشرب، وشهوة الفرج من طلوع الفجر إلى غروب الشمس مدة شهر كامل ثلاثين يومًا، أو تسعة وعشرين يومًا.

وذلك في كلِّ سنة في شهر رمضان، وهذه الفريضة الربانية التي طلبها الله من العباد ظهرت فيها سماحة الإسلام جلية في أحوال عدة، ومن ذلك:

- **الصغير**: فإن الله تعالى لم يوجب على الصغير الذي لم يبلغ أي شيء من العبادات، ومن ذلك فريضة الصيام، فإنه أسقط الصيام عن المريض حتى يبلغ.
- **المسافر والمريض**: رخص الله سبحانه وتعالى للمسافر والمريض أن يفطرا في نهار رمضان، ثم يقضيا ذلك اليوم إذا رجعا إلى بلديهما واستقر حالهما، وذلك مراعاة لذلك المسافر والمريض وتخفيفا عليهما.وقد سبق في الآية قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾.
- **الحائض والنفساء**: إن الله سبحانه وتعالى لما علم ضعف هاتين المرأتين أسقط عنهما الصوم حال الحيض وحال النفاس، وتظهر سماحة الإسلام في مراعاة حال هاتين المرأتين حين أظهر الطبُّ الحديث أنَّ المرأة حال الحيض تمر بحالة ضعف شديدة جسدية ونفسية، كما أنَّ حال النفساء لا يخفى على أحد أضف إلى مراعاة صغيرها الذي يحتاج إليها ولا تستطيع كفايته لو كانت صائمة. فالمشروع في حقهما أنهن يفطرن ويقضين من أيام أخر.
- **الحامل والمرضع**: فإنَّ الله تعالى أسقط عنهنَّ الصوم إذا خافتا على نفسيهما وعلى ولديهما أبيح لهما الفطر وعليهما القضاء. ويختلف الحكم هنا بأنهما إذا خافتا على ولديهما القضاء، والإطعام عن كلِّ يوم مسكينًا.
- **العاجز عن الصوم**: لكبر أو مرض لا يرجى برؤه، فإن الله تعالى رخص لهما أن يفطرا ويطعما عن كل يوم مسكينا، ولا يقضيان.

ويلاحظ أن الصيام المسقط عن

(١) جامع البيان ٣/ ٤٧٥.

الحائض والنفساء، والمريض يقضي حال زوال العذر بخلاف الصلاة فإنها لا تقضى بالنسبة للحائض والنفساء، وذلك رفعًا للحرج، فإن الصلاة تكرر خمس مرات في اليوم، فالحائض إذا اجتمع لها حوالي عشرة أيام تزيد أو تقل، فإنه يشق عليها القضاء، والنفساء يشق عليها أكثر بخلاف الصيام، فإنه بالنسبة للحائض يتراوح بين خمسة أيام وخمسة عشر يوما أو يوم أو يومين، فإنه يمكن قضاؤه دون مشقة، وأما بالنسبة للنفساء فأقصى ما يصل ثلاثون يوما وهذا أيضًا يمكن أداؤه؛ لأنه لا يزاحمه صيام آخر، بخلاف الصلاة فإنها في كلٍّ يوم حتى في وقت قضاء الفائتة، يكون أداء الحاضرة.

٥. اليسر في الحج.

لما كان السفر إلى بيت الله الحرام لأجل الحج،يحتاج إلى قوة بدنية، وقوة مالية، فإنَّ الله تعالى علم ضعف كثير من عباده في هاتين القوتين أظهر الله يسره وسماحته فخفف عنهم في هذه الفريضة، فقال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾[آل عمران:٩٧].

وقال جل وعلا: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[البقرة:١٩٦].

فقد ذكر في الآيتين الأولى التيسير في أصل الحج، والثانية التيسير في أعمال الحج، وتتمثل جوانب التيسير فيما يلي:

أولًا: أنَّ الحج، وهو قصد بيت الله الحرام، لا يجب إلا مرة في العمر، فيسر الإسلام في هذه الفريضة ظاهرة، كما أوضحته الآية.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (خطبنا رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال: أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا، فقال رجل: أكلَّ عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثا، فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: (لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم، ثم قال: ذروني ما تركتكم؛ فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه)[(١)].

ورسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو الرؤوف الرحيم بالأمة، خاف أن يفرض

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، ٢/ ٩٧٥، رقم ١٣٣٧، كتاب الحج.

على أمته كل عام، فلا يستطيعوه.

ثانيًا: أنَّ الحجَّ يسقط عن من لم يستطيع، فمن فقد قوة البدن أو قوة المال فلا يجب عليه الحج بل يسقط عنه.

ثالثًا: التخيير بين المناسك الثلاثة: التمتع، والقران، والإفراد. فأيُّ نسك من هذه الأنساك أهلَّ بها الحاجُّ قبلها الله تعالى منه، وكذلك: التخيير في الترتيب بين الأعمال الثلاثة يوم العيد، الرمي والحلق والطواف، وهذا فيه تيسير على الحاج الذي يعاني من زحمة الناس والمواصلات والأسفار.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: (قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم زرت قبل أن أرمي، قال: لا حرج. قال آخر: حلقت قبل أن أذبح قال: لا حرج. قال آخر: ذبحت قبل أن أرمي، قال: لا حرج)[(١)].

وكلُّ خلل في واجبات الحجِّ من غير قصد يجبر بفدية، وحجه صحيح إذا كان القصور من هذا الوجه فقط، ولم يكن من الأركان الأربعة، وهي الإحرام، والطواف والسعي، والوقوف بعرفة.

رابعًا: من اليسر في هذا الركن المبارك، أنَّ الله تعالى جعله سببًا لمغفرة الذنوب والخطايا، وقد وعد الرسول صلى الله عليه وسلم الحاجَّ بالجنة وأنه يرجع من حجه

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، ٢/ ٢١٤، رقم ١٧٣٥، كتاب الحج، باب إذا رمى بعد ما أمسى أو حلق قبل أن يرمي.

كيوم ولدته أمه، خاليًا من الذنوب، صفحته بيضاء ناصعة خالية من السيئات والذنوب.

قال عليه الصلاة والسلام: (من حجَّ هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه)[(٢)].

وقد جعله الله تعالى من الأعمال الفاضلة التي تلي الإيمان بالله والجهاد في سبيله، فقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم: أيُّ الأعمال أفضل؟ قال: (إيمان بالله ورسوله). قيل: ثم ماذا؟. قال: (ثم جهاد في سبيل الله). قيل: ثم ماذا؟ قال: (حجٌّ مبرور)[(٣)(٤)].

ثالثًا: اليسر في المعاملات:

أمر الله تعالى عباده بالتعامل باليسر في عدة آيات، بعضها بلفظ اليسر أو ما تصرف منه، وبعضها بلفظ يرادف اليسر.

قال الله تعالى في اليسر في معاملة الوالدين وخفض الجناح عندهما: ﴿وَقَضَىٰ

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، ٢/ ١٦٤، رقم ١٥٢١، كتاب الحج، باب إذا رمى بعد ما أمسى أو حلق قبل أن يرمي، ومسلم في صحيحه، ٢/ ٩٨٣، رقم ١٣٥٠، كتاب الحج.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، ٢/ ١٦٤، رقم ١٥١٩، كتاب الحج، باب فضل الحج المبرور، ومسلم في صحيحه، ١/ ٨٨، رقم ٨٣، كتاب الإيمان.

(٤) انظر: كتاب اليسر والسماحة، فالح ص ٢٥-٢٦.

﴿رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء:٢٤].

في هذه الآية يأمر الله تعالى عباده بعبادته، ثم ثنى ببر الوالدين، ثم بين كيفية برهما، وبين أدنى ما يسيء إليهما تنبيهًا على الأعلى.

قال الله تعالى بعد هذه الآية: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ [الإسراء:٢٨].

قال ابن باديس رحمه الله تعالى: «إن أعرضت عنهم فلا تعطهم؛ لأنك لم تجد ما تعطيهم- وهي الحالة التي تكون فيها تطلب رحمة من ربك راجيًا رزقه- فقل لهم قولًا لينًا سهلًا، فتواسيهم بالقول عند عدم السؤال، ولا تتركهم في ساحة الإهمال، وتردهم الرد الجميل عند السؤال، فتقول لهم: يرزق الله، ونحوه من لين الكلام»[(١)].

وقد وردت أحاديث عدة في ذلك ومنها:

حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، مَنْ أحقُّ الناس بحسن صحابتي؟ قال: (أمك) قال: ثم من؟ قال: (أمك) قال: ثم من؟ قال: (أمك) قال: ثم من؟ قال: (أبوك)[(٢)].

ومعنى الحديث: من أولى الناس بمعروفي وبري ومصاحبتي المقرونة بلين الجانب وطيب الخلق وحسن المعاشرة.

قال النووي: «وسبب تقديم الأم كثرة تعبها عليه وشفقتها وخدمتها ومعاناة المشاقِّ في حمله، ثم وضعه، ثم إرضاعه، ثم تربيته وخدمته وتمريضه وغير ذلك ونقل الحارث المحاسبي إجماع العلماء على أنَّ الأمَّ تفضل في البرِّ على الأب. وحكى القاضي عياض خلافًا في ذلك فقال الجمهور بتفضيلها، وقال بعضهم: يكون برهما سواء»[(٣)].

ومن اليسر في المعاملة:

١. التعامل مع المدين.

قال الله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٨٠].

قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بذلك: «وإن كان» ممن تقبضون منه من غرمائكم رؤوس أموالكم ﴿ذُو عُسْرَةٍ﴾ يعني: معسرًا برؤوس

(١) تفسير ابن باديس ص ٨٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، ٨/ ٢، رقم ٥٩٧١، كتاب الأدب، باب من أحق الناس بحسن الصحبة، ومسلم في صحيحه، ٤/ ١٩٧٤، رقم٢٥٤٨، كتاب البر والصلة والآداب.

(٣) شرح صحيح مسلم، النووي ١٦/ ١٠٢.

أموالكم التي كانت لكم عليهم قبل الإرباء، فأنظروهم إلى ميسرتهم[1].

٢. اليسر والتسامح مع المطلقة، والإحسان إليها.

قال الله تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾[الطلاق:٧].

٣. اليسر مع كلِّ المؤمنين وخفض الجناح لهم.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ﴾[المائدة:٥٤].

قال الشنقيطي رحمه الله تعالى: «أخبر تعالى المؤمنين في هذه الآية الكريمة أنهم إن ارتد بعضهم فإنَّ الله يأتي عوضًا عن ذلك المرتد بقوم من صفاتهم الذلُّ للمؤمنين، والتواضع لهم، ولين الجانب، والقسوة والشدة على الكافرين، وهذا من كمال صفات المؤمنين، وبهذا أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم فأمره بلين الجانب للمؤمنين، بقوله: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[الحجر:٨٨].

وقوله: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[الشعراء:٢١٥].

وأمره بالقسوة على غيرهم بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ﴾[التحريم:٩].

وأثنى تعالى على نبيه باللين للمؤمنين في قوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ﴾[آل عمران:١٥٩].

وصرَّح بأنَّ ذلك المذكور من اللين للمؤمنين، والشدة على الكافرين، من صفات الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم، بقوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ﴾[الفتح:٢٩]»[2].

وقد أجاد الشيخ رحمه الله تعالى حيث ساق بعض آيات اليسر في التعامل مع المؤمنين بلفظ مرادف لليسر، ثم ساق أضداد ذلك بأنَّ ذلك اليسر واللين لا يكون مع الكفار. والله أعلم.

وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم باليسر في المعاملة، وقد سبق بعضًا منها، من ذلك: قوله عليه الصلاة والسلام: **(يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا)**[3].

---

(١) جامع البيان ٦/ ٢٨.

(٢) أضواء البيان ١/ ٤١٥.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، ١/ ٢٧، رقم ٦٩، كتاب العلم، باب ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم من تخويلهم بالموعظة والعلم، ومسلم في صحيحه، ٣/ ١٣٥٨، رقم ١٧٣٢، كتاب الجهاد والسير.

وقوله: (رحم الله رجلًا سمحًا إذا باع، وإذا اشترى وإذا اقتضى)[1].

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يحثُّ الناس في البيع والشراء ورد الديون إلى استعمال اللين واليسر، ويكون رحيمًا بمن يعامله سمحًا معه، يرفق به إذا باع له، ويرفق به إذا اشترى منه.

قال ابن حجر العسقلاني رحمه الله تعالى: قوله (رحم الله رجلًا) يحتمل الدعاء ويحتمل الخبر، قوله (سمحًا) أي: سهلًا، وهي صفة مشبهة تدلُّ على الثبوت، والسمح: الجَوَادُ، يقال: سمح بكذا إذا جاد، والمراد هنا المساهلة، قوله: (إذا اقتضى) أي: طلب قضاء حقه بسهولة وعدم إلحاف، وفيه الحضُّ على السماحة في المعاملة واستعمال معالي الأخلاق، وترك المشاحة، والحض على ترك التضييق على الناس في المطالبة، وأخذ العفو منهم[2].

وهناك صور عدة في مجال التجارة يظهر فيها يسر الإسلام في مراعاة الناس في هذا المجال ومن ذلك:

- **الخيار في البيع**: وذلك أنَّ الشارع حثَّ الطرفين أن يتسامحا أثناء البيع، ومن هذا التسامح أنَّ البائع يقبل رجوع المشتري، وكذا البائع حال البيع قبل التفرق، حتى ولو اتفقا قبولًا وإيجابًا فما دام أنهما لم يفترقا فإنَّ الدين الإسلاميَّ أعطى لكلِّ واحد منهما الخيار في التراجع، فيقول البائع: لا أبيع، بعد أن قال: بعت، ويقول المشتري: لا أشتري، بعد أن يقول: اشتريت، ولكن قبل التفرق، فهذا حقٌّ لكلِّ منهما. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (البيعان بالخيار ما لم يتفرقا، أو قال: حتى يتفرقا - فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما، وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما)[3].

وأضاف رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث أنَّ كلًّا من البائع والمشتري يبارك لهما إذا كانا صادقين ناصحين لم يغش أحدهما الآخر.

- **الإقالة في البيع**: الإقالة في البيع أن يقبل البائع من المشتري الرجوع في شرائه، وذلك بعد أن تفرقا وبطل الخيار، والعكس صحيح، وهو أن يقبل المشتري من البائع الرجوع في بيعه فيرد عليه سلعته، وذلك بعد التفرق وبطلان الخيار. قال رسول الله صلى

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، ٣/ ٧٥، رقم ٢٠٧٦، كتاب البيوع، باب السهولة والسماح في الشراء والبيع.

(2) فتح الباري، ابن حجر ٤/ ٢٠٧.

(3) أخرجه البخاري في صحيحه، ٣/ ٧٦، رقم ٢٠٧٩، كتاب البيوع، باب إذا بين البيعان ولم يكتما، ونصحا، ومسلم في صحيحه، ٣/ ١١٦٣، رقم ١٥٣١، كتاب البيوع، واللفظ للبخاري.

الله عليه وسلم: (مَنْ أقال مسلمًا أقال الله عثرته)[1].

رابعًا: اليسر في قراءة القرآن:

لا يخفى على كلِّ قارئ تيسير الله حفظ كتابه وتيسير تلاوته، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧].

قال ابن كثير: «أي: سهلنا لفظه ويسرنا معناه لمن أراده ليتذكر الناس، كما قال: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص:٢٩]».

وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ﴾ [الدخان:٥٨]. قال مجاهد: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ يعني: هونا قراءته، وقال السدي: يسرنا تلاوته على الألسن، وقال الضحاك عن ابن عباس: لولا أن الله يسره على لسان الآدميين ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلام الله عز وجل.

قال ابن كثير: «ومن تيسيره تعالى على الناس تلاوة القرآن ما تقدم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرؤوا ما تيسر)»[2][3].

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه، ١١/ ٤٠٤، رقم ٥٠٢٩، والحاكم في المستدرك، ٢/ ٥٢، رقم ٢٢٩١.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، ٣/ ١٢٢، رقم ٢٤١٩، كتاب الخصومات، باب كلام الخصوم بعضهم في بعض، ومسلم في صحيحه، ١/ ٥٦٠ رقم ٨١٨، كتاب صلاة المسافرين.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٤٤٢.

اليسر في الجزاء

أولًا: اليسر في الجزاء الدنيوي:

سبق في يسر المعاملة ذكر التيسير على عباد الله فيما أعوزوا فيه، وهنا يذكر التيسير بمعنى الجزاء الدنيوي، وهو ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾[الإسراء:٢٨].

وقال جلَّ وعلا: ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ [الكهف:٨٨].

فقد أفادت هاتان الآيتان التيسير على عباد الله تعالى في الدنيا، وذلك بالقول والعمل.

قال ابن سعدي رحمه الله: «أي: وسنحسن إليه، ونلطف له بالقول، ونيسر له المعاملة، وهذا يدلُّ على كونه من الملوك الصالحين الأولياء، العادلين العالمين، حيث وافق مرضاة الله في معاملة كلِّ أحد، بما يليق بحاله»[(١)].

وهذا من اليسر في التعامل، وقد سبق. والله أعلم.

ثانيًا: اليسر في الآخرة:

الله سبحانه وتعالى كما أن الحساب يسير عليه، فهو ييسره أيضًا على المؤمنين ويجعله عسيرا على الكافرين، فقال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۝ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾[الانشقاق:٧].

وقال في شأن الكافر: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾[المدثر:١٠].

أثبت الله تعالى في آية المدثر العسر للكفار ونفى عنهم اليسر، وأثبت اليسر للمؤمنين في آية الانشقاق.

وقد جاء في صحيح البخاري ومسلم ما يبين كيفية تيسير الحساب على المؤمن، وذلك من حديث ابن أبي مليكة، (أن عائشة، زوج النبي صلى الله عليه وسلم: كانت لا تسمع شيئا لا تعرفه، إلا راجعت فيه حتى تعرفه، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من حوسب عذب) قالت عائشة: فقلت أوليس يقول الله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ قالت: فقال: (إنما ذلك العرض، ولكن: من نوقش الحساب يهلك)[(٢)].

وأما قوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾[المدثر:١٠].

فقد قال القرطبي رحمه الله تعالى: «أي: فذلك اليوم يوم شديد ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي:

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٤٨٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، ١/ ٣٢، رقم ١٠٣، كتاب فضل العلم، باب من سمع شيئا فلم يفهمه فراجع فيه، ومسلم في صحيحه، ٤/ ٢٢٠٤، رقم ٢٨٧٦، كتاب الجنة وصفاتها ونعيمها وأهلها.

على من كفر بالله وبأنبيائه صلى الله عليهم وسلم ﴿غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ أي: غير سهل ولا هين، وذلك أن عقدهم لا تنحل إلا إلى عقدة أشد منها، بخلاف المؤمنين الموحدين المنيبين فإنها تنحل إلى ما هو أخف منها حتى يدخلوا الجنة برحمة الله تعالى»[1].

والحمد لله على تيسير الأمور وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

موضوعات ذات صلة:

السماحة، العبادة، الغلو، الفقه

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ٧٠.

